

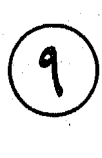
ول وايريل ديورانت

قيصر والمسيح
أو
الحضارة الرومانية

ترجمة
محمد بدران

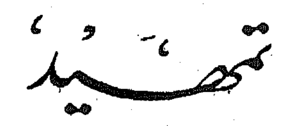
الجزء الأول من المجلد الثالث







تونس　　بيروت



هذا المجلد — وإن يكن وحدة مستقلة بذاتها — هو القسم الثالث من كتب تاريخ الحضارة التي كان المجلد الأول فيها تراث الشرق ، والمجلد الثاني حياة اليونان . وإذا سمحت لنا ظروف الحرب القائمة(*)، ووهبنا الله نعمة الصحة فسيكون المجلد الرابع وهو عصر الإيمان معداً للنشر في عام ١٩٥٠ . والخطة التي نسير عليها في هذا العمل هي الخطة التاريخية التركيبية ، التي تقتضي بدراسة النواحي الهامة في حياة الشعب وعمـــله وثقافته وتفاعلها وتأثير كل منها في الأخرى .

أما الطريقة التحليلية في كتابة التاريخ — وهي كذلك طريقة لا غنى عنها من الناحية العلمية ولا تقل الحاجة إليها عن الحاجة إلى الطريقة التركيبية — فهي التي تدرس ناحية واحدة من نواحي النشاط الإنساني — كالناحية السياسية أو الاقتصادية أو الخلقية أو الدينية أو العلمية أو الفلسفية أو الأدبية أو الفنية — في حضارة بعينها أو جميع حضارات العالم . وعيب هذه الطريقة التحليلية أنها تفصل جزءاً من كل فصلا يشوهه . أما عيب الطريقة التركيبية فهو أنها ، إذ تتطلب من عقل واحد أن يعتمد على معرفته الشخصية في حديثه عن كل ناحية من نواحي إحدى المدنيات المعقـــدة التي تمتد آلاف السنين ، إنما تطلب المستحيل . وليس في وسع من يتصدى إلى هذا العمل أن يتجنب الأخطاء في الدقائق والتفاصيل، ولكن العقل الهائم بحب الفلسفة — وهي إدراك الأشياء عن طريق علاقاتها بعضها ببعض — هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها عقل لا يقدر بغير هذه الطريقة أن يقنع بسبر أغوار الماضي . إن في وسعنا أن نطلب

(*) ظهرت الطبعة الأولى من هـــذا المجلد في عام ١٩٤٤ ونار الحرب العالمية الثانية مشتعلة .   (المترجم)

للفلسفة عن طريق العلم ، وذلك بدراسة ما بين الأشياء من علاقات فى المكان ، أو أن نطلبها عن طريق التاريخ بدراسة ما بين الحوادث من صلات فى الزمان ؛ وفى مقدورنا أن نعرف عن طبيعة الإنسان بدراسة سلوكه وأعماله فى خلال ستين قرناً من الزمان أكثر مما نعرفه عنها بقراءة مؤلفات أفلاطون وأرسطو ، وسبنوزا وكانت . وما أصدق قول نتشة فى المغنى : « ما أضيع الفلسفة كلها أمام التاريخ فى هذه الأيام(*) » .

وإن دراسة الماضى لتعد بحق عديمة النفع إذا لم يجعل هذا الماضى مسرحية حية ، أو إذا لم تضئ لنا دراسته ظلمات حياتنا الحاضرة . أليس قيام مدينة رومة وارتقاؤها من بلدة صغيرة فى مفترق الطرق حتى سادت العالم المعروف وقتئذ ، وما أسبغته من أمن وسلام على رقعة واسعة من الأرض تمتد من جزيرة القرم إلى مضيق جبل طارق ، ومن نهر الفرات إلى سور هدريان ، وما نشرته من أصول الحضارة القديمة فى عالم البحر الأبيض المتوسط وفى غرب أوربا ، وما قامت به من كفاح للاحتفاظ بملكها المنظم من أن تطغى عليه بحار الهمجية التى تكتنفه من كل جوانبه ، ثم تصدعها الطويل البطىء ، وانهيارها آخر الأمر ، وترديها المشئوم فى ظلمات الجهالة والفوضى ، أليس هذا كله أعظم مسرحية مثلها الإنسان ، اللهم إلا إذا ظننا أن أعظم منها وأكثر روعة تلك المسرحية الأخرى التى بدأت حين وقف قيصر والمسيح وجهاً لوجه فى ساحة بيلاميت pilate والتى دامت حتى أضحت حفنة من المسيحيين المضطهدين المطاردين بما أوتيت من صبر وجلد وما قاست من اضطهاد وما حل بها من رعب وهول ، نقول حتى أضحت هذه الحفنة من المسيحيين فى بداية الأمر حليفة لأعظم إمبراطورية فى التاريخ ، ثم سيدتها ، ثم وريثتها بعد تصرم أجلها

(*) **Human, All Too Human** الترجمة الإنجليزية طبعة نيويورك سنة ١٩١١ المجلد الثانى ص ١٧ .

ولكن لهذه المسرحية الكبيرة بالنسبة لنا معنى أعظم مما يبدو بالنظر إلى فخامتها وطول زمانها واتساع المسرح الذى تمثل عليه : ذلك أنها تشبه شبهاً عجيباً عظيم الدلالة حضارة هذه الأيام ، والمشاكل القائمة فيها ، وتلقى عليها ضوءاً ينذرنا بسوء المصير . وهذا هو ما نفيده من دراسة حضارة من الحضارات دراسة تشمل جميع نواحيها وأدوار حياتها — فى وسعنا بهذه الدراسة الشاملة أن نوازن كل مرحلة من مراحلها وكل ناحية من نواحيها بما يقابلها من مراحل وعناصر فى مجرى ثقافتنا نحن ، فنتخذ من هذه الموازنة ، وبما أعقب المراحل الماضية الشبيهة بمرحلتنا الحاضرة ، عظة لنا تبعث فينا الحذر أو الإقدام ؛ وما أشبه الكفاح الذى قام بين الحضارة الرومانية والهمجية فى داخل الإمبراطورية وخارجها بالكفاح القائم فى العالم فى هذه الأيام . وفى مشاكل رومة البيولوجية وانحلالها الخلقى معالم تهدينا نحن سواء السبيل ؛ وإن الصراع الطائفى الذى قام بين ولدى جراكس The Cracchi وبين مجلس الشيوخ ثم بين ماريوس وسلا Marius & Sulla ، وبين قيصر وبمپى ؛ وبين أنطونيوس وأكتاڤيان لهو عين الصراع القائم بيننا فى هذه الأيام ، والذى لا تكاد تخبو ناره حتى تشتعل من جديد ، فتلتهم فترات السلم التهاماً ؛ وإن فيما كانت تبذله شعوب البحر الأبيض المتوسط من جهود المستيئس لتحتفظ لنفسها بقبس من ضياء الحرية تنتزعه من تلك الدولة الطاغية لنذيراً بما ينتظرنا نحن من واجب ثقيل .

وإن قصة رومة لهى فى واقع الأمر قصتنا نحن .

المدخل

أصل الرومان

الباب الأول

ديباجة فى التسكان

٨٠٠ – ٥٠٨ ق . م

الفصل الأول

إيطاليـــا

ليتصور القارئ فى خياله صورة ضياع ساكنة فى أودية الجبال ، ومروج فسيحة على منحدراتها ، وبحيرات معلقة فى وهاد التلال ، وحقول خضراء أو صفراء تمتد إلى شُطئان البحار الزرقاء ، وقرى وبلدان يخيم السكون والخمول حين تسطع عليها شمس الظهيرة ، فإذا مالت نحو المغيب انتعشت وسرت فيها الحيــاة ، ومدن تحيط بها الأتربة والأقذار ولكن كل ما فيها جميل من أصغر الأكواخ إلى أفخم الكنائس الكبرى – لقد كانت هذه هى صورة إيطاليا منـــذ ألفى عام ؛ ولا تزال هى صورتها فى هذه الأيام . وقد تحدث بلنى Pliny الأكبر عن بلاده[1] فقال عنها : « ليس على ظهر الأرض أو تحت قبة السماء بلاد تماثلها فى جمالها وروعة مناظرها » ؛ وأنشد فيها فرجيل يقول : « هنا الربيع الدائم والصيف حتى فى غير أشهره ؛ هنا تلد الأنعام مرتين فى العام ، وتثمر الأشجـــار مرتين[2] » . ولقد كانت أشجاره الورد فى پيستم Paestum تزهر فى الســـنة مرتين وكانت فى شمال البلاد سهولة خصـــبة كثيرة كسهولة منتوا Mantua

« يَطعم التِّم(*) من مجاريها المعشوشبة »(٣) . وتمتد فى شبه الجزيرة العظيمة سلسلة جبال الأپنين امتداد العمود الفقرى فى جسم الإنسان ، فيتقى بها شاطئ البلاد الغربى الرياح الشمالية الشرقية الباردة وتنبع منها أنهار تروى الأرض بمائها وتنحدر مسرعة لتصبه فى خلجان البحر ذات المنظر الخلاب . وتقوم جبال الألب فى الشمال لتصد عن البلاد المغيرين ، أما فى سائر أطراف البلاد فإن أمواج البحر الصاخبة تتلاطم بشطئان كثير منها وعر قائم صعب المرتقى . لقد كانت هذه البلاد فى تاريخها القديم خليقة بأن تجزى أهلها المجدين خير الجزاء وأوفاه ، وكانت ذات موقع حربى هام فى حوض البحر الأبيض المتوسط يمكنها من السيطرة على العالم القديم .

وكانت جبالها مصدر كوارثها كما كانت مصدر جمالها وروعتها ، ذلك أن الزلازل والثورات البركانية كانت من حين إلى حين تبتلع جهود الأجيال المتعددة وتطمرها فى أطباق الرماد أو تحرقها بحمم البراكين ، ولكن الموت كان فى هذه البلاد ، كما هو فى معظم بلاد العالم ، مصدراً للحياة ونعمة من أنعمها . ذلك أن الحمم المختلطة بالمواد العضوية كانت مورداً لإخصاب التربة لا ينضب له على مدى الأيام معين(٤) . لقد كانت بعض الأرضين منحدرة وعرة لا تصلح للزراعة ، وكان بعضها الآخر مناقع تنتشر منها حمى الملاريا ؛ ولكن الكثير منها قد بلغ من خصب التربة ما جعل پوليبيوس Polybius يعجب من وفرة الطعام وقلة ثمنه فى إيطاليا القديمة(٥) ، ويقول إن فى وسع الإنسان أن يدرك مقدار ما تخرجه من الغلات ونوعها حين يشاهد نشاط أهلها وقوتهم وشجاعتهم . ويظن ألفيرى Alfieri أن « الشجرة — الآدمية » تنتعش فى إيطاليا خيراً مما تنتعش فى سائر بلاد العالم(٦) . بل إن الطالب الهياب فى هذه الأيام نفسها ليعتريه بعض الوجل

(*) هكذا يسميه الدميرى وهو الذى يسميه العامة فى مصر بالأوز العراقى Olor واسمه العلمى Cygnum. (المترجم) .

من هوة مشاعر ذلك الشعب المدهش الخلاب — من عضـلاته المفتولة ، ومن سرعة حبه وغضبه ، ومن عيونه الكتومة أو البراقة الملتهبة ؛ وإن الكبرياء والحميا اللذين كانا منشأ عظمة إيطاليا ، واللذين قطعا أوصالها فى أيام ماريوس Marius وقيصر Caesar وفى عصر النهضة الأوربية ، لا يزالان يجريان حتى الآن فى الدم الإيطالى فى انتظار قضية عادلة أو حجة أطلية . والرجال كلهم إلا القليل النادر منهم مكتملو الرجولة وسيمو الخلق ، والنساء كلهن تقريباً حسان ، يمتزن بالقوة والشجاعة . وهل فى العالم بلاد أنجبت من العباقرة مثل ما أنجبت الأمهات الإيطاليات طوال الثلاثين قرناً التى يشملها تاريخ تلك البلاد ؟ وهل فى العالم بلاد غير إيطاليا كانت قطب رحى التاريخ — فى نظم الحـكم أولا ثم فى الدين ، ثم فى الفن ؟ لقد ظلت رومه مدى سبعة عشر قرناً — من كاتو الرقيب Cato Censor إلى ميكل أنجلو مركز العالم الغربى .

أما أصل الإيطاليين فيقول عنه أرسطو : « يقول أصدق الناس حكماً فى هذا البلد إنه لما أصبح إيطالس Italus ملك أنتريا Oenotria بدّل أهل البلاد اسمهم فلم يعودوا يسمون أنفسهم أنتوريين بل تسموا إيطاليين»(٧) ، ولقد كانت أنتريا هى مكان الإصبع الكبرى فى الحذاء الإيطالى ، ومعنى هذا اللفظ هو « أرض النبيذ » لكثرة ما كان فيها من الكروم . ويقول توكيديدس Thucydides إن إيطالس هذا كان ملك الصقليين الذين احتلوا أنتريا فى طريقهم لاحتلال جزيرة صقلية وتسميتها بهذا الاسم(٨) . وكما أن الرومان قد أطلقوا على الهلينيين جميعاً اسم الأغارقة ، وهو اسم جماعة قليلة هاجرت من شمال أتيكا Attica إلى نابلى ، فكذلك توسع الإغريق فى معنى إيطاليا حتى شمل هذا الاسم جميع أرض شبه الجزيرة من جنوب نهر البو Po إلى أقصى طرفها الجنوبى .

وما من شك فى أن فصولا كثيرة من تاريخ إيطاليا لا تزال مطمورة فى أطباق ثراها المزدحم بالأهلين ، ويدل ما كشف فيها من آثار ثقافة العصر

الحجرى القديم على أن سهولها كانت عامرة بالسكان قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام على أقل تقدير . ثم ظهرت فيها ثقافة تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث بين عامى ١٠,٠٠٠ ، ٦٠٠٠ قبل الميلاد : وكان أصحاب هذه الحضارة أقواماً طوال الرؤوس تسميهم الروايات القديمة لجورى Liguri أو صقلى Siceli ، وكانوا يصنعون الفخار الساذج الخشن ويزينونه بنقوش مؤلفة من خطوط . كذلك كان هؤلاء الأقوام يصنعون أدوات وأسلحة من الحجارة المصقولة ويؤنسون الحيوان ويصيدونه هو والسمك ، ويدفنون موتاهم . ومنهم من كانوا يسكنون الكهوف ، ومنهم آخرون يسكنون أكواخاً من القش والطين . ومن هذه الأكواخ الأسطوانية تدرج فن العمارة تدرجاً مستمراً حتى وصل إلى « بيت رميولوس Romulus » المستدير القائم على البلاتين Palatine وإلى هيكل فستا Yesta فى السوق العامة Forum وقبر هدريان Hadrian الفخم .

وغزت قبائل من أوربا الوسطى شمالى إيطاليا حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م ولعل هذا الغزو لم يكن الأول من نوعه . وقد أدخلوا فى البلاد عادة إقامة المبانى على قوائم خشبية فى الماء ليتقوا هجمات الوحوش والآدميين ، واستقر هؤلاء الغزاة فى بحيرات جاردا Garda ، وكومو Como ، ومجيورى Meggiore وغيرها من البحيرات الساحرة التى لا تزال تغرى الأجانب بالذهاب إلى إيطاليا ؛ ثم نزحوا فيما بعد إلى جنوب البلاد ، فلما لم يجدوا فيها من البحيرات الكثيرة ما كانوا يجدونه فى الشمال ، أقاموا مساكنهم على الأرض اليابسة ، ولكنهم رفعوها أيضاً على أسس من القوائم الخشبية . وكان من عادتهم أن يحيطوا هذه المساكن بالأسوار والخنادق ، وقد انتقلت هذه العادة إلى غير إيطاليا وأضحت من المظاهر المألوفة فى المعسكرات الرومانية وفى قصور العصور الوسطى . وكانوا يشتغلون برعى الماشية والضأن ، وفلاحة الأرض ، وصناعة النسيج ، وحرق الفخار ، وصناعة العدد الجم من الآلات والأسلحة البرنزية ، ومنها الأمشاط ومشابك الشعر

والأمواس والملاقط وغيرها من الأدوات التي لا يكاد الإنسان يصدق أنها ظهرت فى ذلك العهد البعيد . وكان البرنز قد ظهر فى إيطاليا فى أواخر أيام العصر الحجرى الحديث (حوالى ٢٥٠٠ ق . م)(٩) . وكانوا يتركون فضلات منازلهم تتراكم حول قراهم ، وبلغ من كثرتها أن أطلق على ثقافتهم اسم ثقافة ترامار Terramare – أى النمط(*) الأرضى – وهى نفايات غنية بالعناصر المخصبة . ومبلغ علمنا أن هؤلاء الأقوام هم الأسلاف الأقربون للكثرة العظمى من سكان إيطاليا فى العصور التاريخية .

وأخذ المقيمون فى وادى البو من أبناء أهل هذه الأنماط استخدام الحديد عن ألمانيا ، وصنعوا منه أدوات خيراً من أدواتهم السابقة ، واستعانوا بها على نشر ثقافتهم الفلانوفية من مركزها فى فلانوفا Vilanova القريبة من مدينة بولونيا Bologna إلى أقاصى جنوب إيطاليا . ومن حقنا أن نعتقد أن دماء الأمبريين Umbrians والسبيين Sabines واللاتين Latins ولغاتهم ، وأهم فنونهم ، كلها مستمدة من هؤلاء الأقوام : ثم حدثت هجرة أخرى جديدة حوالى عام ٨٠٠ ق . م أخضع أصحابها الفلانوفيين وأنشأوا بين نهر التيبر وجبال الألب أعجب حضارة فى سجلات الجنس البشرى .

(*) النمط الطين الرقيق أو العجين، وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة Marl الانجليزية . (المترجم)

الفصل الثاني

الحياة التسكانية

يكتنف تاريخ التسكان غموض شديد يضايق المؤرخ أشد الضيق . لقد حكم هؤلاء الأقوام مدينة رومة مائة عام أو أكثر من مائة ، وخلفوا في أنماط الحياة الرومانية آثاراً تجعل فهم هذه الحياة وفهم تاريخ رومة متعذرين دون دراسة تاريخهم . ولكن الآداب الرومانية رغم هذه الآثار قد أغفلت ذكرهم كما تغفل المرأة النصف الجهر بأنها جاوزت سن الشباب . ومع ذلك فإن الحضارة الإيطالية ، أو ما سجل منها ، تبدأ من أيامهم ؛ فقد وجد مختلطاً بمخلفاتهم نحو ثمانية آلاف نقش وكثير من أعمال الفن ، كما وجدت شواهد على أدب ضائع يشمل الشعر والمسرحيات وكتب التاريخ [10]. غير أن لغتهم لم يحل من رموزها إلا عدد قليل من الألفاظ لا غناء فيه ، ولا يزال العلماء الآن حيارى أمام ما يكتنف هذه المعضلة التسكانية من غموض أشد مما كان يكتنف تاريخ مصر الفرعونية قبل شمبليون .

ومن أجل هذا لا يزال الجدل يثور حول التسكانيين : من هم ؟ ومن أين جاءوا إلى إيطاليا؟ ومتى جاءوا إليها ؟ ولعل الباحثين قد عجلوا بنبذ الروايات القديمة أسرع مما ينبغي ، ذلك أن المتحذلقين مولعون على الدوم بتفنيد ما يقبله الناس من الآراء ، ويسوءهم ما يبقى في عقولهم منها . ولقد كان معظم المؤرخين اليونان والرومان يرون أن من القضايا التي لا تحتاج إلى برهان أن التسكانيين قد جاءوا من آسية الصغرى [11] . والحق أن في دينهم ، وثيابهم ، وفنهم ، شواهد كثيرة توحي بأصلهم الأسيوي ، وإن كان فيها أيضاً عناصر كثيرة يلوح أنها من أصل إيطالي . وأغلب الظن أن حضارة إتروريا **Etruria** قد نشأت من الثقافة

الڤلانوڤية Villanovan وأنها تأثرت من الناحية التجارية بحضارات اليونان والشرق الأدنى ، وأن التسكانيين أنفسهم ، كما كانوا هم يعتقدون ، قد غزوا البلاد من آسية الصغرى ؛ والراجح أنهم جاءوا من بلاد ليديا Lydia ومهما يكن أصلهم فإن تفوقهم فى التقتيل قد جعلهم هم الطبقة الحاكمة فى تسكانيا .

ولسنا نعرف المكان الذى رسوا فيه حين قدموا بحراً إلى إيطاليا ، ولكننا نعرف أنهم شادوا أو فتحوا أو وسعوا مدناً كثيرة — مدناً لا قرى من القش والطين كما كانت الحال قبل مجيئهم ، بل بلاداً مسورة ذات شوارع منظمة على قواعد هندسية وبيوتاً غير مقامة من اللبن فحسب ، بل مقامة كثرتها من الآجر المحروق أو الحجارة . ثم ارتبطت اثنتا عشرة محلة من هذه المحلات فتكون منها اتحاد غير وثيق تسيطر عليه تاركوناى Tarquinii (المعروفة حتى هذه الأيام باسم كرنيتو Corneto) ، وأرتيوم Arretium (أرزو Arezzo) ،وپروزيا Perusia (بروجيا Perugia) ، وڤياى Veii (ايولا فارنيزى Iola Farnese(*)) .

وتضافرت فى هذه البلاد صعاب النقل فى الجبال والغابات مع التحاسد والتنافر المتأصلين فى الطبيعة البشرية ، كما تضافرا فى بلاد اليونان، على إنشاء دويلات من مدن مستقلة ، إذا اتحدت لصد غارات أعدائها اعتزت كل منها بسلالتها منفردة عن غيرها ؛ وكثيراً ما كانت تقف لتشاهد العدو الخارجي يغير على أخواتها حتى خضعت كلها لرومة واحدة فى إثر واحدة . ولكن هذه المدن المتحالفة ظلت طوال القرن السادس قبل الميلاد أقوى سلطة سياسية فى إيطاليا، وكان لها جيش حسن التنظيم ، به فرق من الفرسان ذائعة الصيت ، وأسطول بحرى كان فى وقت من الأوقات هو المسيطر على البحر الذى لا يزال إلى اليوم يسمى

(*) هذه هى الأسماء الرومانية ، أما الأسماء التسكانية فغير معروفة .

البحر الترهيني (أو البحر الإتروري أي التسكاني[*] .

وقد بدأ الحكم في المدن التسكانية كما بدأ في رومة بالنظام الملكي ، ثم صار حكماً أَلجركيا تقوم به « الأسر الأولى » ، ثم تخلى هذا الحكم تدريجاً للأسر ذات الأملاك عن حق اختيار الحكام الذين كانوا يبدلون في كل عام . وفي وسعنا أن نستدل مما على قبور الأهلين من رسوم ملونة ونقوش محفورة على أن هذا النظام كان نظاماً إقطاعياً خالصاً يمتلك فيه الأعيان الأرض ويستمتعون بما يخرجه الأقنان والأرقاء الفلانو فيون بكدحهم من خيرات ، بعد أن يتركوا لهم حاجتهم منها . وقد أصلحت أرض تسكانيا في عهد هذا النظام ، فجففت مستنقعاتها وقطعت غاباتها ، وأنشئ في قراها نظام للري ، وفي مدنها نظام للمجاري لم يكشف حتى الآن عما يماثله في بلاد اليونان في ذلك العهد نفسه . وقد أنشأ المهندسون التسكانيون مجاري تحت الأرض يسير فيها ما زاد من مياه البحيرات ، وطرقاً في الصخور والتلال[١٢] . ونرى العمال التسكانيين في ذلك العهد البعيد وهو عام ٧٠٠ ق . م يستخرجون النحاس من شاطئ إيطاليا الغربي ، والحديد من جزيرة إلبا Elba ، ونرى الحديد الغفل يصهر في پپولونيا Populonia ، والحديد المطاوع يباع في جميع أنحاء إيطاليا[١٣] ، وكان التجار التسكانيون يتجرون مع جميع البلاد الواقعة على شاطئ البحر الترهاني ويأتون بالكهرمان والقصدير والرصاص والحديد من بلاد أوربا الشمالية ، وينقلونها في نهري الرين والرون وفوق جبال الألب ، ويبيعون المنتجات التسكانية في جميع ثغور البحر الأبيض المتوسط الكبرى . وما وافى عام ٥٠٠ ق . م أو نحوه حتى أصدرت المدن التسكانية الكبرى عملة خاصة بها .

(*) كان اليونان يسمون الإترسكيين Etruscans الترهيني Tyrrheni والترسيني Tyrseni . أما الرومان فكانوا يسمونهم الإترسكي Etrusci أو التسكي Tusci . ولعل الاسم اليوناني مأخوذ كما أخذ لفظ Tyrant من كلمة ترها Tyrrha وهي اسم غابة في ليديا . والراجح أن كلمة Tower (البرج) مشتقة هي الأخرى من هذا الأصل .

وتمثل الرسوم التى نراها على القبور هؤلاء الأقوام فى صورة خلائق قصار القامات ، ممتلئى الأجسام ، كبار الرؤوس ، لا يكاد يوجد فرق بين ملامحهم وملامح أهل الأناضول ، موردى البشرة وخاصة نساءهم ؛ وإن تكن الأصباغ الحمراء قديمة قدم الحضارة ذاتها[١٤] ؛ واشتهرت نساؤهم بجمالهن[١٥] . وتلمح فى وجوه بعض الرجال الرقة والنبل . وكانت الحضارة فى ذلك العهد قد بلغت من الرقى مرحلة الخطر كما نستدل مما عثر عليه فى قبورهم من قناطر للأسنان الصناعية[١٦] ؛ وقد انتقل إليهم طب الأسنان ، كما انتقل الطب والجراحة ، من بلاد مصر واليونان[١٧] . وكانوا جميعاً رجالا ونساء يطيلون شعر الرأس ؛ وكان رجالهم يرسلون لحاهم . أما ثيابهم فكانت على الطراز الأيونى Ionian تتكون من قميص داخلى ومئزر خارجى هو الذى تطور حتى أصبح الكساء الرومانى المعروف باسم التوجا Toga . وكان الرجال والنساء على السواء مولعين بالتزين ، وقد عثر المنقبون فى قبورهم على كثير من الحلى .

وإذا كان لنا أن نحكم على التسكانيين من الصور المرحة التى نراها على قبورهم ، قلنا إن حياة هؤلاء الأقوام كان فيها مشاق الحرب ، ونعيم الترف ، وبهجة الأعياد والألعاب . فكان الرجال يشنون الحرب العوان ، ويمارسون ضروباً من ألعاب الرجولة ، ويصيدون الحيوان ، ويصارعون الثيران فى المجتلد ، ويسوقون بأنفسهم عرباتهم فى الطرق الخطرة ، وكانت تجرها فى بعض الأحيان أربعة جياد تسير فى صف . وكانوا يتبارون فى رمى القرص والحربة ، والقفز من فوق الأعمدة ، والسباق والمصاعة والملاكمة والمجالدة . وكانت هذه الألعاب تمتاز بقسوتها ، لأن التسكان كالرومان كانوا يرون أن من الخطر أن يتركوا الحضارة تبتعد كثيراً عن الوحشية . وكان قليلو الشجاعة منهم يتبارون فى رفع الأثقال ، ولعب النرد ، والنفخ فى الناى ،

والرقص . وتتخلل الرسوم التى فى القبور مناظر من مرح الشراب تزيل ما يخيم عليها من كآبة ، وهي فى بعض الأحيان مقصورة على الرجال دون النساء ، يتحدثون فيها عن الخمر ، وفى بعضها الآخر يختلط الرجال بالنساء، وهم جميعاً يلبسون أحسن الثياب ويتكئون مثنى مثنى على أرائك وثيرة ، يأكون ويشربون ، ويقوم على خدمتهم العبيد ، وتسليهم الراقصات والمغنيات[18]، وتزدان الوليمة أحياناً بمناظر يحتضن فيها الرجال النساء .

وأكبر الظن أن السيدة التى تُحتضن وقتئذ من الحظايا الشبيهات بحظايا اليونان (الهيتيريا) Hetaira . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله الرومان فإن فتيات تسكانيا كان يسمح لهن بالحصول على بائنتهن عن طريق الدعارة ، شأنهن فى هذا شأن فتيات آسية اليونانية ، وفتيات السموراى اليابانيات[19]. وشاهد ذلك أنا نرى شخصية فى إحدى مسرحيات بلوتس Plautus تتهم فتاة تسعى للحصول على بائنة زواجها بامتهان جسمها على الطريقة التسكانية[20] . ولكن النساء مع ذلك كانت لهن منزلة علية فى إتروريا ، وتمثلهن الرسوم تمثيل من لهن مقام عال فى جميع مناحى الحياة ، وكان الأبناء ينتسبون إلى أمهاتهم ، وفى ذلك أيضاً ما يوحى بأن القوم من أصل أسيوى[21]. ولم يكن التعليم عندهم مقصوراً على الرجال ، وشاهد ذلك أن تناكويل Tanaquil زوجة تاركون الأول Tarquin قد برعت فى العلوم الرياضية والطب براعتها فى تدبير الدسائس السياسية[22] . ويقول المؤرخ اليونانى ثيوبمبس Theopompus إن النساء فى إترووريا كن ملكا مشاعا[23] . ولكنا لا نجد فيما وصل إلينا من المعلومات ما يثبت وجود هذه الطوبى الأفلاطونية ، بل إن كثيراً من الصور تمثل مناظر الروابط الزوجية ، والحياة العائلية ، والأطفال يسرحون ويمرحون حول أبويهم وهم سواء فى سذاجتهم وجهلهم .

وكان فى الدين كل البواعث التى تدعو إلى كبح الشهوات ، فقد خلع التسكانيون على آلهتهم كل الصفات التى تبعث الرهبة فى القلوب وتكبح جماح الفتيان والفتيات ، وتخفف أعباء الآباء والأمهات . وكان أعظم الآلهة هو تينيا Tinia المتصرف فى الرعد والبرق . وكان من حوله جماعة من الأرباب يأتمرون بأمره ، لا تأخذهم فى ذلك رأفة ، وهم الأرباب الإثنا عشر ، وقد بلغوا من العظمة حداً يجعل مجرد ذكر أسمائهم جريمة لا تغتفر ، ولهذا نستميح القارئ عذراً إذا أغفلنا نحن ذكر هذه الأسماء .

وكان أشد هؤلاء الأرباب رهبة هما منتوس Mantaus مانيا Mania سيد العالم السفلى وسيدته . وكان لكليهما حشد عظيم من الشياطين المجنحين يأتمرون بأمرهما . وكان أشد الأرباب غضباً لاسا Lasa ومين Mean إلهة الأقدار التى تمسك بيدها سيفاً أو أفعى تلوح بهما ، وتتسلح بقلم ومداد تستخدمها فى الكتابة ، وبمطرقة ومسامير تدق بها أوامرها التى لا تتحول عنها . وأظرف من هذه الأرباب معبودو البيت ومعبوداته ، وكانت فى صورة تماثيل صغيرة توضع على المدافئ وتمثل أرواح الحقول والدور .

ولعل العلم المقدس ، علم معرفة الغيب بدراسة أكباد الضأن أو طيران الطير ، قد جاء إلى التسكانيين من أرض بابل . ولكن الرواية التسكانية تقول إن الذى كشف لهم عن هذا العلم غلام مقدس هو حفيد تينيا ، وقد خرج إلى الحياة من أخدود محراث ، وفاه ساعته بحكمة الحكماء . وكانت الطقوس التسكانية تنتهى إلى التضحية بالضأن والثيران والآدميين . فكان الضحايا من بنى الإنسان يذبحون أو يدخنون أحياء فى مياتم العظماء . وكان أسرى الحرب يذبحون أحياناً طلباً لرضا الآلهة ، ولهذا السبب رجم الفوقيون Phoceaxs فى الاليا Alalia عام ٥٣٥ ق . م فى سوق كايرى Caere العامة ، وضحى بنحو ثلثمائة من الرومانيين فى عام ٣٥٨ ق م

فى تاركويناى ، ويلوح أن للتسكانى كان يعتقد أن فى وسعه أن يطلق روحا من الجحيم نظير كل رجل يقتله من أعدائه[24] .

وكان أهم مظاهر الدين التسكانى هو الإيمان بوجود الجحيم فى الدار الآخرة ؛ فقد كانت روح الميت ، كما نراها فى الصور والنقوش التى على القبور ، يسير بها الجن إلى محكمة الدار الآخرة ، حيث تتاح لها الفرصة فى يوم الحساب الأخير للدفاع عن أعمالها فى الحياة الدنيا . فإذا عجزت عن تبرير هذه الأعمال حكم عليها بضروب مختلفة من التعذيب ، كان لها بلا ريب أثر فى شعر ڤرچيل Virgil (المستمد من قصص منتوا التسكانية) وفى فكرة المسيحيين عن الجحيم ، وفى حجيم دانتى Dante's Inferno التسكانى الذى سرت إليه عن طريق هؤلاء المسيحيين من خلال عشرين قرناً من الزمان ، وكان الأرباب بمنجاة من هذا التعذيب ، كما كان فى وسع الأحياء من أصدقاء الموتى المعذبين أن يقصروا أمد عذابهم بما يقدمون من الأدعية والقرابين . فإذا نجحت الروح من هذا العذاب انتقلت من العالم السفلى إلى صحبة الآلهة الأعلين لتستمتع معهم بالولائم ومظاهر الترف والسلطان التى صورتها آمال الأحياء على القبور .

وكان التسكانيون يدفنون موتاهم فى الأحوال العادية ، وكان الموسرون منهم يوضعون فى توابيت الطين المحروق أو الحجارة حفرت على السطوح العليا أغطيتها صور أشخاص متكئين ، يشبه بعضهم الموتى الذين كانوا فى التوابيت ، ويشبه بعضهم الصورة اليونانية الباسمة التى كان اليونان الأقدمون يصورون بها أپلو Apollo ؛ ولقد كان لهذه الصور أيضاً أثرها فى فن العصور الوسطى . وكان الموتى فى بعض الأحيان يحرقون ، ويوضع رمادهم فى أوعية تزين أحيانا بصور الأموات . وكان الوعاء أو القبر فى بعض الأحيان فى صورة البيت ، وفى بعضها الآخر كان القبر المنحوت فى الصخر يقسم إلى حجرات ، ويهيأ لحياة الميت

فى الدار الآخرة بالأثاث والآنية والمزهريات ، والملابس ، والأسلحة ، والمرايا وأصباغ الزينة والجواهر ، وقد عثر فى قبر فى كارى Caere على هيكل رجل محارب راقد على سرير من البرنز كامل الشكل ، وإلى جانبه أسلحته وعجلته الحربية ، ووجدت فى حجرة خلف حجرة هذا الميت حلى وجواهر لسيدة لعلها زوجته وقد اكتسى التراب — الذى كان فى يوم من الأيام جسمها المحبوب — بثياب عرسها[٢٥] .

الفصل الثالث

الفن التسكانى

يكاد الفن التسكانى أن يكون وحده كل ما نعرف عن تاريخ التسكانيين ، فنى وسعنا أن نتتبع فيه آداب الشعب وأخلاقه ، وما كان للدين والطبقات من سلطان ، وما كان لصلاته بآسية الصغرى ومصر وبلاد اليونان ورومة من أثر فى تبدل أحوال هذا الشعب الاقتصادية والثقافية . لقد كان هذا الفن شديد التقيد بالعرف والتقاليد الدينية ، وإن كانت المهارة الفنية قد أكسبته الكثير من الحرية ؛ وكان يكشف عن حضارة وحشية مظلمة ، ولكنه يعبر عنها فى قوة ؛ وقد حدد أشكالَه الأولى وأنماطَه الفنُّ الشرقى ـ الأيونى ، والقبرصى ، والمصرى ، وسيطرت النماذج اليونانية على نحته وخزفه . وأما فى العمارة والتصوير فإن الفن التسكانى كان تسكانياً خالصاً فذاً فى نوعه .

ولا يتعدى ما بقى من آثار فن العمارة التسكانية بضع قطع قليلة مبعثرة وبعض القبور ؛ ولا تزال أجزاء من أسوار المدن الإترورية قائمة حتى اليوم ـ وهى مبان ثقيلة خالية من الملاط ولكنها شديدة التماسك قوية . وتدل بيوت أغنياء التسكانيين على ما كانت عليه أشكال البيوت الإيطالية فى العهد القديم : فقد كان الواحد منها يتكون من سور خارجى يحجب سكان البيت عن أعين من فى خارجه ، ومن إيوان أو حجرة استقبال فى وسطه ، وفى سقف الإيوان فتحة ينزل منها المطر إلى صهريج فى أسفل البيت ؛ ومن حول الإيوان طائفة من الحجرات الصغيرة يواجهها فى أغلب الأحيان مدخل ذو عمد . وقد وصف ڤتروفيوس Vitruvius المهندس والبناء هياكل التسكانيين وصفاً ينطبق فى بعض الأحيان على قبورهم أيضاً ويستفاد من هذا الوصف أن الهياكل كانت فى جوهرها تتبع

الطرز اليونانية ، غير أن « الطراز التسكانى » قد أدخل بعض التعديل على الطراز الدورى ، بأن ترك العمد خالية من الحزوز ، وأقامها على قواعد ، وجعل نسبة الطول إلى العرض فى جسم المعبد كنسبة ٦ : ٥ بدل النسبة الأتيكية Attic الرشيقة وهى ٦ : ٣ . وفى وسعنا أن نصف الهيكل التسكانى وصفاً موجزاً بقولنا إنه يتكون من بناء رئيسى من الآجر ورواق من الحجارة ، ومن عوارض فوق العمد ومقصات من الخشب ، ومن نقوش وحلى من الطين المحروق ؛ ويقوم البناء كله على قاعدة متصلة أو ربوة ، ويطلى بالألوان الزاهية من داخله وخارجه . وكذلك نستطيع أن نقول على قدر ما وصل إليه علمنا بتاريخ التسكانيين إنهم أدخلوا فى إيطاليا العقود والقباب فى الأبنية المقامة لغير الأغراض الدينية — كأبواب المدن، وأسوارها، ومجارى المياه ومصارفها . ويلوح أنهم جاءوا بهذه الأشكال الفخمة من بلاد ليديا Lydia ، وكانت هذه قد أخذتها عن بلاد بابل(*) ، ولكنهم لم يتبعوا تلك الطريقة البديعة طريقة تغطية مساحات واسعة من الأراضى بالأبنية الخالية من العمد والعوارض الكثيرة المختلطة المقبضة المملة . وقد ظلوا فى معظم الأحوال يتبعون الأساليب التى هيأها لهم اليونان ، وتركوا إلى رومة أن ترتفع بالأقواس والمنحنيات إلى ذروة الكمال فتحدث بذلك انقلاباً عظيما فى فن العمارة .

والخزف أشهر ما أخرجته بلاد إترووريا ، تزدحم به كثير من متاحف العالم وإن كان من يطوف بهذه المتاحف لا يرى فى هذا الخزف من الكمال ما يبرر أن تحشد هذه الكميات الكبيرة منه . فالمزهريات التسكانية ، إذا لم تكن منقولة عن الأنماط اليونانية ، لا ترتفع فوق الدرجة الوسطى فى تصميمها ، وهى فخمة خشنة فى صنعها ، وبدائية همجية فى زينتها . وليس ثمة فن من

(*) وكانت تستخدم فى المقابر والهياكل المصرية وفى قصور نينوى . وتبلغ بعض العقود الرومانية من القدم ما بلغت أى العقود الباقية فى إترووريا(٢٦) .

الفنون قد شوه الجسم البشرى كما شوهه الخزف التسكانى ، أو أخرج من الوجوه المتنكرة البشعة أو الحيوانات الفظة ، أو الشياطين المهولة ، أو الآلهة المروعة ، أكثر مما أخرجه هذا الخزف . غير أن الآنية السوداء المصنوعة فى القرن السادس قبل الميلاد تسرى فيها قوة إيطالية ، ولعلها تمثل تطوراً محلياً من الأنماط الڤلانوڤية . وقد عثر على مزهريات جميلة فى ڤلسى Vulci وتاركويناى — نقلت من أثينة أو صنعت على مثال الزهريات الأتيكية ذات الرسوم السوداء . ويلوح أن مزهرية فرنسوا Francois وهى جرة كبيرة ذات عروتين عثر عليها فى شيوزى Chiusi فرنسى يسمى بهذا الاسم — يلوح أن هذه المزهرية من صنع الفنانين اليونانيَّين كليتيا Clitias وإرجتيمس Ergotimus . أما آنية رماد الموتى التى صنعت فى العهود المتأخرة ، والتى رسمت عليها صور حمراء على أرضية سوداء ، فهى رشيقة الصنع ولكنها أيضاً صناعة يونانية بلا ريب ، وإن كثرتها لتدل على أن صناع الخزف الأتيكيين قد سيطروا على الأسواق التسكانية ولم يبقوا فيها للصناع الوطنيين إلا المصنوعات التى لا تمت إلى الفن بصلة . وفى وسعنا أن نقول عن فن الخزف بوجه عام إن اللصوص كانوا على حق حين تركوا كل هذا الخزف فى القبور التسكانية بعد انتهابها .

لكننا لا نستطيع أن نستخف هذا الاستخفاف كله بفن البرنز التسكانى ذلك بأن الذين كانوا يصبون المصنوعات البرنزية فى إتروريا قد وصلوا بهذا الفن إلى درجة الكمال . ويكاد ما صنعوه منه أن يبلغ من الكثرة ما بلغته الآنية الخزفية ، وحسبنا شاهداً على هذه الكثرة أن مدينة واحدة من مدنهم كان فيها على قولهم ألفا تمثال برنزى . ويرجع معظم ما وصل إلينا من المصنوعات البرنزية إلى عهد سيطرة الرومان على تلك البلاد . وأشهر هذه الروائع الفنية كلها تمثالان هما تمثال الخطيب الذى يقف الآن فى متحف العاديات فى مدينة فلرنس Florence تحف به هالة من المهابة الرومانية والتحفظ البرنزى ، وتمثال المولة الذى عثر عليه فى

أرزو Arezzo عام ١٥٥٣ الذى أعاد إليه سليني الفنان الإيطالى بعض ما حطم من أجزائه . وثانى التمثالين بشع المنظر ، وأكبر الظن أنه يمثل الوحش الذى ذبحه بلروفون Bellerophon ، له رأس أسد وجسمه ، وذيل أفعى ، وقد نبت له فى ظهره رأس جدى ، غير أن قوته وصقله تنسياننا ما فى خلقه من شذوذ وغرابة . وقد أخرج صناع البرنز التسكانيون آلاف الآلاف من التماثيل الصغيرة والسيوف ، والخوذات ، والدروع ، والحرب ، وآنية للطهو ولحفظ رماد الأموات ، والنقود ، والأقفال ، والسلاسل ، والمراوح ، والمرايا ، والسرر ، والمصابيح ، وحاملات الشموع ، بل صنعوا منه العربات نفسها . ومن يزر متحف الفن فى نيويورك ير فى صدره عربة تسكانية جسمها ودواليبها من الخشب ولكن البرنز يكسو الجسم وإطار الدواليب ، وقد نقش فى أعلى مقدمها صور من البرنز غاية فى الرشاقة . وكان كثير من الأدوات البرنزية يحفر عليه أشكال دقيقة جميلة . وكانت طريقتهم فى هذا أن يغطوا السطح الذى يريدون نقشه بالشمع ، ثم يرسموا عليه الشكل الذى يريدونه بقلم معدنى ذى سن حادة ، يغمسون طرفها فى بعض الأحماض ، فتحفر الخطوط التى يزول عنها الشمع فى معدن البرنز ، ثم يذاب الشمع كله بعدئذ . وكان الفنان التسكانى وارث الفنانين المصرى واليونانى ، وندهما فى النقش على الفضة والذهب والعظام والعاج .

أما النحت فى الحجارة فلم يكن فى يوم ما فناً شائعاً فى إتروريا . فقد كان الرخام فيها نادراً ، ويبدو أن محاجر كرارا Carrara لم تكن قد عرفت بعد . لكن الصلصال الجميل كان فى متناول الأيدى ، وسرعان ما تشكل وظهر فى صور آلاف مؤلفة من نقوش وتماثيل صغيرة وزينات للقبور والدور من الطين المحروق . وقد أنشأ أحد الفنانين التسكانيين فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد مدرسة لتعليم فن النحت فى ڤياى Veii أخرجت على يديه آية الفن التسكانى ، وهى تمثال أپلو ڤياى Apollo of Veii الذى عثر عليه فى عام ١٩١٦ فى موضع هذه المدرسة ، والذى ظل

إلى عهد قريب قائماً فى ڤلاجوليا Villa Guilia فى رومة . وقد صنع هذا التمثال الجذاب على غرار تماثيل أپلو اليونانية والأتيكية المنحوتة فى ذلك الوقت ؛ وهو ذو وجه يكاد يكون وجهاً نسائياً كالذى نشاهده فى صورة مونا ليز Mona Lisa ، ويفتر ثغره عن ابتسامة رقيقة، وأسنان مائلة مقوسة، وجسمه تسرى فيه دلائل الصحة والجمال والحياة . ويطلق الطليان على هذا التمثال اسم « أپلو الذى يمشى » il Aqollo che Cammina . وقد ارتقى المثالون التسكانيون فى هذا التمثال وفى غيره من الصور الجميلة الكثيرة المنقوشة على توابيت الموتى ، ارتقوا بالأنماط الأسيوية من صور الشعر والشباب إلى درجة الكمال . أما فى تمثال الخطيب فقد أوجدوا هم أو وارثوهم الرومان فناً من التصوير الواقعى .

وقد تعاون فن الرسم التسكانى مع فن إيطاليا اليونانية على نقل فن آخر من الفنون إلى رومة . ولقد وصف پلنى الأكبر Pliny المظلمات التى وجدت فى أرديا Ardea بأنها « أقدم من رومة نفسها » ، وقال عن مظلمات كئيرى إنها « أقدم من السابقة » وإنها « تفوقها روعة وجمالا(٣٧) » واستخدمت فى الرسم الأوانى الخزفية ، وجدران المنازل والقبور من الداخل ؛ ولم يبق لنا إلا مظلمات القبور والرسوم على المزهريات ، ولكنها تبلغ من الكثرة حداً نستطيع معه أن نتتبع كل ما مر بفن التصوير التسكانى من أدوار مختلفة — من طرز شرقية ومصرية ، تنتقل عن طريق اليونان والإسكندرية إلى طرز رومة وپمپى . ونجد فى بعض المقابر النماذج الإيطالية الأولى للنوافذ ومداخل الدور ، والأعمدة ، وكلالات الأبواب ، وغيرها من الأشكال الهندسية المعمارية ، مصورة بالألوان على الجدران الداخلية ، ولا تفترق فى شىء عما نجده منها فى مدينة پمپى . وكثيراً ما نرى ألوان هذه المظلمات حائلة ، ولكن القليل منها يبدو جديداً براقاً إلى حد يدهش له الرائى ، بعد أن مضى عليه أكثر من عشرين قرناً من الزمان . أما من حيث

القواعد الفنية فإن هذه الرسوم لا ترقى إلى ما فوق الدرجة الوسطى ، فالصور القديمة لم تراع فيها قواعد المنظور .

ولم يستخدم الضوء والظل لتمثيل العمق والامتلاء ، والصور رفيعة أشبه من هذه الناحية بالصور المصرية ، ويخيل إلى الناظر إليها أنه يراها من خلال مرآة محدبة أفقية ؛ والوجوه كلها جانبية أيا كانت الجهة التى تشير إليها القدمان ؛ غير أن فن المنظور يظهر فى النماذج المتأخرة ، كما أن التناسب بين أجزاء الجسم المختلفة يراعى بمهارة وأمانة . لكن هذه الصور وتلك يبدو عليها نزق ومرح وخبث لا يسع الإنسان معها إلا أن يدهش مما كان يحيط بالحياة التسكانية من بهجة إذا كانت قبورهم مفرحة إلى هذا الحد .

فهنا رسوم تمثل رجالا يقتتلون ، أو يستمتعون بمشاهدة القتال ، أو يتصارعون ويثاقفون فى المجتلدات ، ويصيدون الآساد والخنازير البرية بشجاعة الرجال الذين يراهم النظارة ، أو يتوقعون أن يروهم ، ويلاكمون أو يصارعون فى ساحة الصراع والنظارة يتناقشون بقوة تفوق قوة المصارعين ، ويركبون خيولهم أو يسوقون عرباتهم حول المدرج ، أو يصيدون السمك فى هدوء واطمئنان عظيمين . ويمثل أحد الرسوم زوجين يدفعان قارباً على مهل فى مجرى هادئ المياه : ألا ما أقدم حكمة الحكماء . وفى صورة على قبر من قبور كثيرى يُرى رجل وزوجته متكئين على أريكة ، والرجل متوج الرأس بالغار ، ويعاهد زوجته وفى يده كأس من الشراب على أن يكون وافياً لها مخلصاً على الدوام ، وتبتسم الزوجة وتصدقه وإن كانت تعرف أنه يكذب عليها .

ويرسم المصور التسكانى على جدار مقبرة أخرى، ما ارتسم فى ذهنه من صورة الجنة . ويصور المرح الدائم ، ويصور الولدان يرقصون رقصاً عنيفاً على أصوات المزمار المزدوج والقيثارة . ويلوح أن المزمار ، والقيثارة، والصفارة والبوق ، كانت مستلزمات كل وليمة وكل حفلة عرس أو جنازة ، وأن

حب الموسيقى والرقص كان من المظاهر الجميلة فى الحضارة التسكانية : ونرى الصور المرسومة على جدران قبر اللبؤة فى كرنيتو Corneto تدور حول نفسها فى جنون المخمورين[٢٨] .

* * *

وكان طبيعياً أن يوسع التسكان أملاكهم نحو الشمال والجنوب ، وأن يمدوا سلطانهم إلى قواعد جبال الألب ، وإلى مدن كمپانيا Campania اليونانية ، وأن يجدوا أنفسهم بعدئذ وجهاً لوجه أمام رومة الناشئة على الشاطئ الآخر من نهر التيبر Tiber : وقد أنشأوا لهم مستعمرات فى ڤرونا Verona بدوا Padua ، ومنتوا Mantua ، وپارما Parma ، ومودينا Modena ، وبولونيا Bologna ، وفى الجهة الأخرى من جبال أپنين Appenine فى رمينى Rimini ، وراڤنا Ravenna ، وأدريا Adria ، وهى فرضة صغيرة سمى باسمها البحر الأدرياوى . وأحاطوا رومة بمستقرات تسكانية فى فيدينى Fidnae ، وبرنيستى Paraeneste (پاسترينا Palestrina) وكپوا Capua ، ولعلهم استقروا أيضاً فى مسكولم Musculum (« تسكانيا الصغرى ») : وما وافى عام ٦١٨ ق . م — كما تقول رواية مشكوك فى صحتها ولكنها تحدد هذا التاريخ تحديداً عجيباً — حتى استولى أحد المغامرين التسكان على عرش رومة ، وظلت الأمة الرومانية مدى قرن كامل تسيطر عليها قوة التسكانيين ويشكلون حضارتها .

الفصل الرابع

روما تحت حكم الملوك

وعبر نهر التيبر حوالى عام ١٠٠٠ ق . م جماعة مهاجرون من ڤلانوڤا واستقروا فى لاتيوم Latium ، ولا يعرف أحد هل غلّب هؤلاء المهاجرون من وجدوهم فى تلك البلاد من السكان الأصليين الذين كانت ثقافتهم فى ذلك العهد لا ترقى عن ثقافة أهل العصر الحجرى الحديث ، أو أبادوهم ، أو اكتفوا بالاختلاط بهم والزواج منهم . ومهما يكن ما فعلوه بهم فقد أخذت القرى الزراعية التى كانت قائمة فى هذا الإقليم التاريخى العظيم بين نهر التيبر وخليج نابلى Naples تجتمع وينضم بعضها إلى بعض حتى تكون منها عدد قليل من دويلات المدن المستقلة المتحاسدة التى لم تكن تتحد بعضها مع بعض إلا فى الأعياد الدينية السنوية أو فيما كان يقوم بينها من حروب . وكان أكبر هذه المدن هى ألبا لنجا Alba Longa القائمة عند سفح جبل ألبان Mt. Alban ، والراجح أن موضعها كان فى موضع قصر جندلفو Cnstel Gandlfo الذى يأوى إليه البابا فى أيام الصيف فى الوقت الحاضر . ومن ألبا لنجا تحرك جماعة من اللاتين — ولعل ذلك كان فى القرن الثامن قبل الميلاد — مدفوعين بحب الغزو أو بازدياد عددهم لكثرة من ولد لهم من الحفدة والأبناء ، تحركوا قرابة عشرين ميلا نحو الشمال الغربى ، وأنشأوا المدينة التى صارت فيما بعد أعظم مدن العالم وأوسعها شهرة .

ولسنا نعرف عن نشأة روما أكثر مما ذكرناه فى الفقرة السابقة التى ليس فيها إلا ما هو فروض غير موثوق بصحتها . ولكن القصص الرومانية تروى عن ذلك الأصل الشىء الكثير . ذلك أنه لما حرق الغاليون المدينة فى عام ٣٩٠ ق . م احترقت فى أغلب الظن معظم سجلاتها التاريخية ، فاتسع المجال

أمام خيال أهليها، وأغرتهم وطنيتهم إلى تصوير أصل المدينة فى صورة مطلقة من كل القيود ، فحددوا تاريخ بنائها فى اليوم الذى يوافق اليوم الثانى والعشرين من شهر إبريل عام ٧٥٣ ق.م، وأخذوا يؤرخون الحوادث «من عام تأسيس المدينة» A.U.C. auno urbis conditae ، وأخذت مائة قصة وألف قصيدة تصف خروج إينياس Aeneas ابن أفرديتى – ڤينوس (الزهرة) Aphrodite-Venus من طروادة المحترقة ، ومجيئه إلى إيطاليا بآلهة مدينة پرام Priam(*) وما كان فيها من صور مقدسة ، بعد أن قاسى الأهوال فى البلاد الكثيرة التى مر بها ، ولاقى ألوان العذاب من سكانها . وتزوج إينياس من لاڤينيا Lavnia ابنة ملك لاتيوم ، وتقول القصة إن نمتور Numitor أحد أحفادهما جلس على عرش ألبا لنجا حاضرة لاتيوم بعد ثمانية أجيال من هذا الزواج . ثم اغتصب العرش منه رجل يدعى أمليوس Amulius وأخرجه من المدينة ، وأراد أن يقضى على أسرة إينياس كلها فقتل جميع أبنائه الذكور ، وأرغم ابنته الوحيدة ريا سلڤيا Rhea Si via على أن تصبح كاهنة لڤستا Vesta ، وأن تترهب وتقسم أن تظل عذراء حتى الممات . ولكن ريا رقدت يوماً على شاطئ مجرى ماء ، «وفتحت صدرها لتتلقى النسيم»[٢٩] واستغرقت فى النوم وهى واثقة أكثر مما يجب بطهارة الآلهة والآدميين . وأسر جمالُها قلب المريخ Mars فحملت منه بتوأمين ، فلما وضعتهما أمر أمليوس بإغراقهما فى النهر ، فوضعا فوق رمس ، وأشفقت عليهما الأمواج فحملتهما إلى البر ، وأرضعتهما ذئبة (Lupa) أو – فى رواية أخرى – زوجة راع تدعى أكا لارنتيا Acca Larentia ويكنونها لوپا Lupa لأن حبها عارم كحب الذئاب . فلما شب رميولوس Romulus وريموس Remus قتلا أمليوس ، وأعادوا نُمتور إلى العرش ، وسارا تحدوهما قوة الشباب وعزيمته لكى ينشئا لهما مملكة على تلال رومة .

(*) يقصد طروادة . (المترجم)

ولم يكشف علم الآثار عن شيء يؤيد هـذه القصص التي تروى عن نشأة رومة وعهدها الأول ؛ ولعل في هذه القصص شيء من الحقيقة ، فليس ببعيد أن يكون اللاتين قد أرسلوا نفراً منهم ليشيدوا مدينة رومة لكي يتخذوها حصناً يقيهم شر التسكان الذين كانوا يوسعون رقعة بلادهم في ذلك الاتجاه . وكان موقع المدينة على بعد عشرين ميلا من شاطئ البحر ، ولم يكن موقعاً ملائماً للتجارة البحرية ، ولكنـه كان من المستحب في تلك الأيام أيام القرصان المغيرين النهابين أن تكون مواقع المدن بعيدة عن شاطئ البحر قليلا . أما من حيث التجارة الداخلية فقد كانت رومة عنـد ملتقى طريقي التجارة ، طريق النهر والطريق البرى الممتد من الشمال إلى الجنوب ؛ ولم يكن موقعها بالموقع الصحى ، فقد كانت الأمطار وفيضانات الأنهار ، ومياه العيون ، تملأ المناقع الكثيرة في السـهل المحيط بالمدينة ، ومن ثم كانت شهرة التلال السبعة ؛ وتقول الرواية إن أول ما استوطنه المهاجرون من هذه التلال هو تل پلاتين Palatine ، ولعل سبب ذلك أن جزيرة قرب سفح هذا التل قد يسرت للمستعمرين عبور نهر التيبر وإقامة جسر عليه ؛ ثم استوطنوا بعدئذ سفوح التلال المجاورة واحداً في إثر واحد ، وما لبثوا أن عبروا النهر وشادوا الفاتيكان Vatican والجانكيولوم Janiculum (*) . ثم تحالفت القبائل الثلاث ــ اللاتين والسبنيون والتسكان ــ التي اسـتوطنت التلال وأنشأت منها اتحاداً يسمى السپتيمنيوم هو الذى نشأت فيه على مهل مدينة رومة .

وتقول القصة القديمة بعدئذ إن رميولوس أراد أن يأتي بأزواج لرجاله ، فأعد ألعاباً عامة دعا إليها السبنيين وغيرهم من رجال القبائل الأخرى ، وبينا كان السباق جارياً في مجراه إذ انقض الرومان على نساء السبنيين فاستولوا

(*) لقد كان في رومة أكثر من هذه التلال السبعة المتواضعة ، ولم تكن هذه « السبعة » هي بعينها في جميع الأوقات . غير أنها في أيام شيشرون كانت هي Palatine Capitoline, Caelian, Esquiline, Aventine, Viminal, quirinal.

عليهن ، وطردوا الرجال من حلبة السباق ، فما كان من تيتس تاتيوس Titus Tatius ملك قبيلة الكيوريين Curites السبنية إلا أن شن الحرب على رومة ، وسار بجيوشه لغزوها . وفتحت تربيا Tarpeia ابنة الرومانى الموكل بإحدى القلاع القائمة على الكپتولين باب القلعة إلى الغزاة . وقد جازوها على عملها بأن دقوا عظامها بدروعهم ، وأطلقت الأجيال التى جاءت من بعد اسمها على « صخرة تربيا » التى كان يلقى من فوقها المقضى عليهم بالإعدام ليلقوا حتفهم . ولما اقترب جنود تاتيوس من تل الپلاتين سعت نساء السبنيين — اللاتى كن يشعرن بنعم الأسر — إلى عقد هدنة بين الطرفين ، وحجتهن فى هذا أنهن سيخسرن أزواجهن إذا انتصر الكيوريون ، وسيخسرن إخوتهن أو آباءهن إذا انهزموا . ونجح النساء فى سعيهن وأقنع رميولوس تاتيوس ملك السبنيين بأن يشاركه ملكه ، وأن تنضم قبيلته إلى اللاتين ، فتصبح من مواطنى رومة ، ومن ذلك الوقت سمى أحرار رومة بالكيوريين أو الكويريين (Quirites Curites)[٣٠] . ولعل فى هذه القصة الخيالية كلها هى الأخرى بعض الحقائق — أو لعل النعرة الوطنية قد صاغتها لتخفى بها فتح السبنيين مدينة رومة .

وحكم رميولوس رومة زمناً طويلا رفع بعدها إلى السماء فى عاصفة ، واتخذ من بعد ذلك إلهاً من آلهة الرومان المحببين ، يعبدونه باسم كويرينوس Quirinus[٣١] . ولما مات تاتيوس أيضاً اختار رؤساء الأسر الكبيرة رجلا من السبنيين يدعى نوما بمپليوس Numa Pompilius ملكاً على رومة . والراجح أن السلطة السياسية الحقيقية فيما بين تأسيس رومة وسيطرة التسكان عليها كانت فى أيدى هؤلاء الرؤساء أو السناتوريين ، على حين أن أعمال الملك كانت كأعمال الأركان باسليوس Archon basileus فى مدينة أثينة فى هذا الوقت عينه ، ولا تخرج عن أعمال الكاهن الأكبر[٣٢] . وتصور الأقاصيص الملك نوما السبينى فى صورة شبيهة بالإمبراطور ماركس أوريليوس Marcus Aurilius ، تصوره فيلسوفاً وقديساً معاً . ويقول عنه ليفى Livy إنه :

« عمل على أن يبعث فى قلوب الشعب الخوف من الآلهة ، ويجعل ذلك الخوف أقوى أثراً فى قلوب ... الأقوام الهمج : وإذ كانت جهوده فى هذه السبيل لا توصله إلى الهدف الذى يسعى إليه إلا إذا كان مرجعها إلى حكمة غير حكمة البشر ، فقد ادعى أنه كان يلتقى فى الليل بإيجيريا Egeria الحورية المقدسة ، وإنه يعمل بنصيحتها حين ينظم الطقوس والمراسم الدينية التى هى أحب الطقوس إلى السماء ، ويعين الكهنة لكل إله من كبار الآلهة(٣٢) .

ولما أفلح نوما فى توحيد دين قبائل رومة المختلفة ، وإزالة ما بينها من فروق فى العبادات ، قوى بذلك وحدة الدولة وزادها استقراراً (٣٣) ، ويقول شيشرون إن نوما، حين وجه اهتمام الرومان المولعين بالحروب والقتال إلى شئون الدين ، نشر لواء السلام بين شعبه مدى أربعين عاماً (٣٤) .

وأعاد خليفته تلس هستليوس Tllus Hostilius إلى الرومان حياتهم العادية التى ألفوها من قبل « ولما رأى أن قوى الدولة آخذة فى الانحلال لطول عهدها بالخمول أخذ يتطلع إلى حجة يتذرع بها لإيقاد نار الحرب(٣٥) » . واختار عدواً له مدينة ألبا لنجا التى كانت هى أصل مدينة رومة ومنشأها ، فغزاها ودمرها عن آخرها . ولما نكث ملك ألبا بوعده أن يحالفه أمر به تلس فشد إلى عربتين سارتا فى اتجاهين متضادين فمزق جسمه إرباً(٣٦) ، ولم ير خليفته أنكس مارتيوس Ancus Martius بأساً فى اتباع هذه الفلسفة العسكرية ، فقد كان أنكس يعلم كما يقول ديوكاسيوس Dio Cassius :

أنه لا يكفى من ينشدون السلم أن يمتنعوا عن أذى الناس ... بل إنه كلما اشتدت رغبة الإنسان فى هذا السلم اشتد تعرضه للأذى . وكان يرى أن الرغبة فى الهدوء لا تحمى الإنسان من الأذى إلا إذا صحبها الاستعداد للحرب ، وكذلك كان يعتقد أن الابتهاج بالبعد عن المشاكل الخارجية سرعان ما يقضى على الذين يسرفون فى حماستهم لهذا البعد(٣٧) .

الفصل الخامس

سيطرة التسكانيين

وتروى الأقاصيص بعدئذ أن دمراتس Demaratus ، وهو تاجر ثرى نقى من كورنث ، جاء ليعيش فى تاركويناى حوالى عام ٦٦٥ ق.م ، وتزوج بامرأة تسكانية(٣٨) ثم هاجر ابنه لوسليوس تاركوينيوس Lucius Tarquinius إلى رومة وارتفعت مكانته فيها ، ولما مات أنكس اغتصب العرش أو رفعه عليه حلف من الأسر التسكانية فى المدينة ، والاحتمال الثانى أرجح من الأول . فيقول ليفى Livy إنه أول ملك سعى إلى التاج وألقى خطبة يطلب فيها معونة السوقة أى المواطنون الذين لا يستطيعون أن يثبتوا انتسابهم إلى الآباء الذين أسسوا المدينة ؛ وزاد سلطان الملكية على الأشراف فى عهد تاركوينيوس برسكس Tarquinius Priscus ، كما زاد نفوذ التسكانيين فى شئون رومة السياسية والهندسية والدينية والفنية ؛ وحارب تاركون السبنيين وانتصر عليهم ، وأخضع لاتيوم Latium كلها لسلطانه ، ويقال إنه استخدم موارد رومة ليجمل بها تاركونياى وغيرها من المدن الإترورية ، ولكنه جاء أيضاً بالفنانين التسكانيين واليونان إلى عاصمة ملكه وزينها بالهياكل الفخمة(*) ويلوح أنه كان يمثل سلطان الأعمال التجارية والمالية المتزايد على سلطان الأشراف ملاك الأراضى الزراعية .

وحكم تركون الأول ثمانية وثلاثين عاماً ثم قتله الأشراف غيلة لأنهم أرادوا

(*) ولعله أيضاً أنشأ فيها المجارى لتنظيفها ، ويعزو إليه المؤرخون الرومان إنشاء الكلوكا مكسيما Cloaca Maxima أو البالوعة الكبرى ، ولكن بعض العلماء يبقون هذا الفضل إلى القرن الثانى قبل الميلاد(٤٠) .

أن يحدوا من سلطان الملكية ويفرضوا عليها سلطان الدين ، ولكن تناكويل Tanquil أرملة تاركون تولت الأمر بنفسها ، واستطاعت أن ترفع ابنها سرفيوس تليوس Servius Tallius على العرش . ويقول شيشرون إن سرفيوس هذا هو أول ملك رومانى استطاع « أن يتولى الملك دون أن يختاره الشعب »(41) أى أن تختاره الأسر الكبيرة . وحكم هذا الملك البلاد حكماً صالحاً ، وأنشأ حول رومة خندقاً وسوراً ليحميها من الغارات ، ولكن كبار الملاك لم يرضوا عن حكمه ودبروا المؤامرات لخلعه ، فقابل هذا بأن تحالف مع الأثرياء من العامة (Plebs) وأعاد تنظيم الجيش والناخبين ليقوى بذلك مركزه ، فبدأ بإحصاء السكان والأملاك ، وقسم الأهلين طبقات على أساس ثروتهم لا على أساس مولدهم ، فترك بذلك الأشراف القديمة محتفظة بكيانها ، ولكنه رفع تجاهها طبقة من الإكويتى equites ومعناها الفرسان — أى الرجال الذين كان فى مقدور كل منهم أنه يعدله جواداً وسلاحاً ينخرط بهما فى سلك فرقة الفرسان فى الجيش(*) . وتبين من الإحصاء أن هناك ٨٠,٠٠٠ شخص يستطيعون حمل السلاح . وإذا قدرنا أن أسرة كل جندى من هؤلاء الجنود تتألف منه ومن زوجه وولد واحد ، وأن لكل أسرة من أربع أسر عبداً رقيقاً ، فإنا لا نكون مخطئين إذا قدرنا سكان رومة والبلاد المحيطة بها الخاضعة لسلطانها حوالى عام ٥٦٠ ق . م بنحو ٢٦٠,٠٠٠ نسمة : وقسم سرفيوس هؤلاء السكان إلى خمس وثلاثين قبيلة جديدة ، ورتبها حسب مسكنها لا حسب طبقتها أو ما بينها من صلات القرابة ، وفعل بذلك ما فعله كليستنيز Clleisthenes فى أتيكا Attica بعد جيل من الوقت ، فأضعف ما كان للأشراف — أى الطبقة التى كانت تضع نفسها بفضل مولدها ، فوق سائر الطبقات — من تماسك سياسى وقوة انتخابية . ولما قام تاركون آخره

(*) وهذا اللفظ بمعناه القديم ذو صلة بكلمة Knight (فارس) الإنجليزية ، ولكن سرعان ما فقد لفظ equites معناها الأول وأصبح معناه الطبقة الوسطى العليا أو طبقة رجال الأعمال .

هو حفيد تاركوينيوس برسكس Tarquinius Priscus واتهم سرفيوس Servius بأنه يحكم حكما غير شرعى ، استفتى سرڤيوس الشعب فنال « ثقته الاجتماعية » كما يقول ليڤى Livy(٤٢)، غير أن تاركوين لم تقنعه نتيجة هذا الاستفتاء فعمل على اغتيال سرفيوس ، ونادى بنفسه ملكا على رومة(*).

وأصبحت الملكية فى عهد تاركوينيوس سوبربس Tarquinius Superbus « المتكبر » مطلقة السلطان ، كما أصبح للتسكانيين النفوذ الأعلى فى البلاد ؛ ولكن الأشراف كانوا من قبل يرون أن الملك Rex إن هو إلا السلطة التى يكل إليها مجلس الشيوخ Senate تنفيذ أحكامه ، وأنه الكاهن الأكبر للدين القومى ، ولذلك لم يستطيعوا أن يصبروا طويلا على سلطانه غير المحدود . ومن أجل هذا قتلوا تاركوينيوس برسكس ولم يحاولوا الدفاع عن سرڤيوس . ولكن هذا الملك الجديد كان شراً من الملك الأول ، فقد أحاط نفسه بحرس خاص وحقر الأحرار بأن فرض عليهم السخرة شهوراً طوالا ، وأمر بصلب المواطنين فى السوق العامة ، وقتل عدداً كبيراً من زعماء الطبقات العليا فى البلاد ، وحكم حكماً وحشياً ساخراً أغضب جميع أصحاب الرأى فيها(**)(٤٤) . وظن هذا الملك أن النصر فى ميدان القتال يكسبه حب الشعب ورضاه ، فهاجم الروتليين Rutili والڤلشيين Volscians . وبينا كان هو مع الجيش فى الميدان اجتمع مجلس الشيوخ وأعلن خلعه (٥٠٨ ق.م) ، وكان ذلك انقلاباً خطيراً فى تاريخ رومة .

(*) قل أن يوجد من العلماء من يميل إلى الأخذ بأقوال إتورپيس Eltor Pais المسرفة فى التشكك ، والتى تأبى تصديق كل ما يروى من تاريخ رومة قبل عام ٤٤٣ ق . م لأنه حسب زعم هذا المؤرخ مجرد أساطير . وهو يعتقد أن تاركوين الأول والثانى علمان على شخص واحد لم يوجد قط (٤٣) . ويرى بعضهم أن الرواية المأثورة عن تاريخ رومة بعد رميولوس يمكن قبولها مع تعديل فى بعض أجزائها ، وأن قبوله هذا « يفسر الظاهرة » تفسيراً خيراً مما يفسره أى افتراض آخر .

(**) أكبر الظن أن ما يروى من تاريخ آل تاركوين قد سرأته الدعارة التسكانية ودعاوى الأرستقراطية الرومانية . ذلك أن معظم تاريخ رومة الأول قد كتبه رجال يمثلون طبقة الأشراف أو يعجبون بهذه الطبقة ، كما كان كتاب تاريخ الأباطرة فيما بعد من أشياع مجلس الشيوخ أمثال تاستس Tacitus .

الفصل السادس

مولد الجمهورية

وهنا تستحيل الرواية التاريخية أدباً ، ويمتزج نثر السياسة بشعر الغرام . انظر مثلا إلى ما يقوله ليفي وهو أن سكستس تاركوين Sextus Tarquin ابن الملك كان فى معسكر أبيه فى إحدى الليالى يناقش لوسيوس تاركوينيوس كلاتنس Lucius Tarquiniu Collatinus أحد أقربائه فى فضائل زوجتيهما وأيهما خير من الأخرى ، فعرض لميه كلاتنس أن ينطلقا على ظهرى جواديهما إلى رومة ويفاجئا زوجتيهما بزيارتهما فى أواخر الليل . فوجدا زوجة سكتس فى وليمة مع بعض صاحباتها ، أما لكريشيا Lucrctia زوجة كلاتنس فكانت تغزل الصوف لتنسج منه ثياباً لزوجها . وتاقت نفس سكتس ليجرب وفاء لكريشيا ويستمتع بحبها ، فما كان منه إلا أن عاد فى السر بعد بضعة أيام من ذلك الوقت إلى بيت لكريشيا وتغلب عليها بدهائه وقوته . وأرسلت لكريشيا تستدعى أباها وزوجها ، وأخبرتهما بما حدث لها ، ثم انتحرت بطعنة خنجر . وعلى أثر ذلك أهاب لوسيوس چونيوس بروتس Lucius Junius Brutus أحد أصدقاء كلاتنس جميع الصالحين من الرجال أن يطردوا آل تاركوين كلهم من رومة . وكان هو نفسه ابن أخى الملك ، ولكن تاركوين كان قد قتل أباه وأخاه ، وتظاهر هو بالجنون حتى يبقى تاركوين على حياته فيثأر لمقتل أبيه وأخيه ، ولذلك سمى بروتس Brutus أى الأبله . فلما وقعت هذه الحادثة ركب مع كلاتنس إلى العاصمة ليقص قصة لكريشيا على مجلس الشيوخ ، وما زال به حتى أقنعه بوجوب إخراج الأسرة المالكة كلها من رومة . وكان الملك فى أثناء ذلك قد ترك الجيش وعاد مسرعاً إلى العاصمة . وعلم بروتس بهذا فسار إلى الجيش على ظهر جواده وقص عليه مرة أخرى

قصة لكريشيا وكسب بذلك معونته وتأييده . وفر تاركوين إلى بلاد إتروريا وطلب إلى أهلها أن يعيدوه إلى عرشه (٤٥)(*) .

ودعيت فى رومة وقتئذ جمعية من أهلها الجنود فاختارت بدل الملوك الذين كانوا يختارون مدى الحياة قنصلين (**) متعادلين فى السلطان، كلاهما رقيب على الآخر ومنافس له، يحكمان مدة عام واحد . وتقول الرواية إن القنصلين الأولين كانا بروتس وكلاتنس ولكن ثانيهما استقال من منصبه فاختير بدله پبليوس ڤاليريوس Publius Valirius الذى لقب فيما بعد پبليكولا Publicola — أى « صديق الشعب » — ، لأنه تقدم إلى الجمعية بعدة قوانين ظلت من القواعد الأساسية فى دستور رومة وهى : أن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكا يجوز قتله من غير محاكمة ؛ وكل من يحاول أن يتولى منصباً عاماً من غير رضاء الشعب يعاقب بالإعدام ؛ وكل مواطن يحكم أحد الحكام بإعدامه أو جلده يحق له أن يعرض أمره على الجمعية . وڤاليريوس هو الذى سن السنة التى كانت تحتم على القنصل إذا أراد أن يدخل الجمعية أن يفصل رأس البلطة عن مقبضها ويخفضها إشارة إلى سيادة الشعب وإلى أن عقوبة الإعدام فى وقت السلم من حق الشعب وحده .

وأهم نتائج هذه الثورة اثنتان : أولاهما أنها حررت رومة من سلطان التسكانيين، والثانية أنها استبدلت بحكم الملوك حكم الأشراف الذين ظلوا يحكمونها إلى عهد قيصر. أما الفقراء من المواطنين فلم تنصلح أحوالهم بعد الثورة بل ساءت عما كانت عليه ، فقد طلب إليهم أن ينزلوا عن الأراضى التى وهبها لهم سرڤيوس

(*) يرى معظم العلماء من أيام نيبهر Niebuhr أن قصة لكريشيا من خلق الخيال وشيكسبير . ولسنا نعرف ما فى هذه القصة من حقيقة وما فيها من خيال الشعراء . ويرى البعض أن بروتس نفسه شخصية خرافية ، ولكن أكبر الظن أن الذين يقولون بهذا يسرفون فى تشككهم .

(**) أو قائدين يلقب كل منهما بريتور Praetor — كما تقول رواية أخرى .

وخسروا ذلك القسط الضئيل من الحماية من سلطان الأشراف وهو الذى كان لهم فى عهد الملكية[٤٧] . وقال الظافرون إن الثورة كانت نصراً مؤزراً للحرية ، ولكن الحرية فى لغة الأقوياء لا يقصد بها فى بعض الأحيان إلا التحرر من القيود التى تحول دون استغلال الضعفاء .

وكان إخراج آل تاركوين من رومة ، مضافاً إلى هزيمة التسكانيين على يد المستعمرين اليونان فى كومية Cumae عام ٥٢٤ نذيراً بزوال زعامة التسكانيين من وسط إيطاليا . ومن أجل هذا فإنه لما لجأ إليهم تاركوين ، استجاب لدعوته لارس پورسنا Lars Porsena ، أكبر الحكام فى كلوزيوم Clusium فجمع جيشاً كبيراً من مدن إتروريا المتحدة وزحف به على رومة . ودبرت فى رومة نفسها وفى الوقت نفسه مؤامرة ترمى إلى إعادة آل تاركوين إلى عرشها . وقبض على المتآمرين ، وكان من بينهم ابنا بروتس ، وضرب هذا القنصل لكل من جاء بعده من الرومان أحسن الأمثلة فى الجلد والخضوع لحكم القانون ، إذ شهد بعينه ولديه يجلدان ثم يضرب رأساهما وهو صامت لا ينبس ببنت شفة — أو لعل هذه قصة تروى وليست حقيقة واقعة . ودمر الرومان الجسر العام على نهر التيبر قبل أن يصل إليهم پورسنا ؛ وقد خلد هوراشيس ككليز Horatius Cocles اسمه فى الأغانى اللاتينية والإنجليزية بدفاعه عن رأس هذا الجسر(*) . ولكن رومة استسلمت لپورسنا[٤٨] على الرغم من هذه الأسطورة وغيرها من الأساطير التى أراد بها المهزومون أن يكللوا هاماتهم بالمجد . ونزلت عن بعض أملاكها إلى ڤياى veii والمدن للاتينية التى كان ملوك رومة قد انتهبوها[٤٩] . وأظهر پورسنا للمدينة المغلوبة بعض المجاملة إذ لم يطلب إعادة تاركوين إلى عرشها . وكان الأشراف فى إتروريا قد طردوا منها أيضاً الملوك وظلت رومة بعد هذه الاضطرابات ضعيفة

(*) انظر قصيدة لورد مكولى فى مجموعة قصائده المسماة Lays of Ancieur Romeeut (المترجم)

مدى جيل من الزمان ، ولكن ما خلفته الثورة من نتائج ظل باقياً دائم الأثر .

وقضت هذه الثورة على قوة التسكانيين ، ولكن آثار النفوذ التسكانى ودلائله ظلت باقية فى الحضارة الرومانية إلى آخر أيامها . ولعل أقل هذا النفوذ أثراً هو ما كان فى اللغة اللاتينية ؛ بيد أن الأرقام الرومانية هى فى أغلب الظن أرقام تسكانية[٥٠] ، ولعل لفظ رومة نفسه مشتق من اللفظ التسكانى رومون **Rumon** ومعناه نهر[٥١] . وكان الرومان يعتقدون أنهم أخذوا عن إتروريا الاحتفالات التى كانت تقام عند عودة قائد رومانى منتصر ، والأثواب الموشاة بإطار أرجوانى ، والمقعد العاجى (الشبيه بمقاعد العربات) الذى يجلس عليه الحكام ، والعصى والفؤوس التى كان يحملها أمام كل قنصل اثنا عشر ضابطا ، والتى كان يرمز بها إلى حقه فى ضرب الناس وقتلهم[*] . وكانت عملة رومة تزدان بمقدم سفينة قبل أن يكون لرومة سفن بزمن طويل — وكانت هذه الصورة ترسم على العملة التسكانية رمزاً لنشاطها التجارى وسلطانها البحرى . وكان من عادة الأشراف الرومان من القرن السابع إلى الرابع قبل الميلاد أن يرسلوا أبناءهم إلى المدن التسكانية ليتلقوا فيها التعليم العالى ، وكان من بين ما يتلقونه فيها من العلوم الهندسية والمساحة والفنون المعمارية[٥٥]. وكانت الملابس الرومانية مأخوذة عن الملابس التسكانية أو لعل هذه وتلك مأخوذتان عن أصل واحد .

وجاء الممثلون الأولون إلى رومة كما جاء إليها اسمهم **historiones** من إتروريا . وإذا جاز لنا أن نصدق ليفى فإن تاركوينيوس پرسكس هو

(*) وقد وجدت فى أحد القبور التسكانية فى فتيولونيا **Vetulonea** بلطة من حديد ذات رأسين ، ويد محاطة بثمانية قضبان حديدية (٥٣) . وكانت البلطة ذات الرأسين تتخذ رمزاً للسلطان من عهد لا يقل فى القدم عن عهد الحضارة المينوية فى كريت . وكان الرومان يطلقون على البلطات والقضبان المحيطة بها اسم الحزم — (الفاشات) . أما عدد الضباط الاثنى عشر الذين يحملون هذه البلطة والذين يسمون بالرومانية لكتورين **Lictors** (من **Ligare** ومعناها يربط) فيرجع إلى الاثنى عشر مدينة التى كانت يضمها الاتحاد التسكانى ، وكانت كل واحدة منها ترسل ضابطاً يصحب الرئيس لهذا الاتحاد(٥٤) .

الذى بنى أول ساحة كبرى Circus Maximus ، واستورد خيول السباق والمصارعين للألعاب الرومانية من إترووريا . والتسكانيون هم الذين أدخلوا فى رومة المصارعات الوحشية ، ولكنهم هم الذين وضعوا النساء فيها فى منزلة لم تكن لهن فى بلاد اليونان . وقد شاد المهندسون التسكانيون أسوار رومة ومصاريف الفضلات من بيوتها ، وهم الذين استحالت على أيديهم من مناقع وخمة إلى حاضرة محمية متمدينة . وأخذت رومة عن إترووريا معظم مراسمها الدينية ؛ كما أخذت عنها عادات زجر الطير والعرافة والإنباء بالغيب : ولقد ظلت وظيفة المتنبئ بالغيب جزءاً مقرراً فى كل جيش رومانى إلى أيام الإمبراطور يوليان Julian (أى إلى عام ٣٦٣ ب . م) وكان الاعتقاد السائد أن رميولوس Romulus قد خطط حدود رومة حسب المراسم والطقوس التسكانية . وعن إترووريا أخذ الرومان حفلات عرسهم وما فيها من رموز إلى عادة الأسر القديمة وحفلات جنائزهم كما أخذوا عنها موسيقاهم وآلات طربهم[٥٦] . وكان معظم فنانى رومة من التسكانيين ، كما كان الشارع الرومانى الذى يعمل فيه الفنانون يسمى Vicus Tuscus (البيوت التسكانية) ، ولعل الفنانين أنفسهم قد تسربوا إلى رومة عن طريق لاتيـــوم من إغريق كمبانيا Campania . وكان فن النحت فى رومة متأثراً أعمق الأثر بأقنعة الموتى التى كانت تغطى بها صور الأسر — وهى عادة أخذت من إترووريا .

وزين المثالون التسكانيون هياكل رومة وقصورها بالتماثيل البرنزية وبالصور المجسمة على الآجر والمحفورة فيه . وخلف مهندسو البناء التسكانيون فى رومة « طرازاً تسكانياً » لا يزال حتى اليوم باقياً فى كنيسة القديس بطرس . ولعل ملوك رومة التســكانيين هم الذين شادوا فيها أولى العمارات الكبيرة وحولوها من طائفة من الأكواخ الطينية أو العشش الخشـــبية إلى مدينة مشيدة من الخشب والآجر والحجارة . ولم تشهد رومة مثل ما شهدته من المبانى فى عهد التسكانيين إلا فى عهد قيصر .

ولكن ينبغى لنا ألا نغلو فى هذا الوصف ؛ فهما يبلغ ما أخـــذته روما عن جيرانها من الكثرة فقد ظلت فى جميع مظاهر الحياة الأساسية محتفظة بطابعها الخاص ؛ فليس فى التاريخ التسكانى ما يوحى بمميزات الخلق الرومانى ، وهى التأديب الذاتى وما فيه من جد ، ووقار ، والقسوة ، والجرأة ، والوطنية ، والإخلاص ، والصفتان الأخيرتان هما اللتان استطاع بهما الرومان على طول الزمن أن يفتحوا بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وأن يحكموها فيما بعد ؛ فلما تحررت روما من سـيطرة التسكانيين انفسح المجال أمامها لتمثيل تلك المسرحية الفذة مسرحية عظمة الوثنية ثم اضمحلالها فى العالم القديم ؛

الكتاب الأول

الجمهورية

٥٠٨ – ٣٠ ق.م

جـــدول تاريخى

ق . م

٨١٣ — تأسيس قرطاجنة .

٥٥٨ وما بعدها — قرطاجنة تستولى على غرب صقلية وسردانيا وقورسقة الخ .

٥٠٩ — تأسيس الجمهورية الرومانية .

٥٠٨ — حروبها مع التسكانيين ؛ هوراشيس ككليز .

٥٠٠ — هانو يرتاد ساحل إفريقية الغربى .

٤٩٤ — انشقاق العامة الأول ، إنشاء منصب التربيون(*) .

٤٩٢ — كوريولانس .

٤٨٥ — الحكم على اسبوريوس كاسيوس .

٤٥٨ — ٤٣٩ سنسناتس يعين دكتاتوراً (حاكما بأمره) .

٤٥١ — لجنة العشرة الأولى .

٤٥٠ — الجداول الاثنى عشر .

٤٤٩ — الانشقاق الثانى للعامة .

٤٤٥ — شريعة كانيوليا فى الزواج .

٤٤٣ — إنشاء نظام الرقابة .

٤٣٢ — القانون الأول لمنع تزييف الانتخابات .

٣٩٦ — الرومان يستولون على ڤياى .

٣٩٠ — الغالة ينهبون رومة .

٣٦٧ — قانون ليكينيا يخفف قانون الدين .

٣٤٣ — ٣٤١ الحرب السمنية الأولى .

٣٤٠ — ٣٣٨ حرب اللاتين ؛ وانحلال الحلف اللاتينى .

٣٣٩ — قانون پيليا يقضى على حق مجلس الشيوخ فى الرفض .

٣٢٧ — ٣٠٤ الحرب السمنية الثانية .

٣٢٦ — قانون پاليتليا يخفف قانون الدين .

٣٢١ — هزيمة الرومان فى مشاعب كودين .

(*) آثرنا إبقاء الأسماء الرومانية لهذه المناصب كما هى ، لأن كل ترجمة لها لا تدل على حقيقتها ، ولعل لفظ أطربون الذى جاء فى بعض أشعار العرب هو تعريب للفظ تربيون .

(المترجم)

٣٠٠ — قانون ڤاليريا وحق استئناف الأحكام ؛ قانون أوجليا وحق الانتخاب لوظائف الكهنة .

٢٩٨ — ٢٩٠ الحرب السمنية الثالثة .

٢٨٧ — انشقاق العامة الأخيرة ؛ قانون هورتنسيا وسلطان الجمعية .

٢٨٣ — روما تحتل معظم أجزاء إيطاليا اليونانية .

٢٨٠ — ٢٧٥ پيروس فى إيطاليا وصقلية .

٢٨٠ — ٢٧٩ انتصارات پيروس فى هرقليا وأسكيولم .

٢٧٢ — رومة تستولى على تارنتم .

٢٦٤ — ٢٤١ الحرب البونية الأولى .

٢٤٨ — هملكار برقة يغزو صقلية .

٢٤١ — هزيمة الأسطول القرطاجنى قرب جزائر إيجاديا ، صقلية ولاية رومانية .

٢٤١ — ٢٣٦ حرب الجنود المرتزقة على قرطاجنة .

٢٣٦ — مسرحية ليڤيوس أندرونكس **Levius Androncus** الأولى .

٢٣٩ — قرطاجنة تسلم سردانية وقورسقة إلى رومة .

٢٣٧ — هملكار فى أسبانيا .

٢٣٥ — مسرحية نيڤيوش **Naevius** الأولى .

٢٣٠ — محاربة قرصان إلليريا **Illyris** .

٢٢٢ — رومة تستولى على غالة الجنوبية .

٢٢١ — هانيبال يتولى القيادة فى أسبانيا .

٢١٩ — ٢٠١ الحرب البونية الثانية .

٢١٨ — هانيبال يعبر جبال الألب ويهزم الرومان فى واقعتى تسينس **Ticeinus** وتربيا **Trebia** .

٢١٧ — هانيبال يهزم الرومان عند بحيرة ترزميني **Trsimene** ؛ فابيوس مكسمس **Fabius Maximus** يصبح دكتاتورا .

٢١٦ — انتصارات هانيبال عند كانى **Canas** .

٢١٥ — معاهدة هانيبال وفليب الخامس .

٢١٤ — ڤلوتس **Plautus**.

٢١٤ — ٢٠٥ الحرب المقدونية الأولى .

٢١٣ — الرومان يستولون على سرقوسة .

٢١٠ — ٢٠٩ سپيو أفريكانس الأكبر فى أسپانيا .

ق . م

٢٠٧ –	هزيمة هزدروبال فى موقعة متورس .
٢٠٣ –	استدعاء هانيبال إلى إفريقية .
٢٠٢ –	سپيو يهزم هانيبال فى اقعة زاما Zama ؛ كونتس فابيوس پكتور يؤلف تاريخ رومة الأول .
٢٠١ –	أسپانيا ولاية رومانية .
٢٠٠ – ١٩٧	الحرب المقدونية الثانية .
١٩٩ –	إنيوس Innius .
١٨٩ –	واقعة مجنيزيا Magnesia.
١٨٦ –	تحريم عبادة باكس Bachus
١٨٤ –	كاتو الأكبر يتولى الرقابة .
١٧١ – ١٦٨	الحرب المقدونية الثالثة .
١٦٨ –	واقعة پدنا Pydna .
١٦٧ –	پوليبيوس فى رومة .
١٦٠ –	الأدلفى الترنسى Teh Adelphi of Terance .
١٥٥ –	كرينِدس يحاضر فى رومة .
١٥٥ – ١٣٨	الحرب على اللوزيتانيين .
١٥ – ١٤٦	الحرب اليونية الثالثة .
١٤١ – ١٤٠	انتصارات ڤرياتس على الرومان فى أسپانيا .
١٤٦ –	سپيو أفريكانس الأصغر يدمر قرطاجنة ؛ موميوس Mummius كورنثة Corinth ؛ امتداد الحكم الرومانى إلى شمال إفريقية بلاد اليونان .

الباب الثانى

الكفاح فى سبيل الديمقراطية

٥٠٨ – ٢٦٤ ق . م

الفصل الأول

الأشراف والعامة

ترى أى الرومان كانوا هم الأشراف Patricians ؟ يرى ليڤى(١) أن رميولوس اختار مائة من رؤساء العشائر فى قبيلته ليعينوه على تشييد رومة وليكون منهم مجلس شيوخه . وقد سمى كل واحد من هؤلاء الرجال فيما بعد پاتر أى « الأب » وسمى أبناءهم وأحفادهم پتريشى – أى « المنحدرين من الآباء » . أما النظرية الحديثة التى تستمد حياتها من تجريح التقاليد المأثورة ، فيحلو لها أن تفسر وجود هؤلاء الأشراف بأنهم غزاة غرباء لعلهم سهنيون Sabines غزوا لاتيوم Latium وحكموا العامة (Plebs) اللاتين بعد هذا الغزو ووضعوهم فى منزلة دون منزلتهم هم . ولنا أن نعتقد أنهم كانوا يتألفون من عشائر تملكوا خير الأراضى بفضل تفوقهم الاقتصادى أو الحربى ، ثم حولوا زعامتهم الزراعية إلى سيطرة سياسية ، وقد ظلت هذه العشائر المنتصرة – المنلى Manlii ، والفاليرى Valerii ، والإميلى Aemaelii ، والكرنيلى Dornelii ، والفابى Fabii ، والهوراشى Horatii والكلودى Claudii والليولى Lulii الخ – خمسة قرون كاملة تمد رومة بالقواد العسكريين والقناصل، والقوانين . ولما انضمت القبائل الثلاث الأولى بعضها إلى

بعض تكون من رؤساء عشائرها مجلس للشيوخ يتألف من ثلثمائة من الأعضاء . ولم يكن هؤلاء الأعضاء رجال نعيم وترف كما كان خلفاؤهم فيما بعد ، فكثيراً ما كانوا يمسكون بأيديهم الفأس والمحراث ، ويعيشون على أبسط الطعام ، ويرتدون أثواباً من غزل بيوتهم ، وكان العامة يعجبون بهم حتى وقت كفاحهم . ويصفون كل ما يتصل بهم تقريباً بأنه « من الطراز الأول أو الطبقة الأولى Classicus »[٢] .

وكان يدانيهم فى الثراء ، وينقص عنهم نقصاً كثيراً فى السلطة السياسية رجال الأعمال equites ، ومن هؤلاء من بلغوا من الثراء درجة أمكنتهم من أن يشقوا طريقهم إلى مجلس الشيوخ ، ويكونوا فيه القسم الثانى من الرجال « الأشراف والمسجلين معهم » . وكان يطلق على هاتين الطبقتين اسم « الرتبتين » ويلقبون « بالصالحين » Boni ، وذلك لأن الحضارات القديمة كانت تقرن الفضيلة بالمرتبة والكفاية والسلطان ؛ وكان معنى الفضيلة Virtus عند الرومان هو الرجولة أى الصفات التى يتكون من مجموعها الرجل vir . ولم تكن كلمة Populus « الناس » تشمل غير هاتين الطبقتين العاليتين ، وكان هذا هو المعنى الذى يفهم فى بداية الأمر من هذه الحروف الأربعة S P Q R (Senatus Populusque Romanus) التى كانت تنقش فى زهو وخيلاء على عشرات الآلاف من الآثار[٣] ولما شقت الديمقراطية طريقها فى رومة تغير معنى كلمة Populus تدريجاً حتى شملت عامة الشعب أيضاً .

وكانت الكثرة الغالبة من المواطنين الرومان تتكون من هذه الطبقة ، وكان منها الصناع والتجار ، ومنها الأرقاء المحررون وكثير منها فلاحون ، ولعلهم كانوا فى بداية أمرهم أهل تلال المدينة الذين غلبوا على أمرهم ، وكان منهم من يتصل بوصفه مولى Clintes أو تابعاً بشريف Patronus

من طبقات عليا ، وكان هؤلاء الأتباع يساعدون الشريف فى وقت السلم ويعملون تحت إمرته فى وقت الحرب ، ويقترعون فى الجمعية كما يأمرهم أن يقترعوا وذلك فى نظير حمايته إياهم وما يمنحهم من الأرض الزراعية .

وكان من الأرقاء أدنى الطبقات ، وكانوا فى عهد الملوك قليلى العدد كثيرى الأكلاف ، ولذلك كان سادتهم يحسنون معاملاتهم ويعدونهم أعضاء ذوى نفع كبير فى أسرهم . فلما كان القرن السادس قبل الميلاد ، وبدأت رومة حياة الغزو والفتح ، بيع عدد من أسرى الحرب مطرد الزيادة إلى الأشراف ورجال الأعمال وإلى العامة أنفسهم ، وانحطت منزلة الرقيق . وكانت القوانين تبيح معاملة العبد كما يعامل الإنسان متاعه ، ذلك أنه من الوجهة النظرية ، وطبقاً لعادات القدماء ، قد فقد حقه فى الحياة حين وقع فى الأسر ، وإن استعباده لم يكن إلا رحمة به وتخفيفاً لحكم الموت الذى استحقه بهزيمته . وكان يعهد إليه فى بعض الأحيان أن يدير أملاك سيده وأعماله التجارية وتصريف أمواله ، وكثيراً ما كان يصبح معلما أو كاتباً أو ممثلا أو صانعاً أو عاملاً أو تاجراً أو فناناً ، ويؤدى إلى سيده بعض ما يحصل عليه من أجر عمله ، وكان فى وسعه بهذه الطريقة وبغيرها من الطرق أن يحصل من المال على ما يكفيه لشراء حريته ، ومن ثم يصبح عضواً فى جماعة العامة .

ولم تكن طبقات كثيرة من الأهلين راضية عن حالها قانعة بحظها ، ذلك أن القناعة من الصفات النادرة بين بنى الإنسان بقدر ما هى طبيعية بين الحيوان ، ولم تستطع حكومة من الحكومات أن ترضى جميع رعاياها . وفى رومة كان رجال الأعمال يألمون لحرمانهم من عضوية مجلس الشيوخ ، والأثرياء من العامة يألمون لحرمانهم من أن تكون لهم حقوق رجال الأعمال ؛ والفقراء يألمون لفقرهم وحرمانهم من الحقوق السياسية وتعرضهم للاسترقاق إذا عجزوا عن الوفاء بما عليهم من الديون . وكانت قوانين الجمهورية فى عهدها الأول تبيح للدائن أن

يسجن المدين الذى يتكرر عجزه عن الوفاء بدينه فى سجن انفرادى ، وأن يبيعه بيع الرقيق بل أن يقتله . وقد جاء فى القانون أن فى وسع الدائنين لشخص ما مجتمعين أن يقطعوا جسد المدين العاجز عن الوفاء ويقسموه فيما بينهم — وهو إجراء يلوح أنه لم ينفذ قط[4] . وطلب العامة أن تلغى هذه القوانين ، وأن يخفف عنهم عبء ما تراكم عليهم من الديون ، وأن توزع الأرض التى تنال بالحرب وتمتلكها الدولة على الفقراء بدل أن توهب للأغنياء أو تباع لهم بأثمان اسمية ؛ وأن يكون من حق العامة أن يختاروا حكاماً وكهنة ، وأن يتزوجوا من الأشراف ورجال الأعمال ، وأن يكون لهم ممثل من طبقتهم فى أعلى الوظائف الحكومية . وحاول مجلس الشيوخ أن يقف هذه الحركة بإثارة الحروب الخارجية ، ولكنه دهش إذ رأى أن الدعوة إلى حمل السلاح لم يستجب لها أحد . وفى عام ٤٩٤ ق . م « انشق » عليهم عدد كبير من العامة ونزحوا إلى الجبل المقدس على نهر أنيو Anio على مسيرة نحو ثلاثة أميال من المدينة ، وأعلنوا أنهم لن يعملوا أو يحاربوا من أجل رومة حتى تجاب مطالبهم . ولجأ مجلس الشيوخ إلى جميع الحيل السياسية أو الدينية لإغراء العامة بالرجوع إلى رومة ، ولكن هؤلاء أصروا على مطالبهم ؛ فلما خشى أن تقع البلاد فى القريب بين نارى الغزو الخارجى والشقاق الداخلى وافق على إلغاء الديون أو تخفيضها ، وعلى تعيين تربيونين(*) وثلاثة إيديلين Aediles يختارون من بين العامة للدفاع عن مصالحهم . ورجع العامة إلى رومة ولكنهم أقسموا قبل رجوعهم بأحرج الأيمان أن يقتلوا كل رجل يعتدى على ممثليهم فى الحكومة[5] .

وكانت هذه هى المعركة الأولى فى حرب الطبقات التى لم تنته إلا بانتهاء عهد الجمهورية وبعد أن قضت عليها . وحدث فى عام ٤٨٦ أن اقترح القنصل

(*) التربيون محام عن العامة يختار من بينهم والإيديل موظف يشرف على المبانى العامة والألعاب والأسواق والشرطة .

أسپوريوس كاسيوس Spurius Cassius أن توزع على الفقراء الأراضى التى استولت عليها رومة فى الحرب ، فاتهمه الأشراف بأنه يتحبب إلى الشعب ليكون ملكا على البلاد ، وقتلوه . والراجح أن هذا الاقتراح لم يكن أول الاقتراحات الزراعية الكثيرة التى لاقى أصحابها حتفهم على يد أعضاء مجلس الشيوخ ، والتى انتهت بمأساة ابنى جراكس Gracchi وقيصر . وفى عام ٤٣٩ وزع أسپوريوس ميليوس Spurius Maelius قمحاً على الفقراء بأثمان مخفضة أو بغير ثمن فى أثناء قحط أصاب رومة ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن بعث برسول اغتاله فى منزله بتهمة أنه يعمل لينصب نفسه ملكا[٦] . وفى عام ٣٨٤ قتل ماركس مانليوس Marcus Manlius ، وكان قد صد الغزاة اليونان عن رومة ودافع عنها دفاع الأبطال ، بهذه الحجة نفسها ، وذلك بعد أن أنفق ماله فى أداء ديون المدينين العاجزين عن الوفاء .

وكانت الخطوة التالية التى خطاها العامة فى سبيل نيل حقوقهم أن طالبوا بأن تكون القوانين المدنية واضحة محددة مدونة . ذلك أن الكهنة والأشراف قد ظلوا حتى ذلك الوقت هم القائمين بتدوين القوانين المكتوبة وتفسيرها ، وكانوا يحتفظون بسجلاتها سراً لا يطلع عليه غيرهم من الأهلين ، ويتخذون من هذا الاحتكار ، وبما تتطلبه القوانين من مراسم ، أسلحة يقاومون بها كل دعوة إلى الإصلاح الاجتماعى . وعارض مجلس الشيوخ فى هذه المطالب الجديدة معارضة طويلة ، ولكنه وافق فى آخر الأمر (عام ٤٥٤) على أن يرسل إلى بلاد اليونان لجنة مؤلفة من ثلاثة من الأشراف لدراسة شرائع صولون Solon وغيره من المشترعين . وكتابة تقرير عنها . فلما عاد الأعضاء اختارت الجمعية (فى عام ٤٥١) عشرة رجال – دسمڤراى Decemviri – لوضع قانون جديد ، وخولتهم أعلى سلطة حكومية فى رومة مدى سنتين . وكان رئيس هذه اللجنة رجلا رجعياً قوى الشكيمة يدعى أپيوس كلوديوس Appius Claudius ، وكانت نتيجة أعمالها

أن حولت قوانين رومة القديمة القائمة على العادة والعرف إلى الاثنتى عشرة لوحة الذائعة الصيت ، وعرضت على الجمعية فوافقت عليها بعد أن عدلتها بعض التعديل ، وعرضتها فى السوق العامة لمن يريد أن يقرأها ــ وكان قادراً على قراءتها . وكانت هذه الحادثة التى تبدو فى ظاهر أمرها تافهة غير جديرة بالعناية من الحوادث الهامة البالغة الأثر فى تاريخ رومة بوجه خاص وفى تاريخ العالم كله بوجه عام ؛ ذلك أنها كانت أول ما دون من ذلك الصرح القانونى العظيم الذى كان أهم ما قامت به رومة من الأعمال وما قدمته إلى الحضارة من هبات .

ولما انتهى العام الثانى من العامين اللذين تولت اللجنة فيهما السلطة العليا أبت أن تعيد الحكم إلى قنصل الأشراف وتربيونى العامة ، وظلت تمارس السلطة العليا ــ وكانت سلطة أقل قيوداً من سلطة القنصل والتربيون وأكثر منها تحرراً من التبعات . وتروى قصة أخرى نرتاب فى صحتها ــ ارتيابنا فى قصة لكريشيا ــ إن أبيوس كلوديوس شغف حباً بفرچينيا الحسناء إحدى بنات العامة ، وعمل على أن تعد من الجوارى الرقيقات ليتمكن بذلك من الاستيلاء عليها لنفسه ، وغضب لذلك أبوها لوسيوس فرچينيوس **Luciuis Virginus** واحتج على هذا العمل ، ولما أبى كلوديوس أن يصغى إلى احتجاجه قتل الرجل ابنته ، وهرول إلى فرقته واستعانها على خلع الطاغية الجديد . « وانسحب » العامة الغاضبون مرة أخرى إلى الجبل المقدس ، ونهجوا كما يقول ليفى « نهج آبائهم وحذوا حذوهم فى اعتدالهم ، فامتنعوا عن كل عنف[7] » . وعلم الأشراف أن الجيش يناصر العامة ، فاجتمعوا فى دار مجلس الشيوخ ، وخلعوا العشرة الحكام ، ونفوا كلوديوس ، وأعادوا نظام القنصلين وزادوا سلطان التربيونين ، واعترفوا بتحريم الاعتداء عليهما ، وأيدوا حق العامة فى الالتجاء إلى مجلس المائة لاستئناف ما يصدره كبار الموظفين أياً كانت منزلتهم من أحكام[8] . وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت (٤٤٥) عرض المحامى كيوس كنيوليوس **Caius Canuleius** اقتراحاً يطالب فيه

أن يكون للعامة حق الزواج من الأشراف ، وأن يختار منهم قناصل . ورأى مجلس الشيوخ أن البلاد مهددة مرة أخرى بأن يغزوها جيرانها ليثأروا لأنفسهم منها ، فأجابوا أول المطلبين وتخلصوا من المطلب الثانى بأن رضوا أن يكون لستة من التريبونين الذين تختارهم جمعية المئة سلطة القناصل . ورد العامة على هذا الجميل بمثله فاختاروا الستة tribuni militum consulari Potestate من بين طبقة الأشراف .

وضمت الحرب الطويلة التى قامت بين رومة وفياى (٤٠٥ — ٣٩٦) ، وهجمات الغاليين عليها ، صفوف الأمة إلى حين ، فهدأت ثائرة النزاع الداخلى ، ولكن النصر والهزيمة على السواء تركا العامة فقراء معدمين ، فقد أهملت أراضيهم أو انتزعت منهم وهم يدافعون عن بلادهم ، وتراكمت عليهم فوائد الديون حتى لم يعد فى وسعهم أن يوفوا بها . ولم يرحمهم الدائنون أو يصغوا لشكاياتهم ، بل أصروا على طلب حقهم من رؤوس أموال وأرباح ، وإلا كان الإسترقاق والسجن جزاء المدينين . وفى عام ٣٧٦ اقترح التريبونان ليسنيوس Licinius وسكستيوس Sextius أن تخفض أصول الديون بقدر ما وفى به من فوائدها ، وأن يؤدى الباقى بعدئذ فى خلال ثلاث سنين ، وألا يحق لإنسان فيما بعد أن يمتلك أكثر من خمسمائة يجيرا iugera (نحو ثلثمائة فدان) من الأرض ، وألا يتجاوز العبيد الذين يعملون فيها نسبة معينة من العمال الأحرار ، وأن يختار أحد القنصلين من العامة على الدوام : وظل الأشراف يعارضون فى هذه المطالب عشر سنين ؛ وكانوا فى أثناء ذلك على حد قول ديوكاسيوس Dio Cassius « يثيرون حرباً فى إثر حرب حتى يشغلوا بذلك الشعب فلا يثير مطالبه الخاصة بامتلاك الأرض[٩] » . ولما تهددهم العامة آخر الأمر بانسحاب[*] جديد قبل

(*) كان عمل الرقيب فى رومة هو حفظ السجلات المحتوية على أملاك المواطنين وفرض الضرائب عليهم ومراقبة أخلاقهم . وكان منصب البريتور يلى منصب القنصل فى المرتبة .

مجلس الشيوخ « قوانين ليسنيوس » وخلد كميليوس Camillus زعيم المحافظين هذا الاتفاق بين الطبقات بإنشاء هيكل وفاق فخم فى السوق العامة .

وكانت هذه الخطوة من أكبر الخطى فى نماء الدمقراطية الرومانية المقيدة ، وأخذ العامة من ذلك الوقت يتقدمون تقدماً سريعاً فى سبيل المساواة بالطبقتين الممتازتين — طبقتى الأشراف ورجال الأعمال — فى الشئون السياسية والقانونية . ففى عام ٣٥٦ عين أحد العامة دكتاتوراً مدة عام ، وفى عام ٣٥١ كان منهم رقباء Censors ، وفى عام ٣٣٧ كان منهم البريتور Praetor ، وفى عام ٣٠٠ كان منهم كهنة . وكانت آخر هـــذه الخطوات أن وافق مجلس الشيوخ فى عام ٢٨٧ على أن تكون لأحكام الجمعية القبلية The Tribal Assembly أيضاً قوة القانون ، وإن تعارضت هذه الأحكام مع قرارات مجلس الشيوخ وإذا كان من السهل على العامة فى هذه الجمعية أن يتفوقوا على الأشراف عند الاقتراع فإن هذا القانون المعروف بقانون هورتنسيا Lex Hortensia كان خاتمة انتصار الدمقراطية الرومانية .

لكن مجلس الشيوخ لم يلبث أن استعاد سلطانه بعد هذه الهزائم فأُسكت المطالبون بتوزيع الأراضى بإرسال الرومان لاستعمار البلاد المفتوحة . وكان ما يلزم من المال للحصول على المناصب الحكومية والبقاء فيها — وكانت هذه المناصب لا يؤجر عليها أصحابها — فى حد ذاته حائلا بين الفقراء وبين توليها . يضاف إلى هذا أن الأثرياء من العامة ، بعد أن أصبح لهم ما للأشراف من سلطان سياسى وفرص متكافئة ، لم يلبثوا أن انضموا إلى الأشراف فى معارضة التشريعات المتطرفة ؛ واستكان الفقراء من العامة الذين أصبحوا لا موارد لهم فظلوا قرنين كامنين وليس لهم حظ كبير فى تصريف شئون رومة . ووافق رجال الأعمال على سياسة الأشراف لأن اتفاقهم معهم يتيح لهم فرص التعاقد على القيام بالمنشآت العامة ، ويفتح لهم أبواب استغلال الولايات ، والمستعمرات الرومانية ، وتكليفهم بجباية الضرائب للدولة . وظلت جمعية المئات ، التى كانت طريقة الاقتراع

فيها تمكن الأشراف من أن يكون لهم فيها السلطان الأكبر ، هى التى تختار الحكام وكبار الموظفين ، وتختار تبعاً لذلك أعضاء مجلس الشيوخ . واتخذ التربيونون ، الذين كانوا يعتمدون على الأثرياء من العامة ، سلطان وظيفتهم للحد من التطرف ، وأصبح كل قنصل ، ولو كان ممن يختارهم العامة ، من أشد الناس محافظة على القديم ، حين يصير عضواً فى مجلس الشيوخ مدى الحياة بعد أن تنتهى سنة توليه منصبه . وصار مجلس الشيوخ هو الذى يبدأ باقتراح القوانين ، وقوى العرف والعادات المأثورة من سلطانه فجعلاه فوق منطوق القانون . ولما ازدادت أهمية شئون الدولة الخارجية ، وكان مجلس الشيوخ هو الذى يتولى تصريفها ، كان حزمه مما زاد فى مكانته وسلطته . ولما أن اشتبكت رومة فى عام ٢٦٤ فى حرب مع قرطاجنة دامت مائة عام للسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط ، كان مجلس الشيوخ هو الذى تولى قيادة الأمة إلى النصر فى كل مأزق من المآزق ، ولذلك خضع الشعب البائس المعرض للأخطار لسلطان هذا المجلس وزعامته دون احتجاج أو اعتراض .

الفصل الثانى

دستور الجمهورية

١ — المشترعون

والآن فلنرسم لأنفسنا صورة من هذه الدولة المعقدة النظام بعد أن قضت خمسة قرون تنمو وتتطور . وقبل أن نفصل القول فى نظامها نقول إن العالم كله مجمع على أن حكومتها كانت من أقدر ما شهده من الحكومات ومن أعظمها نجاحا ؛ بل إن پوليبيوس Pollibius كان يرى أنها تكاد أن تحقق تحقيقاً تاماً دستور أرسطوطاليس المثالى ؛ وقد رسمت هذه الحكومة الخطوط الرئيسية للتاريخ الرومانى كما رسمت فى بعض الأحيان ميادين القتال فى هذا التاريخ .

ترى أى الأهلين فى هذه الدولة هم الذين كان يحق لهم أن يسموا أنفسهم « مواطنين » ؟ . فأما من الوجهة الرسمية القانونية فقد كان المواطنون هم أبناء إحدى القبائل الثلاث الأصلية فى رومة ، أو الذين تبنتهم إحدى هذه القبائل . وكان معنى هذا القول من الوجهة العملية أن المواطنين هم جميع الذكور الذين تزيد سنهم على الخامسة عشرة ، والذين لم يكونوا أرقاء أو غرباء ، مضافاً إليهم جميع الغرباء الذين منحتهم رومة حق المواطنة فيها . ولم يشهد العالم قبل رومة أو بعدها دولة من الدول حرصت مثل حرصها على حق المواطنية أو قدرته مثل تقديرها . لقد كان معنى هذا الحق أن يكون المستمتع به عضواً من أعضاء الجماعة الصغيرة التى لم تلبث إلا قليلا حتى حكمت جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، وكان هذا الحق يحصن صاحبه من التعذيب القانونى ، والتعرض للقصر والإرغام ، ويمكنه

من أن يشكو أى موظف فى الإمبراطورية إلى الجمعية الوطنية فى رومة — أو إلى الإمبراطور نفسه فيما بعد .

وكانت هذه الحقوق تستلزم بعض الواجبات ؛ فقد كان من حق الدولة على المواطن — إلا إذا كان فقيراً معدماً — أن تدعوه إلى الخدمة العسكرية من سن السادسة عشرة إلى سن الستين ، ولم يكن فى وسعه أن يشغل منصباً سياسياً إلا إذا قضى فى الجيش عشر سنين . وكانت حقوقه السياسية وثيقة الارتباط بواجباته العسكرية ، وبلغ من هذا الارتباط أنه كان يؤدى حقه فى التصويت فى أهم الأمور بوصفه عضواً فى فرقته أو فى « مائته » ، وكان فى عهد الملوك يعطى صوته أيضاً فى مجلس العشرة Comitia Curiata أى أنه هو وغيره من زعماء الأسر قد اجتمعوا فى مجلس الأقسام الثلاثين التى انقسمت إليها القبائل الثلاث . وقد ظل مجلس العشرة إلى آخر أيام الجمهورية هو الذى يخلع سلطة الحكم على الحكام ، وبعد سقوط الملكية بزمن قليل فقد مجلس العشرة سائر حقوقه الأخرى وآلت هذه الحقوق إلى مجلس المئين — فكان الجند يجتمعون جماعات تتألف كل واحدة منها فى بادئ الأمر من مائة جندى . وكانت هذه المجالس المئوية هى التى تختار كبار الحكام ، وتنظر فى الإجراءات التى يعرضها عليها الموظفون أو مجلس الشيوخ فتجيزها أو ترفضها ، وتنظر فيما يرفع إليها من استئناف الأحكام التى يصدرها كبار الحكام ، وتنظر بنفسها فى جميع القضايا التى يحكم فيها بالإعدام إذا كان المتهمون فيها مواطنين رومان ، وتعلن الحرب وتعقد الصلح ، ومن ثم كانت هذه الجمعية هى الأساس العام للجيش الرومانى والحكومة الرومانية . ولكن سلطانها مع ذلك كان محصوراً فى أضيق الحدود ، فلم يكن من حقها أن تجتمع إلا إذا دعاها إلى الاجتماع قنصل أو تربيون ، ولم يكن من حقها أن تقترع إلا على الأمور التى يعرضها عليها كبار الحكام أو مجلس الشيوخ ، ولم يكن لها أن تناقش الاقتراحات أو تعدلها ، وكل ما كان من حقها أن تقبلها أو ترفضها .

وكان تنظيم أعضائها على أساس الطبقات ضماناً قوياً لجعل قراراتها محافظة بعيدة عن التطرف . فكان على رأس هذه الجمعية ثمان عشرة مائة من الأشراف ورجال الأعمال (الطبقتين الممتازتين) . ويلى هؤلاء رجال « الطبقة الأولى » — الذين لهم أملاك تبلغ قيمتها ١٠٠,٠٠٠ آس(*) . وكان عدد ممثلى هذه الطبقات فى الجمعية ثمانين مائة أى ثمانية آلاف رجل ، وكانت الطبقة الثانية تشمل المواطنين الذى تقدر أملاكهم بين ٧٥,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ آس ؛ والطبقة الثالثة تشمل من كان لهم ثروة تقدر بين ٥٠,٠٠٠ وكان لكل طبقة من هـــذه الطبقات عشرون مائة . وكانت الطبقة الخامسة تشمل المواطنين الذين يملكون بين ١١,٠٠٠ و ٢٥,٠٠ آس وكان لهؤلاء ثلاثون مائة . أما المواطنون الذين تقل أملاكهم عن ١١,٠٠٠ آس فكانت تمثلهم مائة واحدة[١٠] ، وكان لكل مائة عند الاقتراع صوت واحد هو صوت أغلبية أعضائها ؛ وكان فى وسع أغلبية قليلة فى إحدى المئات أن تعطل قرار أغلبية كبرى فى مائة أخرى وتجعل الفوز فى جانب أقلية عددية . وإذا كانت كل مائة تقترع بترتيب مركزها المالى ، وكانت نتيجة اقتراعها تعلن عقب هذا الاقتراع ، فقد كان اتفاق الطائفتين الأوليين يجعل لها ٩٨ صوتاً ، وهى أغلبية أصوات الجمعية كلها . ومن أجل هذا فإن الطبقات الدنيا قلما كانت تقترع قط . وكان نظام الاقتراع هو النظام المباشر أى أن المواطن كان يعطى صوته بنفسه ، ومن ثم فإن المواطنين الذين لم يكونوا يستطيعون القدوم إلى رومة ليحضروا اجتماع الجمعية لم يكن لهم من يمثلهم فيها . ولم يكن ذلك كله مجرد أساليب وحيل لحرمان الفلاحين والسوقة من حقوقهم السياسية ، فقد كان نظام المئات نظاماً وضع بعد إحصاء السكان ليقدر على أساسه ما يؤدونه من الضرائب ومن الخدمة العسكرية .

(*) الآس عملة رومانية من النحاس كانت قوة شرائها فى عام ١٩٤٢ تساوى نحو ١/٣ من الريال الأمريكى . انظر الفصل السادس من الباب الرابع من هذا الكتاب .

وكان الرومان يرون العدل كل العدل أن يكون حق الاقتراع للأهلين متناسبا مع ما يؤدونه من الضرائب وما يطلب إليهم أداؤه من الخدمة العسكرية ، وعلى هذا الأساس لم يكن لمن يملكون أقل من مائة ألف آس إلا صوت مئوى واحد ، ولكنهم فى نظير هذا لم يكونوا يؤدون إلا قدراً ضئيلا لا يؤبه له من الضرائب ، وكانوا فى الأوقات العادية معفين من الخدمة العسكرية[11] ، وقد ظلت الطبقات الفقيرة إلى أيام ماريوس معفاة من كل شىء إلا من إنتاج أكبر عدد تستطيعه من الأبناء ، وظل مجلس المائة رغم ما أدخل على نظامه من التعديل فيما بعد هيئة أرستقراطية محافظة لا تستنكف أن تجهر بمبادئها .

وما من شك فى أن هذه الحال قد جعلت العامة يقيمون لهم من بداية عهد الجمهورية مجالسهم الخاصة المعروفة **بمجالس العامة concilia plebis** . ولعل الجمعية المعروفة **بمجلس قبائل الشعب omitia populi tribvta** التى نراها تمارس حقوقا تشريعية منذ عام ٣٥٧ ق . م قد نشأت من هذه المجالس نفسها ، وكان المقترعون فى هذه الجمعية الشعبية القبلية ينظمون حسب القبيلة التى ينتمون إليها والمسكن الذى يقيمون فيه على أساس الإحصاء الذى حدث فى عهد سرڤيوس سادس ملوك رومة ، وكان لكل قبيلة صوت واحد ، وكان الأغنياء فيها والفقراء سواء . وأخذت سلطة الجمعية القبلية تزداد بعد اعتراف مجلس الشيوخ بحقوقها التشريعية فى عام ٢٨٧ ق . م ، وما وافى عام ٢٠٠ ق . م حتى كانت هى مصدر الشرائع الخاصة فى رومة . وكانت هى التى تختار تربيونى الشعب Tribuni Plebis (الذين يمثلون القبائل) وهم غير التربيونين العسكريين Tribuni militares الذين كانت تختارهم المئات . على أنه فى هذه الجمعية نفسها لم يكن الأعضاء يتناقشون . فقد كان أحد كبار الموظفين يقترح قانوناً ويدافع عنه ، ثم يقوم موظف كبير غيره يعارضه إذا شاء ، وتستمع الجمعية لهذا وذاك ثم تقترع عليه بالقبول

أو الرفض وكانت هذه الجمعية بحكم تكوينها ذات نزعة تقدمية أكثر من الجمعية المئوية ، ولكنها كانت أبعد ما تكون عن التطرف ؛ وذلك أن إحدى وثلاثين قبيلة من قبائلها الخمس والثلاثين كانت قبائل ريفية ، وكان معظم أعضائها من ملاك الأراضى ، فكانوا لذلك رجالا حذرين ، ولم يكن لمن فيها من عامة الحواضر ، ولم يكونوا يتجاوزون أربع قبائل ، وشىء من السلطة السياسية قبل زمن ماريوس Marius أو بعد قيصر .

وهكذا ظل مجلس الشيوخ صاحب السلطان الأعلى فى رومة . وكان أعضاؤه الأولون وهم رؤساء العشائر يجددون بقبول القناصل والرقباء (Censors) السابقين أعضاء فيه . وكان يعهد إلى الرقباء أن يعملوا حتى يظل أعضاؤه ثلثمائة عضو على الدوام ، وذلك بأن يرشحوا لعضويته رجالا من طبقة الأعيان أو الفرسان . وكانت العضوية فيه تدوم مدى الحياة ؛ ولكن كان من حق مجلس الشيوخ ومن حق الرقيب أن يفصل أى عضو يضبط متلبساً بجناية أو بجريمة خلقية خطيرة . وكان هذا المجلس الأعلى يجتمع إذا دعاه إلى الاجتماع أحد كبار الحكام فى الكوريا Curia أو بناء المجلس المواجه للسوق العامة . وكان من العادات اللطيفة أن يأتى الأعضاء معهم بأبنائهم ليحضروا الاجتماع وهم صامتون ، ليتعلموا السياسة والمماحكة عن قرب . وكان حق المجلس من الوجهة النظرية مقصورا على مناقشة ما يعرضه عليه أحد كبار الحكام من المسائل وإصدار قرار فيها ، وكانت قراراته فى هذه المسائل استشارية محضة senatus consulta ليس لها قوة القانون ؛ ولكن المجلس كان له من عظم المكانة ما جعل الحكام يعملون بتوصياته فى جميع الحالات تقريباً ، وقلما كانوا يعرضون على غيره من الجمعيات مسائل لم يقرها هو من قبل ؛ على أنه كان من حق أى تريبيون أن ينقض قرارات المجلس كما كان من حق الأقلية المنهزمة فى المجلس أن تستأنف القرار إلى الجمعيات الأخرى[13] . ولكن هذه الإجراءات كانت نادرة الحدوث إلا فى أيام الثورات والانقلابات .

ولم يكن كبار الحكام يبقون فى مناصبهم أكثر من عام واحد فى حين أن الشيوخ كانوا يحتفظون بعضوية المجلس مدى الحياة . ولم يكن ثمة مفر من أن يكون صاحب هذا السلطان الخالد المسيطر على صاحب السلطان القصير الأجل . ولهذا كانت الصلات الخارجية ، وعقد المحالفات والمعاهدات ، وإعلان الحرب ، وحكم المستعمرات والولايات ، وإدارة الأراضى العامة وتوزيعها بين الأهلين ، والإشراف على أموال الخزانة العامة وإنفاقها — كانت هذه الشئون كلها يختص بها مجلس الشيوخ وحده ، وقد أكسبه انفراده بها سلطة لا تكاد تعرف لها حدود . فكان هذا المجلس صاحب السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مجتمعة ، وكان هو الحكم الفصل فى الجرائم الكبرى كجريمة الخيانة الوطنية ، والتآمر والاغتيال ، وكان يختار من بين أعضائه قضاة للنظر فى معظم القضايا المدنية الهامة ، وكان فى وسعه إذا حدثت أزمة من الأزمات أن يصدر أعظم قراراته وأقواها وهو **sensatus-consultum ultimatum** وهو « أن من واجب القنصلين أن يعملا على ألا تصاب الدولة بأذى » وهو قرار يفرض الأحكام العرفية ويمنح القنصلين سلطة مطلقة على جميع الأفراد وعلى كل الأملاك .

وكثيراً ما كان مجلس الشيوخ فى عهد الجمهورية يسىء استعمال سلطانه ، فكان يحمى الموظفين المرتشين(*) ، ويعلن الحرب بلا تدبر وتفكير ، ويستغل البلاد المفتوحة استغلالا شرها ، ويقمع بالقسوة رغبة الشعب فى أن يشترك بنصيب أوفر مما كان له فى رخاء رومة . ولكن تاريخ العالم لم يشهد فى غير رومة وفى غير عهد الجمهورية — إذا استثنينا من هذا التعميم عهد الأباطرة من ترجان **Trajan** إلى أورليوس **Aurilius** — ما شهده فى هذا العهد من نشاط وحكمة ومهارة فى

(*) لقد كان الرومان يطلقون اللفظ اللاتينى المقابل للفظ جمهورية **Respublica** ومعناه الملك العام على أشكال دولتهم الثلاثة — الملكية و « الدمقراطية » ، والإمارة ؛ ولكن المؤرخين فى هذه الأيام قد اتفقوا على أن لا يطلقوا هذا اللفظ إلا على الفترة المحصورة بين عامى ٥٠٨ ، ٤٩ ق . م .

تصريف الشئون السياسية ، كما لم يشهد فى غير ذلك العهد ما شهده فيه من سيطرة فكرة خدمة الدولة على جميع أعمال الحكومة وأعمال الشعب

ولسنا ننكر أن الشيوخ لم يكونوا ملائكة معصومين من الزلل ، وأنهم كانوا يرتكبون أخطاء خطيرة ، وأنهم كانوا فى بعض الأحيان متقلبين لا يثبتون على سياسة واحدة ، يعميهم حب الكسب عن رؤية مصالح الدولة . ولكن الذى لا شك فيه أن معظم أعضاء هذا المجلس كانوا من كبار الحكام ، والمديرين والقواد العسكريين ، وكان منهم الولاة الذين حكموا ولايات لا تقل سعة عن الممالك ، ومنهم أبناء أسر ظلت مئات الأعوام تنجب لرومة ساسة وقواداً . ولهذا كان من المستحيل ألا يخلو مجلس فيه رجال من هذا الطراز من قسط غير قليل من السمو والعظمة ، وكان مجلس الشيوخ فى أسوأ حالاته فى أيام الانتصار وفى أحسنها أيام الهزيمة . وكان فى وسعه أن يسير على سياسة واحدة مدى آجال وقرون كثيرة ، كما كان فى مقدوره أن يبدأ حرباً فى عام ٢٦٤ ق . م لا تضع أوزارها إلا فى عام ١٤٦ ق . م . وحسبنا دليلا على عظمته أنه لما جاء الفيلسوف سيناياس Cineas إلى رومة موفداً من قبل پرس Pyrrhus (عام ٢٨٠ ق . م) وسمع مناقشات المجلس ورأى رجاله ثم عاد إلى بلاده ، قال للإسكندر الجديد إن الذى رآه لم يكن مجرد اجتماع من ساسة مأجورين ولم يكن مجلساً من عقول عادية جمعتها المصادفات المحضة ، بل كان فى مهابته وحسن سياسته « مجمعاً للملوك بحق[١٣] » .

٣ — الحكام

وكان كبار الحكام تختارهم الجمعية المئوية ، أما صغارهم فكانت تختارهم الجمعية القبلية . وكان يعين فى كل منصب زميلان متساويان فى السلطة ، ولا يبقيان فيه أكثر من عام واحد ما عدا منصب الرقيب . ولم يكن يجوز لشخص ما أن يتولى المنصب نفسه أكثر من مرة واحدة كل عشر سنين ، وكان لا بد

أن يمضى عام بين خروجه من منصب وتوليه منصباً آخر ، وكان من حق الدولة أن تحاكمه فى فترة تعطله إذا أساء استعمال سلطة وظيفته . وكان الرومانى الذى يريد أن يشق لنفسه طريقاً فى الحياة السياسية ، إذا كان قد قضى فى الجيش عشر سنين ، يرشح نفسه لأن يختار محاسبا (كوسترا quasstor) ينظر تحت إشراف مجلس الشيوخ والقنصلين فى نفقات الدولة ، ويعاون المقدمين praetors فى منع الجرائم ومحاكمة المجرمين ، فإذا نال رضاء الناخبين أو ذوى النفوذ من مؤيديه فقد يختار فيما بعد واحداً من الأربعة الإيدليين الذين كانوا يشرفون على المبانى العامة وقنوات مياه الشرب ، وشوارع المدن ، والأسواق ، والمسارح ، والمواخير ، والأبهاء العامة ، ومحاكم الشرطة ، والألعاب العامة . وإذا اطرد بعدئذ نجاحه فقد يكون واحداً من الأربعة المقدمين الذين كانوا يتولون فى الحرب قيادة الجيوش ويشغلون فى السلم مناصب القضاة وشراح القانون(*) .

فإذا وصل المواطن إلى هذه الدرجة فى سلم الوظائف cursus honorum واشتهر بالأمانة وأصالة الرأى كان فى وسعه أن يكون أحد الرقيبين censors اللذين تختارهما الجمعية المئوية كل خمس سنين ، ويتولى أحدهما الإحصاء الدورى للسكان ، وهو الإحصاء الذى كان يعمل كل خمس سنين ، ويسجل أملاكهم ليقدر بذلك مكانتهم السياسية والعسكرية ، وما يجب أن يؤدوه من الضرائب . وكان من واجبات الرقيب أن يتعرف أخلاق كل طالب منصب ، ويفحص عن سجل أعماله ، ويعمل على صيانة أعراض النساء ، ويشرف على تعليم الأطفال ومعاملة الأرقاء وجباية الضرائب أو التزامها ، وإقامة المبانى العامة ، وتأجير أملاك

(*) والكلمة اللاتيلية المقابلة للمحاسبين Quaestor مشتقة من Quaerer ومعناها يؤدى أما الكلمة المقابلة المفتشين Aediles فهى مشتقة من Aedes ومعناها البناء . أما praetor (المقدم) فمأخوذة من prae-ire ومعناها يتقدم أو يقود ومن أجل ذلك كانت الفرقة العسكرية التى تتولى حراسته تسمى « حرس المقدم » praetorian Guard

الحكومة والتعاقد عليها ، والتأكد من العناية بزراعة الأرض . وكان فى مقدور الرقيبين أن ينقصا منزلة أى مواطن ، أو يخرجا أى عضو من مجلس الشيوخ لسوء أخلاقه أو لارتكابه جريمة . ولم يكن فى وسع أى الرقيبين أن يلغى حق الرقيب الآخر فى هذه الناحية . وكان فى وسعهما أن يمنعا الإسراف بفرض ضرائب على الكماليات . وكانا يعدان ميزانية نفقات الدولة على أساس مشروعات تمتد إلى خمس سنوات ، وكانا عند انتهاء الفترة التى يتوليان فيها منصبهما ، ومدتها ثمانية عشر شهراً ، يجمعان المواطنين فى احتفال مهيب يدعى احتفال التطهير القومى **Lustrum** يتخذانه وسيلة للاحتفاظ بالعلاقات الودية بينهم وبين الآلهة . وكان أپيوس كلوديوس كيكس **Appius Claudius Caecns** (الأعمى) ابن حفيد أحد الرجال العشرة أول من جعل لمنصب الرقيب منزلة لا تقل عن منزلة القنصل ، وهو الذى شاد إبان توليه هذا المنصب المجرى المائى والطريقين المعروفين بمجرى أپيوس وطريقه ، ورقى الأغنياء من العامة أعضاء فى مجلس الشيوخ ، وأصلح القوانين الزراعية ومالية الدولة ، وعمل على إضعاف ما كان يتمتع به الكهنة والأعيان من احتكار حق وضع القوانين وتصريف الشئون القضائية ، وترك له أثراً خالداً فى النحو والشعر الرومانيين والبلاغة الرومانية ، ووجه الرومان إلى فتح جميع إيطاليا بخطابه الذى ألقاه وهو على فراش الموت .

ولقد كان المفروض من الوجهة النظرية أن يكون أحد القنصلين من العامة . أما من الوجهة العملية فإنه لم يختر من العامة إلا عدد قليل جداً من القناصل ، وذلك لأنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم رجالا أوتوا حظاً موفوراً من التعليم والمران ليعالجوا كل الشئون التنفيذية فى جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط فى حالتى الحرب والسلم . وكان الموظف الكبير الذى يشرف على اختيار القنصل — إذا ما حان موعد الاختيار — يرقب النجوم ليعرف مَن مِن المرشحين الكثيرين يحسن أن يعرض اسمه

ليختار لهذا المنصب ؛ فإذا عرف هذا رأس اجتماع الجمعية المئوية فى اليوم التالى ، ولم يعرض عليها إلا أسماء الذين تبين من نظرته فى النجوم أنهم صالحون[14] . وبهذه الطريقة كان الأعيان يحولون بين الحديثى النعمة والزعماء المهرجين وبين تسنم هذا المنصب الرفيع ؛ وكانت الجمعية فى معظم الحالات تلتزم هذا الخداع الصالح حتى لا تقع فى الزلل ، أو لأنها لا تجرؤ على مخالفة الأوامر الصادرة إليها . وكان المرشح يحضر الاجتماع بنفسه مرتدياً ثوب الترشيح ، وهو ثوب أبيض بسيط ، علامة على بساطة حياته وخلقه ؛ ولعله كان يختار ليسهل على المرشح أن يظهر للأعضاء ندب الجروح التى أصيب بها فى ميادين القتال . فإذا نجح تولى منصبه فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس التالى ليوم الانتخاب . وكان القنصل يخلع القداسة على منصبه بتوليه رياسة الطقوس الدينية الخطيرة . وكان فى وقت السلم يدعو مجلس الشيوخ والجمعية المئوية إلى الانعقاد ، ويرأس جلساتهما ، ويقترح القوانين وينفذها ، ويوزع العدالة بين الناس . وكان فى أوقات الحرب يجيش الجيوش ، ويجمع ما يلزمها من الأموال ، ويشترك مع زميله القنصل الثانى فى قيادة الفيالق العسكرية ؛ فإذا مات القنصلان كلاهما أو وقعا فى الأسر أثناء السنة التى يتوليان فيها عملهما أعلن مجلس الشيوخ قيام فترة خلو المنصبين Interregnum ، وعين من يتولى تصريف الأمور Interrex (ملك فترة) مدة خمسة أيام تتخذ العدة فى أثنائها لانتخاب جديد . ويدل هذا اللفظ الأخير على أن القنصلين قد ورثا فى مدة عملهما القصيرة سلطات الملوك .

وكانت سلطة القنصل تحددها سلطة زميله القنصل الثانى المساوية لسلطته ، وما يفرضه عليه مجلس الشيوخ ، وبما كان للتربيون من حق الاعتراض على قراراته . وقد اختير فى عام ٣٦٧ ق . م أربعة عشر تربيوناً عسكرياً لقيادة القبائل فى الحرب وعشرة « تربيونين من العامة » يمثلونهم فى أوقات السلم ؛ وكان هؤلاء جميعاً يعدون أشخاصاً محصنين إذا مسهم أحد بسوء إلا فى عهد الدكتاتورية القانونية عد ذلك خروجا على الدين وجريمة يعاقب مرتكبها

بالإعدام .. وكان عملهم أن يحموا الشعب من عدوان الحكومة ، وأن يقفوا بكلمة واحدة منهم هي كلمة ڤيتو Veto ومعناها « أحرِّم » كل دولاب الحكومة إذا بدا لأحدهم أن هذا التحريم مرغوب فيه . وكان من حق التربيون أن يحضر اجتماع مجلس الشيوخ بوصفه مشاهداً صامتاً ، وأن ينقل للشعب ما يدور فيه من النقاش ، وأن يجرد بما له من حق الاعتراض قرارات المجلس من كل ما لها من قوة قانونية ؛ وكان باب بيته المحصن يظل مفتوحا ليلا ونهاراً يلجأ إليه كل مواطن يطلب إليه المعونة أو الحماية . وهذا الحق — حق الحماية أو القداسة — شبيه بحق الحصانة habeas coapus الذى يمنحه القانون الإنجليزى لسكان إنجلترا فى هذه الأيام . وكان فى وسعه وهو جالس على دكته أن يصدر أحكاماً قضائية لا معقب لها ، ولا تستأنف إلا لجمعية القبائل وكان من واجبه أن يضمن لكل متهم محاكمة عادلة ، وأن يحصل على عفو للمحكوم عليه إذا كان ذلك فى استطاعته .

تُرى كيف استطاع الأشراف أن يحتفظوا بسلطانهم وتفوقهم على العامة رغم هذه القيود التى فرضت عليهم ؟ لقد كان أول أسباب هذا الاحتفاظ أن القيود المفروضة عليهم كانت مقصورة على مدينة رومة نفسها وعلى أوقات السلم وحدها ، أما فى زمن الحرب فقد كان التربيونون خاضعين للقناصل . والسبب الثانى أن الأشراف كانوا يحملون الجمعية القبلية على اختيار التربيونين من بين أغنياء العامة ؛ وكان ما للثروة فى رومة من منزلة ، وما يصحب الفقر من ضعة ، يغريان الفقراء باختيار الأغنياء لحمياتهم والدفاع عنهم . وثالث الأسباب أن زيادة عدد التربيونين من أربعة إلى عشرة قد جعل فى مقدور الواحد منهم ، إن أمكن إغراؤه بالمال أو استمع لصوت العقل ، أن يُلغى بما له من حق الاعتراض إقرار التربيونين الباقين(١٥) . وقد سلس قيادهم على مر الزمن حتى أصبح فى الإمكان أن تعهد إليهم دعوة مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وأن يسمح لهم بالاشتراك فى

مناقشاته ، وأن يصبحوا أعضاء فيه مدى الحياة بعد أن تنتهى مدة بقائهم فى مناصبهم .

وإذا لم تفلح هذه الوسائل كلها فى إضعاف سلطان التربيون كانت هناك وسيلة أخرى لوقاية النظام الاجتماعى أعظم منها أثراً . ذلك أن الرومان كانوا يعتقدون أن جميع ما يتمتعون به من الحريات والامتيازات الاجتماعية ، وكل ما وضعوه لحماية أنفسهم من قيود وتوازن بين السلطات ، كانوا يعتقدون أن هذا كله قد يعوق فى إبان الاضطراب والخطر القومى ما يتطلبه إنقاذ الدولة وحمايتها من عمل سريع موحد . وكان من حق مجلس الشيوخ فى هذه الحال أن يعلن قيام حالة الطوارئ ، كما كان من حق كل من القنصلين أن يرشّح حاكما مطلقاً يتولى جميع السلطات . وقد اختير أولئك الحكام المطلقون فى جميع الحالات إلا حالة واحدة من طبقة الأشراف ؛ ولكن من واجبنا أن نقول إنصافاً لهذه الطبقة إنها قلما كانت تسىء استخدام هذا المنصب ؛ وكان للحاكم المطلق سلطة تكاد أن تكون غير محدودة على جميع الأشخاص والأملاك ، ولكنه لم يكن من حقه أن يستخدم الأموال العامة إلا بموافقة مجلس الشيوخ . وكانت مدة ولايته الحكم مقصورة على ستة أشهر أو سنة . وقد تقيد الحكام المطلقون جميعهم ، ما عدا اثنين منهم ، بهذه القيود متبعين فى ذلك السنة الحسنة التى سنها لهم سنسناتس Cincinnatus كما تقول الرواية المأثورة ، فقد دعى هذا الرجل من وراء المحراث لينقذ الدولة (عام ٤٥٦ ق . م) ، فلما أدى مهمته عاد من فوره إلى مزرعته ولما أن خرج صلا Sulla وقيصر على هذه السنة عاد الحكم الجمهورى إلى الملكية التى نشأ منها .

وكان كبار الحكام يهيمنون على توزيع العدالة في نطاق هذا الدستور الفذ تطبيقاً للألواح الاثنى عشر التي سجلتها فيها لجنة العشرة ؛ ولقد كان تسجيل القانون الروماني في هذه الألواح حادثاً هاماً في التاريخ الروماني ؛ وكان القانون الروماني قبل هذا التسجيل خليطاً من العادات القبلية ، والمراسيم الملكية ، والأوامر الكهنوتية : وبقيت أساليب القدماء — **Mos Maiorum** — إلى آخر أيام روما الوثنية القدوة الخلقية الصالحة ، والمعين الذي تستمد منه القوانين ؛ ومع أن الخيال ، والرغبة في الإصلاح والتهذيب ، قد أعليا من شأن سكان المدن القساة في عهد الجمهورية الأول ، وجعلا منهم مثلا أعلى يطلبون إلى المواطنين أن يعملوا للوصول إليه ، فإن القصص التي كانت تروى عن أخلاق أولئك السكان قد أعانت المربين على غرس فضيلتي الصبر وقوة الاحتمال في أخلاق الشباب في روما . أما فيما عدا هذا فإن القانون الروماني القديم كان مستمداً من القواعد والعادات الكهنوتية ، فكان بذلك فرعاً من الدين ، يغمره جو من الطقوس الرهيبة والحدود المقدسة : وكان هذا القانون أوامر تصدر وعدالة تطبق ؛ ولم يكن يحدد العلاقة بين الناس بعضهم بعضاً فحسب ، بل كان يحدد فوق ذلك العلاقة بين الآلهة والناس . وكانت الجريمة سبباً في اضطراب هذه العلاقة ، وفي تعكير صفو سلام الآلهة ؛ وكان الغرض من القانون ومن العقاب من الوجهة النظرية هو الاحتفاظ بهذه العلاقة أو إعادتها هي والسلام إذا اضطربا وتعكر صفوهما : وكان الكهنة هم الذين يعلنون ما هو حق وما هو باطل fas et nefas ، ويقررون في أي الأيام تفتتح المحاكم وتعقد المجالس . وكانت كل المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق ، والعزوبة والزواج بالأقارب . والوصايا ونقل الملكية ، وما للأطفال من حقوق ، كانت كل هذه المسائل لا بد من عرضها على الكهنة كما لا بد من

عرض الكثير منها على المحامين فى هذه الأيام » وكان الكهنة وحدهم الذين يعرفون القوانين والسنن التى لا يكاد يستطاع عمل شىء مشروع إلا باتباعها . وكانوا فى رومة هم المستشارين القانونيين ، وكانوا هم أول من يبدى الرأى القانونى responsa فى مهام الأمور . وكانت القوانين تسجل فى كتبهم ، وكانوا يحتفظون بهذه الكتب بعيدة عن متناول العامة ، وبلغ من حرصهم عليها أن اتهموا فى بعض الأحيان بتغيير نصوص القوانين لكى تتفق مع أغراض الأشراف أو رجال الدين . ولقد أحدثت الألواح الاثنا عشر انقلاباً قضائياً مزدوجاً ، ذلك أنها أذاعت القانون الرومانى ونشرته وأنها صبغته بالصبغة الدنيوية غير الدينية . وتمثل هذه الألواح — كما تمثل غيرها من كتب القانون التى دونت فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كقوانين كارنداس Charondas ، وزليكس Zalcucus ، ليقورغ Lycurgus ، وصولون Solon — مرحلة انتقال من العادات غير الثابتة غير المكتوبة إلى مرحلة القانون المحدد المدون ، وكان هذا العمل نتيجة انتشار القراءة والكتابة بين الناس وتمكن الروح الدمقراطية فيهم : يضاف إلى هذا أن « قانون المواطنين » ius civile كما هو مدون فى الألواح الاثنى عشر ، قد تحرر من الصبغة الدينية أو « القانون الدينى » ius divinum كما يقول الرومان أنفسهم ، وكأن رومة بعملها هذا قد استقر رأيها على ألا تكون دولة كهنوتية : وضعف سلطان الكهنة فوق هذا الضعف وحرموا من احتكارهم تفسير القوانين وتنفيذها حين نشر أمين سر أپيوس كلوديوس « الأعمى » Appius Claudius فى عام ٣٠٤ تقويماً يشتمل على أيام اجتماع المحاكم يعرف « بأيام الأقوال dies fasti » ، ومرسوماً بما يجب اتباعه من الإجراءات القضائية ، ولم يكن يعرف هذه وتلك من غير الكهنة إلا عدد جد قليل . وخطا الرومان خطوة أخرى فى صبغ القانون بالصبغة الدنيوية حين بدأ كرنكانيوس Coruncanius فى عام ٢٨٠ ق . م يعلم الشعب القانون الرومانى وهو أول عمل

من نوعه معروف فى التاريخ . ومن ذلك الوقت حل رجل القانون محل الكاهن وأصبحت له هو السيطرة على عقل رومة وحياتها . وما لبثت هذه الألواح أن أصبحت أساس برامج التعليم فى رومة ، وظل تلاميذ المدارس إلى أيام شيشرون يحفظون ما تحتويه عن ظهر قلب ؛ وما من شك فى أنها كانت من العوامل التى بثت فى نفوس الرومان مبادئ الصرامة وحب النظام ، والاستمساك بالقانون وعدم التفريط فى الحقوق : ولقد ظلت الألواح الاثنا عشر بما أدخل على نصوصها من تعديل ، وبما أضيف إليها من قوانين جديدة عن طريق التشريع والمراسيم البريترية والقنصلية والإمبراطورية ، ظلت هذه الألواح مدى تسعة قرون أساس القانون الرومانى .

وكان قانون المرافعات فى كتاب القوانين الرومانى وافياً شديد التعقيد . وكان فى وسع أى موظف كبير — إلا فى القليل النادر — أن يكون قاضياً ، لكن المحاكم العادية لم تكن تتألف إلا من البريتورين praetors وكان إصلاحهم للقوانين وشرحها من أكبر العوامل التى أكسبت القانون الرومانى حيوية ونماء وحالت بينه وبين أن يصبح جثة هامدة من الإجراءات . ذلك أن كبير حكام المدينة praetor urbanus كان يعد فى كل عام ثبتاً أو « لوحة بيضاء » يحوى أسماء أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الذين يصبح اختيارهم ليكونوا محلفين ؛ وكان رئيس الجلسة فى كل قضية يختار المحلفين فيها من بين أصحاب هذه الأسماء ، على أن يكون للمدعى والمدعى عليه الحق فى أن يرفضا قبول بعضهم وإن كان هذا الحق لم يستخدم إلا فى عدد محدود من المرات . وكان يسمح للمحامين القضائيين أن يقدموا مشورتهم للمتقاضين ويدافعوا عنهم فى ساحة القضاء ، كما كان من حق أعضاء مجلس الشيوخ أن يقدموا المشورة القضائية فى بيوتهم أو فى مجالس عامة . وكان قانون سنسيوس Cincius الصادر فى عام ٢٠٤ ق . م يحرم على من يقدم المشورة القضائية أن يتقاضى عنها أجراً ، ولكن المهارة القانونية كانت تجد

كثيراً من السبل للتخلص من هذا القيد القائم على النزعة المثالية ؛ وكثيراً ما كان الأرقاء يعذبون لحملهم على الاعتراف .

وكانت مجموعة القوانين التي تحتويها الألواح الاثنا عشر من أشد القوانين التي شهدها التاريخ ، ذلك أنها كانت تحتفظ بالسيطرة الأبوية الكاملة القديمة التي كانت للأب في المجتمعات الزراعية العسكرية ، فكان يسمح للأب بمقتضاها أن يجلد ابنه أو يربطه بالأغلال ، أو يسجنه أو يبيعه أو يقتله – وكل ما قيد به سلطته أن حرر الابن من سيطرة أبيه إذا بيع هذا الابن ثلاث مرات[16] . واحتفظ القانون بما بين الطبقات من فروق بتحريم الزواج بين الأشراف والعامة ؛ وكان للدائنين على المدينين حقوق مطلقة من كل قيد[17] ؛ كما كان للملاك الحرية الكاملة في أن يتصرفوا في أملاكهم عن طريق الوصية ، وكانت حقوق الملكية تبلغ من القداسة حداً يجعل السارق الذي يضبط متلبساً بجريمة السرقة عبداً للمسروق منه ؛ وكانت العقوبات تتفاوت من الغرامة البسيطة إلى النفي ، أو الاسترقاق أو الإعدام ، ومنها ما كان يجرى بطريق القصاص (lex talionis) ؛ وكثيراً ما كانت الغرامات تحدد تحديداً دقيقاً حسب طبقة المعتدى عليه : « فكانت عقوبة كسر عظام الحر ٣٠٠ آس، وكسر عظام العبد ١٥٠ آسا[18] » وكان القذف والرشوة والحنث في الأيمان ، وسرقة المحصولات الزراعية ، وإتلاف غلات الجار ليلا ، وخديعة المحامى للمتقاضين ، وممارسة السحر ، ودس السم في الطعام ، والاغتيال ، « والاجتماع في المدينة ليلا لتدبير الفتن والمؤامرات » كانت هذه كلها يعاقب عليها بالإعدام[19] . وكان الابن الذي يقتل أباه يوضع في كيس ومعه في بعض الأحيان ديك ، أو كلب ، أو قرد ، أو أفعى ، ويلقى في النهر[20] . على أنه كان من حق المواطن في العاصمة نفسها أن يستأنف الحكم الصادر عليه بالإعدام من أية جهة قضائية عدا حكم الدكتاتور نفسه إلى الجمعية المئوية ، وإذا رأى المتهم أن الأمور في الجمعية تسير في غير مصلحته كان له أن يخفف

الحكم الصادر عليه إلى النفى وذلك بالخروج من رومة[٢١] ، ولهذا فإن عقوبة الإعدام رغم صرامة الألواح الاثنى عشر قلما كانت تنفذ فى عهد الجمهورية الرومانية .

٤ — جيش الجمهورية

وكان الأساس الذى يعتمد عليه الدستور الرومانى فى آخر الأمر هو النظام العسكرى الذى كان أكثر الأنظمة العسكرية نجاحاً فى تاريخ العالم كله . لقد كان الجيش هو والمواطنون وحدة وثيقة الارتباط ، وكان الجيش مجتمعاً فى المئات هو الهيئة الرئيسية التى تسن قانون الدولة . وكان الفرسان يؤخذون من المئات الثمان عشرة الأولى ، أما « الطبقة الأولى » فكانت تكون فرق المشاة الثقيلة ، وكان كل جندى فيها يسلح بحربتين وخنجر وسيف ، ويلبس خوذة من البرنز ، ودرعاً من الزرد ، وجرموقاً ، ومجناً . وكان لرجال الطبقة الثانية كل هذه العدد عدا الدروع الزردية وأما رجال الطبقتين الثالثة والرابعة فلم يكن لهم سلاح ، ولم يكن لرجال الطبقة الخامسة غير المقاليع والحجارة . وكان الفيلق الرومانى هيئة مختلطة تتألف من ٤٢٠٠ من المشاة ، ٣٠٠ من الفرسان ، وعدة كتائب أخرى إضافية[٢٢] ؛ وكان جيش القنصل يتألف من فيلقين . وكان كل فيلق يقسم إلى كتائب ، وكانت كل منها فى بادئ الأمر تتألف من مائة جندى ، ثم أصبحت فيما بعد تتألف من مائتين ، ويقودها قواد المئات . وكان لكل فيلق علمه الخاص vexillum . وكان مما يخل بالشرف أن يسقط هذا العلم فى أيدى الأعداء . وكان مهرة الضباط فى بعض الأحيان يلقون العلم بين صفوف الأعداء ليثيروا حماسة جندهم فيعملوا على استعادته مهما كلفهم ذلك من بذل وتضحية . وإذا نشبت المعركة تلقت صفوف المشاة الأمامية العدو ، الذى لم يكن يبعد عنهم أكثر من

عشر خطوات أو عشرين خطوة ، بوابل من الحراب ، وهى رماح من الخشب تنتهى بأطراف من الحديد ؛ وهاجمه فى الجناحين أصحاب النبال والمقالع بالسهام وبالحجارة ، وهجم الفرسان بالأسنة والسيوف ، وكانت الواقعة تنتهى بقتال حاسم يدور بين الأفراد بالسيوف القصار . أما أعمال الحصار فكانت تستخدم فيها المجانيق الخشبية التى تدار بالجذب أو اللىّ وتقذف من الحجارة ما زنته عشرة أرطال إلى أبعد من ثلثمائة ياردة . وكانت كباش حربية ضخمة معلقة فى حبال تشد إلى الوراء ، ثم تخلى فتنطح أسوار الأعداء . وكان يقام رصيف مائل من الطين والخشب تدفع وتجر عليه أبراج ذات عجل ترمى منها القذائف على الأعداء[٢٣] . وقد عدل فى عام ٣٦٦ ق . م تشكيل الفيالق التى كانت فى عهد الجمهورية الأول تتألف من ستة صفوف متراصة فى كل واحد منها ٥٠٠ جندى ، فكانت لذلك ضخمة كبيرة العدد يصعب تحريكها وتسييرها ، فقسم كل فيلق إلى كوكبات(*) فى كل كوكبة مائتا جندى . وكان يترك فراغ بين كل كوكبة والتى تجاورها ، وتقف الكوكبة التى فى كل صف خلف الفراغ المتروك فى الصف الذى قبله . وبهذه الطريقة يمكن الإسراع فى إمداد كل صف من الصف المجاور له ، وتحويل كوكبة أو عدة كوكبات لمواجهة أى هجوم جانبى ، كما كان من شأن هذا النظام أن يفسح المجال للحرب الفردية التى كان الجندى الرومانى يعد لها أحسن إعداد

وكان أكبر العوامل فى قوة هذا الجيش وانتصاراته هو حسن نظامه ذلك

(*) كان الرومان يطلقون على كل كوكبة اسم **Manipulus** ومعنى هذا اللفظ فى الأصل حفنة من الدريس أو السرخس أو ما إليهما . ويلوح أن حفنة من إحدى هذه المواد مشدودة إلى قائمة خشبية كانت تتخذ علماً حربياً بدائياً . ومن ثم صار هذا اللفظ يطلق على جماعة من الجند يظلهم علم واحد .

أن الشاب الرومانى كان يعد للحرب منذ طفولته ، فكان أهم ما يدرسه العلوم التى تؤهله لأن يكون جندياً صالحاً ، وكان يقضى عشر سنوات من عمره فى ميادين القتال أو فى المعسكرات ، وكان الجبن فى هذا الجيش هو الجريمة التى لا تغتفر وكان يعاقب عليها بجلد من يرتكبها حتى الموت[٢٤] . ولم يكن من حق قائد الجيش أن يحكم بالإعدام على أى جندى أو ضباط للفرار من القتال فحسب ، بل كان من حقه أيضاً أن يحكم عليه بهذه العقوبة نفسها إذ خالف ما يصدر إليه من الأوامر ولو أدت مخالفته إياها إلى أحسن العواقب ، وكان الذى يفر من الجندية أو يرتكب جريمة السرقة يعاقب بقطع يده اليمنى[٢٥] . وكان الجند فى المعسكرات يطعمون طعاما بسيطا يتكون من الخبز وحساء الخضر وقليل من الخضر والنبيذ ، وقلما كان يضاف إليه شيء من اللحم ، وبذلك فتح الجيش الرومانى العالم المعروف وقتئذ معتمداً على الغذاء النباتى ؛ ولما أن نقصت كمية القمح اللازمة بجيش يوليوس قيصر واضطر هذا الجيش لأكل اللحم شكا الجند من هذه الحال[٢٦] . وكان العمل الذى يكلف به الجنود مجهداً طويلا ، حتى كان الجند يفضلون عليه الذهاب إلى ميدان القتال ، وحتى كانت البسالة أسلم الخطط ؛ وظل الجند حتى عام ٤٠٥ ق . م لا يتناولون أجوراً أو مرتبات ، ولم يكن ما يتناولونه بعد ذلك العام بالشيء الكثير . ولكن كل جندى كان يسمح له بنصيب من الغنائم حسب مرتبته سواء كانت هذه الغنائم سبائك معدنية أو نقوداً أو أرضاً أو أسرى أو بضائع . ولم يكن هذا التدريب ليخلق من الرومان محاربين بواسل تواقين إلى القتال فحسب ، بل خلق منهم فوق ذلك قواداً شجعاناً . ذلك أن الطاعة قد خلقت فيهم المقدرة على الأمر والنهى ؛ ولسنا نكرر أن جيش الجمهورية قد خسر بعض الوقائع الحربية ، ولكنه لم يخسر قط حرباً ، وهؤلاء

الرجال الذين نشأوا فى هذا النظام الصارم ، وتطبعت به نفوسهم ، واعتادوا رؤية الموت بأعينهم ، وألفوه حتى أصبح من الأمور التى لا قيمة لها فى نظرهم ، هؤلاء الرجال هم الذين كسبوا الوقائع التى مكنتهم من الاستيلاء على إيطاليا ، ثم فتح قرطاجنة واليونان ، والسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط .

هذه هى الخطوط الرئيسية فى ذلك « الدستور المختلط » الذى أعجب به پولبيوس ووصفه بأنه « خير الحكومات القائمة » فى العالم ، فهو من حيث سيادة الجمعيات فى الناحية التشريعية دمقراطية مقيدة ، ومن حيث زعامة مجلس الشيوخ المؤلف من أشراف البلاد حكم أرستقراطى ، وهو « حكم ملكى مزدوج » شبيه بالحكم الأسبرطى إذا نظرت إليه من ناحية سلطان القنصلين القصير الأجل ؛ وهو حكم ملكى مطلق يصبح فى بعض الأحيان حكما دكتاتورياً . وهو فى جوهره حكم أرستقراطى تولت فيه السلطة أسر قديمة غنية بفضل ما كان لها من كفاية وامتياز مئات السنين ، وصبغت السياسة الرومانية بصبغة الدوام والثبات ، وبفضلها استطاعت أن تقوم بما قامت به من جلائل الأعمال .

ولكنه لم يخل من عيوب . فقد كان هذا الدستور خليطا سمجا غير متناسق من العوائق والموازين ، يستطاع فيه أيام السلم إبطال كل أمر تقريباً بأمر معارض له ومساو له فى القوة . ولقد كان ما فيه من تقسيم السلطة بين عدد من الهيئات عوناً على الحرية ، كما كان — إلى أجل محدود — مانعا من إساءة استعمالها ؛ ولكن هذا الحكم نفسه هو الذى أدى إلى الكوارث العسكرية أمثال كارثة كانى Canae ، وإلى انحلال الدمقراطية حتى أضحت حكم الغوغاء وجاء آخر الأمر بالدكتاتورية الدائمة فى أيام الأباطرة . والذى يدهشنا فى هذه الحكومة هو بقاؤها ذلك العهد الطويل (من ٥٠٨ إلى ٥٤٩ ق . م) ، وكثرة ما قامت به من الأعمال . ولعل سبب بقائها هو قابليتها المدهشة للتغير ،

والروح الوطنية الفخورة التى كانت تبث فى نفوس الرومان فى البيت والمدرسة ، والهيكل والجيش ، والجمعية ومجلس الشيوخ . وكان الولاء للدولة أهم الصفات فى أيام مجد الجمهورية ، كما كان الفساد السياسى المنقطع النظير مؤذناً بسقوطها . لقد ظلت رومة عظيمة طوال العهد الذى كان لها فيه أعداء يرغمونها على الاتحاد والشجاعة والتبصر فى العواقب ؛ فلما أن ظفرت بأعدائها جميعاً انتعشت برهـــة من الزمان ثم بدأت فى الاحتضار .

الفصل الثالث

فتح إيطاليا

لم يكن الأعداء فى يوم من الأيام يحيطون برومة أكثر مما كانوا يحيطون بها حين خرجت من عهد الملكية دولة صغيرة تشمل مدينة واحدة ضعيفة لا تزيد رقعتها على ٣٥٠ ميلا مربعاً — أى مساحة لا تزيد على تسعة عشر ميلاً فى تسعة عشر . ولما أن تقدم لارس پورسنا Lars Porsena ليهاجمها استعادت كثير من العشائر التى كان ملوك رومة قد أخضعوها لسلطانهم ما فقدته من حرية وكونت حلفاً لاتينياً للوقوف فى وجه رومة . وكانت إيطاليا فى ذلك الوقت تتألف من خليط من المدن أو القبائل المستقلة لكل منها حكومتها ولهجتها الخاصة بها . فكان فى شمالها اللجوريون ، والغاليون ، والأمبريون ، والتسكانيون ، والسبنيون ؛ وكان فى جنوبها اللاتين ، والڤلشيون ، والسمنيون ، واللوكانيون والبريتانيون ؛ كان على شاطئيها الجنوبى والغربى مستعمرون من اليونان فى كرمية ، ونابلى ، وبمپى وپستوم ، ولكرى ، وريجيوم ، وكروتونا ، ومثاپنتم ، وتارنتم(*) . وكانت رومة فى وسط هذه العشائر والمدن جميعها ، ذات موقع حربى يمكنها من التوسع وبسطة الملك ، ولكنها كانت معرضة للغزو من جميع جهاتها فى آن واحد . وكان سبب نجاتها أن أعداءها لم يتحدوا عليها . وقد حدث فى عام ٥٠٥ بينا كانت رومة مشتبكة فى حرب مع السبنيين أن وفدت عليها إحدى العشائر السبنية — عشيرة الكلوريين — فمنحتها رومة حق مواطنيها نظير شروط مرضية . وفى عام ٤٤٩ هزمت رومة السبنيين ، ولم يحل عام ٢٩٠

(*) Ligures, Gauls, Umbrians, Etruscans & Sabines, Latins Volscians Samnites, Lucanians, Brutians, Cumae, Naples, Pompeii, paestum, Locri, Rhegium, Crotona, Metapontum, & Tarentum.

حتى ضمت كل أراضيهم إليها ، وما وافى عام ٢٥٠ حتى كان لهم كل ما لأهل رومة من الحقوق .

وفى عام ٤٩٦ أغرى آل تاركوين بعض مدائن لاتيوم وهى تسكولوم ، وأرديا ، ولنوفيوم ، وأريسيا ، وتيبور(*) وغيرها بالانضمام فى حرب تشنها على رومة ، ورأى الرومان أنفسهم أمام هذا الحلف البادى القوة ، فأقاموا عليهم أول دكتاتور منهم ، وهو أولس پستوميوس Aulus Postumius ، وانتصروا على هـذا الحلف اللاتينى عند بحيرة رجيلس Regillus نصراً مؤزراً كان سبباً فى نجاتهم . ويؤكد الرومان أنهم قد تلقوا العون فى هذه الواقعة من الإلهين كستر وپلكس Castor & Pollux إذ غادرا جبال أولمپس ليحاربا فى صفوفهم . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت عقدت رومة مع الحلف اللاتينى معاهدة تعهد فيها الطرفان أن « يدوم السلم بين الرومان ومدن اللاتين ما دامت السموات والأرض . . . . وأن يشتركا على قدم المساواة فى جميع غنائم الحرب[٢٧] » . وكانت رومة فى بادئ الأمر عضواً فى هذا الحلف ثم أمست زعيمته ، ثم سيدته المسيطرة عليه . وفى عام ٤٩٣ حاربت الڤلشيين Volscians ؛ وفى هذه الحرب ظفر كيوس مارسيوس Cains Marcius بلقب كريلانس Coriolanus بعد أن استولى على كريلاى Corieli عاصمة الڤلشين(**) . ويضيف المؤرخون إلى هذا — ولعل للخيال والقصص شأن كبير فيما يضيفون — أن كريلانس أصبح من ذلك الوقت رجعياً شديد الرجعية ، فنفى من رومة بناء على طلب العامة وإصرارهم (٤٩١) ، فلجأ إلى الڤلشيين ، وأعاد تنظيم جيوشهم ، وسار على رأسهم لحصار رومة . ثم تقول الرواية إن الرومان المحاصرين بعد أن عضهم الجوع بعثوا رسولا فى إثر رسول ليثنوه عن عزمه ، ولكنه لم ينثن ، فلما جاءته

(*) Tibur Aricia Lanuvium, Ardea, Tusculum.

(**) لقد خلد شيكسبير هذه القصة فى روايته الشهيرة كريلانس . (المترجم)

أمه وزوجته تتوسلان إليه وردهما خائبتين أنذرتاه بأنهما ستسدان الطريق أمامه بجسديهما ، فلم يسعه أمام ذلك إلا أن يرتد بجيشه عن رومة . وكان جزاؤه أن قتله الڤلشيون ، وفى رواية أخرى أنه عاش بينهم معيشة ضنكا ، حتى بلغ من العمر أرذله(٢٨) . وفى عام ٤٠٥ قام النزاع على أشده بين رومة وڤياى Veii للسيطرة على نهر التيبر . وحاصرت رومة مدينة ڤياى ودام الحصار تسع سنين ، وشجع هذا مدن إتروريا فانضمت إلى ڤياى ضد رومة ، وهوجم الرومان من كل ناحية وتعرضوا لخطر الفناء ، فأقاموا عليهم دكتاتوراً يدعى كاملس Camillus ، فجند جيشاً جديداً استولى به على ڤياى ووزع أرضها على مواطنى رومة . وفى عام ٣٥١ ضم جنوب إتروريا إلى رومة بعد عدة حروب أخرى متفرقة وسميت من ذلك الوقت باسم تسكيا Tuscia وهو اسم لا يكاد يفترق عن اسم المقاطعة فى الوقت الحاضر .

وفى هذه الأثناء واجهت رومة فى عام ٣٩٠ خطراً جديداً أشد من الأخطار السابقة ، وقام الصراع بينها وبين بلاد الغالة ، وهو الصراع الطويل الذى لم ينته إلا فى عهد يوليوس قيصر . وذلك أنه بينا كانت الحروب الأربع عشرة قائمة بين رومة وإتروريا تسللت قبائل كلتية من بلاد الغالة ومن ألمانيا منحدرة من جبال الألب ، واستقرت فى إيطاليا ، وانتشرت جنوباً حتى نهر البو Po . ويطلق المورخون القدامى على هؤلاء الغزاة اسم كلتائى — أو سلتائى ، أو جلتائى أو غالى(*) دون تمييز بينها ، ولسنا نعرف شيئاً عن أصل هذه القبائل ؛ وكل ما نستطيع أن نصفها به أنها ذلك الفرع من السلالة الهندوربية التى سكنت ألمانيا الغربية وغالة وإسپانيا الوسطى ، وبلجيكا ، وويلز ، واسكتلندة ، وإيرلندة ، وأدخلت فيها اللغات التى وجدها الرومان فى تلك البلاد . ويصفهم پولبيوس Polybius بأنهم « طوال القامة ، حسنو الوجوه » ، يحبون القتال ، ويحاربون

(*) Keltai ، Celtae ، Galatae ، Galli

وهم عراة الأجسام إلا من تمائم وسلاسل ذهبية[29] . ولما أن ذاق الكلت سكان بلاد غالة الجنوبية طعم النبيذ الإيطالى سرهم مذاقه كل السرور فاعتزموا أن يزوروا الأرض التى تخرج تلك الفاكهة اللذيذة . ولعل أصدق من هذا أنهم أقبلوا على تلك البلاد طلباً للمرعى وللأرض الجديدة ، فلما دخلوها وأقاموا فيها وقتاً ما مسالمين على غير عادتهم المألوفة ، يحرثون الأرض ويرعون الماشية ، ويتثقفون بما كان فى المدن من ثقافة تسكانية . ثم غزوا إتروريا فى عام ٤٠٠ ق . م ونهبوها ، وقاومهم التسكان مقاومة ضعيفة ، لأنهم كانوا قد أرسلوا جنودهم إلى ڤياى ليصدوا عنها الرومان . وفى عام ٣٩١ وصل ثلاثون ألفاً من الغاليين إلى كلوزيوم Clusium ؛ وبعد عام واحد التقوا بالرومان على نهر أليا Allia وهزموهم هزيمة منكرة بددت شملهم ، ودخلوا رومة فاتحين دون أن يلقوا فى ذلك مقاومة ، ونهبوا المدينة وحرقوا كثيراً من أحيائها ،وظلوا سبعة أشهر يحاصرون فلول الجيش الرومانى المعسكر على الكپتول Capitol — وهو قلة تل الكبتولين Capitoline — حتى استسلم لهم الرومان آخر الأمر ، وأدوا للغاليين ألف رطل من الذهب نظير انسحابهم(*) ؛ وغادر الغاليون رومة ولكنهم عادوا إليها فى أعوام ٣٦٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٠ ؛ وصدهم الرومان فى كل مرة فقنعوا أخيراً بشمال إيطاليا الذى أصبح من ذلك الوقت يعرف بغالة الألبية الجنوبية .

وألفى من بقى من الرومان مدينتهم مخربة تخريباً حمل الكثيرين منهم على أن يتمنوا لو استطاعوا أن يغادروها ويتخذوا ڤاى عاصمة لهم . ولكن كمليوس أثناهم عن عزمهم ، وقدمت لهم الحكومة ما يحتاجونه من المعونة المالية لبناء بيوتهم من جديد . وكانت السرعة التى تم بها هذا البناء،وهم يواجهون الأعداء

(*) والمؤرخون الآن مجمعون على رفض القصة التى يرويها ليڤى[30] ، والتى تقول إن كمليوس رفض فى اللحظة الأخيرة أن يعطى الغاليين الذهب ، وإنه طردهم من رومة قوة واقتداراً . ويرون أن هذه القصة قد اخترعت اختراعاً إجابة لنعرة الرومان الوطنية وكبريائهم القومى . وما من أمة من الأمم تهزم فى كتب تاريخها .

من حولهم ، سبباً من الأسباب التى جعلت رومة مدينة قائمة على غير نظام مرسوم ذات شوارع ضيقة ملتوية . وكانت الشعوب الخاضعة لسلطانها ، إذ رأتها موشكة على الدمار والخراب ، ثارت عليها ثورة فى إثر ثورة واستلزم إخضاع هذه الشعوب وشفاؤها من نزعة الحرية خمسين عاماً من الحروب المتقطعة ولقد هاجمها اللاتين ،والإكويون ، والهرنيشون ، والڤلشيون مجتمعين أو متفرقين . ولو انتصر الڤلشيون لفصلوا رومة عن جنوب إيطاليا وعن البحر ، ولربما استطاعوا بذلك أن يقضوا على تاريخها ؛ ولكن رومة انتصرت عليهم وانتصرت على مدن الحلف اللاتينى فى عام ٣٤٠ . وبعد عامين من انتصارها عليها حلت الحلف وضمت مدن لاتيوم جميعها إلا القليل منها إليها(*) .

وفى هذه الأثناء كان ما نالته رومة من النصر على الڤلشيين سبباً فى وقوفها وجهاً لوجه أمام القبائل السمنية القوية . وكانت هذه القبائل تمتلك قطاعاً مستعرضاً فى إيطاليا يمتد من نابلى حتى البحر الأدرياوى ، ويشمل مدناً غنية مثل نولا **Nola** وبنفنتم **Beneventum** ، وكومية **Cumae** ، وكپوا **Capua** . وكانت قد استولت على معظم المستعمرات التسكانية واليونانية الممتدة على الساحل الغربى ، وكان لها من الحضارة الهلينية ما يكفى لخلق فن كمپانى **Campanian** ، متميز عن غيره من الفنون ، ولعلها كانت أكثر حضارة من الرومان أنفسهم . واشتبكت رومة مع هذه القبائل فى ثلاث حروب طويلة طاحنة رغبة منها فى الانفراد بالسيادة على إيطاليا . ومنى الرومان فى مشاعب كودين **Coudine Forks** (٣٢١) بهزيمة من أكبر هزائمهم ، ومر جيشهم المنهزم « تحت النير » — أى تحت قوس من حراب الأعداء — رمزاً لخضوعهم . ووقع القنصلان فى ميدان القتال شروطاً

(*) ومن الحوادث التى تروى عن هذه الحرب حادثان أكبر الظن أنهما من نسج الخيال أولهما أن قنصلا يدعى ببليوس ديسيوس **Pablius Deeius** لقى حتفه بعد أن انطلق على جواده بين صفوف الأعداء مضحياً بنفسه ليظفر بمعونة الآلهة لرومة . أما القنصل الثانى تيتس مانليوس تركواتس **Titus Manlius Torquatus** فقد قطع رأس ولده لأنه انتصر فى واقعة ، وكان سبب انتصاره أن خالف الأوامر الصادرة إليه .

لصلح مذل رفض مجلس الشيوخ أن يصدق عليه ، ونجح السمنيون فى أن يضموا إليهم التسكانيين والغاليين ، وأنفت رومة نفسها وقتاً ما تواجه إيطاليا كلها تقريباً شاكية السلاح . ولكن الفيالق الرومانية انتصرت انتصاراً حاسماً فى سنتينوم Sentinum (٢٩٥) ضمت روما على أثره كمبانيا Campania وأمبريا Umbria إلى أملاكها . وبعد عامين من ذلك الوقت طردت الغاليين إلى ما وراء نهر البو وأخضعت إترووريا مرة أخرى لسلطانها .

وبذلك أصبحت رومة سيدة إيطاليا الممتدة من مقاطعات الغاليين فى الشمال إلى المقاطعات اليونانية فى الجنوب . لكن عدم اطمئنانها إلى سلامتها من جهة ، ورغبتها فى مواصلة الفتح من جهة أخرى ، قد حملاها على أن تخير مدن « اليونان الكبرى » Magna Graecia بين الحرب وبين محالفتها حلفاً تقر فيه لرومة بالزعامة . وفضلت مدن تورياى Thurii . ولكرى Locri وكروتونا Crotona أن تحالف رومة على أن تتعرض للاندماج فى القبائل « المتبربرة » (أى الإيطالية) ، التى كانت تتكاثر من حولها وبين أهلها ؛ ولعلها هى أيضاً كانت تمزقها كما تمزق لاتيوم حرب الطبقات ، واستقبلت الحاميات الرومانية لتصد عن الملاك مطامع العامة الذين كان سلطانهم آخذاً فى الازدياد[٣٢] . لكن تارنتم Tarentum وقفت وقفة المعاند ، واستعانت ببيرس Pyrrhus ملك إبيروس Epirus . وثارت فى نفس هذا المحارب الباسل ذكريات أخيل Achilles والإسكندر فعبر البحر الأدرياوى بقوة إبيروسية ، وهزم الرومان فى هرقلية Heraclea (٢٨٠ ق . م) ؛ ولكن ما ناله من النصر كان غالى الثمن غلواً حمل القائد المظفر على أن يرثى لحاله[٣٣] وانضمت إليه وقتئذ جميع المدن اليونانية فى إيطاليا ، وحالفه اللوكانيون ، والبوتيون ، والسمنيون . وبعث سنياس Cineas إلى رومة يعرض عليها الصلح ، وأطلق سراح الألفى أسير رومانى الذين كانوا فى قبضته بعد أن وعدوه بأن يعودوا إذا فضلت رومة الحرب

على السلم . وأوشك مجلس الشيوخ أن يقبل شروطه ولكن أپيوس كلوديوس Appius Claudius ، الشيخ الأعمى المسن الذى كان قد اعتزل الحياة العامة من زمن طويل ، طلب إلى بعض الناس أن يحملوه إلى دار المجلس ، فلما دخل على الأعضاء طلب إليهم ألا تعقد رومة قط صلحاً مع جيش أجنبى فى أرض إيطالية . ورد مجلس الشيوخ إلى پيرس من أطلقهم من الأسرى وبدأت الحرب من جديد . وانتصر الملك الشاب على الرومان مرة أخرى ، ثم عافت نفسه جبن أحلافه وضعفهم وترددهم ، فأبحر مع من بقى معه من جيشه إلى صقلية ورفع عن سرقوسة حصار القرطاجنيين ، وطردهم من أملاكهم فى الجزيرة حتى لم يبق لهم فيها إلا قليل . ولكنه أغضب بحكمه القوى اليونان سكان صقلية ، وكانوا يظنون أن فى وسعهم أن يستمتعوا بالحرية دون أن يؤدوا لها ثمناً من النظام والشجاعة ، فقبضوا عنه معونتهم ، فعاد بيرس إلى إيطاليا وهو يقول عن صقلية : « ما أعظمها من غنيمة تتنازعها قرطاجنة ورومة ! » والتقى جيشه بالجيش الرومانى فى بنفنتم ومنى بالهزيمة لأول مرة (٢٧٥) . واتضح فى هذه الواقعة أن الألوية الخفيفة السلاح السريعة الحركة أصلح من الصفوف المتراصة البطيئة ، وبدأت بذلك صفحة جديدة فى تاريخ الحروب . وأهاب بيرس بأحلافه الإيطاليين أن يمدوه بجيوش جديدة ، فلم يلبوا نداءه لارتيابهم فى إخلاصه ومثابرته . فعاد إلى إپيروس ومات فى بلاد اليونان ميتة المغامرين . وفى السنة التى مات فيها (٢٧٢ ق . م) غدرت ميللو Milo بتارنتم وانضمت إلى رومة . وما لبثت المدن اليونانية كلها أن خضعت لرومة واستسلم لها السمنيون وهم كارهون محزونون ، وأمست إيطاليا بعد حروب دامت قرنين كاملين سيدة إيطاليا لا ينازعها فيها منازع .

وسرعان ما ثبتت رومة أقدامها فى البلاد المفتوحة بما كانت ترسله إليها من الجاليات ، بعضها من أهلها وبعضها من بلاد الحلف اللاتينى . وقد أفادتها هذه الجاليات فوائد كثيرة : فقد خففت عنها خطر التعطل ، وقللت من تزاحم الأهلين

على موارد الرزق ، وما ينشأ عن هذا التزاحم من نزاع بين الطبقات فى رومة . وكذلك كانت كل جالية فيها نواة موالية لرومة بين الأهلين الغضاب ، كما كانت مراكز أمامية ومصارف للتجارة الرومانية ، تنتج الطعام للبطون الجياع فى العاصمة ، ذلك أن المحراث قد تمم ما بدأه السيف من الفتوح . وبهذه الوسائل كلها وضعت رومة الأسس التى أدت إلى صبغ مئات من المدن التى لا تزال قائمة إلى اليوم بالصبغة الرومانية ، فانتشرت اللغة اللاتينية والثقافة اللاتينية فى جميع أنحاء شبه الجزيرة التى كان معظمها لا يزال فى طور الهمجية يتكلم أهله لغات شتى . وسارت إيطاليا بخطى وئيدة فى طريق الوحدة الدولية ، وكانت الخطوة الأولى فى سبيل الوحدة السياسية وحشية فى طريقتها عظيمة فى أثرها وغايتها .

لكن كان فى قورسقة وسردانية وصقلية وإفريقية قوة أشد من رومة بطشاً وأقدم منها عهداً ، تسد على التجارة الرومانية مسالك البحر الأبيض المتوسط الغربى ، وتترك إيطاليا سجينة فى بحارها . تلك هى قرطاجنة .

الباب الثالث

هنيبال يحارب رومة

٢٦٤ ـ ٢٠٢ ق . م

الفصل الأول

قرطاجنة

كشف التجار الفينيقيون – وهم قوم ديدنهم البحث والتنقيب – عن ثروة أسبانيا المعدنية قبل ألف ومائة عام من تلك الأيام . ولم يمض على هذا الكشف إلا قليل من الوقت حتى كان أسطول من السفن التجارية يمخر عباب البحر الأبيض المتوسط بين صيدا وصور وبيلوس من ناحية وطارطسوس Tartessus عند مصب نهر الوادى الكبير من ناحية أخرى ؛ وإذ كانت هذه الأسفار مما يتعذر القيام بها من غير أن تكون فيها محاط كثيرة فى الطريق ، وإذ كانت سواحل البحر الأبيض الجنوبية أقصر الطرق وآمنها . فقد أنشأ الفينيقيون مراكز وسطى ومحاط تجارية على ساحل إفريقية الشمالى عند لپتس مجنا Leptes Magna (ليدة الحالية) وهدرومنتم Hadrumentum (سوسة) وبوتيكا (بوتيك) وهپو ديرهيتس Hppo Diarrhytus وهپو رجيوس Hppo Regius (بونة) ، بل إنهم عبروا مضيق جبل طارق وأقاموا مركزاً لهم فى لكسوس Lixus (جنوب طنجة) ؛ وتزوج التجار الساميون الذين أقاموا فى هذه المراكز من الأهالى وأسكنوا غيرهم بالمال ، وفى عام ٨١٣ ق . م أقامت جماعة جديدة من المستعمرين –

قد يكونون من فينيقية وقد يكونون من يتيكا Utica التى أخذت وقتئذ فى الاتساع — أقامت هذه الجماعة بيوتا لها على نتوء فى البحر على بعد عشرة أميال من مدينة تونس الحالية . وكان الدفاع عن شبه الجزيرة الفينيقية أمراً سهلا ، وكانت مياه نهر بجرداس (مجردة) تروى أرضها وتفيض عليها الخصب والنماء ، ولذلك كانت تعود إلى الانتعاش بسرعة بعد ما كان يحل بها من التخريب المتكرر . وتعزو الروايات القديمة إنشاء هذه المدينة إلى إليسا Elissa أو ديدو Dido ابنة ملك صور ، فتقول إن أخاها قتل زوجها فأبحرت مع طائفة أخرى من المغامرين إلى إفريقية . وسمى المكان الذى استقرت فيه كارت هدشت — أى المدينة الجديدة — تمييزاً لها عن يتيكا ، وحول اليونان هذا الاسم إلى كارشدون وبدله الرومان إلى كرثاجو . وأطلق اللاتين اسم إفريقية على الإقليم المحيط بقرطاجنة ويتيكا وسموا أهلها الساميين ، كما كان يسميهم اليونان ، البونى أو الفونى ، أى الفينيقيين . وهاجر كثيرون من سراة أهل صور إلى إفريقية عقب حصار سلمانصر ، ونبوخذ نصر والإسكندر ، واستقر معظمهم فى قرطاجنة ، فأصبحت بسبب هذه الهجرة مركزاً جديداً للتجارة الفينيقية ، وأخذت قوة قرطاجنة وعظمتها فى الازدياد كلما أخذت صور وصيدا فى الاضمحلال .

ولما ازدادت المدينة قوة دفعت أهل إفريقية الأولين إلى الداخل شيئاً فشيئاً ، وامتنعت عن أداء الجزية لهم ، بل أرغمتهم على أن يؤدوها هم واستخدمتهم أرقاء وأقناناً فى بيوتها ومزارعها . وكانت نتيجة هذا أن نشأت لأهل قرطاجنة ضياع واسعة كان يعمل فى بعضها عشرون ألف رجل[1] ، وأضحت الزراعة عند الفينيقيين العمليين علماً وصناعة ، ولخص قواعدها ماجو الكاتب القرطاجنى فى كتاب ذائع الصيت . وشق الأهلون القنوات فأخصبت الأرض ونشأت فيها حدائق ذات بهجة ، وحقول من القمح والكروم ، وبساتين تنتج الزيتون والرمان والكمثرى والكرز والتين[2] ، وربوا الخيل والأنعام والضأن والمعز

واستخدموا الحمير والبغال فى حمل الأثقال ، وأنسوا كثيراً من الحيوانات ومنها الفيل . أما الصناعات فى المدن فلم تزدهر ازدهار الزراعة اللهم إلا صناعة المعادن ؛ ذلك أن القرطاجنيين ، كآبائهم الأسيويين ، كانوا يفضلون أن يتجروا فيما يصنعه غيرهم ، فكانوا يجوبون الأقطار ، يقودون بغالهم شرقاً وغرباً ، ويضربون فى قفار الصحراء طلباً للفيلة والعاج والذهب والعبيد . وكانت سفنهم الضخمة تحمل المتاجر من مثات الموانى بين آسية وبريطانيا والهما ، لأنهم لم يكونوا يرضون أن يعودوا كما عاد معظم الملاحين عند أعمدة هرقول **Pillars of Hercules** (مضيق جبل طارق) ؛ وأكبر الظن أنهم هم الذين أنفقوا على رحلة هنو **Hanno** البحرية التى ارتادت ألفين وستمائة ميل من ساحل إفريقية الغربى ، ورحلة هملكو **Himilco** التى ارتادت سواحل أوربا الشمالية . ويلوح أنهم كانوا أول من أصدر عملة من نوع العملة الورقية — فى صورة رقائق من الجلد مطبوع عليها ما يدل على قيمتها ويتعامل بها فى جميع أنحاء الدولة القرطاجنية ، وإن لم يكن من المستطاع تمييز عملاتهم المعدنية عن عملة غيرهم من الأمم .

والراجح أن التجار الأثرياء لا الأشراف أصحاب الضياع هم الذين قدموا الأموال اللازمة لتجييش الجيوش وإنشاء الأساطيل التى حولت قرطاجنة من مركز التجارة إلى إمبراطورية استولت على ساحل البحر الأبيض الجنوبى من سيرنيكا **Cyrenaica** إلى جبل طارق وإلى ما بعد جبل طارق عدا يتكا . استولى القرطاجنيون كذلك على طارطسوس وجادير (قادز) وغيرهما من المدن الأسپانية ، وأثرت قرطاجنة بمـــا أخذته من ذهب أسپانيا وفضتها وحديدها ونحاسها . وتملكت جزائر البليار ، بل إنها وصلت إلى جزائر ماديرة ومالطة وسردانية وقورسقة ونصف صقلية الغربى . وكانت تعامل البلاد الخاضعة لحكمها معاملة مختلفة الدرجات فى قسوتها ، فكانت تفرض عليهـــا جزية سنوية ، وتجند الأهلين فى جيوشها ، وتقيد تجارتها وعلاقتها الخارجية بأشد من القيود . ولكنها فى

نظير هذا كانت تحميها من أعدائها عسكرياً ، وتمنحها استقلالا ذاتياً محليا ، واستقراراً اقتصاديا . وفى وسعنا أن نقدر ما كان لهذه البلاد الخاضعة لقرطاجنة من ثراء إذا عرفنا أن واحدة منها هى لپتس Leptis Minor كانت تؤدى إلى خزانة قرطاجنة ٣٦٥ وزنة (أى ما يعدل ١ر٢١٤٠٠٠ ريال أمريكى من نقود هذه الأيام) .

واستغلت قرطاجنة هذه الإمبراطورية استغلالا جعلها فى القرن الثالث قبل الميلاد أكثر مدائن البحر الأبيض المتوسط ثراء ، فقد كان يدخلها كل عام من الضرائب الجمركية ومن الخراج نحو ١٢ر٠٠٠ تالنت أى قدر ما كان يدخل فى خزائن أثينة أيام مجدها عشرين مرة . وكان سراتها يسكنون القصور ويلبسون الملابس الغالية الثمن ويطعمون الأطعمة الشهية يأتون بها من خارج بلادهم . وازدحمت المدينة بسكانها البالغ عددهم ربع مليون نسمة واشتهرت بما أقيم فيها من الهياكل الفخمة والحمامات العامة ، ولكن أكثر ما كانت تشتهر به موانيها الأمينة وأحواضها الواسعة . وكان فى مقابل كل حوض من أحواضها البالغة ٢٢٠ حوضاً عمودان أيونيان Ionic ؛ ومن ثم أضحى الميناء الداخلى ذا شكل مستدير فخم يحيط به ٤٤٠ عموداً ، وكان يوصل هــذا الميناء بالسوق العامة طريق واسع به ميدان ذو عمد ، تزينه تماثيل يونانية ، وتقوم على جانبيه الأبنية المحتوية على المصالح الحكومية ، والمكاتب التجارية ، ودور القضاء والعبادة . أما الشوارع التى تجاور هذا الطريق فكانت ضيقة كمعظم شوارع البلاد الشرقية ، وكانت ملأى بالحوانيت التى تقوم فيها الصناعات المختلفة وتعقد فيها آلاف الصفقات التجارية . وكانت بيوتها ترتفع فى الجو إلى ستة أطباق ؛ وكثيراً ما كانت الحجرة الواحدة تضم أسرة بأكملها . وكان فى وسط المدينة ربوة عالية أو قلعة ــ كانت هى وغيرها من المعالم مما أوحى إلى الرومان بالصورة التى أقاموا عليها مدينتهم ــ تسمى « البورصة » Byrsa ، وتضم بيت المال ، ومضرب

النقود ، وكثيراً من المزارات والعمد ، وأفخم معبد فى قرطاجنة كلها وهو معبد الإله العظيم إشمون Eshmun ، وكان يحيط بالمدينة من ناحيتها الأرضية غير البحرية سور من ثلاثة جدران يرتفع خمساً وأربعين قدماً فى الهواء ، ومن فوقه أبراج وشرفات ، ومن داخل الأسوار فضاء يتسع لأربعة آلاف حصان وثلثمائة فيل ، وعشرين ألف رجل[3] . وفى خارج الأسوار كانت مزارع الأغنياء ومن بعدها حقول الفقراء .

وكان القرطاجنيون من الجنس السامى وثيقى الصلة باليهود الأقدمين فى دمهم وفى ملامحهم ، وكانت تظهر فى لغتهم أحياناً ألفاظ عبرية ، مثال ذلك أنهم كانوا يسمون القضاة شفيتى وتلك هى الكلمة العبرية شفتيم . وكان الرجال يرسلون لحاهم ولكنهم كان من عادتهم أن يحلقوا شفتيهم العليا بشفرات من البرنز . وكان معظمهم يضعون على رؤوسهم قلانس أوعمائم ، ويتخذون أحذية أو أخفافاً ، ويلبسون جلابيب طويلة فضفاضة ؛ ولكن الطبقات العليا من الأهلين قلدت اليونان فى ملابسهم ، وصبغت أثوابها باللون الأرجوانى ووشت أطرافها بالخرز الزجاجى . أما النساء فكن فى الغالب متحجبات يحيين حياة العزلة ؛ وكان فى وسعهن أن يبلغن مناصب كهنوتية عالية ، أما فيما عدا ذلك فكان عليهن أن يأسرن الرجال بجمالهن . وكان الأهلون جميعاً — رجالا كانوا أو نساء — يتحلون ويتعطرون ويضعون أحياناً حلقات معدنية فى أنوفهم . ولسنا نعرف إلا القليل عن أخلاقهم من غير أعدائهم ، فالكتاب اليونان والرومان يصفونهم بالإسراف فى الطعام والشراب ، وبأنهم يحبون أن يجتمعوا فى نوادى الطعام ، وأنهم إباحيون فى علاقاتهم الجنسية فاسدون فى شئونهم السياسية ؛ وكان الرومان المعروفون بالغدر يستعملون لفظ الوفاء القرطاجنى Fides Punica مرادفاً للفظ الخيانة . ويقول بولبيوس أن « لا شىء ينتج عنه كسب يعد عاراً فى قرطاجنة[4] » ويتهم فلوطرخس، أهل قرطاجنه بأنهم « خشنو الطباع مكتئبون،

سلسو القيادة فى أيدى حكامهم ، قساة على الشعوب الخاضعة لسلطانهم ، إذا خافوا بلغوا منتهى الجبن ، وإذا غضبوا بلغوا منتهى الوحشية ، عنيدون لا يرجعون عن شيء أقروه ، صارمون ، لا يستجيبون إلى دواعى اللهو أو مباهج الحياة(٥) . ولكن فلوطرخس رغم ما عرف به من العدل فى أحكامه كان يونانياً على الدوام ، وأما پولبيوس فكان صديقاً حميماً لسپيو الذى حرق قرطاجنة ومحا آثارها من الوجود

ويبدو القرطاجنيون فى أسوأ صورهم فى دينهم ، وإن كان كل ما نعرفه عنهم من هذه الناحية قد وصل إلينا عن طريق أعدائهم . لقد كان أسلافهم فى فينيقية يعبدون بعل مُلْك وعشتروت بوصفهما ممثلين لعنصرى الذكر والأنثى فى الطبيعة وللشمس والقمر فى السماء ؛ وعبد القرطاجنيون إلهين مماثلين لهما وهما بعل هامان وثانيث . وكانت ثانيث بصفة خاصة تثير حبهم وتقواهم ؛ فكانوا يملأون هياكلها بالهدايا ويقسمون باسمها . ويلى هذين الإلهين فى التعظيم ملكارت « مفتاح المدينة » ثم إشمون رب الثروة والصحة ، ويأتى من بعد هذه كلها حشد كبير من الآلهة الصغرى تسمى « البعول » أو الأرباب . بل إن ديدو نفسه كان من هذه المعبودات(٦) . وكانوا فى الأزمات العصيبة يضحون لبعل ـ هامان بالأطفال الأحياء ، وكان عدد من يضحى بهم لهذا الإله فى اليوم الواحد يبلغ أحياناً ثلثمائة طفل . وكانت طريقتهم فى هذه التضحية أن يضعوا الأطفال فوق ذراعي هذا الوثن المبسوطتين ، ثم يدحرجونهم إلى النار المتقدة أسفل الذراعين ؛ وكان يطغى على صياحهم أصوات الأبواق والدفوف ، ويطلب إلى أمهاتهم أن يشهدن هذا المنظر دون توجع أو بكاء لئلا يتهمن بالكفر ويخسرن ما هو خليق بهن من رضاء الآلهة . وتطورت الأمور بعد ذلك فكان الأغنياء يأبون أن يضحوا بأطفالهم ويبتاعون بدلا منهم أطفال الفقراء ، فلما أن حاصر أجثكليز Agathocles صاحب سرقوسة Syracuse مدينة قرطاجنة خشيت الطبقات العليا من أهل المدينة أن يكون احتيالها وتهربها من واجبها المقدس قد أغضب الآلهة فألقت فى النار مائتين

من أبناء الأشراف[7] . على أن من واجبنا أن نضيف إلى هـذا أن تلك القصص إنما يقصها علينا ديودور وهو يونانى من أهل صقلية لا يستنكف أن يشهد ما اعتاده اليونان من قتل أطفالهم وهو هادئ مطمئن . وليس ببعيد أن يكون منشأ هذه العادة القرطاجنية عادة التضحية بالأطفال أن أولئك القوم أرادوا أن يصبغوا ما يبذلون من الجهد لضبط النسل بصبغة التقى والصلاح .

ولما أن دمر الرومان قرطاجنة أهدوا ما وجدوه فيها من المكتبات إلى أحلافهم من أهل إفريقية . ولكن هذه الكتب لم يبق منها إلا كتاب هنو الذى سجل فيه رحلته وشذرات من كتاب ماجو فى الزراعة . ويؤكد لنا القديس أوغسطين تأكيداً يكتنفه شيء من الغموض أنه « كان فى قرطاجنة كثير من الأشياء التى خلدت ذكراها فى عقول من خلفهم من الناس[8] » . وقد استعان سلست Sallust وجوبا Juba بما كتبه المؤرخون القرطاجنيون، ولكنا لا نجد لدينا تاريخاً لقرطاجنة كتبه مؤرخ من أبنائها . أما عمارتها فحسبنا أن نقول عنها إن الرومان لم يتركوا فيها حجراً على حجر . ويقص علينا بعضهم أن طراز مبانيها كان مزيجاً من الطرازين الفينيقى واليونانى ، وأن هياكلها كانت ضخمة مزخرفة ، وأن هيكل بعل ــ هامان وتمثاله كانا مصفحين بألواح من الذهب تقدر قيمتها بألف وزنة (تالنت) ، وأن اليونان أنفسهم مع ما عرف عنهم من زهو وكبرياء كانوا يعدون قرطاجنة من أجمل العواصم فى العالم كله . ويحتوى متحف تونس على قطع من توابيت الموتى وجدت فى مقابر بالقرب من موقع قرطاجنة ، أجملها كلها صورة جميلة واضحة المعارف ، لعلها صورة تانيث ، يونانية الطابع فى جوهرها . وثمة تماثيل صغرى استخرجت من القبور القرطاجنية فى جزائر البليار ، ولكنها فجة خالية من الدقة ، وكثيراً ما تكون بشعة لا تطيق العين رؤيتها كأنها صنعت لإرهاب الأطفال أو طرد الشياطين . أما ما بقى من الخزف فيدل على أن هذا الفن كان يقصد إلى النفع لا إلى الجمال الفنى ، ولكنا نعرف أن الصناع

القرطاجنين قد أخرجوا نماذج طيبة من المنسوجات ، والحلى ، والنقش على العاج والأبنوس والكهرمان والزجاج .

وليس فى استطاعتنا فى الوقت الحاضر أن نرسم أية صورة واضحة للحكومة القرطاجنية . وقد أثنى أرسطوطاليس على دستور قرطاجنة ووصفه بأنه « أرقى من سائر دساتير العالم فى كثير من نواحيه » ، وذلك « لأن الدولة تعد حسنة النظام إذا كان العامة أوفياء لدستورها على الدوام ، وإذا لم يثر فيها نزاع أثيم يستحق الذكر ، وإذا لم يستطع أحد أن ينصب نفسه دكتاتوراً فيها[١٠] » ؛ وكان أهلها يجتمعون من آن إلى آن فى جمعية وطنية من حقها أن تقبل أو ترفض ما يعرضه عليها من الاقتراحات مجلس الشيوخ المكون من ثلثمائة من أهل المدينة الكبار ، ولا حق لها فى مناقشتها أو تعديلها . على أن مجلس الشيوخ نفسه لم يكن يحتم عليه أن يعرض على الجمعية أى مشروع فى وسع أعضائه أن يتفقوا عليه[١١] . وكان السكان هم الذين يختارون الشيوخ ، غير أن الرشا العلنية قد أنقصت من مزايا هذه الإجراءات الدمقراطية ومن أخطارها ، وأحلت ألجاركية المال محل أرستقراطية المولد . وكانت الجمعية الوطنية تختارها فى كل عام شفيتين Shofetes ليرأسا الناحيتين القضائية والإدارية فى الدولة . وكان من فوق الهيئات القضائية والإدارية جميعاً محكمة مؤلفة من ١٠٤ من القضاة يبقون فى مناصبهم مدى الحياة ، وإن كان القانون لا يجيز هذا البقاء . وإذ كان من حق هذه المحكمة أن تشرف على جميع فروع الإدارة ، أن تستدعى كل موظف عمومى بعد انتهاء مدة خدمته لتحاسبه على أعماله ، فقد أصبحت قبيل الحروب البونية هى المسيطرة على جميع الإدارات الحكومية والمشرفة على جميع المواطنين .

وكان مجلس الشيوخ هو الذى يرشح القائد الأعلى للجيش ، على أن تختاره الجمعية من بين المرشحين . وكان مركزه خيراً من مركز القنصل فى رومة لأنه كان فى وسعه أن يبقى فى منصبه طوال المدة التى يرغب مجلس الشيوخ أن يبقى

فيه ؛ لكن الرومان قد سيروا على قرطاجنة جحافل من ملاك الأراضى الوطنيين ، على حين أن الجيش القرطاجنى كان مؤلفاً من مرتزقة الجند الأجانب معظمهم من اللوبيين الذين لا يشعرون نحو قرطاجنة بأقل عاطفة وطنية ، ولا يدينون بالولاء إلا لمن يؤدى إليهم أجورهم ، ولقائدهم فى بعض الأحيان . وما من شك فى أن الأسطول القرطاجنى كان فى أيامه أقوى أساطيل للعالم على الإطلاق ، فقد كانت خمسمائة سفينة ذات خمسة صفوف من المجدفين ، زاهية الألوان ، رفيعة ، سريعة ، ترد المعتدين على مستعمرات قرطاجنة وأسواقها ومسالكها التجارية . وكان فتح هذا الجيش القرطاجنى لصقلية ، وإقفال هذا الأسطول حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى فى وجه التجارة الرومانية ، منشأ الصراع المرير الذى دام نحو مائة عام والمعروف باسم الحروب البونية الثلاث .

الفصل الثانى

رجيولوس Regulus

لقد ظلت الأمتان صديقتين طالما كان لإحداهما من القوة ما تستطيع به أن تسيطر على الأخرى . وقد عقدتا فى عام ٥٠٨ معاهدة اعترفتا فيها بسيادة رومة على شاطئ لاتيوم وتعهد فيها الرومان ألا يسيروا سفنهم فى البحر الأبيض المتوسط غربى قرطاجنة ، وألا ينزلوا فى سردانية أو لوبية إلا فترات قصيرة يصلحون فيها سفنهم أو يمونونها[١٢] . ويقول أحد الجغرافيين اليونان إن القرطاجنيين اعتادوا أن يغرقوا كل بحار أجنبى يجدونه بين سردانية وجبل طارق[١٣] . وكان اليونان فى مساليا Massalia (مرسيليا) قد نشأت لهم تجارة شاطئية سلمية بين جنوبى غالة وشمالى أسبانيا الغربى ؛ وتروى الأخبار أن قرطاجنة كانت تحارب هذه التجاره حروب قرصنة ، وأن مساليا كانت حليفة وفية لرومة (ولسنا تدرى ما فى هذه الأخبار من دعاوة حربية يسمونها تاريخاً تكريماً لها وتعظيما) . أما وقد سيطرت رومة على جميع إيطاليا فإنها لم تكن تشعر بالأمن والطمأنينة إلى سلامتها ما دامت هناك قوتان معاديتان لها — اليونان والقرطاجنيون — تتملكان صقلية ، وهى لا تكاد تبعد عن ساحل إيطاليا بميل واحد . يضاف إلى هذا أن صقلية خصبة التربة ، فى وسعها أن تمون نصف إيطاليا بالحبوب ؛ وإذا ما استولت رومة على صقلية سقطت سردانية وقورسقة فى يدها من تلقاء نفسهما . فهاهو ذا طريق لا بد من سلوكه وهو الطريق الطبيعى لتوسع رومة وبسطة ملكها .

وقد بقى أن توجد الحجة التى تتذرع بها رومة لإشعال نار الحرب . وقد جاءت هذه الحجة فى عام ٢٦٤ ق . م حين استولى جماعة من مرتزقة السمنيين يسمون أنفسهم الممرتين Mamertines أى « رجال المريخ » على بلدة مسانا

Messana الواقعة على أقرب سواحل صقلية لإيطاليا ، وذبحوا السكان اليونان أو أخرجوهم من البلدة ، واقتسموا فيما بينهم نساء هؤلاء الضحايا وأبناءهم وأملاكهم ، وجعلوا ديدنهم الإغارة على المدن اليونانية القريبة من تلك البلدة ، فما كان من هيرو الثانى Hiero II دكتاتور سرقوسة إلا أن حاصرهم ، ولكن قوة قرطاجنية نزلت فى مسانا وردت هيرو على أعقابه واستولت على المدينة . واستغاث الممرتيون برومة وطلبوا إليها أن تعينهم على من أنقذوهم من عدوهم ؛ وتردد مجلس الشيوخ فى تقديم هذه المعونة لأنه يعرف ما لقرطاجنة من قوة وثروة ، ولكن الأثرياء من العامة الذين كانوا يسيطرون على الجمعية المئوية أخذوا يدعون للحرب وللاستيلاء على صقلية ؛ وقر قرار رومة أن تبعد القرطاجنيين عن هذا الثغر ذى الموقع الحربى الهام القريب كل القرب منها مهما كلفها هذا من ثمن ؛ وجهزت رومة أسطولا وعقدت لواءه لكيوس كلوديوس Caius Claudius وسيرته لإنقاذ الممرتيين ، ولكن القرطاجنيين استطاعوا فى هذه الأثناء أن يقنعوا الممرتيين بالعدول عن طلب مساعدة رومة ، وأرسلوا رسالة بهذا المعنى إلى كلوديوس فى ريجيوم Rhegium . غير أن كلوديوس لم يلق بالا إلى هذه الرسالة ، وعبر المضيق الذى يفصل إيطاليا عن صقلية ، ودعا أمير البحر القرطاجنى إلى المفاوضة ؛ فلما جاءه قبض عليه وسجنه ، وبعث إلى الجيش القرطاجنى يقول إنه سيقتل أمير البحر إذا أبدى الجيش أية مقاومة ، ورحب الجنود المرتزقة بهذه الحجة التى تتيح لهم فرصة تجنب القتال مع الفيالق الرومانية ، وتظهرهم فى الوقت نفسه بمظهر الشهامة ، وسقطت مسانا فى يد رومة .

وبرز فى هذه الحرب البونية (الفينيقية) الأولى بطلان عظيمان هما رجيولوس الرومانى وهملكار القرطاجنى . ولعل فى وسعنا أن نضيف إليهما بطلا ثالثاً ورابعاً هما مجلس شيوخ رومة والشعب الرومانى . فأما مجلس الشيوخ فلأنه ضم هيرو صاحب سرقوسة إلى جانب رومة وضمن بذلك وصول العتاد والزاد إلى الجنود

الرومان فى صقلية ، هذا إلى أنه قد نظم الأمة أحسن تنظيم قائم على الحكمة والسداد ، وقوى عزيمتها ، وقادها إلى النصر وسط الخطوب والأهوال الجسام هذا فضل مجلس الشيوخ ، أما الرومان أنفسهم فقد أمدوا الحكومة بالمال والعتاد والأيدى العاملة ، وبالرجال الذين بنوا لرومة أسطولها الأول — وكان مؤلفاً من ٣٣٠ سفينة كلها تقريباً ذات خمسة صفوف من المجذفين ، ويبلغ طول الواحدة منها ١٥٠ قدما ، فى كل منها ٣٠٠ مجذف و ١٢٠ جنديا ، ومعظمها مجهز بخطاطيف من الحديد لم تكن معروفة من قبل ، وبجسور متحركة تمكنهم من الإمساك بسفن الأعداء والنزول إليها . وبهذه الطريقة بدل الرومان الحرب البحرية التى لم يألفوها من قبل حربا برية يقاتلون فيها أعداءهم يداً بيد ، وتستطيع فيها فيالقهم أن تستفيد بكل ما تمتاز به من مهارة وحسن نظام . ويقول پولبيوس فى هذا : « ويدل هذا الحادث أكثر مما يدل غيره من الحوادث على ما للرومان من جرأة وبسالة إذا ما اعتزموا القيام بعمل خطير . . . ذلك أنهم لم يفكروا قط قبل هذا الحرب فى إنشاء أسطول ؛ فلما أن استقر رأيهم على إنشائه بذلوا فى ذلك جهد الجبابرة ، وهاجموا به من فورهم القرطاجنيين الذين ظلوا عدة أجيال سادة البحار لا ينازعهم فيها منازع — مع أن الرومان لم تكن لهم فى حرب البحار خبرة ما[14] » . والتقى الأسطولان بالقرب من إكنوموس Ecnomus أحد الثغور الواقعة على ساحل صقلية الجنوبى ؛ وكانا يحملان من الجند ثلثمائة ألف . ودارت بينهما أكبر معركة بحرية فى التاريخ القديم (٢٥٦) . وانتصر الرومان فيها انتصاراً مؤزراً حاسماً ساروا بعده إلى إفريقية لا يلوون على شىء ، ونزلوا إلى البر دون أن يعنوا باستطلاع الأرض ، فالتقوا بقوة تفوق قوتهم كادت تفنيهم عن آخرهم ، وأسرت قنصلهم الطائش المتهور . وبعد قليل من ذلك الوقت دفعت العواصف الأسطول الرومانى إلى شاطئ صخرى فتحطمت منه ٢٨٤ سفينة وغرق ٨٠,٠٠٠ من رجاله . وكانت هذه أعظم كارثة بحرية عرفها الناس فى التاريخ . وأظهر

الرومان بعدها ما فى طبائعهم من عزيمة فبنوا فى ثلاثة أشهر مائتى سفينة جديدة ذات خمسة صفوف من المجذفين ، ودربوا لها ثمانين ألف بحار .

واحتفظ القرطاجنيون برجيولوس فى الأسر خمس سنين ثم سمحوا له بأن يرافق بعثة قرطاجنية إلى رومة تعرض عليها الصلح بعد أن وعدهم بأن يعود إلى الأسر إذا رفض مجلس الشيوخ الشروط التى عرضوها عليه . فلما سمع رجيولوس هذه الشروط أشار على المجلس بأن يرفضها ، ثم عاد مع البعثة إلى قرطاجنة غير عابئ بتوسل أسرته وأصدقائه . وعذبه القرطاجنيون عذابا شديداً بأن حرموا عليه النوم حتى فارق الحياة[١٥] . وأمسك أبناؤه فى رومة بأسيرين من ذوى المكانة فى بلادهما ووضعوهما فى داخل صندوق ثبتت فيه حراب من الحديد ، وحرموا عليهما النوم حتى قضيا نحبهما[١٦] . وليس فى مقدورنا أن نصدق كلتا القصتين إلا حين نذكر ما حدث من التعذيب الهمجى فى هذه الأيام(*) .

(*) يريد فى الحروب العالمية الثانية .

الفصل الثالث

هملكار

لقد كان فى قرطاجنة عدد كبير من أهلها يحملون أسماء هملكار وهزدروبال وهنيبال ، ذلك بأن هذه الأسماء لا يخلو منها جيل من الأجيال ، وكانت من الأسماء الشائعة فى أقدم أسرها . وكانت أسماء تدل على التقى والصلاح ، ومشتقة من أسماء الآلهة : فأما هملكار فمعناه : « من يتمتع بحماية ملكارت » وأما هزدروبال فمعناه : « من فى معونته بعل » ومعنى هنيبال « الفضل لبعل » . ولقب هملكار الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل بهملكار برقة(*) — « الصاعقة » وذلك لأنه كان من طبيعته أن يعجل بضرب عدوه ويفاجئه حيثما وجده . وكان لا يزال شاباً فى مقتبل العمر حين ولته قرطاجنة فى عام ٢٤٧ القيادة العليا لجيوشها ، فسار ومعه أسطول صغير نحو إيطاليا وأخذ يغير على سواحلها ويفاجئها بالنزول فى أراضيها ، ويدمر المراكز الرومانية الأمامية ، ويأسر كثيراً من جنودها . ثم أنزل جنوده إلى البر فى مواجهة جيش رومانى كبير كان يحمى مدينة پنورمس Panormus (پلرمو Palermo الحالية) ، واستولى على ربوة تشرف على المدينة . وكانت القوة التى يقودها أصغر من أن تجازف بالاشتباك مع الرومان فى واقعة كبرى ، ولكنها كانت تعود بالأسلاب كلما قادها لمهاجمتهم . وأخذ يرجو مجلس الشيوخ القرطاجنى أن يبعث إليه بالأمداد والزاد ؛ ولكن المجلس لم يستجب لرجائه وقبض يده فلم يسعفه بالمال الذى كان يكنزه ، وأمره أن يطعم جنوده ويكسوهم من مال البلاد التى حوله .

(*) وأكبر الظن أن كلمة « البرق » العربية ترجع هى وهذا اللفظ إلى أصل واحد . (المترجم)

وكان الأسطول الروماني فى هذه الأثناء قد انتصر فى واقعة بحرية أخرى ، ولكنه هزم هزيمة منكرة عند دربانا Drepana (٢٤٩) ، وأضعفت هذه الحروب قوة الفريقين على السواء فاستراحا تسعة أعوام . ولم تفعل قرطاجنة شيئاً فى هذه التسع السنين لأنها كانت تعتمد على عبقرية هملكار ، وأما رومة فإن جماعة من أبنائها قدموا للدولة طائعين عمارة مؤلفة من مائتى سفينة حربية وعليها ستون ألف جندى . وأبحرت هذه العمارة القوية ، دون أن يعلم أحد بإبحارها ، وباغتت الأسطول القرطاجنى عند جزائر إيجاديا Aegadian Isles بالقرب من ساحل صقلية وأحدقت به فاضطرت قرطاجنة إلى طلب الصلح (٢٤١) ، ونزلت عن أملاكها فى صقلية إلى رومة ، وتعهدت أن تؤدى لها غرامة حربية مقدارها ٤٤٠ تالنتا فى كل عام مدى عشر أعوام ، وألغت كل ما كان مفروضاً على التجارة الرومانية من قيود . وكانت الحرب قد دامت عشرين عاماً أو نحوها وأشرفت رومة فى خلالها على هاوية الإفلاس حتى اضطرت إلى تخفيض قيمة نقدها بنحو ٨٣ ٪ ، ولكنها برهنت على ما فى أخلاق الرومان من صلابة لا تلين ، وعلى تفوق الجيش المكون من رجال أحرار على مرتزقة الجند الذين يسعون للحصول على أعظم المغانم بأقل ما يمكن إراقته من الدماء .

وأوشكت قرطاجنة أن تقضى عليها شراهتها وأطماعها ؛ ذلك أنها كانت قد قبضت يدها بعض الوقت عن جنودها المرتزقين ، فلم تؤد إليهم أجورهم ، ولم تستثن من هؤلاء من أخلصوا فى خدمة هملكار . فأقبلت جموعهم على المدينة يطالبون بتلك الأجور . ولما تلكأت الحكومة فى إجابة مطلبهم وحاولت أن تفرقهم تمردوا عليها جهرة . وانضمت الشعوب الخاضعة لقرطاجنة إلى هؤلاء العصاة ، وكانت قد ابهظها عبء الضرائب الفادحة الذى رزحت تحته طوال الحرب وباعت نساء لوبيا حليهن لتمد الثوار بالمال ، وحاصر قرطاجنة عشرون ألفاً من الجنود المرتزقين والثوار يقودهم ماثو Matho وهو لوبى محرر و اسپنديوس

Spendius وهو عبد كمپانى Campanian وكان ذلك الحصار فى وقت لا يكاد يوجد فيها جندى يحميها . وارتعدت فرائص التجار الأغنياء فرقاً وخشوا أن يقضى عليهم الثوار ، فأرسلوا فى طلب هملكار ليؤمنهم على حياتهم . وألقى هملكار نفسه يتنازعه عطفه على جنوده المرتزقة وحبه لمدينته، ولكنه آثر مدينته على جنده وجند جيشاً من عشرة آلاف قرطاجنى ودربهم ، وقادهم بنفسه ، ورفع الحصار عن المدينة . وارتد الجنود المرتزقون المهزومون إلى الجبال ، وقطعوا يدى جسكو Gesco أحد القواد القرطاجنيين وقدميه ، وكسروا ساقيه ، وفعلوا ذلك الفعل نفسه بسبعمائة أسير غيره ، ثم ألقوا بمن بقى منهم أحياء فى قبر واحد بلا تمييز بينهم[١٧] . واحتال هملكار على أربعين ألفاً من العصاة حتى اضطرهم إلى الالتجاء إلى مضيق ، وسد عليهم مسالكه حتى أوشكوا على الهلاك من الجوع . فأكلوا من بقى لديهم من الأسرى ، ثم أكلوا عبيدهم ، واضطروا فى آخر الأمر أن يرسلوا أسپنديوس Spendius بطلب الصلح ، فما كان من هملكار إلا أن صلب أسپنديوس وألقى بمئات من الأسرى تحت أرجل الفيلة ، وظلت تطؤهم حتى قضوا نحبهم . وحاول العصاة أن يشقوا لهم بالقوة مخرجاً من مأزقهم الذى وقعوا فيه ، ولكن جيش هملكار قطع أصلابهم ، وقبض على ماثو وأرغمه على أن يعدو فى شوارع قرطاجنة وأهلها من ورائه يضربونه بالسياط ويعذبونه حتى مات[١٨] . ودامت « حرب المرتزقة » هذه أربعين شهراً (٢٤١ — ٢٣٧) ، ويقول پولبيوس إنها كانت أفظع الحروب وأشدها وحشية ، وإن ما سفك فيها من الدماء لم يسفك مثله فى التاريخ كله[١٩] » . ولما أن خمدت نار الفتنة وجدت قرطاجنة أن الرومان قد احتلوا سردانية . فلما احتجت على هذا الاعتداء أعلن الرومان الحرب عليها . واضطر القرطاجنيون فى يأسهم إلى طلب الصلح ولم ينالوه إلا بأن يؤدوا لرومة فوق ما كانوا يؤدون لها من الغرامة ١٢٠٠ تالنت ، وأن يتخلوا عن سردانية وقورسقة .

وفى وسعنا أن نتصور غضب هملكار من هذه المعاملة القاسية التى عوملت بها بلاده . فعرض على حكومته أن تمده بالجند والمال ليعيد قوة قرطاجنة فى أسپانيا وليستعين بها على مهاجمة إيطاليا . وعارض الملاك الأشراف فى هذه الخطة لأنهم كانوا يخافون مغبة الحرب ، ولكن طبقة التجار التى حز فى نفوسها ما فقدته من الأسواق والثغور الأجنبية أيدته . وتراضت الفئتان بعدئذ على أن يعطى هملكار قوة صغيرة عبر بها البحر إلى أسپانيا (٢٣٨) ، واستولى على المدن التى كان ولاؤها لقرطاجنة قد تزعزع فى أثناء الحرب ؛ وقوى صفوف جيشه بأهلها ، وجهزه وأمد بالمال من غلات المناجم الأسپانية ، ومات وهو يقود هجوماً على إحدى قبائل تلك البلاد (٢٢٩) .

وترك وراءه فى معسكره هزدروبال زوج ابنته وأولاده هنيبال وهزدروبال وماجو — الملقب « بابن أسده » . واختير زوج ابنته قائداً فى مكانه ، وظل ثمانى سنين يحكم البلاد بحكمة وسداد كسب فى أثنائها معونة الأسبان ، وأقام بجوار مناجم الفضة مدينة عظيمة يعرفها الرومان باسم قرطاجنة الجديدة (Nova Carthage) وهى مدينة قرطاجنة الباقية إلى اليوم . ولما اغتيل فى عام ٢٢١ اختار الجيش لقيادته هنيبال أكبر أبناء هملكار ، وكان وقتئذ فى السادسة والعشرين من عمره . وكان أبوه قد جاء به قبل أن يغادر قرطاجنة ، وهو لا يزال غلاماً فى التاسعة من عمره ، إلى مذبح بعل — هامان واستحلفه أن يثأر لبلاده من رومة فى يوم من الأيام . فأقسم هنيبال ولم ينس قط قسمه .

الفصل الرابع

هنيبال

ترى لمَ سكتت رومة حتى عادت قرطاجنة إلى فتح أسبانيا ؟ لقد أرغمها على هذا السكوت أن النزاع بين الطبقات كان يمزق أحشاءها ، وأنها كانت تمد سلطانها على شواطئ البحر الأدرياوى ، وكانت مشتبكة فى حرب مع الغاليين . ذلك أن أحد التربيونين وهو كيوس فلامينيوس Gaius Flaminius قد سبق ابنى جراكس Gracchii فأقنع الجمعية فى عام ٢٣٢ بالموافقة على اقتراح يقضى بتوزيع أراضى غنمتها رومة من الغاليين على فقراء المواطنين ، وذلك بالرغم من معارضة مجلس الشيوخ الشديدة لهذا الاقتراح. وفى عام ٢٣٠ خطت رومة الخطوة الأولى لفتح بلاد اليونان ، وذلك بتطهير البحر الأدرياوى من القراصنة وباستيلائها على جزء من سواحل أليريا Illyria لتحمى بذلك التجارة الإيطالية من العدوان . ولما أن اطمأنت على سلامتها من ناحيتى الجنوب والشرق اعتزمت أن تطرد الغاليين إلى ما وراء جبال الألب ، وتجعل من إيطاليا بأكملها دولة متحدة كل الاتحاد . وأرادت أن تضمن سلامتها من ناحية الغرب فعقدت معاهدة مع هزدروبال تعهد فيها القرطاجنيون بأن يبقوا جنوب نهر الإبرة Ebro ، وعقدت فى الوقت نفسه حلفاً مع مدينتى سجنتم Saguntum وامپورياس Ampurias الأسبانيتين الإغريقيتى الصبغة . ولكن جيشا غالياً مؤلفا من خمسين ألفاً من المشاة وعشرين ألفاً من الفرسان انقض على شبه الجزيرة من الشمال . وارتاع سكان العاصمة أشد الارتياع ، ولجأ مجلس الشيوخ إلى العادة البدائية عادة التضحية البشرية ، ودفن اثنين من الغالة حيين فى السوق العامة مرضاة للآلهة[20]. والتقت الفيالق الرومانية بالغزاة قرب تلامون Telamon وقتلت منهم أربعين ألفاً وأسرت عشرة

آلاف ، وزحفت نحو الشمال لتخضع جميع بلاد الغاليين الواقعة فى جنوب جبال الألب ، وأتمت هذا العمل فى ثلاث سنين وأنشأت مستعمرات رومانية عند پلاسنتيا Placentia وكرمونا Cremona لحماية البلاد من الغاليين وبذلك أصبحت إيطاليا دولة واحدة تمتد من جبال الألب فى الشمال إلى صقلية فى الجنوب .

ولكن هذا النصر قد جاء فى غير أوانه ؛ فلو أن الغاليين قد تركوا فى أماكنهم بضع سنين أخرى لكان فى وسعهم أن يقفوا فى وجه هنيبال ؛ أما والحال كما هى فإن بلاد الغالة كلها كانت تضطرم بنار الثورة على رومة . ورأى هنيبال أن هذه هى الفرصة التى طالما تاقت نفسه إليها — فرصة اجتياز بلاد الغاليين دون أن يلقى مقاومة تستحق الذكر ، وغزو إيطاليا ومعه القبائل العالية تحالفه وتشد أزره .

وكان القائد البونى يومئذ فى الثامنة والعشرين من عمره ، وفى عنفوان شبابه ، وثيق الأركان ثبت الجنان . وكان قد جمع إلى ثقافة السادة القرطاجنيين ، وتمكنهم من لغتى فينيقية واليونان وآدابهما وتاريخهما[21] ، جمع إلى هذه الثقافة تدريباً عسكرياً دام تسعة عشر عاماً فى المعسكر الحربى ، أدب فى خلالها نفسه أحسن تأديب ، فعود جسمه شظف العيش ومغالبة الصعاب ، وأخضع شهواته لعقله ، وعود لسانه السكوت ، كما عود أفكاره أن تركز فيما يهدف إليه من الأغراض . ولم يكن يضارعه أحد فى الجرى أو فى سباق الخيل ، وكان فى مقدوره أن يخرج إلى الصيد أو القتال مع أشجع الشجعان ؛ ويصفه ليفى وهو من أعدائه بأنه : « كان أول من يدخل المعمعة ، وآخر من يخرج من الميدان[22] » . وكان محبباً إلى القواد والجنــود الذين ضرستهم الحروب ، لأنهم إذا كانوا فى حضرته تملكتهم هيبته وثاقب نظراته فخالوا أن هملكار قائدهم الأكبر قد عاد إليهم فى عنفوان الشباب . وأحبه المجندون الجدد لأنه لم يكن يرتدى ثياباً يميز

بها نفسه منهم ولا يستريح حتى يكفل للجيش كل حاجاته ، وكان يقاسمهم كل ما يصيبهم من شر وخير . أما الرومان فكانوا يتهمونه بالبخل والقسوة والغدر ، لأنه لم يكن يتقيد بمبدإ من المبادئ يحول بينه وبين الاستيلاء على المؤن لجنده ، وكان يجازى على الخيانة وعدم الولاء أشد الجزاء ، وكان ينصب لأعدائه كثيراً من الشراك . ولكننا كثيراً ما نجده مشفقاً رحيما ، ونراه على الدوام شهماً ذا مروءة . ويقول عنه ممسن Mommsen ذلك القول الحكيم وهو « أنه ليس فيما يروى عنه شيء لا يمكن أن تبرره ظروف وقته والقوانين الدولية التى كانت سائدة فى أيامه[٢٣] » . ولم يكن فى وسع الرومان أن يرضوا عنه لأنه كان يكسب الوقائع الحربية بعقله بدماء رجاله ، ذلك أن الحيل التى كان يحتال بها عليهم ، ومهارته فى التجسس عليهم ومعرفة أسرارهم ، وعلمه بفنون الحرب والحركات العسكرية ، وقدرته على مباغتة أعدائه ، كل هذا ظل فوق إدراكهم وتقديرهم حتى دمرت قرطاجنة .

وحدث فى عام ٢١٩ ق . م أن دبر عمال رومة فى سجنتم انقلاباً سياسياً أقام فى المدينة حكومة وطنية معادية لقرطاجنة . ولما أساء أهل المدينة معاملة بعض القبائل الموالية لهنيبال ، أمرهم بالكف عن هذه المعاملة السيئة ، فلما رفضوا طلبه حاصر المدينة ، فاحتجت رومة على قرطاجنة وأنذرتها بالحرب ، فكان رد قرطاجنة أن سجنتم تبعد عن نهر إبره Ebro مائة ميل نحو الجنوب ، وأن ليس من حق رومة أن تتدخل فى هذا النزاع ، وأنها إذ وقعت معاهدة مع تلك المدينة أخلت بشروط معاهدتها مع هزدروبال . وواصل هنيبال الحصار ، وامتشقت رومة الحسام مرة أخرى ، وهى لا تدرى أن هذه الحرب البونية الثانية ستكون أشد هولا من جميع الحروب التى خاضت غمارها فى تاريخها كله .

وقضى هنيبال فى إخضاع أهل سجنتم ثمانية أشهر كاملة ، وذلك لأنه لم يكن يجرؤ على التقدم لغزو إيطاليا ويترك لرومة من ورائه ثغرا هاما

تستطيع أن تنزل جنودها فيه . فلما تم له الاستيلاء عليها عبر نهر الإبرة في عام ٢١٨ وتحدى الأقدار كما تحداها قيصر من بعده حين تخطى الربيكون(*) Rubicon وكان تحت قيادته جيش يتألف من خمسين ألفاً من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان ؛ ليس فيهم أحد من الجنود المرتزقين ، ومعظمهم من الأسبان واللوبيين . ولكن ثلاثة آلاف من جنوده الإسبان نكصوا على أعقابهم حين علموا أنه ينتوى عبور جبال الألب ؛ وسرح هو نفسه سبعة آلاف غيرهم لأنهم احتجوا على هذه المغامرة ، وقالوا إنها مستحيلة التحقيق[٢٤] . وكان اختراق جبال البرانس نفسها من أشق الأعمال ؛ ولم يكن يتوقع قط أن يلقى ما لقيه من المقاومة الشديدة من بعض قبائل الغاليين أحلاف مرسيلية ؛ واقتضاه الوصول إلى نهر الرون حروباً دامت ثمانية أشهر ، فلما وصله كان لا بد له من معركة عنيفة ليتمكن من اجتيازه . وما كاد يبتعد عن شاطئيه حتى وصل جيش رومانى عند مصبه .

واتجه هنيبال بجيشه شمالا نحو ڤين Vienne ثم اتجه به شرقا نحو جبال الألب . وكانت جموع من الكلت قد عبرت هذه السلاسل الجبلية من قبله . وكان فى مقدوره هو أن يعبرها دون أن يلقى فى سبيل ذلك صعاباً غير عادية لولا عداء القبائل الألپية وما عاناه من الصعاب فى تسيير فيلته فى الممرات الضيقة أو الشديدة الانحدار . وقضى هنيبال فى تسلق الجبال تسعة أيام وصل بعدها فى أوائل شهر سبتمبر إلى قممها فوجدها مغطاة بالثلوج ؛ وبعد أن استراح هو ورجاله ودوابه يومين شرع فى النزول فى ممرات أشد وعورة من التى سلكها فى الصعود ، وطرق مغطاة فى بعض الأحيان بجلاميد من الصخر ومرصوفة فى أحيان أخرى بالجليد . وكثيراً ما كانت تزال أقدام الجنود والدواب فتتردى فى هاويات سحيقة تلقى فيها حتفها . وكان هنيبال يستحث جنوده اليائسين بأن يشير إلى الحقول الناضرة والمجارى المتلألئة التى تنتشر من بعيد فى جنوب الجبال ، ويقول

(*) انظر هذا فى تاريخ قيصر فيما بعد . (المترجم)

إن هذه الجنة التي وعدهم بها سوف تكون لهم بعد قليل . وبعد أن قضوا سبعة عشر يوماً فى الصعود والهبوط وصلوا إلى السهول ، وألقوا عصا التسيار ليستريحوا ، وقد خسر الجيش فى هذه المجازفة الخطيرة كثيراً من الرجال والجياد حتى لم يبق من الجنود إلا ستة وعشرون ألفا أى أقل من نصف القوة التي غادر بها قرطاجنة الجديدة منذ أربعة شهور . ولو أن هنيبال لقى من الغاليين فى جنوب الأرض مثل ما لقيه من مقاومة الغاليين فى غربها لكان الأرجح أن تنتهى حملته قبل أن يتقدم جنوباً فى إيطاليا ولكن البوئى Boii وغيرهم من القبائل رحبوا به ورأوا فيه منقذاً لهم ، فتحالفوا معه وانضووا تحت لوائه ، وأما المستعمرون الرومان المحدثون الذين أسكنتهم رومة فى تلك البلاد فقد فروا أمامه نحو الجنوب ، ولم يقفوا حتى عبروا نهر الپو Po .

وهكذا واجه مجلس الشيوخ هذا الخطر الثانى يهدد رومة بالدمار والفناء ولما يمض على الخطر الأول إلا نحو سبع سنين ، فاستعان بموارد البلاد كلها ، وأهاب بالولايات الإيطالية أن توحد جهودها للدفاع عن بلادها . وبفضل ما لقيته من معونتها جندت رومة جيوشا بلغت عدتها ثلثمائة ألف من المشاة ، وأربعة عشر ألفاً من الفرسان ، وستة وخمسين ألفاً وأربعمائة ألف من الجنود الاحتياطيين . والتقى أحد الجيوش الرومانية بقيادة سپيو Scipio - وهو واحد من كثير من مشهورى القواد المسلمين بهذا الاسم - على شاطئ نهر تسينو Ticino ، وهو رافد صغير من روافد نهر الپو يلتقى به عند پاڤيا Pavia . وهاجم فرسان هنيبال النوميديون Numidian جنود سپيو وولوهم الأدبار ، وجرح سپيو جرحاً خطيراً ، وكاد أعداؤه يجهزون عليه لولا شجاعة ولده الذى شاءت الأقدار أن يلقى هنيبال مرة أخرى عند زاما Zama بعد ستة أشهر من ذلك الوقت . والتقى هنيبال بجيش رومانى آخر عند بحيرة ترزميني Trasimene تبلغ عدته ثلاثين ألف مقاتل يقوده لتربيون كيوس فلامنيوس Caius Flaminius ، ويتبعه عدد من النخاسين

يحملون الأغلال ليسلكوا فيها الأسرى الذين يأملون أن يبيعوهم فى الأسواق بيع العبيد . واستطاع هنيبال ومعه جزء من جيشه أن يخدع جيش فلامينيوس فيستدرجه إلى سهل تكتنفه التلال والغابات اختبأ فيها معظم جنوده ؛ فلما ضمه هذا السهل أشار إلى طوابيره المختبئة فانقضت على الرومان من كل الجهات وأفنتهم عن آخرهم تقريباً ؛ وقتل فلامينيوس نفسه (٢١٧) .

وبذلك سيطر هنيبال على شمال إيطاليا كله ، ولكنه كان يعرف أن أمامه عدواً عنيداً يبلغ عدده عشرة أضعاف عدد رجاله ، وكان أمله الوحيد فى التغلب على هذا العدو هو أن يقنع بعض الولايات الإيطالية بالخروج على رومة . وكانت وسيلته إلى هذا أن أطلق سراح كل من وقع فى أسره من أحلاف رومة ، وقال إنه لم يأت ليحارب إيطاليا بل جاء ليحررها من الاستعمار . ثم خاض إتروريا التى كانت تغمرها المياه ، وظل أربعة أيام كاملة لا يجد أرضا جافة يقيم فيها معسكره ، فعبر جبال الأپنين إلى شاطئ البحر الأدرياوى ، حيث سمح لجنوده أن يقضوا فترة طويلة يستعيدون فيها نشاطهم ، ويداوون فيها جراحهم ، وكان هو نفسه مصابا برمد خطير فى عينيه ، ولكنه لم يعالجه فانتهى بفقد إحداهما . وبعد أن استراح جيشه اتجه به نحو الجنوب بمحاذاة ساحل إيطاليا الشرقى ، وأخذ يعرض على القبائل الإيطالية أن تنضوى تحت لوائه ، ولكن واحدة منها لم تستجب لدعوته ، بل فعلت عكس هذا فكانت كل مدينة تغلق أبوابها دونه وتتأهب للقتال . وحينما اتجه إلى الجنوب أخذ حلفاؤه الغاليون يتخلون عنه لأنهم لم يكن يعنيهم إلا مصير موطنهم فى الشمال وبلغ من كثرة المؤامرات التى دبرت لاغتياله أن صار يتخفى فى كل يوم بشكل جديد . وأخذ يتوسل إلى حكومته أن ترسل إليه المدد والعتاد والزاد عن طريق أحد الثغور الواقعة على البحر الأدرياوى ، ولكن حكومته خيبت رجاءه ، فطلب إلى هزدروبال أخيه الأصغر — وكان قد تركه فى أسپانيا — أن يعد فيها جيشا يعبر به بلاد غالة وجبال الألپ وينضم

إليه ؛ ولكن الرومان كانوا قد غزوا أسبانيا ، فلم يجرؤ هزدروبال على مغادرتها ؛ ومضت عشر سنين قبل أن يخف إلى نجدته .

واستعانت رومة على عدوها الأكبر بخطته هو نفسه ، خطة المراوغة والحيطة والإفناء البطيء . واختير كونتس فابيوس مكسموس Quintus Fabius Makimus دكتاتوراً لعلاج الموقف فى عام ٢١٧ ، فاتبع خطة تقضى بأن يؤخر ما استطاع الالتحام فى واقعة فاصلة مع هنيبال . ونجح فى هذا نجاحاً اشتق معه من اسمه وصف لهذا النوع من القتال . وكان فابيوس يرى أن الغزاة سيتناقص عددهم على مر الأيام بفعل الجوع والمرض والشقاق ، ولكن الشعب الرومانى لم يطق صبراً على خطة « السكون السديدة » أكثر من عام ؛ وتغلبت الجمعية المئوية على مجلس الشيوخ وعلى منطق الحوادث والسوابق جميعها ، واختارت منوسيوس روفوس Minucius Rufus دكتاتوراً مع فابيوس . وسار منوسيوس لملاقاة العدو على الرغم من نصيحة فابيوس ، فوقع فى كمين وهزم هزيمة منكرة أدرك بعدها لم قال هنيبال إنه يخشى فابيوس الذى لم يحاربه أشد مما يخشى مرسلس Marcellus الذى يبغى حربه(٢٥) . وبعد عام واحد أسقط الرومان فابيوس وعهدوا إلى لوسيوس إيمليوس پولوس Lucius Aemilius Paulus ، وكيوس ترنتيوس ڤارو Caius Terentius Varro قيادة الجيوش الرومانية . وأشار پولوس الأرستقراطى بالحيطة والتريث ، أما ڤارو مختار العامة فكان شديد الرغبة فى العمل العاجل ، وحدث ما يحدث عادة فى مثل هذه الأحوال فتغلب الرأى الأخير ، وأخذ ڤارو يبحث عن القرطاجنيين حتى وجدهم عند كانى Cannae من أعمال أپوليا Apulia على بعد عشرة أميال أو نحوه من شاطئ البحر الأدرياوى . وكان قوام الجيش الرومانى ثمانين ألف راجل وستة آلاف فارس ؛ أما هنيبال فكان لديه تسعة عشر ألف جندى ممن ضرستهم الحروب ، وستة عشر ألفاً من الغاليين الذين لا يوثق بهم ، وعشرة آلاف من الفرسان ؛ وكان قد خدع ڤارو حتى جعله يحاربه فى سهل

متسع هو أحسن المواضع لحرب الفرسان ، وكان قد وضع الغاليين فى القلب لظنه أنهم سيتخلون عن مواقعهم ؛ وقد صدق ظنه فتراجعوا واقتفى الرومان أثرهم فى الثغرة التى حدثت بانسحابهم ، فأمر القائد القرطاجنى الماكر مضرسة جنده بالإطباق على جناحى الجيش الرومانى ، وخاض بنفسه غمار المعمعة فى أشد أماكنها هولا ، كما أمر فرسانه باختراق صفوف فرسان العدو ومهاجمة الفيالق الرومانية من خلفها ، وبذلك أحاط القرطاجنيون بالجيش الرومانى ، ولم يجد له فرصة للتحرك ، وكاد يفنى عن آخره ؛ فقد قتل من رجاله أربعة وأربعون ألفاً ، من بينهم پولوس Paulus وثمانون من الشيوخ الذين تطوعوا فى الجيش ، وفر عشرة آلاف إلى كنوزيوم Canusium ومن بينهم ڤارو وسپيو الذى لقب فيما بعد بالإفريقى الأكبر Africanus Major (٢١٦) . أما هنيبال فقد خسر من رجاله ستة آلاف ثلثاهم من الغاليين . وكان نصره هذا شاهداً فذاً على براعته فى القيادة التى لم يتفوق عليه أحد فيها فى التاريخ كله . ولم يعد الرومان بعد هذا النصر يعتمدون قط على الجنود المشاة ، كما أن هذا النصر وجه الحركات العسكرية الفنية وجهة لم تتحول عنها مدى ألفى عام .

الفصل الخامس

سبيو

وزعزعت هذه الكارثة هيبة رومة فى جنوبى إيطاليا وضعضعت سلطانها ، فانضم السمنيون والبروتيون واللوكانيون وأهل متابنتم ، وثوراى ، وكروتونا ، ولوكرى ، وكپوا(*) إلى الغاليين الجنوبيين فى حلفهم مع هنيبال ، ولم يثبت على الولاء لرومة إلا أمبريا ، ولاتيوم ، وإتروريا . وظل هرو صاحب سرقوسة وفياً حتى مماته ، ولكن خلفه جهر بانضمامه إلى قرطاجنة . وتحالف فيلب الخامس ملك مقدونية مع هنيبال لأنه كان يخشى أن تبسط رومة سلطانها على البلاد الواقعة فى شرق أوربا عن طريق إليريا Illyria ، وأعلن الحرب على رومة . وأظهرت قرطاجنة نفسها شيئاً من الاهتمام بالأمر فبعثت إلى هنيبال بقليل من الزاد والعتاد ؛ وظن بعض الشبان من النبلاء الذين نجوا من كارثة كنوزيوم أن لا أمل لرومة فى النجاة ، وفكروا فى الهرب إلى بلاد اليونان ، ولكن سبيو ظل يندد بموقفهم حتى استحوا ودبت فيهم روح الشجاعة ؛ وقضت رومة شهراً كاملا وهى فى أشد حالات الروع ؛ ولم يكن فيها إلا حامية قليلة تدفع عنها هنيبال إذا ما هاجمها . وهرعت كرائم العقائل إلى الهياكل يبكين وينظفن بشعورهن تماثيل الآلهة ، وعاشرت بعض النساء اللائى قتل أزواجهن وأبناؤهن فى الحروب الأجانب والرقيق خشية أن ينقطع نسلهن ، وظن مجلس الشيوخ أن الآلهة غضبى فأحل مرة أخرى التضحية بالآدميين مرضاة لها ، وأمر بدفن اثنين من الغاليين واثنين من اليونان أحياء(٣٦) .

ولكن الرومان على حد قول بولبيوس إنما « يخشون أشد الخشية فى ساعة

(*) Samnites, Bruttians, Lucanians, Metapontum, Thurii, Cotona, Locri, Capua

المحنة ... وشاهد ذلك أنهم وإن منوا بأشد الهزائم ، وخسروا سمعتهم الحربية ، استطاعوا ، بفضل ما كان لدستورهم من المزايا التي لا يشاركه فيها دستور غيره ، وبالاستماع إلى حسن المشورة ، أن يستردوا سيادتهم على إيطاليا ... وأن يصبحوا بعد قليل من السنين سادة العالم[٣٧] » وفي هذه الساعة الرهيبة سكنت حرب الطبقات ، وتدافعت كل الطوائف للعمل على إنقاذ الدولة . وكانت الضرائب قبل ذلك الوقت قد ارتفعت حتى ظن أنهم لن يطيقوها ، ولكن السكان ، ومنهم الأرامل والأطفال ، تقدموا راضين لخزانة الدولة بما كانوا قد ادخروه لأيام الشدة ؛ وجند كل رجل قادر على حمل السلاح ، وحتى الأرقاء قد قبلوا في الفيالق ووعدهم أسيادهم بأن يهبوهم حريتهم إذا كتب النصر لرومة ، ولم يرض جندي واحد أن يتناول عن عمله أجراً ، واستعدت رومة لتنازع أسد قرطاجنة الجديد كل شبر من أرضها .

وانتظرت رومة مجيء هنيبال ، ولكن هنيبال ، لم يأت إليها فقد ظن أن قوته المؤلفة من أربعين ألف مقاتل أقل من أن تحاصر مدينة تتجمع للدفاع عنها جيوش من جميع الولايات التي لا تزال موالية لها ، ولا يستطيع الاحتفاظ بها لو أنه استولى عليها . هذا إلى أن أحلافه من الإيطاليين لم يكونوا مصدر قوة له بل كانوا مصدر ضعف ، فقد كانت رومة وأصدقاؤها يعدان العدة لمهاجمة أولئك الأحلاف ، وإذا لم يخف هو لنجدتهم فسيقضى عليهم . وقد لامه رجاله على حذره وبطئه ، وقال له واحد منهم والأسف يحز في نفسه : « إن الآلهة لم تمنح كل مواهبها لرجل واحد ، إنك ياهنيبال تعرف كيف تنال النصر ، ولكنك لا تعرف كيف تنتفع به[٣٨] » . لكن هنيبال استقر رأيه على أن ينتظر حتى تنضم إليه قرطاجنة ومقدونية ، وسرقوسة فيؤلف منها حلفاً ثلاثياً يستعيد به صقلية وسردانية ، وقورسقة ، وإليريا فلا يكون لرومة قوة إلا في إيطاليا . وبدأ بإطلاق الأسرى جميعهم عدا الرومان ، وحتى هؤلاء عرضهم على رومة نظير فدية قليلة

فلما رفض مجلس الشيوخ أن يفتديهم أرسل معظمهم عبداً إلى قرطاجنة ، وأرغم الباقين على أن يسلوا رجاله بأن يصارع بعضهم بعضاً فى حلبة الجلاد حتى الممات كما يفعل الرومان .ثم أحاط بعدة مدن واستولى عليها وسار بجيوشه ليقضى الشتاء فى كبوا Capua .

وكانت كبوا أجمل المدن التى كان فى مقدوره أن يختارها لهذه الغاية وأشدها خطر عليه . ذلك أن هذه المدينة ، وهى ثانية المدن الإيطالية ، والتى تبعد عن نابلى نحو اثنى عشر ميلا إلى الشمال ، قد أخذت عن التسكانيين واليونان رذائل الحضارة كما أخذت عنهم فضائلها ؛ وأحس جنود هنيبال أن من حقهم أن يستمعوا فى ذلك الفصل بالملاذ الجسمية بعدما قاسوا من الصعاب وما أثخنوا من الجراح ؛ ولم يعودوا كما كانوا من قبل أولئك الجند الشداد الذين لا يقهرون ، والذين احتفظوا طوال ما خاضوه من الحروب بالصورة الاسپارطية التى كانت فى اعتقاد قائدهم هى وحدها صورة الجندى الحق . وقادهم هنيبال فى خلال الخمس السنين التالية وانتصر بهم فى بعض الوقائع الصغيرة ، وفى هذه الأثناء ضرب الرومان الحصار على كبوا . وأراد هنيبال أن يرفع عنها الحصار فتقدم إلى رومة حتى لم يبق بينه وبينها إلا بضعة أميال ؛ وجند الرومان خمسا وعشرين فرقة جديدة – أى مائتى ألف رجل ، ولم تكن قوة هنيبال قد زادت على أربعين ألفاً ، فاضطر إلى الانسحاب نحو الجنوب . وسقطت كبوا فى أيدى الرومان عام ٢١١ ، وقطعت رؤوس زعمائها الذين أباحوا قتل من كان من الرومان فى المدينة ؛ ومن لم يقتل منهم انتحر ؛ وشتت أهلها الذين ناصروا هنيبال فى جميع أنحاء إيطاليا ، وكان مرسلس Marcellus قبل عام واحد من ذلك الوقت قد استولى على سرقوسة وبعد عام منه استسلمت أرجنتم لرومة ؛

وأرسل إلى أسپانيا فى هذه الأثناء جيش رومانى بقيادة سپيو وأخيه الكبيرين ليناوشا هزدروبال ويشغلاه . فهزماه عند نهر أبره (٢١٥) ، ولكن القائدين قتلا فى الميدان بعد قليل ، وكادت تضيع ثمار ما كسباه

من النصر لولا أن أرسل إلى اسبانيا سپيو الإفريقى Scipio Afrcanus ، ابن أحد القائدين وابن أخ الثانى ، ليتولى قيادة الجيوش الرومانية فيها ، ولم يكن سپيو هذا قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره فى ذلك الوقت ، ولم تكن هذه السن تجيز له من الوجهة القانونية أن يشغل هـذا المنصب الخطير ؛ ولكن مجلس الشيوخ كان فى ذلك الوقت لا يرى ضيراً فى أن يتجاوز عن حرفية الدستور إذا كان فى ذلك التجاوز نجاة للدولة ، وكانت الجمعية قد رضيت مختارة أن تخضع لإرادة مجلس الشيوخ ، ولم يكن الشعب يعجب به لبهاء طلعته وفصاحة لسانه وذكائه وشجاعته فحسب ، بل كان يعجب به كذلك لتقواه ، وعدالته ، وبشاشته . وكان من عادته قبل أن يقدم على أمر خطير أن يناجى الآلهة فى الهياكل المقامة على الكپتول ، كما كان من عادته بعد أن ينال النصر أن يكافئها بذبح مئات من الثيران قرباناً لها . وكان يعتقد ، أو لعله كان يتظاهر بالاعتقاد ، أنه محبوب الآلهة ؛ وكانت انتصاراته سبباً فى انتشار هـذه العقيدة بين أتباعه فملأت قلوبهم ثقة به . ومالبث أن أعاد النظام إلى الجيش، واستولى على نوڤا كرتاجو (قرطاجنة الجديدة) بعد حصار طويل ، وحرص على أن يبعث إلى خزانة الدولة بما وقع فى يديه بعد سقوطها من المعادن الثمينة والحجارة الكريمة ، واستسلمت له بعدئذ معظم المدن الأسبانية ، ولم يحل عام ٢٠٥ حتى كانت أسبانيا ولاية رومانية .

ولكن قوة هزدروبال الرئيسية كانت قد أفلتت من يد سپيو واجتازت بلاد غالة وعبرت جبال الألب إلى إيطاليا . ووقعت الرسالة التى بعث بها القائد الشاب لهنيبال فى يد الرومان وعرفت رومة خططه الحربية ، والتقى جيش رومانى بقوته الصغيرة عند نهر متورس Metaurus (٢٠٧) وهزمته رغم مهارته فى القيادة . ولما رأى هزدروبال أن قد حاقت به الهزيمة وأن لا أمل له فى الوصول إلى أخيه ، قفز فى وسط الفيالق الرومانية حيث لقى حتفه . ويقول المؤرخون الرومان — ولعل ما يقولونه من نسج الخيال — إن القائد المنتصر قطع رأس القائد الشاب ،

وبعث بها بطريق أبوليا ليقذف بها من فوق الأسوار فى معسكر هنيبال ولما علم ذلك القائد بما حل بأخيه ، وكان يحبه أشد الحب ، فت فى عضده ، وطفئت جمرته ، فسحب قواته ، وكانت قد قل عديدها ، إلى بروتيوم Bruttium : ويقول ليفى إن « الرومان لم يشتبكوا معه فى حرب فى ذلك العام ، وإنهم لم يجرؤوا على مناوشته ، وذلك لما عرف عن قواته من البسالة وإن كان ركنه قد تضعضع وأخذت الأقدار تعاكسه ، وبدأ نجمه فى الأفول[٢٩] » . وأرسلت إليه قرطاجنة مائة سفينة محملة بالزاد والرجال ؛ ولكن عاصفة هوجاء ساقتها إلى سردانية فالتقت فيها بعمارة بحرية رومانية أغرقت وأسرت منها ثمانين ، وانطلقت السفن الباقية عائدة إلى بلادها .

واختير سپيو الأصغر قنصلا فى عام ٢٠٥ ولما يمض على انتصاره فى أسپانيا إلا وقت قصير ، فجند جيشاً جديداً وأبحر به إلى إفريقية . وطلبت الحكومة القرطاجنية إلى هنيبال أن يعود إلى بلاده ليدافع عن المدينة التى ظلت زمناً طويلا ترفض معاونته . ترى ماذا كان شعور هذا الجندى الأعور وقد تألب عليه أعداء لا حصر لهم فساقوه إلى ركن قصى فى إيطاليا ، وشاهد بعينيه ما بذله من الجهد وما عاناه من المشاق خلال خمسة عشر عاماً كاملة ينتهى إلى لا شىء ، وكل ما ظفر به من نصر حربى يقضى عليه فلا تكون له نتيجة إلا الفرار من الميدان ؟ لقد أبى نصف جنوده أن يعودوا معه إلى قرطاجنة ، ويقول بعض من يعادونه من المؤرخين إنه أمر بقتل عشرين ألفاً منهم عقاباً لهم لأنهم خالفوا أمره ، ولأنه كان يخشى أن تضمهم رومة إلى فيالقها[٣٠] : فلما أن وطئت قدماه أرض بلاده ، بعد أن غاب عنها ستة وثلاثين عاماً بادر إلى حشد جيش جديد وسار على رأسه لملاقاة سپيو عند زاما Zama على بعد خمسين ميلا جنوبى قرطاجنة (٢٠٢) : وتقابل القائدان فى بداية المعركة مقابلة ودية ، فلما وجد أن لا سبيل إلى الاتفاق بينهما أصدرا أمرهما ببدء القتال

وهزم هنيبال للمرة الأولى فى حياته ، فقد تضعضع القرطاجنيون ، وكان معظمهم من الجند المرتزقة ، أمام مشاة الرومان وفرنسا ومسينسا Massinissa ملك نوميديا المجازفين الأبطال . وقاتل هنيبال وهو فى سن الخامسة والأربعين كما كان يقاتل وهو فى نضرة الشباب ، فهجم على سپيو بنفسه وجرحه ، ثم ثنى بمسينسا ، وأعاد تنظيم قواه بعد أن اختل نظامها أكثر من مرة ، وقادها فى هجمات مضادة شديدة على الأعداء . فلما لم يبق له أمل فى النصر أفلت من الأسر وسار على ظهر جواده إلى قرطاجنة ، وأعلن أنه لم يخسر الموقعة فحسب بل خسر الحرب كلها معها ، وأشار على مجلس الشيوخ بأن يطلب الصلح . وعامل سپيو القرطاجنيين معاملة الكرام فرضى أن تحتفظ قرطاجنة بأملاكها فى إفريقية ، ولكنه طلب إليها أن تسلم لرومة جميع سفنها الحربية عدا عشر من ذات الثلاثة الصفوف من المجدفين ، وألا تشتبك فى حرب خارج إفريقية أو داخلها إلا بعد موافقة رومة ، وأن تؤدى إليها غرامة حربية سنوية مقدارها مائتا تالنت أى ما يقرب من ٧٢٠,٠٠٠ ريال أمريكي مدى خمسين عاماً . وأعلن هنيبال أن هذه الشروط عادلة وأشار على مجلس الشيوخ بقبولها .

وغيرت الحرب البونية الثانية وجه البحر الأبيض المتوسط من ناحيته الغربية ، فقد سيطرت رومة بعدها على أسپانيا كلها وما فيها من ثروة فأمدتها بما يلزمها من المال لفتح بلاد اليونان ، وأعادت إلى إيطاليا وحدتها تحت سيادة رومة لا ينازعها فيها منازع ، وفتحت جميع الطرق والأسواق للسفن والبضائع الرومانية ؛ ولكنها كانت أكثر الحروب القديمة جميعها نفقة ، فقد خربت مزارع إيطاليا الجنوبية أو ألحقت بها أشد الأضرار ، وهدمت أربعمائة من مدنها ، وأهلكت ثلثمائة ألف من رجالها(٣١) ؛ ولم تفق إيطاليا الجنوبية حتى اليوم من جميع ما أصابها من هذا الدمار . يضاف إلى هذا أن هذه الحرب قد أضعفت الديمقراطية إذ ظهرت أن الجمعيات الشعبية عاجزة عن أن تحسن اختيار القواد أو إدارة دفة الحروب ؛ وكانت سبباً فيما طرأ على حياة الرومان وأخلاقهم من انقلاب ، فقد

أضرت بالزراعة وشجعت التجارة ، وانتزعت الرجال من الريف ، وعلمتهم عنف الحروب ومفاسد حياة المعسكرات ، وجاءت بمعادن أسبانيا النفيسة لتنفق على ملاذ الحياة وعلى التوسع الاستعمارى وأمكنت إيطاليا من أن تعيش على ما اغتصبته من قمح أسبانيا وصقلية وإفريقية ، وقصارى القول أن هذه الحرب كانت المحور الذى يدور حوله تاريخ رومة من جميع نواحيه .

هذه آثار الحرب فى رومة ، أما فى قرطاجنة فقد كانت بداية نهايتها . لقد كان فى وسعها ، وقد احتفظت بجزء كبير من تجارتها وإمبراطوريتها ، أن تحل ما يواجهها من مشاكل الإنعاش ؛ ولكن حكومتها الألجركية قد بلغت من الفساد مبلغاً جعلها تلقى على كاهل الطبقات الدنيا عبء الغرامة الحربية ، وأن تختلس جزءاً من هذه الغرامة . وطلبت طوائف الشعب إلى هنيبال أن يخرج من عزلته وينقذ الأمة من محنتها ، واختير فى عام ١٩٦ حاكماً عاماً لها . فلما تولى منصبه روع سراة المدينة إذ اقترح ألا يبقى قضاة المحكمة البالغ عددهم ١٠٤ فى مناصبهم أكثر من سنة واحدة ، وألا يعاد انتخابهم إلى هذه المناصب إلا بعد عام من خروجهم منها . فلما رفض مجلس الشيوخ هذا الاقتراح عرضه على الجمعية الشعبية فأجازته ، وكانت نتيجة هذا القانون وما اتبع فيه من إجراء أن أنشأ من أقصر طريق نوعاً من الدمقراطية لا يقل عن مثيله فى رومة . ثم حارب الرشوة واجتثها من أصولها ، وأنزل بالمرتشين أشد العقاب ، ورفع عن الأهلين ما فرض عليهم من الضرائب الإضافية ، ودبر موارد الدولة تدبيراً استطاعت به قرطاجنة قبل أن يحل عام ١٨٨ أن تؤدى جميع ما فرضته عليها رومة من غرامة حربية .

لكن أرباب الأموال أرادوا أن يتخلصوا منه فبعثوا فى السر إلى رومة يقولون إن هنيبال يعد العدة لاستئناف القتال . وبذل سيبيو كل ما له من نفوذ ليحمى عدوه القديم ، ولكنه غلب على أمره واستجاب مجلس الشيوخ إلى رغبة أغنياء القرطاجنيين ، بأن طلب تسلم هنيبال إلى

رومة ، ولكن الجندى القديم مر من بلاده ليلا ، واجتاز على ظهر جواده مائة وخمسين ميلا حتى وصل إلى ثبسوس Thapsus وركب منها سفينة إلى أنطاكية (١٩٥) حيث وجد أنتيوخوس الثالث Antiochus متردداً بين حرب رومة ومسالمتها ، فأشار عليه بحربها وأصبح فيها من قواد الملك . فلما هزم الرومان أنتيوخوس فى مجنيزيا (١٨٩) اشترطوا نعقد الصلح معه أن يسلم هنيبال ، فما كان من هذا القائد إلا أن فر أولا إلى كريت ، ثم إلى بيثونيا Bithynia . فأخذ الرومان يطاردونه فى كل مكان يلجأ إليه حتى أحاطوه فى مكمنه بالجند . وآثر هنيبال الموت على الأسر ، وقال فى هذا : « دعونى أخفف عن الرومان ما يشغل بالهم من زمن طويل ؛ فهم يظنون أنهم لا يطيقون الصبر حتى يلاقى شيخ مثلى منيته »[٣٢] ، وتجرع السم الذى كان يحمله معه ومات فى عام ١٨٤ ق . م فى السابعة والستين من عمره ، وما هى إلا بضعة أشهر حتى تبعه إلى الراحة الأبدية سپيو قاهره الذى كان شديد الإعجاب به .

الباب الرابع

رومة الرواقيـــة

٥٠٨ ــ ٢٠٢ ق . م

ترى أى صنف من الخلق كان أولئك الرومان البواســل الذين لا يقهرون ؟ وأى نظم صاغتهم حتى كانت لهم هذه القوة فى الأخلاق والسياسة المنقطعة النظير ؟ كيف كانت بيوتهم ومدارسهم ؟ وكيف كان دينهم ومبادئهم الخلقية ؟ وكيف استخرجوا من الأرض تلك الثروة التى كانوا فى حاجة إليها ليعمروا بها مدنهم النامية ويعدوا بها جيوشهم المتجددة على الدوام والتى لم تعرف الراحة فى يوم من الأيام ؟ وبأى نظام اقتصادى وأية مهارة انتفعوا بهذه الثروة خير انتفاع ؟ وكيف كان هؤلاء الناس فى طرقاتهم وحوانيتهم ، وفى هياكلهم ومسارحهم ، وفى علمهم وفلسفتهم ، وفى شيخوختهم وموتهم ؟ إنا إذا لم نلم كل الإلمام بما كانت عليه رومة فى عهد الجمهورية الأول ، عجزنا عن فهم ذلك التطور الشامل فى العادات والأخلاق والأفكار ، الذى أنتج فى جيل من الأجيال كاتو Cato الرواق وفى جيل بعده نيرون الأبيقورى ، ثم بدل آخر الأمر الكنيسة الرومانية بالإمبراطورية .

الفصل الأول

الأسرة

كان ميلاد الأطفال نفسه مغامرة خطيرة في رومة ؛ فقد كانت العادات المألوفة تبيح للأب إذا ولد له طفل مشوه أو كان أنثى أن يعرضه للموت(١) . أما إذا لم يكن كذلك فقد كان يرحب بمولده ؛ لأن الرومان حتى في ذلك العهد البعيد ، وإن مارسوا عادة ضبط النسل إلى حد ما ، كانوا شديدي الرغبة في أن يكون لهم أبناء . ذلك أن الحياة الريفية قد جعلت الأبناء مصدراً من مصادر الثروة ، ولذلك كان الرأي العام يندد بالعقم ، كما كان الدين يشجع على الإكثار من النسل بما يدخله في عقول الرومان من أن الواحد منهم إذا مات ولم يكن له ولد يعنى بقبره ، قاست روحه ألوان الشقاء والعذاب إلى أبد الدهر . وكانوا إذا مضى على مولد الطفل ثمانية أيام احتفلوا حول موقد الدار احتفالا رسمياً مهيباً بضمه إلى الأسرة والعشيرة . وكانت العشيرة (gens) تتألف من طائفة من الأسر الحرة تنتمي إلى أصل واحد ، وتسمى باسمه ، وتشترك بعضها مع بعض في العبادة ، وتتبادل العون في السلم والحرب . وكان الولد الذكر يعرف باسمه الخاص الأول (praenomen) مثل پبليوس Publius ، أو ماركس Marcus ، أو كيوس Caius ، وباسم عشيرته (nomen) مثل كرنليوس Cornelius أو تليوس Tutlius ، أو يوليوس Julius ؛ وباسم أسرته مثل سپيو Scipio ، وشيشرون Cicero ، وقيصر Caesar . أما النساء فكن في أغلب الأحيان يتميزن بأسماء عشائرهن وحدهن مثل كرنليا Cornelia ، وتليا Tullia ، وكلوديا Claudia ، ويوليا Julia . وإذ لم يكن للذكور في الأيام القديمة الأولى من الأسماء الأول ما يزيد على خمسة عشر اسماً ،

وكانت هذه الأسماء تتكرر فى الأسرة الواحدة جيلا بعد جيل تكراراً يجعل التمييز بين مسمياتها من أصعب الأمور ، فقد اعتاد الرومان أن يختصروا هذه الأسماء الأولى فيستعيضوا عنها بالحروف الأولى منها ويضيفوا إلى أصحابها اسماً رابعاً — وخامساً فى بعض الأحيان — ليسهل تمييزهم بعضهم من بعض . ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يميزون سپيو قاهر هنيبال من سميه الذى دمر قرطاجنة بتسمية الأول پ ، كرنليوس سپيو الإفريقى الأكبر P. Cornelius Scipio Africanus Major ، والثانى پ . كرنليوس سپيو إيمليانس الإفريقى الأصغر P. Cornelius Scipio Aemilianus Africanus Minor .

وكان الطفل يجد نفسه وقد اندمج كل الاندماج فى أخص النظم الرومانية الأساسية وأقواها أثراً وهو نظام الأسرة الأبوية . وتكاد سلطة الأب فى هذه الأسرة أن تكون سلطة مطلقة من كل القيود ، كأنما الأسرة قد نظمت لتكون وحدة عسكرية من جيش فى حرب دائمة ، وكان الأب وحده دون سائر أفراد الأسرة هو الذى له حقوق قانونية فى عهد الجمهورية الأول ، فهو وحده الذى كان من حقه أن يشترى الملك ويحتفظ به أو يبيعه ، وأن يتعاقد باسمه ؛ وحتى بائنة زوجه كانت فى ذلك العهد ملكا له . وإذا ما اتهمت زوجته بجريمة أحيلت إليه ليحاكمها ويعاقبها بنفسه ؛ وكان فى مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانته أو سرقت مفاتيح خزائن خمره . وكان له على أبنائه حق الحياة والموت أو بيعهم فى الأسواق بيع الرقيق . وكان كل ما يكسبه الابن يصبح فى نظر القانون ملكاً خالصاً لأبيه ، ولم يكن من حقه أن يتزوج من غير موافقة والده . وكانت البنت إذا تزوجت بقيت تحت سلطان أبيها ، إلا إذا سمح لها أن تتزوج زواجا Cum manu أى أسلمها بنفسه إلى يد زوجها أو وضعها تحت سلطانه . وكان له على عبيده سلطة لا حد لها ؛ فكان هو وزوجته وأبناؤه « ملك يده » mancipia ؛ ومهما يبلغ هؤلاء العبيد من السن أو المنزلة فإنهم يبقون تحت سلطانه حتى يحررهم هو

أو « يطلقهم من يده » emancipate them » على أن العادات ، والرأى العام ، ومجلس العشيرة ، وقانون الريتورين (المقدمين) كانت تقيد حقوق « رب الأسرة » إلى حد ما . أما فيما عدا هذه القيود فقد كان يحتفظ بهذه الحقوق إلى أن يموت ، وكانت تبقى له ولو ذهب عقله أو أراد هو أن يتخلى عنها . وكان من آثارها أن قويت وحدة الأسرة فكانت هى الأساس الذى قامت عليه أخلاق الرومان وحكومتهم ، وأن أدب الرومان تأديباً بعث فى أخلاقهم صلابة وقوة خير ما توصف به أنها قوة رواقية وكانت قوانينهم فى حرفيتها أشد منها صرامة فى تطبيقها ، وقلما كانوا يطبقون أقسى هذه القوانين ؛ وقلما أساءوا استخدام ما كان منها أقل قسوة ؛ فلم يكونوا يقفون فى سبيل حنان الآباء القوى الطبيعى على أبنائهم أو تعظيم الأبناء لآبائهم ، حتى لقد كانت شواهد القبور فى رومة تبلغ من الرقة ما بلغته فى بلاد اليونان وما بلغته عندنا نحن(*) فى هذه الأيام .

وإذ كانت حاجة الرجل إلى المرأة — وهى أشد من حاجتها إليه — تكسبها من الحقوق ما لا تستطيع القوانين أن تقف فى وجهه ، فليس لنا أن نحكم على مكانة المرأة فى رومة من القيود التى يفرضها عليها القانون . فقد كان يحرم عليها أن تظهر فى دار المحكمة ولو كانت شاهدة . وإذا مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأى حق لها فى ماله ؛ وكان له إذا شاء أن يحرمها من أن ترث شيئاً من هذا المال . وكانت فى كل أدوار حياتها تحت رقابة رجل — أبيها أو أخيها ، أو زوجها ، أو ابنها أو وصى عليها — لا تستطيع أن تتزوج أو تتصرف فى مالها بغير رضاه . لكنها كان من حقها أن ترث وإن حدد هـــذا الميراث بما لا يزيد على مائة ألف سسترس Sesterce أى نحو (١٥,٠٠٠ ريال أمريكى) . أما التملك فلم يكن مقيداً بحد أقصى وكثيراً ما أصبحت النساء فى تاريخ الجمهورية

(*) يقصد الأمريكيين . (المترجم)

المتأخر من ذوات الثروات الطائلة لأن أزواجهن كانوا يهربون لهن أملاكهم ليتخلصوا بذلك مما عليهم من التزامات إذا أفلسوا في تجارة ، أو حكم عليهم بتعويض ، أو ليتملصوا من ضرائب الشركات ، وغير ذلك من الأخطار التي لا نهاية لها . وكان لها في شئون الدين شأن غير قليل ؛ فكان لها أن تكون كاهنة ؛ وكان من الواجبات المفروضة على كل كاهن تقريباً أن تكون له زوجة ، فإذا ماتت حرم من منصبه . أما في المنزل فكانت هي سيدته المعظمة **mea domina** ؛ ولم تكن كالزوجة في الحياة اليونانية تحجز في جناح الحريم بل كانت تتناول الطعام مع زوجها وإن كانت تجلس منتصبة ويجلس هو متكئاً . وكانت لا تقوم إلا بأقل قدر من الخدمة المنزلية ، وذلك بأنه كان لكل مواطن تقريباً عبد يقوم على خدمته . وكان لها أن تغزل لتدل بذلك على دماثة أخلاقها ، ولكن أهم واجباتها المنزلية هو مراقبة خدمها . على أنها مع ذلك كانت تحرص على أن تربي بنفسها أطفالها . وكان هؤلاء الأبناء يجزونها على صبرها وقيامها بواجبات الأمومة بما يقدمونه لها من دلائل الحب العميق والإجلال العظيم ، وقلما كان زوجها يجعل سيادته الشرعية عليها تطغى على حبه لها .

وكان الأب والأم ، ودارهما وأرضهما وأملاكهما ، وأطفالهما الصغار وأبناؤهما المتزوجون ، وأحفادهما أبناء هؤلاء الأبناء وزوجاتهم وعبيدهم ومواليهم — كان هؤلاء كلهم يؤلفون الأسرة الرومانية **Familia** ؛ ولم تكن هذه الكلمة عندهم تعني أسرة بقدر ما تعني بيتاً بكل من فيه ، وما فيه . فلم يكن هذا المعنى مقصوراً على جماعة من ذوي القربى ، بل كان يعني مجموعة من الأشخاص المملوكين والأشياء المملوكة ، يخضعون كلهم ، وتخضع كلها ، لأكبر الذكور سناً . وفي نطاق هذا المجتمع الصغير الذي يضم في داخله وظائف الأسرة ، والكنيسة ، والمدرسة ، والنظم الصناعية والحكومية ، شب الطفل الروماني وترعرع على حب الطاعة والتقوى ، فكان منه مواطن قوي صلب العود في دولة لا تغلب .

الفصل الثانى

دين رومة

١ — الآلهة

لقد كانت الأسرة الرومانية رابطة بين الأشخاص والأشياء ، كما كانت رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة والآلهة من جهة أخرى . وكانت هى المركز الذى يلتف حوله الدين ، والخلق ، والنظام الاقتصادى ، وكيان الدولة بأجمعها ، كما كانت هى المنبع الذى تُستَمد منه هذه المقومات كلها . وكان كل جزء من أملاكها مهما صغر وكل مظهر من مظاهر وجودها يرتبط ارتباطاً وثيقاً جدِّياً بالعالم الروحى ؛ فكان الطفل يعلم بالقدوة الصامتة الفصيحة أن نار الموقد التى لا تخمد ليست إلا رمز الإلهة فستا Vesta ومادتها ، وأنها ، هى الشعلة المقدسة التى ترمز إلى حياة الأسرة وإلى دوامها ؛ ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنطفئ هذه النار ، وأن يُعنى بها العناية « المقدسة » وأن تغذى بنصيب من كل وجبة . وكان الطفل يرى فوق الموقد النصبات(*) تتوجها الأزهار وتمثل آلهة الأسرة أو أرواحها المقدسة : إللار ، Lar(**) الذى يحرس حقولها ومبانيها وسعادتها ومصيرها ؛ والپينات Penates أو الآلهة الداخلية التى تحمى ما تجمع للأسرة فى مخازنها وأصونتها وبيادرها ؛ وكان الإله يانوس Janus يحوم حول

(*) النصبة الصورة تعبد . (المترجم)

(**) اللار : أحد الآلهة المحليين وهو تسكانى الأصل ولكن الرومان جعلوه فيما بعد أحد الآلهة الراعية للأسرة .

عتبة الدار وإن كانت الأعين لا تراه ، وكان ذا وجهين ، وليس معنى هذا أنه كان مخادعاً بل معناه أنه كان يرقب الداخلين والخارجين من كل باب . وكان الطفل يعلم أن أباه هو الحافظ للأسرة وأنه رمز القوة الخلاقة الداخلية (genius) التي لا تفنى بفناء الجسم بل يجب أن تتغذى على الدوام عند قبر الأب . وكانت الأم هي الأخرى تحمل رباً من الأرباب ، وكان عليه أن يعاملها أيضاً معاملة الآلهة . وكان فيها يونو **Juno** وهو روح قدرتها على الحمل يقابل قدرة الأب على الخلق . وكان للطفل أيضاً يونوه **Juno** وهو ملاكه الحافظ وروحه أو النواة الإلهية فى غلافه الفانى . وكان يقال له فولا يبعث فى قلبه الرهبة ، إنه يحيط به من كل مكان أطياف رحيمة **Di Manes** هى أطياف الذكور من أسلافه التى كانت أقنعة وجوههم الرهيبة معلقة على جدران المنزل تحذره من أن يتنكب طريق هؤلاء الأسلاف ، وتذكره بان الأسرة لا تتألف فقط من أولئك الذين كانوا فى الأيام الحالية أو سيكونون فى الأيام المقبلة أعضاء فيها بأجسامهم ، والذين يكونون لهذا السبب جزءاً من مجموعها الروحى ووحدتها الأبدية .

وكانت أرواح أخرى تأتى لمعونته كلما كبر : فكوبا **Cuba** تحرسه وهو نائم وأبيونا **Abeona** تهدى خطاه ، وفبيلينا **Fabulina** تعلمه الكلام . وإذا ما غادر المنزل وجد نفسه مرة أخرى فى حضرة الآلهة أينما حل . وكانت الأرض نفسها آلهة فهى تارتا تلس **Tellus** وتارة تراماتر **Terra Mater** أى الأرض الأم ، وكانت أحيانا هى المريخ **Mars** أى الأرض التى يطؤها بقدميه وخصبها المقدس ، وأحياناً تكون هى الآلهة الصالحة **Bona Dea** التى تمد النساء والحقول بالأرحام الخصيبة . وكان فى المزرعة إله معين لكل عمل وكل بقعة فيها ، پومونا **Pomona** للبساتين ، وفونس **Faunus** للماشية ، وپالس **Pales** للمراعى ، واستركيولس **Sterculus** لأكوام السماد ، وزحل **Saturn** للزرع ، وسيريز **Ceres** للحاصلات ، وفرناكس **Fornax** لتحميص الذرة فى التنور ، وفلكان **Vulcan** لإيقاد النار .

وكان يشرف على الحدود الإله العظيم ترمنس Terminue وهو يتمثل ويعبد فى الحجارة والأشجار التى تحدد المزارع » وإذا كانت الأديان غير الرومانية تتطلع إلى السماء ، فإن الرومان أنفسهم لم يكونوا ينكرون أن فيها هى الأخرى آلهة ، ولكن المحور الذى كانت تدور حوله أعظم مظاهر تقواه وإيمانه وأخلص كفاراته واستعطافه كان هو الأرض أم حياته ومصدرها ، ومنزل أمواته ، والمربية الساحرة للبذور النامية ؛ وإذا ما حل شهر يناير من كل عام أقيمت الصلوات للارات Lares الأرض فى عيد ملتقى الطرق Compitalia أو Crossroads البهيج ؛ وإذا أقبل شهر يناير قدمت الهدايا الغالية مرضاة لتلس Tellus واستدراراً لعطفه على كل المزروعات ؛ وفى شهر مايو من كل عام يسير كهنة « إخوان أرفال Arval » إلى إخوان الحرث فى موكب غنائى حول حدود المزارع المجاورة لهم يطوقون الحجارة بتيجان من الزهر ، ويرشون عليها دماء الأضاحى ، ويدعون المريخ (الأرض) أن تخرج الفاكهة الموفورة . ويرى من هذا أن الدين كان يؤمن الملكية ، ويزيل أسباب الشحناء ، ويكرم العمل فى الحقول ، فينشئ فيه الشعر ، ويؤلف فيه المسرحيات ، ويقوى الجسم والروح بالإيمان والعمل .

ولم يكن الرومانى ، كما كان الإغريقى ، يفكر فى آلهته كأن لها صوراً كصور الآدميين ، ولم يكن يسمها إلا نمينا Mumina أى الأرواح ، وكانت هذه الآلهة فى بعض الأحيان معنويات مجردة كالصحة ، أو الشباب ، أو الذاكرة ، أو الحظ ، أو الشرف ، أو الأمل ، او الخوف أو الفضيلة ، أو العفاف ، أو الوفاق ، أو النصر ، أو رومة ؛ وكان منها أرواح للمرض يصعب استرضاؤها كالأطياف وأرواح الموتى ؛ ومنها أرواح فصول السنة ، مثـــل Maia روح شهر مايو ؛ ومنها آلهة الماء مثل نبتون Neptune ، وأرواح للغابات أو الآلهة التى تسكن الأشجار مثل سلفانس Slvanus . وكان بعضها يتقمص الحيوانات المقدسة كالحصان أو الحيوان الذبيح ، أو الإوز المقدس الذى كان المتقون يحتفظون بها فوق الكبتول

لا يناله أحد بأذى ، ومنها أرواح التناسل والإنتاج : تتومس يشرف على الحمل ، ولوسينا تحمى الحيض والولادة ، وكان پرياپس **Priapus** إلها للإخصاب عند اليونان ، ولكنه سرعان ما سكن رومة ، وكانت العذارى والأمهات (إذا كان لنا أن نصدق القديس أوغستين الغاصب) يجلسن على قضيب تمثاله ليضمن بذلك استعدادهن للحمل(٢) . وكانت صور خليعة فاحشة لهذا الإله تزين كثيراً من الحدائق . وكان السذج من الأهلين يلبسون صوراً صغيرة منه ظاهر فيها قضيبه لتهبهم القدرة على التناسل أو ترد عنهم « العين الحاسدة » . وجملة القول أننا لا نعرف قط دينا يبلغ فيه عدد الآلهة ما بلغه عند الرومان ، ويقدرها ڤارو بثلاثين ألفاً ، ويشكو پترونيوس من أن بعض المدن الإيطالية كان فيها من الآلهة أكثر ممن فيها من الرجال ؛ لكن الذين يسميهم پترونيوس **deus** لم يكونوا كلهم آلهة ؛ لأن كلمة **deus** كانت تعنى عند الرومان قديساً أو إلها .

وكان يكمن تحت هذه الأفكار الأساسية حشد من العقائد الشعبية المتعددة الأشكال ، من عبادة الطبيعة ، والدكاكيرية **(feteshism)** ، والطوطمية والإيمان بالسحر ، والمعجزات ، والرقى ، والخرافات ، والمحرمات ، ومعظمها عقائد باقية من أيام سكان إيطاليا فيما قبل التاريخ ، ولعلها باقية من أيام أسلافهم الهندورپيين جاءوا بها من موطنهم القديم فى قارة آسية . وكان الكثير من الأشياء والأماكن والأشخاص مقدساً **(sacer)** محرماً مسه أو تدنيسه ، ومن هؤلاء الأشخاص الأطفال الحديثو الولادة ، والنساء فى وقت الحيض ، والمجرمون إذا أدينوا . وكانت مئات من الصيغ اللفظية أو المبتكرات الآلية تستخدم للوصول إلى غايات طبيعية بوسائل خارقة للطبيعة ، فكانت التمائم شائعة بينهم لا يكاد يخلو منها واحد منهم ؛ وكان كل طفل تقريباً يلبس « بُلَّة » **Bulla** أو طلمساً ذهبياً معلقاً فى عنقه ، وكانت تماثيل صغيرة تعلق على الأبواب أو الأشجار لتبرد الأرواح الخبيثة ، وكانت الرقى والتعاويذ السحرية تستخدم لمنع الأخطار ،

وللشفاء من الأمراض ، وإنزال المطر من السماء ، وإهلاك جيوش الأعداء ، وإتلاف محصولات العدو أو إهلاكه هو نفسه . ومن أقوال پلنى Pliny فى هذا : « كلنا نخشى أن تصيبنا اللعنات أو الطلاسم بالسوء[٤] » . كذلك يرد ذكر الساحرات فى أقوال هوراس Horace ، وفرچيل Virgil ، وتبيلوس Tibulus ، ولوشيان Lucian . وكان الاعتقاد السائد أنهن يأكلن الأفاعى ويطرن فى الهواء ليلا ، ويعصرن السم من أعشاب لا يعرفها غيرهن ، ويقتلن الأطفال ، ويحيين الموتى . ويلوح أن الرومان جميعاً ، إلا قليلا من المتشككين ، كانوا يؤمنون بالمعجزات ، وبالفأل والطيرة ، وبأن التماثيل تتحدث وتعرق[٥] ، وبأن الآلهة تنزل من جبل أولمپس Olympus لتحارب فى صف الرومان ، وبأن الأيام الفردية الأسماء محظوظة ، والزوجية الأسماء منحوسة ، وبأن الحوادث الغريبة تنبئ بالمستقبل . ويحتوى تاريخ ليڤى على عدة مئات من أمثال هذا الإنباء يسجلها كلها بوقاره الفلسفى . وفى مجلدات پلنى الأكبر Pliny من التنبوءات ووسائل العلاج السحرى ما يصح لنا أن نسمى تاريخه « تاريخ خوارق الطبيعة » . وكثيراً ما كان يحدث أن تؤجل أهم الأعمال التجارية أو الحكومية أو الحربية أو تلغى إلغاء تاماً إذا تشاءم الكاهن بأن وجد شيئاً غير مألوف فى أمعاء ذبيحة ، أو سمع قصف رعد فى السماء .

وكانت الدولة تبذل كل ما فى وسعها لتحد من الإسراف فى هذه العادات ، وكان يطلق عليها ذلك اللفظ الذى يعبر عنها أدق تعبير وهو لفظ Supersitis أى العقائد الدينية المفرطة . ولكنها كانت لا تقعد قط عن استغلال تقوى الشعب لتثبيت دعائم الحكم والنظام الاجتماعى فكيف آلهة الريف لتوائم حياة الحضر ، وشادت موقداً قومياً للإلهة فستا ، وعينت طائفة من العذارى الفستيات لتقوم على خدمة نار المدينة المقدسة . وأخرجت من مجموع آلهة الأسرة والمزرعة والقرية الآلهة القومية للدولة di indigetes ، ونظمت لهذه الآلهة عبادة جديدة جميلة المنظر تقوم بها الدولة باسم جميع المواطنين ؛

وكان أحب هذه الآلهة القومية الأولى إلى قلوب الشعب الإله چوپتر أو چوف Jupiter or Jove وإن لم يكن هذا الإله قد أصبح ملكها كما أصبح زيوس Zeus عند اليونان ، بل كان فى القرون الأولى من حياة رومة لا يزال قوة نصف معنوية يمثل رقعة السماء المتلألئة وضياء الشمس والقمر وقصف الرعد ، وكان فى صورة چوپتر فلوڤيوس Jupiter Fluvius يمثل شؤبوبا من المطر المخصب . وقد كان ڤرجيل وهوراس نفساهما يستعملان فى بعض الأحيان لفظ « Joue » مرادفاً للفظ المطر أو السماء(٦) . وكانت أكثر نساء رومة ثراء إذا أجدبت السماء يسرن حافيات فى موكب كبير إلى تل الكپتولين حيث هيكل چوپتر توناز Jupiter Tonans — چوف المرعد — ليستسقين . ولعل لفظ چوپتر محرف عن ديسپاتر Diuspater أو ديسپتر Diespeter أى إله السماء . ولعل يانوس Janus الذى كان فى الأصل يسمى ديانوس Dianus كان يؤلف هو وچوپتر فى بداية الأمر إلهاً واحداً ، وكان يرمز به أولا إلى روح باب الكوخ ذى الوجهين ثم إلى باب المدينة ، ثم إلى أية فتحة أو بداية كبداية اليوم أو السنة . وكانت أبواب هيكله لا تفتح إلا فى أيام الحرب ليخرج منها مع جيوش رومة لهزيمة آلهة الأعداء . وكان المريخ Mars إلهاً معظماً عند الشعب مذ بدأ يعظم چوپتر . وكان أولا إله الحرث ، ثم أصبح إله الحرب ، ثم كاد أن يكون هو فيما بعد رمز رومة وشعارها ؛ وكانت كل قبيلة فى إيطاليا تطلق اسمه على شهر من الشهور ؛ ولم يكن زحل الإله القومى للبذرة الحديثة الزرع (Sata) أقل قدماً من چوپتر والمريخ ، وكانت الأساطير تصوره على أنه ملك من ملوك ما قبل التاريخ أخضع القبائل كلها لقانون واحد وعلمها الزراعة وأقر السلام والمشايعة فى العهد الذهبى من عهد زحل Saturnie Regina

وكانت إلهات رومة أقل قوة من آلهتها ، ولكنهن كن أحب إلى قلوب الشعب من الآلهة الذكور . وكان من هذه الإلاهات يونو رچينا Juno Regina

ملكة السماء وحامية الأنوثة والزواج والأمومة . وكانوا يوصون بالزواج فى شهرها – شهر يونيو[٧] – ويقولون إن الزواج فيه أسعد الزيجات ؛ وكانت منيرڤا Minerva إلهة الحكمة (mens) أو الذاكرة ، والصناعات اليدوية وطوائف الصناع ، والممثلين والموسيقيين والكتبة . وكانت الپلاديوم Palladium التى تقف عليها فى اعتقادهم سلامة رومة صورة صغيرة للإلهة پلاس منيرڤا Pallas Minerva مدججة بالسلاح جاء بها إنياس Aeneas فى زعمهم من طروادة إلى رومة بأساليب الحب والحرب . وكانت ڤينوس Venus (الزهرة) إلهة الشهوة ، والزواج ، والإخصاب . وكان شهرها المقدس هو شهر إبريل شهر تفتح الأزهار Aperire . وكان الشعراء أمثال لكريشيوس Lucretius وأوڤد Ovid يرون فيها المنشأ الغرامى لجميع الكائنات الحية . وكانت ديانا Diana إلهة القمر والنساء والولادة والصيد والغابات وسكانها من الوحوش ؛ وكانت فى زعمهم روح شجرة جئ بها من أريشية (Aricea) حينما خضع هذا الإقليم من أقاليم لانيوم لحكم رومة . وكان بالقرب من أريشيا بحيرة نيمى Nemi وأيكتها ، وكان فى هذه الأيكة مزار ديانا ملجأ الحجاج الذين كانوا يعتقدون أن هذه الإلهة قد ضاجعت فى هذا المكان ڤربيوس Virbius ملك الغابات الأول ، ولكى يضمن دوام إخصاب ديانا وإخصاب الأرض كان خلفاء ڤربيوس – وهم كهنة الصائدة وأزواجها – يستبدل بهم جميعاً واحداً بعد واحد أى عبد قوى يعوذ نفسه بغصن (يسمى عندهم بالغصن الذهبى) يأخذه من شجرة البلوط المقدسة إحدى أشجار الأيكة ويهاجم الملك[*] ويذبحه . وقد بقيت هذه العادة إلى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح[٨] .

هذه إذن هى الآلهة الكبرى لدين رومة الرسمى ؛ وكان للأهلين غير هؤلاء أرباب قومية أصغر منها ولكنها لم تكن تقل عنها محبة لدى الرومان : ومن هذه

(*) يقصد ملك الأيكة أى صورة له . (المترجم)

الأرباب الصغرى هرقول Hercules إله الفرح والخمر الذى لم يتورع عن أن يقامر وهو مبتهج مع قندلقت هيكله لينال منــه محظية[٩] . وكان عطارد (Mercury) راعى التجار والممثلين واللصوص . وكانت أبس Aps إلهة الثروة وبلونا Bellona إلهة الحرب ، وكان غير هؤلاء أرباب ذكور وإناث يخطئهم الحصر . ولما أن بسطت رومة سلطانها جاءت إليها آلهة جديدة . وكانت فى بعض الأحيان إذا غلبت مدينة جاءت منها بآلهتها لتضمها إلى مجمع الآلهة الرومانى دليلا على غلبتها وضماناً لهذه الغلبة كما فعلت بيونو إلهة ڤياى حين قادتها أسيرة إلى رومة ؛ وكان سكان الأقاليم النائية إذا جاءوا إلى العاصمة أتوا معهم بآلهتهم ليثبتوا فيها أقدامهم حتى لا تجتث أصول أولئك السكان الجدد الروحية والأخلاقية اجتثاثاً مفاجئاً لسبب من الأسباب ، وكذلك يفعل اليوم المهاجرون إلى أمريكا فيأتون إليها بآلهتهم . ولم يكن الرومان يأبهون بمجئ هؤلاء الآلهة الأجانب ؛ وكان معظمهم يعتقدون أنهم إذا أزاحوا التمثال من مكانه أزاحوا الإله معه ، ومنهم كثيرون كانوا يؤمنون بأن التمثال نفسه هو الإله[١٠] .

على أن بعض الآلهة الجديدة لم تغلب ، بل كانت هى الغالبة . فقد تسربت إلى العبادات الرومانية بطريق التجارة والصلات الحربية والثقافية التى نشأت بين الحضارتين الرومانية واليونانية . وقد حدثت هذه الصلات أول الأمر فى كمپانيا ثم جنوبى إيطاليا ثم صقلية ، وانتهت آخر الأمر فى بلاد اليونان نفسها . وكان فى آلهة دين الدولة شىء من التجرد المعنوى وبرود الطبع ؛ وكان من المستطاع رشوهم بالقرابين والتضحيات ، ولكنهم قلما كانوا يمدون عُبادهم بالراحة أو الإلهام الفردى ؛ وكانوا من هذه الناحية يختلفون عن آلهة اليونان ذوى الصفات البشرية الممتلئين مغامرة وفكاهة وشعراً . ومن أجل هذا رحب الشعب الرومانى بآلهة اليونان وأقام لهم الهياكل ، وسره أن يتعلم ما يتطلبه أولئك الآلهة من مراسم وطقوس ، وكذلك سر الكهنة الرسميين أن يجندوا أولئك الجند الجدد لبث

النظام والطمأنينة فى النفوس ، فضموهم إلى أسرة رومة المقدسة ومزجوهم كلما استطاعوا بأقرب الآلهة الوطنية المماثلة لهم . فجاء من عهد بعيد أى من عام ٤٩٦ ق . م دمتر Demeter وديونيسيوس Dionysius و مُزجا بسيريس Ceres وليبر Liber (إله العنب) واستقبل كاستر Castor وبلكس Pollax بعد اثنى عشر عاماً من ذلك الوقت وصارا حامي رومة : وشيد فى عام ٤٣١ هيكل لأپلون Apollo الشافى لعله يخفف من وباء طاعون فشا فى رومة وقتئذ ؛ وفى عام ٢٩٤ جىء إلى رومة من إپدورس Epidaurus بإسكلاپيوس Aesculapius إله الطب عنـــد اليونان فى صورة أفعوان ضخم[11] ، وشيد على جزيرة فى نهر التيبر معبد فى صورة مستشفى تكريماً له وجىء بكرونس Cronus اليونانى وقيل إنه لا يختلف فى شىء عن زحل ، ومزج پوسيدن Poseidon بنبتون Neptune وأرتميس Artemis بديانا Diana وهفستس Hephaestus بڤلكان Vulcan ، وهرقل Heracles بهرقول Hercules ، وهيدس Hades بپلوتون Pluto وهرمس Hermes بعطارد Mercury ، وارتفع چوبتر بفضل الشعراء إلى زيوس غير زيوس اليونان ، فصار شاهد الأيمان الصارم وحارسها ، وقاضى الأخلاق الملتحى ، والقيم على القوانين ، وإله الآلهة ؛ وهيئت عقول الرومان المتعلمين على مهل لقبول عقائد التوحيد الرواقية واليهودية والمسيحية .

٣ — الكهنة

واستخدمت إيطاليا نظاماً من الكهنوت محكم الوضع لتضمن به معونة هؤلاء الأرباب . وكان الأب فى منزله كاهناً ، ولكن الصلوات العامة كان يرأسها جماعات (Collegia) من الكهنة ، تملأ كل منها ما يخلو فى صفوفها من الأماكن ويرأسها كلها حبر أعظم Pontifex maximus تختاره الجمعية المئوية ؛ ولم تكن عضوية هذه الكليات المقدسة تحتاج إلى تدريب

خاص ؛ بل كان فى وسع كل مواطن أن ينضم إليها أو يخرج منها ؛ ولم تكن تؤلف مرتبة أو طبقة منفصلة عن سائر المراتب أو الطبقات ، ولم يكن لها أى سلطان سياسى عدا أن الدولة كانت تستخدمها أداة من أدواتها . وكانت تستولى على إيراد بعض أراضى الدولة لتستعين به على العيش ، وكان لها عبيد يقومون على خدمتها ؛ وقد أصبحت بتوال الأجيال عظيمة الثراء بما كان يحبسها عليها أتقياء الناس من الأموال .

وكانت الكلية الدينية الكبرى فى القرن الثالث قبل المسيح تضم تسعة من الأعضاء ، وكان هؤلاء الأعضاء يحتفظون بالحوليات التاريخية ، ويسجلون القوانين ، ويقرءون الغيب ، ويقربون القرابين ، ويطهرون رومة مرة فى كل خمس سنوات . وكان يساعد هؤلاء الأحبار فى القيام بالمراسم الرسمية خمسة عشر كاهناً آخر يسمون فلمينى flamine – أى موقدى نيران الأضاحى . وكان ثمة طوائف من الأحبار أقل من هؤلاء شأناً يؤدون واجبات خاصة : فالساليون Salii أو القافزون كانوا يستقبلون العام الجديد بنوع من الرقص المقدس للمريخ ، والفتيالى fetiales يصدقون على عقد الصلح ، وإعلان الحرب ، واللوپرسى Luperci أو إخوان الذئاب يقومون بطقوس لوپركاليا Lupercalia العجيبة . وكانت طائفة العذارى القسقية Vestal Virgins تعنى بموقد الدولة وترشه فى كل يوم بالماء المقدس تأخذه من عين الحورية المقدسة إجيريا Egeria ؛ وكان هؤلاء الراهبات ذوات الثياب البيض والخُمُر البيض يُخترن من بين الفتيات اللاتى تتراوح سنهن بين السادسة والعاشرة ، وكن يقسمن بأن يظللن عذارى فى خدمة الإلهة قستا ثلاثين سنة ، وينلن فى نظير هذا ضروباً من الامتيازات والتكريم وإذا اقترفت إحداهن جريمة العلاقات الجنسية ضربت بالعصى ودفنت وهى على قيد الحياة ، وقد سجل المؤرخون الرومان اثنتى عشرة جريمة من هذا النوع ، فإذا قضين الثلاثين عاماً كان لهن أن يتركن خدمة الإلهة ويتزوجن ، ولكن قل منهن من كانت تتاح لها هذه الفرصة أو تغتنمها إذا أتيحت لها(١٢) .

وكانت أعظم طوائف الكهنة نفوذاً طائفة العرافين التسعة الذين كانوا يدرسون إدارة الآلهة ومقصدهم باتجاه الطيور فى الأيام الأولى(*) ، وبالفحص عن أحشاء الحيوانات المضحاة فيما بعد ؛ فكان كبار الحكام « يستطلعون الطلع » قبل كل عمل هام من أعمال السياسة أو الحكم أو الحرب ، ثم يفسر العرافون ما يجده الحكام ، أو يفسره لهم مفتشو الأكباد hauruspices الذين تلقوا فنهم هذا من بلاد الكلدان أو من أمم قبلهم عن طريق إترووريا . ولم يكن الكهنة على الدوام بمنجاة من الإغراء بالمال ، ولذلك كانوا فى بعض الأحيان يوفقون بين أقوالها وبين حاجات من يذهب لاستشارتهم . من ذلك أن أى قانون لا يتفق مع مصلحة طائفة أو جماعة من الناس كان يمكن تعطيله إذا قيل إن اليوم الذى ينظر فيه القانون يوم مشئوم لا يصلح العمل فيه ، وكان فى الاستطاعة إقناع الجمعية بالموافقة على إعلان الحرب اذا قيل لها إن اليوم الذى يطلب إليها إعلانها فيه يوم سعيد(١٣) . وكانت الحكومة فى الأزمات الخطيرة تدعى أنها تعرف ما تريده الآلهة بالرجوع إلى الكتب السبيلية Sibylline ، وهى الكتب التى سجلت فيها نبوءات سيبيل Sibyl أو كاهنة أپلون Apollo فى كومية Cumae . وكان فى وسع الأعيان أن يؤثروا فى الشعب بهذه الوسائل وبالرسل الذين كانوا يرسلونهم إلى هاتف دلفى The oracle at Delphi فى بعض الأحيان وبذلك يوجهونهم فى أى اتجاه يشاءون ، ويكادون يبلغون كل غاية يبغونها(١٤) .

ولم يكن يقصد بطقوس العبادات إلا أن تقدم هدية أو ضحية للآلهة لكسب عونها أو اتقاء غضبها . وكان الكهنة يقولون إن الاحتفالات التى تقام لهذا الغرض لا تثمر ثمرتها إلا إذا روعى فيها منتهى الدقة فى الأقوال والحركات ، وهى

(*) ومن ثم اشتقت من هـذا اللفظ Augurs ومعناها حامل الطيور aves-gero ، و Auspices فحص الطيور aues-specio . ولعل الإنسان البدائى قد عرف كيف يتنبأ بأحوال الجو من حركات الطير .

دقة لا يستطيع غير الكهنة أن يشرفوا عليها . وإذا وقع خطأ فى طقس من هذه الطقوس أيًّا كان نوعه وجبت إعادته من جديد ولو تطلب ذلك إعادته ثلاثين مرة . وكان معنى لفظ Religio هو أداء الطقس الدينى بالعناية التى يحتمها الدين[١٥] . وكان أهم ما فى الاحتفال هو التضحية Sacrifice ؛ ومعنى اللفظ مشتق من كلمة Cacer اللاتينية ومعناها ملك للإله . وكانت التضحية فى البيت تتخذ عادة شكل قطعة من كعكة توضع على الموقد أو كمية من النبيذ تلقى فى نار البيت ، وتكون فى القرية أول ثمرة تخرجها الأرض ، وقد تكون كبشاً أو كلباً أو خنزيراً ، وتكون فى المناسبات الهامة فرساً أو خنزيراً أو شاة أو ثوراً ، وكانت الثلاثة الحيوانات الأخيرة تذبح جميعها فى أكبر المناسبات أهمية فى عيد السو أوفى طوريليه Su - ove - taur - illa (أى عيد الخنزير والشاة والثور) . وكانوا يعتقدون أنه إذا تليت صيغ خاصة على التضحية استحالت إلى الإله الذى يراد منه أن يتقبلها ؛ وعلى هذا الاعتبار كان الإله نفسه هو الذى يضحى به[١٦] ؛ وإن كانت أحشاء الحيوان وحدها هى التى تحرق على المذبح ؛ وكان الكهنة والناس يأكلون كل ما بقى منه ، فقد كان هؤلاء يأملون أن تنتقل قوته ومجده إلى عبيده المحتفلين بعيده . وكان يضحى بالآدميين فى بعض الأحيان ، ومما يجدر ذكره أنه كان لا بد من صدور قانون فى عام ٩٧ بعد الميلاد لتحريم هذه العادة . ثم حورت هذه الكفارة تحويراً يبيح للرجل أن يضحى بحياته للدولة كما فعل القنصل پبليوس ديسيوس Publius Decius وولده ، وكما فعل ماركس كورتيوس Marcus Curtius إذ ألقى بنفسه فى أخدود شقه زلزال فى السوق العامة ليسكن بذلك غضب القوى الأرضية الخفية ، وتقول القصة بعد ذلك إن الشق قد التحم وإن الأمور قد عادت إلى مجاريها[١٧] .

وكان احتفال التطهير أكثر من هذه الطقوس متعة ؛ وكان هذا التطهير يحدث للمحصولات الزراعية أو لقطعان الماشية أو للجيش أو المدينة . وكانت

الطريقة المتبعة فى هذا الاحتفال أن يطوف موكب بالشيء المراد تطهيره ، ويقدم له الصلوات والذبائح ، فيتطهر بذلك من المؤثرات السيئة ويرد عنه الشر . ولم تكن الصلوات قد خلصت كل الخلاص من الرقى السحرية ؛ وكان اللفظ الذى يطلق عليها وهو كارمن Carmen يعنى الأنشودة والرقية جميعاً ؛ ويعترف پلنى صراحة بأن الصلاة ضرب من الأقوال السحرية[١٨] . وإذا ما تليت الصيغة حسب الأصول المرعية ووجهت إلى الإله الذى يجب أن توجه إليه حسب سجل الآلهة indigitamenta الذى جمعه الكهنة واحتفظوا به ، فإن الرجاء لا بد أن يجاب ؛ فإن لم يجب فإن غلطة ما قد حدثت فى الطقوس المرعية . وقريب من السحر وذو صلة به الڤوتا vota أو النذور التى كان الناس يطلبون بها معونة الآلهة ، وكانت هياكل عظيمة تشاد فى بعض الأحيان وفاء بهذه النذور . وتوحى النذور الكثيرة التى كشفت بين مخلفات الرومان على أن الدين كان يملأ قلوبهم ، وعلى أنه كان يمتزج به ويلطفه تقى وشكر على النعم ، وشعور بالصلة القوية بين الناس وبين قوى الطبيعة الخفية ، ورغبة أكيدة فى أن يكون الناس على وفاق مع هذه القوى جميعها . هذا ما كان للدين من أثر فى قلوب الشعب ، أما دين الدولة فكان على النقيض من هذا ، كان شكلياً جامداً ، لا يعدو أن يكون نوعاً من العلاقة القانونية التعاقدية بين الحكومة والآلهة . ولما أن تسربت إلى البلاد أديان جديدة من الشرق المغلوب ، كان أول ما تضعضع فى الدولة الرومانية هو الدين الرسمى ، أما الإيمان العميق ذو المظاهر الجميلة الجذابة ، والطقوس المنتشرة فى الريف ، فقد ظلت تقاوم الأغلال فى صبر وعناد طويلين . ولما تغلب الدين المسيحى فى آخر الأمر استسلم بعض الاستسلام إلى هذا الإيمان الريفى القديم فأخذ عنه كثيراً من عقائده وطقوسه ، وكان ذلك الأخذ عن حكمة وأصالة رأى ، ولا تزال هذه الطقوس باقية فى العالم المسيحى إلى هذه الأيام ، وإن تشكلت بأشكال جديدة وعبر عنها بألفاظ غير الألفاظ القديمة .

٣ — الأعياد

إذا كانت العبادات الرسمية مكتئبة صارمة فإن ما كان فيها من أعياد قد عوضها عن هذه الصرامة وصوّر الناس والآلهة فى صورة أبهى وأجمل منظراً . فقد كانت السنة تزدان بأكثر من مائة يوم مقدس (feriae) من بينها اليوم الأول من كل شهر ، وقد تشمل أحياناً اليومين التاسع والخامس عشر . وخصصت بعض هذه الأعياد لتقديس الموتى وأرواح العالم السفلى ؛ وكان يقصد بالأعياد وما يقام فيها من احتفالات استرضاء الموتى وإقصاء غضبهم ، فكانت الأسر الرومانية تحتفل فى الأيام ما بين ١١ ، ١٣ من شهر مايو احتفالا رهيباً بعيد الأرواح الميتة **Lemures** ، فكان الأب فى هذا العيد يبصق من فمه فولا أسود وهو ينادى : « بهذا الفول أنجى نفسى وأبنائى . . . إذهبي يا أطياف أسلافى ! »[١٩] ولم تكن أعياد الپارنتاليا **parentalia** والفراليا **Feralia** التى تقام فى شهر فبراير إلا محاولات أخرى من هذا النوع لاسترضاء الأموات المخيفين ؛ لكن معظم الأعياد كانت مناسبات للمرح وملء البطون ؛ وكثيراً ما كان العامة يتخذونها فرصاً للإباحية الجنسية ، وشاهد ذلك ما يقوله أحد الأشخاص فى مسرحية هزلية لپلوتس : « فى وسعك أن تأكل ما تشاء ، وتذهب حيث تشاء ، وتحب من تشاء ، وعلى شريطة أن تمتنع عن الاتصال بالأرواح والأرامل والعذارى ، والغلمان الأحرار[٢٠] » ويلوح أنه كان يحس بأن ثمة بعد هذا مجالا واسعاً للاختيار .

وكانوا يحتفلون فى اليوم الخامس عشر من شهر فبراير بعيد عجيب هو عيد لوپركاليا المخصص للاله فونس **Faunus** الحامى من الذئاب **lupercus** ، وكان يضحى فى هذا العيد بالمعز والضأن ، وكان اللوبرسى **luperci** — وهم كهنته لا يلبسون على أجسادهم إلا مناطق من جلد المعز — يهرولون حول البلاتين

Palatine يدعون الإله ڤونا أن يبعد عنهم الأرواح الشريرة ، ويضربون وهم يهرولون من يلقون من النساء بسياط من جلود الحيوانات المضحى بها ليطهروهن ويزيدوا فى قدرتهن على إنجاب الأبناء ، ثم يلقون بعد هذا دمى من القش فى نهر التيبر لاسترضاء إله النهر أو ختله ، ولعل هذا الإله فى الأيام التى كانت أكثر من ذلك الوقت همجية كان يتطلب أن تلقى فيه ضحايا بشرية . وفى اليوم الخامس عشر من شهر مارس كان الفقراء يخرجون من أكواخهم ، ويفعلون ما كان يفعله اليهود فى عيد المظلات ، فيقيمون لهم خياماً فى حقل المريخ ، ويحتفلون بالسنة الجديدة ، ويدعون الإلهة أنا پرنا Anna Perenna (حلقة السنين) أن تهبهم سنين بعدد ما يحتسون من أكواب الخمر[٢١] . وكان فى شهر أبريل وحده ستة أعياد آخرها كلها عيد فلوراليا Floralia . وكان هذا العيد وهو عيد فلورا Flora إلهة الأزهار والينابيع يدوم ستة أيام كلها مرح وسكر وعربدة . وفى اليوم الأول من شهر مايو كان يحتفل بعيد الآلهة الصالحة Bone Dea ، وفى التاسع والحادى عشر والثالث عشر من هذا الشهر يحتفل باللبراليا Liberalia عيد ليبر Liber وليبرا Libera إله العنب وإلهته ؛ وكان جماعات من الرجال والنساء فى ذلك اليوم يمجدون جهرة عضو التذكير فى الرجال وهو رمز الإخصاب[٢٢] . وفى آخر شهر مايو كان الإخوان الأرڤال Arval يقودون الناس فى مواكب عيد الأمبرڤاليا Ambarvalia وهو عيد رهيب وإن لم يكن يخلو من المرح . ثم تهمل الأرباب فلا تقام لها أعياد فى أشهر الخريف بعد أن تكون المحصولات قد أدخلت فى المخازن ، حتى يقبل شهر ديسمبر فيزدحم بالأعياد مرة أخرى . فكان عيد السترناليا Saturnalia يدوم من اليوم السابع عشر إلى اليوم الثالث والعشرين من ذلك الشهر . وكانوا يحتفلون فيه ببذر بذور العام المقبل ويحيون ذكرى حكم زحل Saturn الذى لم يكن الناس ينقسمون فيه طبقات ، والذى يتبادلون فيه الهدايا ، ويتحررون من كثير من القيود ، ويلغى فيه أو يعكس إلى حين ما بين

الأحرار والعبيد من فروق ، فكان فى مقدور العبيد أن يجلسوا بجوار سادتهم ، ويصدروا إليهم الأوامر ، ويتهكموا عليهم ، وكان السادة يقفون على الموائد لخدمة العبيد ، ولا يأكلون حتى تمتلئ بطونهم بالطعام(٢٤) .

وكانت هذه الأعياد زراعية النشأة ولكنها مع ذلك ظلت منتشرة بين أهل المدن ، وبقيت رغم ما طرأ على العقائد من تقلبات حتى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد . وقد بلغت من الكثرة والاضطراب حداً جعل من أول واجبات التقويم الرومانى إحصاءها وترتيبها لإرشاد الشعب . وكان من عادة الإيطاليين فى عهدهم الأول أن يدعوا الكاهن الأكبر المواطنين فى أول يوم من كل شهر ويذكر لهم ما فيه من الأعياد التى يجب عليهم أن يحتفلوا بها فى الثلاثين يوما ؛ وقد اشتق من هذه الدعوة (Calatis) اسم Calendae الذى سمى به اليوم الأول من كل شهر . وكان معنى التقويم عند الرومان – وهو معنى لا يزال يحتفظ به إلى حد ما عند الكاثوليك المسيحيين وعند اليهود المتدينين – ثبتاً كهنوتياً لأيام الأعياد وأعمال العمل ، يتخلله قليل من المعلومات المقدسة القانونية ، والتاريخية والفلكية . وتقول الروايات المأثورة إن نوما Numa ثانى ملوك رومة هو واضع للتقويم الذى ظل يضبط التواريخ والحياة الرومانية إلى أيام يوليوس قيصر . وكانت السنة حسب هذا التقويم تنقسم إلى اثنى عشر شهراً قمرياً ، تضاف إليها عدة أيام وأجزاء من أيام بنظام معقد يجعل متوسط مجموعها ٣٦٦ يوماً . ثم خول للأحبار فى عام ١٩١ م أن يعالجوا الأخطاء المتزايدة بإعادة النظر فى هذه الإضافات ، ولكنهم استخدموا السلطة التى منحت لهم لإطالة حكم من يرضون عنه من الحكام ، وتقصير حكم من لا يرضون عنه منهم ، ومن أجل هذا فإنه لم يكد ينتهى عهد الجمهورية حتى كان التقويم ، وقد تجمع فيه من الأخطاء ما يبلغ ثلاثة أشهر ، مثالا للفوضى ووسيلة إلى التلاعب والخداع .

أما ساعات النهار فكانت فى الأيام الأولى لا تقدر بغير ارتفاع الشمس فى

السماء ، وظل هذا هو النظام المتبع حتى جيء فى عام ٢٦٣ ق . م بمزولة شمسية من قطانا Catana فى صقلية ووضعت فى السوق العامة . ولكن هذه المزولة لم تكن تبين الوقت على حقيقته لأن قطانا كانت على بعد أربع درجات جنوبى رومة ؛ وقد ظل الكهنة مائة عام عاجزين عن أن يضبطوا هذه المزولة حتى تبين الوقت الحقيقى فى عاصمة البلاد . وفى عام ١٥٨ أقام سپيو ناسيكا Scipio Nasica ساعة شمسية عامة ، وكان الشهر يقسم إلى ثلاث فترات يفصلها بعضها عن بعض اليوم الأول ، واليوم الخامس أو السابع واليوم الثالث عشر أو الخامس عشر . ويسمى اليوم الأول الكالند Kalend والخامس أو السابع النون none والثالث عشر أو الخامس عشر الأيد ide . وكانت الأيام تسمى بطريقة سمجة عجيبة أساسها البعد عن هذه الأيام المحدّدة لأقسام الشهر . مثال ذلك أن اليوم الثانى عشر من شهر مارس كان يسمى « اليوم الثالث قبل أيدْ مارس » . وكان « الأسبوع » عندهم يتكون من تسعة أيام أو نحوها وينتهى بيوم النندنى nundinae أو اليوم التاسع ، وهو اليوم الذى يذهب فيه القرويون إلى أسواق المدن . وكانت السنة تبدأ بابتداء فصل الربيع ، ويسمى الشهر الأول منها مارتيوس Martius باسم إله البذر ، ثم يليه أپريلس Aprilis أى شهر النَّبْت ، ثم مايوس Maius أى شهر مايا Maia أو لعله شهر الوفرة ، ويونيوس Junius شهر يونو Juno ، أو لعله شهر النجاح ، ثم كونكتلس Quinctilis ، فسكستلس Sextilis ، فسپتمبر فأكتوبر فنوفمبر فديسمبر . وقد سميت بترتيبها العددى فى السنة ، ثم يليها يناير January ليانوس Janus وفبراير لفبروا Februa أو الأشياء السحرية التى يطهر بها الإنسان . وكانت السنة نفسها تسمى أنس Annus أى الحلقة كأنهم يريدون أن يقولوا إنه لا توجد للزمن فى واقع الأمر بداية ولا نهاية .

٤ — الدين وأثره في الأخلاق

ترى هل أعان هذا الدين على تقويم الأخلاق ؟ لقد كان من بعض النواحي مبعث الفساد الخلقي . فاهتمامه بالطقوس والمراسم يوحي بأن الآلهة لا تجزي الشخص لصلاحه بل لما يقدمه لها من الهدايا وما يتلوه من الصيغ ، وكانت الأدعية والصلوات يطلب بها على الدوام النفع المادي أو النصر الحربي . وكان ما يقام من الحفلات يمثل حياة الإنسان وتربة الأرض في صورة المسرحية ، ولكن هذه الاحتفالات كثرت وزاد عديدها كأن هذه الأعياد ، لا صلة الجزء بالكل وإخلاصه له ، هي أساس الدين وجوهره . وكانت الآلهة ، عدا قلة صغيرة منها ، أرواحاً رهيبة مجردة من النبل والأخلاق الفاضلة .

ولكن الدين القديم مع هذا كله كان يدعو إلى فضائل الأخلاق ، وإلى النظام والقوة في الفرد والأسرة والدولة . وكان هذا الدين يصوغ أخلاق الطفل ، قبل أن يتسرب إليه الشك ، ويعوده التأدب وأداء الواجب ولطف المعاشرة . كذلك كان يجعل للأسرة حقوقاً وضمانات ومعونة مقدسة : فكان يغرس في قلوب الآباء والأبناء أقصى درجات الاحترام المتبادل والتقوى ، ويجعل للمولد والوفاة كرامة ومعنى قدسياً خاصاً ، ويدعو إلى الوفاء بيمين الزواج ويشجع على التناسل إذ يجعل الأبوة شرطا أساسيا لطمأنينة روح الميت وتمتعها بالهدوء والسلام . يضاف إلى هذا أن الدين ، بما كان يفرضه من المراسم والحفلات قبل كل حملة ومعركة حربية ، يرفع قوى الجندي المعنوية ويحمله على الاعتقاد بأن القوى الروحية تحارب إلى جانبه ، وأنه كان يثبت القانون ويزيده قوة بما يعزو إليه من أصل سماوي وصورة دينية ، وبقوله إن الجرائم تخل بنظام السماوات وبسلمها

وبوضع سلطان چوف وراء كل قَسَم . وكان الدين يخلع على كل ناحية من نواحى الحياة العامة جلالا دينيًّا ، ويحتم أن يسبق كل عمل من أعمال الحكومة طقوس وصلوات ، ويربط الدولة والآلهة برباط متين ، وحد بين التقوى والوطنية ، وسما بحب الوطن فجعله عاطفة أقوى مما كان فى أى مجتمع آخر يعرفه التاريخ . وبهذا كله كان الدين يشترك مع الأسرة فى شرف تكوين ذلك الخلق الحديدى الذى كان هو السر فى سيادة رومة على العالم ، وفى تحمل تبعة هذا التكوين .

الفصـل الثالث

الأخــلاق

ترى أى مبادئ خلقية نشأت من هذه الحياة التى كانت تحياها الأسرة الرومانية بين هذه الأرباب المختلفة ؟ لقد كانت الآداب الرومانية من أيام عهد إنيوس Ennius إلى عهد چوڤنال Juvenal تجعل تلك الأجيال القديمة مثلا أعلى وتندم على الأيام الخالية أيام البساطة والفضيلة القديمتين . وستوحى إلينا صحف هذا الكتاب أيضاً بما كان هناك من فوارق بين رومة فبيوس الرواقية ورمة نيرون الأبيقورية ، ولكن علينا ألا نغالى فى هذه الفوارق بتحيزنا فى اختيار الشواهد التى ندلل بها على وجودها ؛ ذلك لأنه كان فى عهد فبيوس أبيقوريون كما كان فى عهد نيرون رواقيون .

ولقد ظلت الأخلاق الجنسية عند الرجل العادى واحدة لم يطرأ عليها تغيير من بداية التاريخ الرومانى إلى نهايته : ظلت خشنة طليقة ولكنها لا تتعارض مع الحياة الناجحة فى ظل الأسرة . وكان يطلب إلى الفتيات فى جميع الطبقات الحرة أن يحافظن على بكارتهن ، وما أكثر القصص القوية التى كانت تروى لرفع شأنها ؛ ذلك أن الرومانى كان قوى الإحساس بحق الملكية ، شديد التمسك به ، ولهذا كان يتطلب زوجة قوية الأخلاق غير متقلبة الأهواء تضمن له أنه لن يرث متاعه بعد موته أبناء من غير صلبه . ولكن الرجال فى رومة لم يكونوا يلامون كثيراً على عدم العفة قبل الزواج إذا أظهروا الاحترام الواجب لرياء بنى الإنسان ونفاقهم ، شأنهم فى هذا شأن الرجال فى بلاد اليونان . وإنا لنجد فى أقوال كتابهم وخطبائهم من عهد كاتو الأكبر إلى شيشرون عبارات صريحة يبررون

بها هذا النوع من الدنس[٢٥] ؛ وليس الذى يزيد بتقدم المدنية هو فساد الطبع وإنما الذى يزيد هو الفرص التى تتاح لإظهار هذا الفساد والتعبير عنه ؛ ولم تكن العاهرات كثيرات فى رومة فى أيامها الأولى ، وكان يحرم عليهن لبس مئزر الأمهات وهو شعار الزوجة المحترمة ، وكن محصورات فى الأركان المظلمة من رومة ومن المجتمع الرومانى . ولم تكن قد نشأت فيها وقتئذ طائفة المحظيات المتعلمات الشبيهات بطائفة المطربات فى أثينة ، كما لم يكن قد نشأ فيها بعد أولئك المومسات الرقيقات اللاتى تغنى بهن أوفد Ovid فى شعره .

وكان الرجال يتزوجون فى سن مبكرة قبل السنة العشرين من عمرهم فى العادة ، ولم يكن الباعث على الزواج هو الحب الروائى ، بل كان هو الرغبة الصادقة السليمة فى أزواج يعاونهم فى عملهم ، وأبناء ذوى فائدة لهم ، وأن يستمتعوا بحياة جنسية سليمة . وكان يقال فى حفلة الزفاف إن الغرض من الزواج هو إنجاب الأطفال . وكان للأطفال فى المزرعة كما كان للنساء فائدة اقتصادية كبرى ولم يكونوا كما هم اليوم لعباً حية . وكان الآباء هم الذين يزوجون أبناءهم وبناتهم ، وكانت عقود الزواج تعقد أحياناً على الأبناء فى طفولتهن ، وكان رضا أبوى الزوج والزوجة ضرورياً لإتمام عقد الزواج . وكانت تصحب الخطبة مراسم وتقاليد معينة ، تعد رابطة قانونية بين الزوجين . وكان أقرباء الزوجين يجتمعون فى وليمة ليشهدوا عقد الزواج ، وكانت قشه stipula تكسر بين أهل العروسين علامة على اتفاقهما ؛ وكانت شروط الزواج وبخاصة ما يتصل منها بالمهر تسجل كتابة ، وكان الزوج يضع خاتماً من الحديد فى الإصبع الرابعة من أصابع اليد اليسرى للزوجة لاعتقادهم أن عصباً يسير من تلك الإصبع إلى القلب[٢٦] ، وكانت أصغر سن يباح فيها الزواج هى الثانية عشرة للفتاة والرابعة عشرة للفتى ، وكان القانون الرومانى القديم يجعل الزواج إجبارياً[٢٧] ، ولكن اعتقادنا أن هذا

القانون قد أغفل ولم يكن يطبق قبل عام ٤١٣ ق . م حين فرض الرقيب، كملس Camillus ضريبة على العزاب .

وكان الزواج نوعين زواجا كم مانو Cum manu وزواجا سن مانو sin manu أى زواجا يتبعه وضع العروس وما تملك تحت سلطان زوجها أو والده وزواجا لا يتبعه هذا الوضع . وكان زواج السن مانو (من غير تسليم) فى غير حاجة إلى حفلة دينية ، ولا يتطلب أكثر من رضاء العروس والعريس . أما زواج وضع اليد فكان يتم إما بالمعاشرة مدة عام (usus) وإما بالشراء (Coemptio) . وكان هناك نوع ثالث يعرف بالزواج بطريق الكنفرياشيو (Confarreatio) والمعنى الحرفى لهذا اللفظ هو (أكل كعكة معا) . وكان هذا النوع الأخير يتطلب حفلا دينياً ، ولا يتم إلا بين الأشراف . وقد اختفى الزواج بالشراء الفعلى فى عهد مبكر ، أو أنه انعكس فكانت الزوجة فى واقع الأمر كثيراً ما تشترى الزوج ببائنتها . وكانت هذه البائنة توضع عادة تحت تصرف الزوج ، ولكن قيمتها ترد إلى الزوجة إذا طلقت أو مات زوجها . وكان يصحب العرس كثير من الحفلات والأغانى الشعبية ، وكانت أسرتا العروسين تطعمان فى بيت العروس ، ثم يسير أفرادهما فى موكب مرح بهيج إلى بيت والد العريس على أنغام المزامير والأناشيد والمزاح الماجن . فإذا وصلوا إلى بابه المتوج بالأزهار تقدم العريس إلى العروس وسألها : « من أنت ؟ » فأجابته بعبارة بسيطة تشعر بوفائها ومساواتها وانضمامها له وهى قولها «حيث تكون كيوس Caius أكون أنا كايا Caia » ثم يرفعها فوق عتبة بيته ، ويقدم لها مفاتيحه ، ويضع عنقها وعنقه تحت نير إشارة إلى الرابطة المشتركة بينه وبينها ؛ ومن ثم سمى الزواج كنيوجيوم Coniugium أى الاشتراك فى النير . ثم تشترك العروس فى الصلاة لآلهة البيت دلالة على أنها قد انضمت إلى الأسرة الجديدة .

وكان الطلاق عسيراً ونادراً فى الزيجات التى تعقد بالكنفرياشيو ؛ وفى زواج

الكم مانو كان الزواج وحده هو الذى يستطيع فصم عرى الزوجية ، أما فى زوج السن مانو فكان لكل من الزوجين حق الطلاق إذا أراد دون أن يتطلب هذا موافقة الدولة . وقد سجل أول طلاق فى تاريخ الرومان فى عام ٢٦٨ ق . م ؛ وتقول إحدى الروايات المشكوك فى صحتها « إنه لم يحدث قبل هذا طلاق قط منذ أسست مدينة رومة[٢٨] ، وكانت عادات العشائر الرومانية تتطلب من الزوج أن يطلق الزوجة الخائنة أو العقيم » . وفى هذا يقول كاتو الكبير « إذا وجدت زوجتك تزنى ، فإن القانون يبيح لك أن تقتلها من غير محاكمة ؛ وإذا ما فاجأتك مصادفة وأنت ترتكب هذه الجريمة نفسها فليس لها أن تمسك حتى بأطراف أصابعها ، لأن القانون يحرم عليها هذا[٢٩] » . ويلوح أنه كانت هناك زيجات سعيدة كثيرة على الرغم من هذا التفريق ؛ فشواهد القبور تنطق بالكثير من عبارات الحب والإخلاص التى كتبت عليها بعد وفاة الأزواج . وها هى ذى عبارة مؤثرة تعظم إحدى السيدات التى أخلصت فى خدمة زوجها :

« لقد كنت ياستاتليا Statilia بارعة الجمال إلى أبعد حد وفية لأزواجك ! ولو أن أول من جاء إليك قد استطاع أن يقاوم الأقدار لأقام إليك هذا الحجر ؛ أما أنا الذى نعمت بقلبك الطاهر هذه السنين الست عشرة فقد فقدتك ، ألا ما أشد أسفى عليك »[٣٠] .

والراجح أن فتيات رومة فى عهدها الأول لم يبلغن من الجمال ما بلغته أخواتهن فى عهودها المتأخرة واللائى يصفهن كاتلس Catullus وصف الرجل الخبير بأنهن laneum latusculum manusque mollicellas أى أن لهن « جانبين نحيلين أملسين كالصوف ، ويدين صغيرتين ناعمتين » . أو لعل الفتيات فى العهدين لم يكن بينهن هذا الفرق ولكن الكدح والهم فى الأيام الأولى أيام العمل فى الحقول كانا يطغيان بعد زمن يسير على جمال المراهقة . وقد اشتهرت نساء الرومان بتناسب معارفهن ، فكانت لهن أنوف صغيرة رفيعة ، وكن فى العادة

ذوات شعر أسود وعيون داكنة . وكان للشقراوات عندهن منزلة رفيعة ، وكذلك كان للصبغات الألمانية التي تكسب الفتيات هذا اللون قيمة كبيرة عند الرومانيات . أما الرجل الروماني فكان يتصف بالقوة والمهابة أكثر مما يتصف بالوسامة ، فقد قسا وجهه من أثر تربيته الصارمة والحياة العسكرية الطويلة ، ثم نعم واسترخى بعد انهماكه فى الملاذ فى الأيام الأخيرة . وما من شك فى أن كليوبطرة قد أحبت أنطونيوس لحب آخر غير خديه المنتفخين من احتساء الخمر ، وأحبت قيصر بسحر آخر غير سحر أنفه ورأسه الشبيهين برأس النسر وأنفه . لقد كان الأنف الروماني كالخلق الروماني حاداً منحرفاً ، وظل الرومان يلتحون ويطيلون شعر رؤوسهم حتى عام ٣٠٠ ق . م حين بدأ الحلاقون يمارسون مهنتهم فى رومة . أما ملابسهم فكانت فى جوهرها كملابس اليونان ، فكان الأولاد والبنات والحكام وكبار الكهنة يلبسون التوجا پراتكستا Toga Praetexta أي الجبة ذات الأهداب الأرجوانية . فإذا أتم الشاب السادسة عشرة من عمره استبدل بها التوجا ڤريلس toga virilis « جبة الرجولة » البيضاء دلالة على أنه قد أصبح من حقه أن يقترع فى الجمعيات الوطنية ومن واجبه أن يخدم فى الجيش . وكانت النساء فى داخل البيوت يلبسن ثوباً (استولا stola) يربطنه بمنطقة تحت الثديين ، ويصل إلى القدمين ؛ فإذا خرجن من البيوت لبسن فوقه Palla أو عباءة . وكان الرجال وهم فى البيوت يلبسون قميصاً بسيطاً tunica ، فإذا خرجوا منها أضافوا إليه جبة على الدوام وعباءة فى بعض الأحيان . وكانت الجبة (tegere أى يغطى) رداء من الصوف تتكون من قطعة واحدة يبلغ عرضها ضعفى عرض لابسها ، وطولها ثلاثة أضعاف طوله . وكانت تلف حول الجسم ويلقى ما زاد منها على الكتف اليسرى ، ثم تلف من تحت أبط اليد اليمنى ، وتعود مرة أخرى فتلقى فوق الكتف اليسرى . وتستخدم ثناياها التى فوق الصدر كما نستخدم نحن الجيوب ، وكانت تترك ذراع لابسها اليسرى حرة فى حركتها .

وكان الرجل الروماني يصطنع المهابة الصارمة (gravitas) ويراها خلة ثقيلة لا يستغنى عنها الأشراف الذين يحكمون شعباً ، ثم شبه جزيرة ، ثم إمبراطورية . وكان ما يتصف به من رحمة وعاطفة رقيقة مقصوراً على الحياة المنزلية ؛ أما فى الحياة العامة فقد كان على رجل الطبقة العليا أن يكون راسخاً جافاً كتمثاله ، وأن يخفى وراء قناع من الهدوء الصارم ما فى طبعه من تهيج وفكاهة لا نراهما واضحين ساخرين فى مسرحيات پلوتوس الفكهة فحسب بل نراهما كذلك فى خطب شيشرون . لقد كان يطلب إلى الروماني حتى فى الوقت الذى نتحدث عنه أن يعيش عيشة اسپارطية ؛ فكان الرقيب يستهجن الترف فى الملبس والمأكل ؛ بل إن الزارع إذا أهمل زرعه كان معرضاً لأن يفاجئه الرقيب ليحاسبه على هذا الإهمال . وليس أدل على تقشف الرومان من أن السفراء القرطاجنيين حين عادوا من رومة بعد الحرب البونية الأولى أخذوا يسلون أثرياء التجار فى بلدهم بقولهم إنهم شاهدوا مجموعة بعينها من الصحاف الفضية فى كل بيت دعوا إليه ، أى أن مجموعة واحدة تنقل سراً من بيت إلى بيت كانت تكفى طبقة الأشراف جميعها ؛ وكان أعضاء مجلس الشيوخ فى ذلك الوقت يجلسون على مقاعد خشبية صلبة فى بهو Curia لا يدفأ قط حتى فى فصل الشتاء .

بيد أن الثروة والترف قد بدءا وسارا سيراً حثيثاً بين الحربين البونيتين الأولى والثانية ؛ وشاهد ذلك أن هنيبال جمع من أصابع الرومان الذين قتلوا فى معركة كانى عدداً كبيراً من الخواتم الذهبية(٣٢) ، وأن قوانين عدة قد وضعت لتحرم الجواهر المنقوشة ، والملابس المبهرجة ، والواجبات الغالية الثمن ، ولكن هذه القوانين رغم تكررها ظلت عديمة الجدوى . لقد ظلت وجبات الروماني العادى حتى القرن الثالث قبل الميلاد وجبات بسيطة ؛ فكان فطوره (ientaculum) يتكون من الخبز وعسل النحل أو الزيتون أو الجبن ؛ وكان غداؤه (prandium)

وعشاؤه Cena يتكونان من البقول والخضر والفاكهة . أما السمك واللحم فكان يختص بهما الأغنياء[٣٣] . وقلما كانت مائدة ما تخلو من النبيذ المخفف ، أما شرب النبيذ المركز فكان يعد إفراطاً . وكانت الأعياد والولائم من المتع الضرورية فى هذا العهد الرواق ، وكان العاجزون عن التمتع بها يخفون هذا العجز ويظهرون ما يحل بهم بسببه من إجهاد عصبى فى تماثيلهم التى خلفوها لمن جاءوا بعدهم .

ولم يكن للصدقات مجال فى هذه الحياة المقتصدة المتقشفة . وقد بقيت الضيافة من العادات التى يتبادلها الرومان لتيسر عليهم أسفارهم طالما كانت النزل فقيرة ومتباعدة ، ولكن پولبيوس يقول : « إن أحداً فى رومة لا يقدم شيئاً ما لأى إنسان إذا كان ذلك الامتناع فى مقدوره »[٣٤] ـ وما من شك أن فى هذا كثيراً من المغالاة : وكان الصغار يشفقون عن الكبار ، ولكن الظرف والكياسة لم يصلا إلى رومة إلا فى آخر أيام الجمهورية ، وقد غيرت الحروب والفتوح أخلاق الرومان فجعلتهم فى الغالب غلاظاً قساة إلى حد بعيد ، لا يأنفون من أن يقتلوا دون أن يؤنبهم ضميرهم على القتل ، وأن يقتلوا دون أن يشكوا منه . وكان أسرى الحرب يباعون فى الأسواق آلافاً مؤلفة ، عدا الملوك وقواد الجند فكانوا يقتلون عقب النصر أو يتركون ليموتوا موتاً بطيئاً من أثر الجوع . أما فى دوائر الأعمال فكانت أخلاق الرومان خيراً من هذه الأخلاق . نعم إن الرومان كانوا يحبون المال ، ولكن پولبيوس (حوالى ١٦٧ ق . م) يصفهم بأنهم رجال مجدون شرفاء ؛ ويقول هذا المؤرخ اليونانى إن أحداً لا يستطيع أن يمنع اليونانى من الاختلاس مهما كان عدد الكتبة الذين يعيشون لمراقبته ، أما الرومان فكانوا يتصرفون فى مبالغ طائلة من الأموال العامة ولم يثبت عليهم الاختلاس إلا فى حالات جد نادرة[٣٥] . على أننا رغم هذا القول نجد أن قانوناً قد صدر فى عام

٤٣٢ ق . م لمنع الغش فى الانتخابات . ويقول المؤرخون الرومان إن النزاهة السياسية قد بلغت أوجها فى الثلاثة القرون الأولى من عهد الجمهورية ، ولكنهم يثيرون الريبة بما يكيلونه من المدح لفاليريوس كورڤوس Valerius Corvus بقولهم إنه شغل واحداً وعشرين منصباً من مناصب الحكام ، ثم عاد إلى حقوله فقيراً كما كان حين خرج منها ؛ ولكيوريوس دنتاتوس Curius Dentatus الذى لم يحتفظ لنفسه بشىء من الغنائم التى استولى عليها من الأعداء ؛ ولفابيوس پكتور Fabius Pictor ورفاقه الذين قدموا للدولة ما أعطى لهم فى مصر من الهدايا الثمينة حين ذهبوا إليها فى بعثة رسمية . وكان الأصدقاء يقرضون بعضهم بعضاً من غير فائدة ؛ وكثيراً ما كانت الحكومة الرومانية تلجأ إلى الغدر فى معاملتها للدول الأجنبية ، ولعل الإمبراطورية كانت أشرف من الجمهورية فى علاقاتها الخارجية . ولكن مجلس الشيوخ أبى أن يتغاضى عن تسمم پيرس Pyrrhus ، وحذره من المؤامرة التى كانت تدبر له[٣٦] ، ولما أن أرسل هنيبال بعد معركة كانى عشرة أسرى إلى رومة ليفاوضوها فى افتداء ثمانية آلاف أسير آخرين ووعده هؤلاء العشرة بالعودة إليه ، وفوا كلهم عدا واحداً منهم بما وعدوه به ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن ألقى القبض على هذا العاشر وصفده بالأغلال ، وأعاده إلى هنيبال ، ويقول پولبيوس إن سرور هنيبال لنصره « لم يبلغ من الشدة ما بلغه حزنه حين رأى ما يتصف به الرومان من ثبات وشهامة[٣٧] » . وقصارى القول أن الرومانى العادى فى ذلك العهد كان محباً للنظام ، محافظاً ، وفياً ، لا يفرط فى الشراب ، وقوراً بخيلا ، قاسياً ، عملياً . وكان يعجب بالنظام ويسر منه ولا يستمع إلى ما يقال من الهراء عن الحرية ؛ وكان مطيعاً يرى أن الطاعة خير سبيل إلى اعتياد الأمر والنهى . وكان يسلم بلا جدال بأن من حق الحكومة أن تتثبت من أخلاقه كما تتثبت من إيراده ، وأن قدره عندها لا يوزن إلا بما يقدمه للدولة من خدمات ، وكان لا يؤمن بالفردية ولا يثق بالعبقرية . ولم يكن يتحلى بشىء من الجاذبية ،

وخفة الروح وطلاقة اللسان التى يتصف بها يونانيو أتيكا Attica . وكان إعجابه بالأخلاق الفاضلة والإرادة القوية يماثل إعجاب اليونان بالحرية والذكاء . وكان النظام مصدر تفوقه على غيره . وكان يعوزه الخيال إلى حد عجز معه عن أن ينشئ له أساطير خاصة به . وكان يحمل ببعض الجهد على أن يحب الجمال ، ولكنه قلما استطاع أن يخلق هذا الجمال خلقا . وقلما كان يجد لديه فائدة للعلوم البحتة ، وكان يرتاب فى الفلسفة ، ويرى أنها وسيلة شيطانية للقضاء على الأخلاق والأساليب القديمة . ولم يكن فى مقدوره بأية وسيلة كانت أن يفهم أفلاطون أو أركميدس أو المسيح ، وكل ما كان يستطيعه أن يحكم العالم :

الفصل الرابع

الآداب

لم تكن الأسرة والدين والقانون الأخلاقى وحدها هى التى تكون أخلاق الرومانى ، بل إن المدرسة واللغة والآداب كان لها هى الأخرى شأن فى تكوين خلقه وإن يكن أقل من شأن العوامل الثلاثة الأولى . ويقول أفلوطرخس إن أول مدرسة رومانية أنشئت فى عام ٢٥٠ ق . م[٣٨] ، ولكن ليڤى يقول فى وصف ڤرچينيا Viirginia محبوبة أحد الحكام العشرة ، ولعل لخياله الخصب شأن فى هذا الوصف ، إنها « كانت تذهب إلى مدرسة فى السوق العامة » فى تاريخ مبكر جداً وهو عام ٤٥٠ ق . م . وإن مطالبة الشعب بتدوين القوانين ، ونشر الألواح الاثنى عشر ، ليوحى بأن كثرة المواطنين فى رومة كانت فى تلك الأيام تعرف القراءة والكتابة .

وكان المدرس فى العادة من العبيد أو من العبيد المحررين تستخدمه عدة أسر لتعليم أبنائها ، أو ينشئ هو لنفسه مدرسة خاصة يقبل فيها من يتقدم إليه . ويعلم فيها القراءة والكتابة والنحو والحساب والتاريخ والطاعة . وكانت التربية الخلقية مادة أساسية فيها تعلم على الدوام ، وكان يعنى بالنظام والتأديب أعظم عناية . وكان فى حفظ الألواح الاثنى عشر عن ظهر قلب تدريب للذاكرة وتقويم للأخلاق جميعاً . ومن أقوال هين Helne فى وصف الصعود التى يلقاها من يريد تعلم اللغة اللاتينية إنه « لو اضطر الرومان لتعلم اللغة اللاتيلية لما وجدوا لديهم من الوقت ما يسمح لهم بفتح العالم[٤٠] » . ولكن الرومان أيضاً قد اضطروا إلى دراسة تصريف الأفعال اللاتينية الشاذة ، ولم يلبثوا أن اضطروا إلى دراســة اللغة اليونانية ؛

وكان الطالب اليونانى يدرس سير أبطال الرومان وما قامت به بلاده من جلائل الأعمال بدراسة آثار كتابها وشعرائها ، وكان يتلقى دروساً فى الوطنية بدراسة حوادث لم تحدث قط : ولم يكن الرومان يعنون بالألعاب الرياضية لأنهم كانوا يفضلون أن يقووا أجسامهم ويتعودوا تحمل المشاق بالقيام بالأعمال المجهدة النافعة الحقول والمعسكرات ، لا بالمباريات فى المجتلدات والملاعب الرياضية .

وكانت اللغة — كما كان الشعب — اقتصادية عمليــة محددة المعانى ، مختصرة ، جملها الأصلية والتبعية منظمة تنظيما يوصل إلى هدف محدد . وثمة آلاف من الروابط بينها وبين اللغتين السنسكريتية واليونانية واللغات الكلتية التى كان ينطق بها الغاليون الأقدمون وسكان ويلز وأيرلندة ؛ وهذه اللغات كلها من أسرة اللغات الهندوربية ؛ وكانت اللغة اللاتينية أضيق من اللغة اليونانية خيالا ، وأقل منها مرونة واستعداداً لتكوين الكلمات المركبة ؛ وكان لكريشيوس وشيشرون يشكوان من قلة مفرداتها ، ومن عجزها عن بيان الفروق الدقيقة فى المعنى الواحد . لكنها مع ذلك كانت ذات نغمة طنانة فخمة وقوة أضحت بفضلهما من أصلح اللغات للخطابة ؛ كما أن أسلوبها الجزل الموجز ، وعبارتها المنطقية ، قد جعلاها صالحة لتدوين القانون الرومانى . وقد انتقلت الحروف الهجائية اللاتينية إلى رومة من جزيرة خلقيس العوبيــة Euobeana Chalcis(*) عن طريق كومية وإترورياا[41] . ومن أجل هذا نرى الحروف اللاتينية كلها يونانية الشكل فى أقدم نقش لاتينى معروف يعزي إلى القرن السادس قبل الميلاد ، وكان حرف C فى اللاتينية القديمة ينطق كافا مثل حرف K فى الإنجليزية كما كان حرف V ، U ينطقان مثل U ، W ؛ أما الحروف الدالة على الحركات فكانت شبيهة بمثلها فى اللغة الإيطالية الحديثة . وكان معاصرو قيصر ينطقون اسمه يوليوس قيصر Yooleous Keyssar كما كان اسم شيشرون Cicero ينطق به كيكرو Keekero .

(*) من مجموعة جزائر عوبية فى شرق بلاد اليونان . (المترجم)

وكان الرومان يكتبون بالحبر ببراعة معدنية مشقوقة (calamus,stilus) على أوراق الأشجار فى بادئ الأمر (folia) ، ومن ثم كانت الكلمتان الإنجليزيتان Leaf , folio ، ومعناهما صفحتان) ؛ ثم كتبوا فيما بعد على باطن لحاء الشجر (liber) ؛ وكثيراً ما كانوا يكتبون على ألواح بيضاء من الخشب المطلى بالشمع (Album) ، وكتبوا بعد ذلك على الجلد المدبوغ ، وعلى الورق . وإذ كانت لغة الكتابة اللاتينية أشد مقاومة للتغير من لغة الكلام ، فإن لغة الأدب أخذت تختلف شيئاً فشيئاً عن اللغة التى كان يتكلمها الشعب ، كما يحدث الآن فى أمريكا وفى فرنسا . ولذلك نشأت اللغات الرومانسية الرخيمة : الإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، والفرنسية ، ولغة رومانيا ، نشأت هذه اللغات من اللغة اللاتينية الخشنة غير المهذبة التى جاء بها إلى هذه الأقاليم الجنود والتجار ، والأفاقون المغامرون ، ولم تنشأ من اللغة التى جاء بها الشعراء والنحويون . ولهذا اشتقت الكلمات التى معناها حصان فى اللغات الرومانسية — Caballocal ، Cavallo, ، Cheval, — من اللفظ اللاتينى العامى Caballus لا من اللفظ الفصيح equis . وكان لفظ ille فى اللغة اللاتينية العامية مكوناً من مقطع واحد كلفظ li فى اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وكان حرف S وحرف M يحذفان أو لا ينطق بهما إذا كانا فى آخر الكلمات كما هى الحال فى هاتين اللغتين . وعلى هذا فقد جاءت خير اللغات من مسخ أسوئها : Corruptio pesimi optima .

ترى ما هو الأدب الذى كان يقرؤه الشاب الرومانى فى هذه الثلاثة القرون الأولى من عهد الجمهورية ؟ لقد كان فى وسعه أن يقرأ ترانيم وأغانى دينية كأغنية إخوان أرفال The Arval Brethren ، وكان لديه أيضاً قصائد شعبية تقص ماضى رومة التاريخى أو الأسطورى . وكان فى ذلك العهد سجلات رسمية — معظمها مما كتبه الكهنة — للانتخابات ، والمناصب الكبرى ،

والحوادث الشهيرة ، وعلامات التشاؤم والتفاؤل ، وأيام الأعياد(*) .

وقداعتمد ك . فابيوس پكتور Q. Fabiue Pictor على هذه السجلات فى كتابة تاريخ لرومة خليق بالاعتبار ، وإن كان قد كتبه باللغة اليونانية ؛ ذلك بأن اللغة اللاتينية لم تكن تعد فى ذلك الوقت صالحة لأن يكتب بها النثر الأدبى ، ولم يكن يكتب بها المؤرخون حتى زمن كاتو .

لقد كان هناك خليط من النثر يسمى ساتورى Saturae ، وهو خليط من الكلام المطرب الأجوف والغزل الهزلى — صاغ منه لوسلس Lucillus فيما بعد صورة جديدة كتب بها هوراس Horaec وجوڤنال Juvenal وكان لديهم مجون هزلى فاحش أو تقليد صامت يقوم به فى العادة ممثلون من إتروريا .

وقد أطلق لفظ استريونى istiriones على بعض هؤلاء الممثلين القادمين من مدينة استريا Istria ومن هذا الاسم اشتق لفظ histrio (ممثل) اللاتينى ومشتقاته فى اللغات الحديثة . كذلك كانت تمثل فى أيام الأسواق والأعياد مسرحيات هزلية فجة شبه مرتجلة ، أخذت عنها كثير من المسرحيات الهزلية الإيطالية القديمة والحديثة آلافاً من شخصياتها : كالأب الغنى الأبله ، والشاب المتلاف صريع الحب ، والعذراء المفترى عليها ، والخادم الدساس الماهر ، والنهم الدائب السعى إلى وجبة ، والمهرج المرح الصخاب .

وفى ذلك العهد البعيد كان المهرج يتباهى برقع ثيابه الزاهية الألوان ، وبسراويله الطويلة المنتفخة ، وبصديريته الواسعة الأكمام ، وبرأسه الحليق ، وهى الصورة التى لا نزال نذكرها من أيام شبابنا . ولقد وجدت على مظلمات خرائب بمبى صورة لا تفترق فى شىء عن صورة « القركوز » المعروفة .

وكان أول دخول الأدب فى رومة على يد عبد يونانى فى عام ٢٧٢ ق . م .

(*) annal,esmaximi, libri magistratum, fasti consulares fasti calendares

ففى ذلك العام سقطت تارنتم فى يد الرومان وذبح كثير من أهلها اليونان ه ولكن ليڤيوس أندريليكوس Levius Andrenicus أسعده الحظ بأن نجا من القتل وصار فى عداد العبيد ، ثم جئ به إلى رومة فأخذ يعلم أبناء سيده وغيرهم من الأطفال اللغتين اللاتينية واليونانية ، وترجم لهم الأوذيسة بالشعر اللاتيني الساتورنى Saturnian وهو عبارة عن أبيات ذات أوزان مفككة غير منتظمة تقاس أوتادها بالنبرات لا بالطول . ثم تحرر من الأسر جزاء له على جهوده وعهد إليه إيديل بكتابة مأساة ومسلاة تمثلان فى ألعاب (ludi) سنة ٢٤٠ ق . م . فكتب المسرحيتين على النمط اليونانى ، وأرشد ممثليهما ، ومثل هو الأجزاء الهامة فيهما ، وغنى ما فيهما من الأناشيد على نغمة مزمار حتى بحّ صوته .

ثم جاء بشخص آخر يغنى الأبيات وهو يمثل — وهى طريقة اتبعت فى مسرحيات كثيرة بعدهما مثلت فى رومة ، وكان لها أثر كبير فى نشأة المسرحية الصامتة المضحكة ، وسرّت الحكومة أيما سرور من دخول المسرحية الأدبية فى رومة فكرّمت أندرمكس ، بأن أباحت للشعراء أن يؤلفوا اتحاداً لهم ، وأن يعقدوا اجتماعاتهم فى هيكل منيرڤا على الأڤنتين ومن ذلك الحين جرت العادة بتمثيل مسرحيات ذات مناظر فى الأعياد العامة(٤٣) .

وبعد خمس سنين من هذه البداية التاريخية جاء جندى قديم من عامة الشعب ومن أهل كمپانيا يدعى كنيس نيڤيوس Cnaeus Naevius فأثار غضب الأهلين المحافظين على تقاليدهم القديمة بتمثيل مسلاة سخر فيها من المفاسد السياسية التى كانت متفشية فى العاصمة فى أيامه ، سخرية لا تقل فى صراحتها عن سخرية أرسطوفان Aristophanes .

وشكت الأسر الكبيرة من هذه السخرية فزجّ نيڤيوس فى السجن ثم اعتذر عن عمله هذا وأطلق سراحه ، ولكنه عاد فألف مسرحية أخرى لا تقل فى سخريتها اللاذعة عن مسرحيته الأولى ، أخرج على أثرها من رومة ، وكتب

فى منفاه وهو شيخ طاعن فى السن ملحمة شعرية فى الحرب اليونية الثانية التى خاض هو نفسه غمارها ، تفيض وطنية وحماسة . وتبدأ هذه الملحمة بذكر تأسيس رومة على أيدى اللاجئين الطرواديين ، وقد استمد منها فرچيل موضوع ملحمته وكثيراً من مناظرها .

وخليق بنا أن نقول إن الحكم الذى صدر بنفيه كان مأساة مزدوجة ؛ ذلك أن الملهاة الرومانية قد فتّ فى عضدها عنت الرقابة التى كانت تعد السبّ جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وإن السياسة الرومانية قد فقدت فيه ناقداً عاما جريئاً كان فى وسعه أن يطهرها من مفاسدها .

وكتب نيڤيوس أيضاً مسرحية شعرية تعتمد على تاريخ رومة : ووقفت هذه التجربة هى الأخرى عنده ، وظلت المآسى الرومانية بعد أيامه محصورة كلها فى دائرة الأساطير اليونانية التى نضب معينها ولم تجد لها منها مخرجاً إلى غيرها من الموضوعات . ولم يبق مما كتبه نيڤيوس إلا قطع قليلة منفرقة تشهد ببراعته ، ومنها قطعة تصف فتاة لعوباً يقول فيها :

« إنها تنتقل من شخص إلى شخص تنقل من يلعب كرة فى حلقة ، وهى كل شىء لكل رجل ، تلقاهم بألفاظها ، وغمزات عينها ، ودلالها ، وعناقها . هذا تضغط عليه بيدها ، وذاك بقدمها ، وثالث تريه خاتمها ، ورابع ترسل له قُبلة حارة مغرية من شفتيها ، وهنا أغنية ، وهناك لغة الإشارات »[٤٤] .

وخليق بنا أن نقول إن النساء لم يكنّ فى ذلك الوقت أقل جمالا وسحراً مما هنّ الآن ، وإن الرومان لم يكونوا كلهم متزمتين كما كان « كاتو » ، وإن الفضيلة كانت تتنحى عن مكانها فى ظلال أبواب الهياكل نفسها .

ولم يكن للعلوم شأن فى تربية المواطن الرومانى أو ثقافته إذا استثنينا قواعد الحساب الأساسية ، وما يكفى من الهندسة لتخطيط مزرعة أو معبد . وكان

الأولاد يعدون على أصابعهم (digita) ، ولم تكن الأرقام التى يستخدمونها فى العد والحساب إلا صورة للإصبع ممتدة (I) ، ولليد (V) ، أو اليدين متصلتين عند الرسغ X ، وكانوا يكتفون فى تكوين الأعداد الأخرى بتكرار هذه الرموز (III ، II) وبإضافة أرقام قبل V ، X أو بعدهما للدلالة على ما هو أقل منها فى الحالة الأولى أو أكثر منهما فى الحالة الثانية .

ومن هذا الحساب « اليدوى » وضع النظام العشرى القائم على أجزاء العشرة ومضاعفاتها ، أى الأصابع العشر . وأجاد الرومان استخدام الهندسة فى أعمال البناء وغيرها من الأعمال الهندسية ، ولكنهم لم يضيفوا نظرية واحدة جديدة إلى النظريات التى ابتكرها العقل اليونانى . ولسنا نسمع شيئاً عن الفلك الرومانى فى هذا العهد إلا ما يتصل منه بالتقويم الملىء بالأخطاء ، وبالتنجيم شقيق الفلك أو موجده .

أما الطب فقد ظل معظمه حتى القرن الثالث مقصوراً على استخدام الأعشاب والسحر والصلوات فى البيوت ، وكان الاعتقاد السائد أن الآلهة وحدها هى القادرة على شفاء المرضى ، وكانوا يبتهلون فى كل داء إلى إله خاص ، كما نلجأ نحن إلى الطبيب الإخصائى ، لكى يضمنوا لأنفسهم الشفاء من هذا المرض[٤٥] ، فبعوض المناقع الرومانية كان يلجأ فى اتقاء أذاه إلى الإلاهتين فبريس Febris ومفتيتس Mephtitis ، كما ظل الرومان إلى القرن العشرين بعد الميلاد يلتمسون الشفاء من الحمى من « سيدة الحميات » La Madonna della Febbre[٤٦] . وكانت الأضرحة الشافية والمياه المقدسة شائعة شيوعها فى هذه الأيام .

وكان هيكل اسكيولابيوس Aesculapius مركزاً كبيراً للعلاج الدينى يعتمد فيه على التغذية المناسبة ، والمياه المعدنية ، والوسط الهادئ والنظام الرتيب الخالى من الضجيج ، والدعوات الصالحات ، والمراسم الدينية والمهدئة للأعصاب ،

ومعونة الأطباء المجبرين العمليين ، ولطف مهرة الممرضين ، يعتمد فيه على هذه العوامل كلها لإعادة الثقة إلى نفس المريض ولشفائه من مرضه شفاء يظنون أنه إنما جاء عن طريق المعجزات(٤٧) .

على أنه كان فى رومة إلى جانب هذه الوسائل أطباء حقيقيون ودجالون من العبيد قبل المسيح بخمسمائة عام ؛ وكان بعضهم يمارسون طب الأسنان لأن الألواح الاثنى عشر كانت تحرّم دفن الذهب مع الموتى إلا إذا كان مستخدماً فى تغطية الأسنان(٤٨) . ونسمع فى عام ٢١٩ ق . م عن أول طبيب من الأحرار فى رومة ، وهو أرشجاتوس البلوپونيزى **Archagathus Le Peloponnes** . وقد أعجب الأشراف بجراحاته إعجاباً حمل مجلس الشيوخ على أن يطلب له مسكناً رسمياً ويمنحه حرية المدينة . وكان « شغفه الشديد الذى يبلغ حد الهوس بالتقطيع والتحريق » سبباً فى تلقيبه فيما بعد بالجزار **Carnifex**(٤٩) ، وأخذ الأطباء اليونان من ذلك الوقت يهرعون إلى رومة حتى أصبحت صناعة الطب فى تلك البلاد وقفاً على اليونان .

الفصل الخامس

الزراعة

قلما كان الرومانى فى تلك العصور يحتاج إلى الطب ، لأن حياته النشيطة فى الزراعة والجندية تكسبه صحة وقوة ؛ وكان يجدُ فى فلح الأرض كما يجدُ اليونانى فى خوض عباب البحر ؛ وكانت الزراعة أساس حياته ، يقيم المدن لتكون مجتمعا للزراع يتبادلون فيها محصولات أرضهم ، وينظم جيوشه ودولته على أساس استعداده للدفاع عن أملاكه وتوسيع رقعتها ، ويفكر فى آلهته على أنها أرواح الأرض الحية والسماء المغذية .

ونجد الملكية الفردية قائمة فى رومة من أقدم العصور المعروفة[50] ؛ على أن بعض الأراضى كانت تعد من الأملاك العامة **ager publicus** التى تستولى عليها الدولة عن طريق الفتح وتحتفظ لنفسها بملكيتها . وكانت أسرة الزراع فى عهد الجمهورية الباكر تمتلك فدانين أو ثلاثة أفدنة ، يشتغل فيها جميع أفرادها وعبدها إن كان لها عبد ، وتعيش عيشة منقشفة على ما تنتجه من الغلات . وكانوا يفترشون القش[51] ، ويصحون من نومهم مبكرين ، ويخرجون إلى عملهم ونصف جسمهم العلوى عار من الملابس ، ليحرثوا الأرض ويمهدوها خلف ثيران تسمدها بفضلاتها ؛ وتتخذ لحومها قرابين دينية وطعاما فى الأعياد والولائم . وكانت فضلات الآنية تتخذ هى الأخرى سماداً ، ولكن المخصبات الكيمياوية كانت نادرة فى إيطاليا قبل عهد الإمبراطورية ؛ وقد استورد الرومان فى ذلك العهد كتبا فى الزراعة العملية فى بلاد اليونان ومن قرطاجنة . وكانت الأرض تزرع حبا ثم خضراً ، ثم تترك من حين إلى حين لتكون مراعى حتى لا يستنفد خصبها وكانت الفاكهة والخضر موفورة ، وكانت بعد البقول أهم غذاء للأهلين ، وكان

الثوم من أحب المشهيات ، وقد بلغ من شأن الزراعة عندهم أن بعض أسر الأشراف قد اشتقت أسماؤها من الخضر التي تعنى بزراعتها . ومن أمثلة ذلك أسر Caepiones و Fabii و Lentuli ، وهي مشتقة من ألفاظ معناها العدس ، والبصل ، والفول أو الحمص ؛ ثم طغت زراعة التين والزيتون والكروم شيئاً فشيئاً على زراعة الحبوب والخضر ، واستبدل زيت الزيتون بالزبد في الطعام ، وبالصابون في الاستحمام ، واستخدم للإضاءة في المشاعل والمصابيح ، كما كان العنصر الأساسي في أدهان الشعر والجلد التي كانت رياح البحر الأبيض المتوسط الجافة وشمسه المحرقة في فصل الصيف تحتم عليهم استعمالها . وكان الضأن أهم قطعانهم لأن الإيطاليين كانوا يفضلون نسيج الصوف على غيره من المنسوجات . وكانت الخنازير والدجاج تربى في ساحة المزرعة ، وكان لكل أسرة تقريباً حديقة للأزهار(٥٤) .

ثم غيرت الحروب هذه الصورة القروية وما فيها من كدح ، ذلك أن كثيرين من الزراع الذين استبدلوا السيف بالمحراث قد غلبوا على أمرهم في ميدان القتال أو اجتذبتهم حياة المدن فلم يعودوا قط إلى حقولهم ؛ وكثيرون غيرهم وجدوا أن أرضهم أتلفها الإهمال ، أو الجيوش ، فلم يجدوا لديهم من الشجاعة ما يحملهم على أن يبدأوا العمل فيها من جديد ؛ ومنهم من قصمت ظهورهم الديون الباهظة ؛ فاضطر هؤلاء كلهم إلى أن يبيعوا أرضهم بأثمان زهيدة إلى الأشراف أو الممولين الزراع ؛ وضم هؤلاء المزارع الصغيرة بعضها إلى بعض وكونوا منها ضياعا واسعة كبيرة Latifundia ، واستبدلوا بزراعة الحبوب في هذه الضياع مراعى للضأن والماشية ، وبساتين وكروما ، وحشدوا فيها عبيداً من أسرى الحروب يعملون فيها على أعين مشرفين ، كانوا هم أيضاً عبيداً في أغلب الأحيان وكان الملاك يأتون إلى هذه الضياع بين الفينة والفينة ليلقوا نظرة على

أملاكهم ؛ ولم يكونوا هم أنفسهم يقومون فيها بعمل من الأعمال ، بل كانوا يعيشون عيشة الملاك الغائبين عن أملاكهم فى منازل ذات حدائق فى الريف ، أو فى قصور فى رومة . وقد بدأ هذا الاتجاه الجديد قبل القرن الرابع ، حتى إذا حل القرن الثالث قبل الميلاد نشأت فى الريف طائفة من المستأجرين الذين أثقلتهم الديون ، وفى العاصمة طائفة من الصعاليك الذين لا ملك لهم ، وانتشرت بينهم روح التذمر والغضب من وضعهم ؛ وما لبث هذان التذمر والغضب أن قضيا على الجمهورية التى أقامها كدح الفلاحين .

الفصل السادس

الصناعة

لم تكن أرض إيطاليا غنية بمعادنها ـ وكان لفقرها فى هذه المعادن أكبر الأثر فى تاريخ إيطاليا الاقتصادى والسياسى ؛ فلم يكن فى البلاد ذهب قط ، وكانت الفضة جد نادرة ، وكان فيها قدر لا بأس به من الحديد ، كما كان بها بعض النحاس والرصاص ، والقصدير ، والخارصين ، بكميات قليلة لا تكفى لقيام الصناعات . وكانت جميع المناجم فى الإمبراطورية كلها ملكاً للدولة ، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يستغلونها استغلالا مجزياً على أيدى آلاف من العبيد . ولم تتقدم صناعة التعدين أو الفنون الصناعية فى البلاد إلا قليلا ؛ ولكن البرنز فى ذلك العهد كان لا يزال أكثر استعمالا من الحديد ؛ ولم تكن الآلات الرافعة والدلاء ذات السلاسل التى أقامها أركميدس Archimedes وغيره من العلماء فى صقلية ومصر تستخدم إلا فى خير المناجم الإيطالية وأحدثها . وكان الخشب أهم أنواع الوقود تقطع له الأشجار كما تقطع أيضاً لاستخدامها فى بناء البيوت وصنع السفن والأثاث ؛ ومن أجل هذا أخذت الغابات تتناقص مساحتها وتنعدم شيئاً فشيئاً من سفوح الجبال ، حتى وصل التقطيع إلى الحد الأعلى الذى لا تنمو فوقه الأشجار . وكانت أروج الصناعات وأكثرها ازدهاراً صناعة الأسلحة والعدد فى كمبانيا . ولم يوضع قط نظام للمصانع إذا استثنينا مصانع الأسلحة والفخار ، ولم يكن الفخرانيون يصنعون الصحاف وحدها بل كانوا يصنعون معها الآجر ، والقرميد ، والأنابيب ، والقنوات التى تجرى الماء إلى البيوت . وكان فى أريتيوم وغيرها يقلدون النماذج اليونانية ويتعلمون صناعة الآنية الفنية . ولم يحل القرن السادس قبل الميلاد حتى كانت صناعة النسيج قد تخطت المرحلة المنزلية فى نقش

التيل والصوف وإعدادهما وصبغهما ، وذلك على الرغم من أن صناعة الغزل كان يقوم بها البنات والأزواج والعبيد . أما النساجون الأحرار وغير الأحرار فقد جمعوا فى مصانع صغيرة لا تنتج للأسواق المحلية وحدها بل تنتج كذلك ما يلزم منها لتجارة التصدير .

أما الإنتاج الصناعى للاستهلاك غير المحلى فقد كانت تعطله صعاب النقل . ذلك أن الطرق كانت رديئة والقناطر غير مأمونة ، والعربات التى تجرها الثيران بطيئة ، والنزل فى الطرق نادرة ، وكان اللصوص كثيرين ، ومن ثم اتجهت حركة النقل إلى القنوات والأنهار ؛ أما المدن الساحلية فكانت تستورد حاجتها من البضائع بطريق البحر لا من المدن الواقعة خلفها بطريق البر . وما أن حلت سنة ٢٠٢ ق . م حتى كان الرومان قد أنشأوا ثلاثة من الطرق « القنصلية العظيمة » وقد سميت طرقاً قنصلية لأنها كانت تسمى عادة باسم القناصل أو الرقباء الذين كانوا يبدأونها . وما لبثت هذه الطرق العامة أن فاقت فى صلابتها واتساعها الطرق الفارسية والقرطاجنية التى اتخذها الرومان نماذج لهم فى بادئ الأمر . وكان أقدم هذه الطرق طريق ڤيا لاتينا via Latina الذى خرج به الرومان حوالى عام ٣٧٠ ق . م إلى تلال ألبان . وبدأ أپيوس كلوديوس Appius Claudius الضرير فى عام ٣١٢ طريق ڤيا أپيا via Appia أو الطريق الأپياوى الذى يصل رومة بكپوا Capua واستخدم فى إنشائه آلافاً من المجرمين[٥٥] ، ثم مد هذا الطريق فيما بعد إلى بنڤنتم ، وڤنوزيا Venusia ، وبرنديزيوم Brundisium ، وتارنتم . وكان هذا الطريق البالغ طوله ٣٣٣ ميلا إنجليزيا يربط ساحلى شبه الجزيرة الشرقى والغربى ، وييسر التجارة مع بلاد اليونان والشرق كما كان هو وغيره من الطرق عاملا كبيراً فى توحيد إيطاليا . وفى عام ٢٤١ ق . م شرع الرقيب أورليوس كوتا Aurilius Cotta فى إنشاء الطريق الأوريلى الممتد من رومة إلى أنتيبيس Antibes مخترقاً مدينتى پيزا Pisa ،

وچنوى Genoa . وافتتح كيوس فلامينوس Caius Flaminus فى عام ٢٢٠ الطريق الفلاميني المؤدى إلى أرمينوم Ariminnm ، ثم أنشئ حوالى ذلك الوقت نفسه الطريق القليرى Valerian بين تيبور Tipur وكرفينيوم Corifinium . وهكذا أخذت شبكة الطرق الفخمة تتسع شيئاً فشيئاً : فصعد الطريق الإميلى Aemilian نحو الشمال من أرمينيوم مخترقاً بونوليا Bononia وموتينا Mutina إلى بلاسنتيا Placentia (عام ١٨٧) ، وربط الطريق البستونى Postumian چنوى بڤرونا Verona (١٤٨) وسار طريق پوبليا Via Popilia من أرمينيوم مخترقاً راڤنا Ravenns إلى پدوا Padua (١٣٢) ثم أنشئت الطرق فى القرن التالى من إيطاليا إلى خارجها — إلى يورك York ، وڤينا Vienna ، وتسلونيكا Thessalonica ، ودمشق ، كما امتدت على طول ساحل إفريقية الشمالي . وأفادت هذه الطرق فى الدفاع عن الإمبراطورية وتوحيدها ، وبعث الحياة فيها ، وذلك بمساعدتها الجيوش على سرعة الحركة ونشر الأنباء والعادات والأفكار فى ربوعها ، كما أضحت مسالك عظيمة للتجارة ، وكان لها شأن أيما شأن فى تعمير إيطاليا وأوربا وزيادة ثرائهما .

لكن التجارة لم ترج فى إيطاليا على الرغم من هذه الطرق الكبرى رواجها فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن رجال الطبقات العليا كانوا ينظرون بعين الاحتقار إلى الشراء بأثمان بخسة والبيع بأثمان مرتفعة ، ولذلك تركوا التجارة الداخلية لليونان والمحررين من أبناء الشرق ؛ هذا فى المدن ، أما الريف فقد كان أهله يكتفون بالأعياد التى تقام من حين إلى حين ، وبأسواق اليوم التاسع فى المدن .

كذلك لم تبلغ التجارة الخارجية شأواً عظيما لأن النقل البحرى كان معرضاً للأخطار ، فقد كانت السفن صغيرة الحجم لا تزيد سرعتها على ستة أميال فى الساعة سواء أكانت تسير بالشراع أم بالمجاذيف ، ولم تكن تبعد عن الشاطئ

ولا يجرؤ معظمها على الخروج من الموانى من شهر نوفمبر إلى شهر مارس كذلك كانت قرطاجنة تسيطر على غربى البحر الأبيض المتوسط والممالك الإغريقية تسيطر على شرقيه ، وكان لصوص البحار ينقضُّون من مكامنهم من حين إلى حين على التجار الذين هم أكثر منهم شرفاً إلى حد ما .

وفوق هذا كله كان نهر التيبر دائب العمل على طمر مصبه وسد مدخل ميناء رومة عند أستيا Ostia ؛ وقد حدث أن غرقت مئتا سفينة فى هذا الميناء على أثر عاصفة هوجاء . يضاف إلى هذا وذاك أن التيار كان قوياً بحيث يجعل سير السفن صاعدة فيه إلى رومة عملا لا يوازى ما يتطلبه من مشقة وما يتكلفه من مال ، ومن أجل هذا بدأت السفن حوالى عام ٢٠٠ ق . م ترسو عند بتيولى على بعد مائة وخمسين ميلا جنوبى رومة ، ومنها تنقل حمولتها براً إلى العاصمة .

وكان لا بد لتيسير هذه الحركة التجارية الداخلية والخارجية من وضع نظام للنقود ، والمقاييس ، والمكاييل ، والموازين ، مضمون من الدولة(*) .

لقد ظلت الماشية حتى القرن الرابع قبل الميلاد تتخذ وسيلة للتبادل ، ذلك لما لها من قيمة عند جميع الناس ، ولأنها كان يسهل نقلها من مكان إلى مكان . فلما اتسع نطاق التجارة استخدمت قطع من النحاس ، خشنة الصنع غير مهذبة تسمى الإيس Aes واسطة للتعامل (حوالى ٣٣٠ ق . م) . وقد اشتقت الكلمة الإنجليزية الدالة على القيمة estimate من كلمتى Aes timare أى تقويم النحاس . وكانت الوحدة المستعملة فى تقويم الأشياء هى الآس As (الواحد) وكان وزنها رطلا من النحاس ، ولما أن سكَّت

(*) وإلى القارئ بعض المقاييس والمكاييل الرومانية : الموديوس Modius ومقداره ربع بوشل (والبوشل يساوى ٣٥٫٢٤ لترا) ، والقدم ومقدارها ١١ ٥/٨ بوصة إنجليزية ؛ وكانت خمس أقدام رومانية تساوى خطوة (Passus) ، وألف خطوة يساوى ميلا (Mil a passum) ومقداره ١٦١٩ ياردة إنجليزية ، وكان الأيوجيرم (iugerum) يساوى ٥/٨ فدان إنجليزى Acre تقريبا ؛ وكانت (اثنتا عشرة أوقية (Unciae) تساوى رطلا.

الدولة عملة نحاسية حوالى عام ٣٣٥ ق . م كانت تطبع عليها فى الغالب صورة ثور ، أو شاة ، أو خنزير ، ومن ثم سميت پيكونيا **pecunia** (من پيكس **pecus** أى ماشية) .

ويقول پلنى إنه لما شبت الحرب اليونية الأولى « ولم تجد الجمهورية من الأموال ما يفى بحاجاتها ، خفضت وزن الآس إلى أوقيتين من النحاس ، وبهذه الوسيلة اقتصدت ٥/٦ قيمته ، وأفلحت فى تصفية الدين العمومى »(٥٦). وما أن وافى عام ٢٠٢ حتى كان وزن الآس قد نقص إلى أوقية واحدة ، ثم خفض فى عام ٨٧ إلى نصف أوقية لتستعين الدولة بذلك على تمويل الحرب الاجتماعية . وفى عام ٢٦٩ سكّت قطعتان من النقود الفضية أولاهما الديناريوس **Denarius** وكان يساوى عشرة آسات ، أى قيمة الدرخمة الأثينية فى صورتها الهلينية المخفضة ، والأخرى السسترتيوس ومقدارها آسان ونصف آس أو ربع ديناريوس . وفى عام ٢١٧ ظهرت أول عملة ذهبية رومانية — الأورى **aurei** — وكانت قيمته عشرين أو أربعين أو ستين سسترتيوس .

أما من حيث قيمة المعادن التى تحتويها كل قطعة من هذه النقود فقد كان فى الآس ما قيمته ٣/١٠٠ والسستر ٥/١٠٠ والديناريوس ٢٠/١٠٠ من الريال الأمريكى .

وإذ كانت المعادن الثمينة أقل كثيراً منها فى هذه الأيام ، وكانت قيمتها الشرائية لهذا السبب أضعاف قيمتها فى الوقت الحاضر(٥٧) ، فإن فى وسعنا إذا غضضنا النظر عن تقلبات الأثمان فى عهد نيرون أن نقوم الآس والسسترتيوس والتالنت (٦٠٠٠ ديناريوس) فى عهد الجمهورية الرومانية بـ ٦/١٠٠ ، ١٥/١٠٠ ، ٦٠/١٠٠ ، ٣,٦٠٠ ريال أمريكى على التوالى حسبما كانت قيمة الريال فى عام ١٩٤٢(*) .

(*) وكان البوشل من القمح فى شمالى إيطاليا يباع حوالى عام ٢٥٠ ق . م بنصف ديناريوس (أى ٣/١٠٠ من الريال) وكان المبيت والطعام فى النزل مدة يوم يتكلفان نصف آس (٣/١٠٠ من الريال)(٥٨) ، وكانت أجرة المنزل المتوسط القيمة فى ديلوس **Delos** فى القرن الثانى قبل الميلاد أربعة دنانير (٢,٤ ريال) فى الشهر ، وكان ثمن الطبق والفنجال فى رومة عام ٥٠ ب . م نصف آس (٣٠/٢ من الريال)(٥٩) .

وكان إصدار هذه العملة المضمونة عاملا مهماً فى تدعيم الأعمال المالية فى البلاد ، فقد كان الرومان الأولون يستخدمون الهياكل فى أعمال المصارف ، كما نتخذ نحن المال إلهاً لنا والمصارف هياكل نعبده فيها من دون الله . وقد ظلت الدولة تتخذ الأضرحة القوية البناء مستودعات للأموال العامة ، ولعلها كانت ترى أن الدين قد يلقى الرعب فى قلوب اللصوص فلا يقدمون على السرقة . وكان إقراض المال من أقدم الأعمال فى رومة ، وشاهد ذلك أن الألواح الاثنى عشر تحرم الربا إذا زاد على ٨ ⅓ ٪ فى السنة[٦٠] ، ثم خفض سعر الفائدة القانونى فى عام ٣٤٧ إلى خمسة فى المائة ، ثم حرم الربا على الإطلاق فى عام ٣٤٢ ق . م

ولكن المرابين كان فى وسعهم أن يروغوا من هـذا التحريم الأرسطاطيلى ، وكان أقل سعر للفائدة يتقاضونه فعلا لا يقل عن ٢ ٪ . وفضلا عن هذا فقد كان الربا الفاحش (الذى يزيد على ١٢ ٪) واسع الانتشار ، وكان يحدث من حين إلى حين أن يتخلص المدينون من ديونهم بالإفلاس أو التشريع . وحدث فى عام ٣٥٢ ق . م أن استخدمت الحكومة وسيلة جد حديثة للتخفيف عن المدينين : ذلك أنها تكلفت هى بالرهون التى كان الوفاء بها مرجحاً أكثر من غيرها ، وأقنعت الزاهنين بأن يقبلوا عن الرهون الأخرى فوائد أقل من التى تعاقدوا عليها[٦١] ، وأصبح أحد الشوارع المجاورة للسوق العامة **Forum** حى رجال المصارف ، وازدحمت فيه حوانيت المقرضين (**argentarii**) والصيارفة مبدلى النقود (**trapezitae**) . وكان فى وسع الأهلين أن يقترضوا المال بضمان الأرض والمحاصيل الزراعية والأوراق المالية ، والعقـود الحكومية ، كما كان فى وسعهم أن يقترضوا لتمويل المشروعات التجارية والرحلات البحرية ، وكان يحل محل التأمين الصناعى السائد فى أيامنا الحاضرة نظام الإقراض التعاونى ؛ وكان يحدث أن يشترك عدد من أصحاب المصارف فى تقديم الأموال اللازمة لمشروع ما بدل أن ينفرد واحد منها بتمويله . وكانت هناك شركات مساهمة أشهر ما كانت تقوم به من الأعمال تنفيـذ

العقود الحكومية التي يبرمها الرقيب بعد أن تقدم إليه منها عطاءات . وكان أصحاب هذه العطاءات يحصلون على المال اللازم لقيامهم بهذه الأعمال ببيع ما لديهم من الأسهم والسندات للجمهور فى صورة « أجزاء صغيرة » أى أسهم particulae أو (partes) . وقد اضطلعت هذه الشركات المؤلفة من رجال يقومون بالمشروعات العامة أو مشروعات الدولة بعمل خطير فى تموين الجيش والأسطول فى الحرب البونية الثانية بما يحتاجانه من المؤن والعتاد ونقلها إليهما ، ولم يفتها فى هذا العمل أن تحاول ما يحاوله غيرها من الشركات ، وهو أن تخدع الحكومة(٦٢) ، وكان رجال الأعمال equites هم الذين يديرون هذه المشروعات الكبرى ، أما ما كان أصغر منها فكان يديره الأرقاء المحررون ؛ وكانت المشروعات غير الحكومية يديرها مديرو الأعمال negotiatunes وكان هؤلاء يدبرون لأنفسهم ما يلزمهم من المال .

وكانت الصناعة فى أيدى صناع مستقلين يشتغل كل منهم فى حانوته الخاص ، وكان معظم هؤلاء الصناع من الأحرار ولكن كان إلى جانبهم عدد من المحررين ومن الأرقاء أخذ يتزايد على مر الأيام ؛ وكانت الأعمال التى يقوم بها هؤلاء الصناع مختلفة كل الاختلاف ، وكان أكثر ما ينتجون للسوق لا للعميل الخاص . وقد أدى التنافس بين العمال الأحرار والأرقاء إلى خفض أجور الأولين ، فانحط مستوى العمال إلى درجة من البؤس لا تقل عن بؤس أفقر عمال المدن الذين يعيشون فى أقذر الأحياء فى هذه الأيام . ولم يكن إضراب هؤلاء العمال عن العمل ذا فائدة لهم ولذلك كان نادر الحدوث(٦٣) ، غير أن الفتن بين الأرقاء كانت كثيرة ؛ ولم تكن « حرب الأرقاء الأولى » (١٣٩ ق . م) أولى هذه الفتن . ذلك أن التذمر إذا اشتد وضاق الناس ذرعاً بمعيشتهم ، كان من السهل تلمس سبب للحرب تهيئ أعمالا للمتعطلين ، وتيسر انتشار النقود المنخفضة القيمة ، وتوجه غضب الشعب نحو عدو خارجى يطعم الرومان من أرضه إذا انتصروا ،

أو تستسبلهم هذه الأرض موتى أو أسرى إذا هزموا(٦٤) . وكان للأحرار من العمال اتحادات أو جماعات طائفية (Collegia) . ولكنها قلما كانت تعنى بمسائل الأجور أو ساعات العمل أو ظروفه . وتعزو الروايات المتواترة إلى نوما Nums فضل إنشاء هذه الاتحادات أو الاعتراف بمشروعيتها . وسواء صح هذا أو لم يصح فإننا نعرف أنه كان فى القرن السابع قبل الميلاد منظمات للزمارين ، والصائغين ، والنحاسين ، وطارقى الحديد ، والحذائين ، والفخرانيين ، والصباغين ، والنجارين(٦٥) . وكانت جماعات « الفنانين الديونيزيين » Dionysian Artists - الممثلين والموسيقيين - من أكثر الجماعات انتشاراً فى العالم القديم . وقد كان فى رومة قبل بداية القرن الثانى قبل ميلاد المسيح جماعات طائفية للطباخين ، ودابغى الجلود ، والبنائين ، وصناع البرنز ، والحدادين ، وصانعى الحبال ، والنساجين ، ولكن الراجح أن هذه الطوائف كانت قديمة قدم الطوائف السالفة الذكر . وكان أهم أهداف هذه الاتحادات وأمثالها مجرد السرور الذى تبعثه الصلات الاجتماعية فى قلوب أعضائها . وكان الكثير منها جمعيات تعاونية تكفل نفقات دفن الموتى .

ولم تكن الدولة تنظم شئون هذه الاتحادات والجماعات الطائفية وحسب ، بل كانت تنظم كذلك كثيراً من النواحى فى حياة رومة الاقتصادية ، فكانت تشرف على استغلال المناجم وعلى غيرها من الامتيازات والعقود التى كانت تبرمها الحكومة ، وكانت تهدئ الاضطرابات التى يثيرها العامة باستيراد الطعام وتوزيعه بأثمان اسمية على الفقراء أو على كل من يطلبه . وكانت تفرض الغرامات على الاحتكارات ؛ وقد أممت صناعة تعدين الملح لتقضى بذلك على احتكار هـذه الصناعة ، بعد أن ارتفع ثمن الملح بسبب هذا الاحتكار ارتفاعاً جعله فى غير متناول طبقة العمال . وكانت رومة تتبع سياسة حرية التجارة ، ولذلك فإنها لما تغلبت على قرطاجنة فتحت غرب البحر المتوسط لتجارة الأمم جميعها ؛ وقررت حماية يتكا Utica ثم دياوس مشترطة عليها فى نظير هذه الحماية أن يظلا ميناءين

حرين تدخل فيهما البضائع وتخرج منهما دون أن تؤدى لهما رسوماً ، على أنها كانت فى بعض الأحيان تحرم تصدير السلاح ، والحديد ، والخمر ، والزيت ، والحبوب . وكانت تفرض على معظم الغلات التى تدخل رومة عوائد جمركية تقدر عادة باثنين ونصف فى المائة من قيمتها ، ثم امتدت هذه الضريبة القليلة فيما بعد إلى غيرها من المدن ، وظلت حتى عام ١٤٧ ق . م تفرض ضريبة على الأملاك (tributum) فى جميع أنحاء إيطاليا . ويمكن القول بوجه عام إن إيرادات الدولة لم تكن كثيرة وإن أهم ما كانت تستخدم فيه هو نفقات الحرب ، شأنها فى هذا شأن غيرها من الدول المتحضرة(٦٦) .

الفصل السابع

المدينـــة

أصبحت رومة فى عام ٢٠٢ ق . م من كبريات المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، بفضل ماكان يدخل خزائنها من الضرائب والغرامات التى تفرضها على أعدائها ، وبفضل من كان يفد إليها من الخلائق ليسكنوا فيها .

وقد سجل فيها الإحصاء الذى أجرى فى عام ٢٣٤ قبل الميلاد ٧١٣ر٢٧٠ من المواطنين — أى من الذكور الراشدين الأحرار . ثم نقص هذا العدد نقصاً فجائياً خـــلال الحرب الكبرى ، ولكنه ارتفع فى عام ١٨٩ إلى ٣١٨ر٢٥٨ وإلى ٠٠٠ر٣٢٢ فى عام ١٤٧ ، وفى وسعنا أن نقدر سكان دولة المدينة فى عام ١٨٩ ق . م بما يقرب من ٠٠٠ر١٠٠ر١ ولربما كان ٠٠٠ر٢٧٥ من هؤلاء يسكنون فى داخل أسوار رومة . وكان فى إيطاليا جنوب الروبيكون Rubicon نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر٥ من السكان [٦٧] . وكانت الهجرة وامتصاص الشعوب المغلوبة ، وتدفق السكان ، وتحرير الأرقاء ومنحهم الحقوق السياسية — كانت هذه العوامل كلها قد أخذت تحدث فى رومة تلك التغيرات العبقرية التى جعلتها فى عهد نيرون نيويورك الزمن القديم ، نصف سكانها من البلاد الأصليين والنصف الآخر خليط من كافة الأجناس .

وكان فى المدينة شارعان رئيسيان متقاطعان يقسمانها إلى أحياء منفصلة ، لكل منها موظفوه الإداريون وأربابه الواقون . وقد شيدت إلى آلهة ملتقى الطرق Lares Compitales معابد عند ملتقى للطرق الهامة وأقيمت لها تماثيل عند ملتقى الطرق الأقل من هذه أهمية — وهى عادة لطيفة لا تزال متبعة فى

إيطاليا . وكانت معظم الطرق بحالها الطبيعية ، وكان بعضها مرصوفاً بحجارة ملساء مستخرجة من أقواع الأنهار ككثير من مدن البحر الأبيض المتوسط فى هذه الأيام ؛ وقد دامت هذه الحال حتى شرع الرقيب حوالى عام ١٧٤ يغطى أرض الشوارع الكبرى بكتل من الحمم البركانية . وقد بنى أبيوس كلوديوس الأعمى فى عام ٣١٢ أولى القنوات المعروشة لجر المياه العذبة إلى المدينة التى ظلت حتى ذلك الوقت تعتمد على العيون والآبار ومياه التيبر العكرة .

وأقام الأشراف صهاريج تستمد الماء من هذه القنوات ، ومدت منها الأنابيب فى بيوتهم ، وركبت عليها الصنابير ، فاستطاع الأشراف أن يستحموا بمائها أكثر من مرة فى الأسبوع ؛ ثم افتتحت رومة حماماتها الأولى التابعة للبلدية بعد هزيمة هنيبال بزمن قليل . وشاد المهندسون الرومان أو التسكان فى وقت غير معروف المجرى الأكبر **Cloaca Maxima** لنقل مياهها القذرة ، وقد بلغت العقود الحجرية الضخمة لهذا المجرى درجة من الاتساع تسمح بمرور عربة محملة بالدريس من تحتها(٦٨) . ثم أنشئت مجارى صغرى لصرف مياه المناقع التى كانت تحيط برومة وتغمر عليها فى بعض الأوقات ، وكانت مياه الأمطار والمياه القذرة تجرى من فتحات فى الشوارع إلى هذه المصارف ، ثم تنتقل منها إلى نهر التيبر . وقد ظلت مياهه الملوثة مشكلة المشاكل فى الحياة الرومانية .

وربما كانت المعابد هى مظاهر الزينة الوحيدة التى كانت فى المدينة . ذلك أن البيوت ظلت مستمسكة بالطراز التسكانى البسيط الذى وصفناه من قبل ، لا يفترق عنه إلا فى شىء واحد وهو أن جدرانها الخارجية كانت تبنى فى الغالب من الآجر أو تطلى بمسحوق الجبس الناعم ، وكثيراً ما كانت هذه الجدران تشوه بما يخدش عليها من الشعر أو النثر فى ذكر حادث من الحوادث التافهة التى لا يلبث الناس أن ينسوها بعد وقوعها . ولم يكونوا يقصدون بكتابتها إلا أن يدلوا على ازدياد نسبة من يعرفون

منهم القراءة والكتابة ؟ وكانت الهياكل تبنى فى الغالب من الخشب ، وكانت واجهاتها وزينتها من الطين المحروق ، وكان طرازها هو الطراز التسكانى . وقد أقيمت على تل الكپتولين هياكل لچوبتر ، ويونو ، ومنيرفا ، وأقيم هيكل آخر لديانا على الأفنتين Aventine ، وأقيمت هياكل غيرها (قبل عام ٢٠١ ق . م) ليونو ، والمريخ ، ويانوس Janus ، والزهرة ، وللنصر والحظ السعيد ، والأمل وما إليها . وفى عام ٣٠٣ ق . م أضاف كيوس فابيوس إلى اسم عشيرته النباتى لقب پكتور Pictor أى المصور . وذلك لأنه عمل مظلمات فى هيكل الصحة القائم على الكپتولين . وأقام المثالون اليونان فى رومة تماثيل للآلهة الرومانية والأبطال الرومانيين من الآجر ، والرخام والبرنز ؛ وقد أقاموا فى عام ٢٩٣ على الكپتول تمثالا لچوبتر بلغ من ضخامته أن كان يراه الواقف عند تلال ألبان Alban التى تبعد عنه عشرين ميلا . وفى عام ٢٩٦ أقام الأيديلون) الموظفون الرومان المشرفون على المبانى العامة والألعاب وغيرها) تمثالا من البرنز لذئبة أضاف إليه الفنانون فيما بعد صورتين لرميوليوس وريموس . ولسنا نعرف أهذه هى المجموعة التى جاء وصفها على لسان شيشرون أم أنها مجموعة أخرى ، وإن لم تكن فهل هذه أو تلك هى بعينها « ذئبة الكپتول » التى لا تزال باقية إلى هذا اليوم . ومهما يكن من شىء فإن هذا التمثال الأخير آية فنية أوفت على الغاية فى الإتقان ؛ فهى تمثال من الجماد ينبض بالحياة فى كل عضلة من عضلاته وكل عصب من أعصابه .

وبينا كان الأشراف يخلدون انتصارهم ويمتدحون أسلافهم كان العامة يتأسون بسماع الموسيقى ، وبالرقص ، والمسرحيات المضحكة ، والألعاب . وكانت طرقات إيطاليا وبيوتها تردد أصداء الأغانى الفردية والجماعية ، فكان الرجال يغنون فى المآدب والأولاد والبنات يرددون الترانيم فى المواكب الدينية ، وكانت حفلات الزواج لا تخلو قط من الأناشيد كما كانت الأغانى تصحب جنازات الأموات . وكان المزمار أكثر آلات الطرب شيوعاً ولكن القيثارة أيضاً كاد

لها من يهواها حتى أضحت الآلة المحبوبة التي ينشد على نغماتها الشعر الغنائي .
وكان الرومان في أيام الأعياد الكبرى يجتمعون في المدرجات وساحات اللعب يكتوون بنار الشمس ، بينا كان المستأجرون والأسرى والمجرمون والأرقاء يعدون ، أو يقفزون ، أو يقتتلون ، ويموتون . وكان الاقتتال والموت أحب إلى الجماهير من العدو والقفز . وكان في المدينة مدرجان كبيران هما الساحة الكبرى (ويقال إن الذي أنشأها هو تاركوين الأول) وساحة فلامينوس (٢٢١ ق . م) — وكان يدخلهما من غير أجر كل من يصل إليهما من الرجال والنساء في الوقت الذي يمكنهم من أن يجدوا فيهما مكاناً . وكانت الدولة في بادئ الأمر هي التي تتكفل بالإنفاق على الملعبين ، ثم تكفل بهما بعدئذ الإيديلون ، أما في العهد المتأخر من حياة الجمهورية فكان ينفق عليهما المرشحون لمنصب القناصل ، وأخذت هذه النفقات تزداد جيلا بعد جيل حتى أضحت في واقع الأمر سداً منيعاً يحول بين الفقراء وبين التقدم لمناصب القناصل

ولعل من واجبنا أن نضم إلى هذه الألعاب « حفلات النصر » التي كانت تقام للقواد العائدين من ميادين القتال . ولم تكن هذه الحفلات تقام إلا لمن انتصروا منهم في حرب قتل فيها من الأعداء خمسة آلاف أو يزيدون . أما القائد المنحوس الذي انتصر ولكنه لم يقتل من أعدائه هذا العدد كله فلم يكن يلقى هذا النوع من الترحيب ، ولم يكن يضحى له بثور بل بشاة ovis . وكان الناس ينتظمون في الموكب خارج المدينة ، وكان يطلب إلى القائد هو وجنوده عند حدودها أن يلقوا أسلحتهم ، ثم يدخلها الموكب من تحت قوس نصر ، اتخذ فيما بعد طرازاً لعشرات المئات من الآثار . وكان النافخون في الأبواق يتقدمون الموكب ثم تأتي من بعدهم أبراج أو أرماث تمثل المدن التي استولى عليها ، وصور تدل على ما قام به المنتصرون من أعمال البطولة . ثم تكركر من بعدها عربات مثقلة بالذهب والفضة ، ومنتجات الفن وغيرها من الأسلاب . وقد اشتهر

موكب النصر الذى أقيم لمرسلس بما كان فيه من التماثيل المسروقة من سرقوسة (٢١٢) ؛ وعرض سپيو الإفريقى فى عام ٢٠٧ أربعة عشر ألف رطل من الفضة ، وفى عام ٢٠٢ مائة وثلاثة وعشرين رطلا استولى عليها فى أسپانيا وقرطاجنة ، وتبعها سبعون ثوراً أبيض تسير إلى مصرعها سير الفلاسفة ، ومن ورائها زعماء العدو المأسورون ثم الجلادون ، والضاربون على القيثار ، والزمارون ، وحاملو آنية البخور ، ومن بعد هؤلاء كلهم يمر القائد نفسه فى عربة زاهية مزينة ويلبس جبة أرجوانية ، وعلى رأسه تاج من الذهب ، وفى يده صولجان من العاج وغصن من شجر الغار ، وهما رمز النصر ، وشعار چوف jove . وكان يركب معه فى العربة أحياناً أبناؤه ، ويركب فى عربة تسير بجوارها أقاربه ؛ ثم يأتى من خلفهم أمناء سره من المدنيين والعسكريين . ويأتى فى آخر الموكب الجنود يحمل بعضهم ما نالوه من الأعطية ، وعلى رأس كل منهم تاج ، يمتدحون قوادهم ، وبعضهم يسخرون منهم . ذلك أن التقاليد المرعية التى لا يمكن خرقها كانت تترك للجنود فى هذه الفترات القصيرة كامل الحرية فى أن ينطقوا بما يريدون أن ينطقوا به دون أن يعاقبوا عليه ، وذلك لكى يذكروا المنتصرين المزهوين بنصرهم أنهم كسائر الناس معرضون للأخطاء ، وكان القائد يصعد الكپتول إلى چوبتر ، ويونو ، ومنيرفا ، ويضع قدمه عند أقدام الآلهة ، ويضحى بحيوان ما ؛ وكان يأمر عادة بأن يذبح زعماء من الأسرى مبالغة فى شكر الآلهة . وكان هذا الموكب منظماً تنظيما يثير فى النفس المطامع العسكرية ، ويجزى القواد والجند أحسن الجزاء على جهودهم الحربية ؛ ذلك أن زهو الإنسان وغروره لا يخضعان إلا للجوع والحب .

الفصل الثامن

بعد الموت

لقد كانت الحرب أروع النواحي الروائية فى حياة الرجل الرومانى ، ولكنها لم يكن لها ذلك الشأن الخطير الذى تحدثنا عنه صحف المؤرخين الرومان . ولعل حياة الرومانى كانت تدور كلها حول أسرته وبيته أكثر مما تدور حولها حياة الرجل منا فى هذه الأيام . وكانت أخبار العالم لا تصل إليه إلا متأخرة ، ومن أجل هذا لم يكن ما يتجمع فى العالم من اضطراب يستثير عواطفه فى كل يوم ، ولم تكن الحوادث العظمى التى تمر به فى حياته هى السياسة والحرب ، بل كان أهم ما يعنى به مولد الأطفال وحفلات الزواج وأخبار الموت المحزنة .

ولم يكن كبر السن تلازمه تلك الوحشية والهجران اللذان ينغصان على الكبار حياتهم فى العصور التى تشيع فيها الفردية . ذلك أن الصغار كانوا يرون أن من الفروض الواجبة عليهم أن يعنوا بالكبار ، وقد ظل هؤلاء إلى آخر عهود الجمهورية أجدر الناس بالرعاية وأعظمهم سلطاناً ، وكانت قبورهم بعد وفاتهم مواضع التكريم ما دام لهم أبناء أو أحفاد على قيد الحياة . ولم تكن الجنائز تقل فخامة وتعظيما عن مواكب الأفراح ، فكان يسير فى طليعتها جماعة من النادبات المأجورات فلما تغالين فى عويلهن وهوسهن قيد هذا التغالى بنص فى الألواح الاثنى عشر[71] يحرم عليهم اقتلاع شعرهن . ويتلو هؤلاء النسوة الزمارون وقد حدد القانون عددهم باثنى عشر ، ثم الراقصون يمثل الميت واحد منهم . ويأتى من بعد هؤلاء عرض عجيب لجماعة من الممثلين يلبسون أقنعة الموت أو وجوهاً من الشمع فى صورة آباء الميت الذين شغلوا مناصب ذات شأن فى الدولة . ثم تتلو هؤلاء جميعاً جثة الميت محوطة بمظاهر تبلغ من الفخامة ما يبلغه موكب القائد المنتصر ، وعليها كامل

اللباس المخصص لأعظم منصب شغله صاحبها فى حياته ، وموضوعة فى نعش بسطت عليه أغطية مطرزة باللونين الأرجوانى والذهبى ، ومن حولها الأسلحة والدروع التى غنمها ممن قتلهم من الأعداء . ويسير خلف النعش أبناء المتوفى وعليهم أثواب وأقنعة سوداء ، وبناته سافرات ، وأقاربه وأبناء عشيرته وأصدقاؤه ومواليه وعبيده . فإذا وصلت الجنازة إلى السوق العامة وقفت ورثى الميت أحد أبنائه أو أقاربه . لقد كانت الحياة فى تلك الأيام خليقه بأن يحياها الإنسان ولو لم ينل منها إلا هذا التكريم بعد الوفاة .

وكان الموتى من أهل رومة فى القرون الأولى من حياتها يحرقون ، ثم جرت العادة بعدئذ بأن يدفنوا وإن كان بعض المحافظين من أبنائها ظلوا يفضلون إحراق موتاهم . وسواء اتبعت هذه السنة أو تلك فقد كانت بقايا الميت تدفن فى قبر أضحى فيما بعد مزاراً ومكاناً للعبادة ، كان الأتقياء من أبناء الميت وأحفاده يضعون عليه من حين إلى حين طاقات الزهر وقليلا من الطعام . وكان لعبادة الأسلاف والاعتقاد بأن أرواحهم تحيا فى مكان ما وترقب الأحياء أكبر الأثر فى استقرار الأخلاق والمجتمع الرومانى ، كما كان لها نفس الأثر فى بلاد اليونان والشرق الأقصى . وكان الموتى حسب الأساطير الرومانية التى اصطبغت بالصبغة الهلينية ينتقلون إلى جنات النعيم أو إلى جزائر المقيمين ؛ على أنهم كلهم تقريباً كانوا ينزلون إلى الأرض ليستقروا فى مملكة الأشباح التى يسيطر عليها أوركوس Orcus وپلوتون Pluto . وكان ثانيهما — وهو الصورة اليونانية للإله هيديز Hades اليونانى — يحمل فى يده مطرقة يضرب بها الميت حتى يغيب عن وعيه . أما أوركوس (وهو الاسم الذى اشتقت منه الكلمة الإنجليزية ogre أى الغول) فكان هو الهولة التى تلتهم جثة الميت بعدئذ . وإذا كان پلوتو أعظم الأرباب فى باطن الأرض وأعلاها مقاماً ، وإذا كانت الأرض هى المورد الأخير للثروة ؛ وهى فى كثير من الأحيان مستودع ما يتجمع من الطعام والسلع ، فقد كان پلوتو يعبد

ايضاً على أنه إله الثروة والأثرياء ، وأضحت زوجته ــ پرسپرپينا Prosperpina الضالة ـ ابنة سيريز Ceres إلهة الحب النامى . وكان الرومان يتمثلون الجحيم فى بعض الأحيان على أنها موضع العقاب [٧٢] ، وكانوا يصورونها فى الأغلب الأعم على أنها مسكن الأشباح النصف المجردة التى كانت فى حياتها رجالا يمتاز بعضهم عن بعض بثواب أو عقاب بل يعانون كلهم على السواء عذاب الظلام الأبدى والنسيان النهائى . « وهنالك » كما يقول اوسيان Lucian « يجد الإنسان فى آخر الأمر الدمقراطية المنشودة [٧٣] » .

الباب الخامس

فتح بلاد اليونان

٢٠١ – ١٤٦ ق . م

الفصل الأول

الاستيلاء على بلاد اليونان

لما تحالف فليب ملك مقدونيا مع هنيبال على رومة (٢١٤) ، كان يأمل أن تسير فى ركابه بلاد اليونان كلها لإزهاق روح ذلك الجبار الناشئ فى الغرب ؛ ولكن الشائعات ما لبثت أن انتشرت تقول إنه كان يعتزم إذا ما انتصرت قرطاجنة أن يفتح أرض اليونان كلها بمعونة حلفائه القرطاجنيين ؛ ومن أجل ذلك وقعت العصبة الإيتولية Aetolian ميثاقاً تعهدت فيه أن تساعد رومة فى حربها ضد فليب ؛ واستطاع مجلس الشيوخ بفطنته أن يستفيد من هذا الخذلان فيقنع فليب بعقد صلح منفرد مع رومة (٢٠٥) . وما كاد الرومان ينتصرون فى معركة زاما حتى أخذ مجلس الشيوخ — وهو الذى لم ينس قط إساءة وجهت إلى بلاده — يكيد لمقدونية ويستعد للثأر منها . ذلك أن هذا المجلس كان يشعر بأن رومة لا تستطيع أن تأمن على نفسها ما دام من ورائها تلك القوة العظيمة التى لا يفصلها عنها إلا بحر ضيق . ولما أن عرض مجلس الشيوخ اقتراحاً بإعلان الحرب اعترضت الجمعية على هذا الاقتراح وقام أحد التربيونين يتهم الأشراف بأنهم يريدون أن يحولوا أنظار الشعب عما فى البلاد من فساد[1] ؛ ولكن المعارضين

فى الحرب سرعان ما أخمدت أصواتهم واتهموا بخور العزيمة وضعف الوطنية ؛ وما وافى عام ٢٠٠ ق . م حتى أبحر ت . كونكتوس فلامينوس T. quintus Flaminus إلى مقدونية .

وكان فلامينوس فتى فى الثلاثين من عمره ، وكان من أفراد تلك الدائرة الحرة المعينة بصبغ البلاد بالصبغة الهلينية ، والتى كانت تتجمع فى رومة حول آل سپيو . والتقى بفليپ عند سينوسفلى Cynoscephalae بعد عدة حركات عسكرية ماهرة ، وهزمه هزيمة منكرة (١٩٧) . ثم أدهش جميع أمم البحر الأبيض المتوسط ، ولعله أدهش رومة نفسها أيضاً ، بأن أعاد فليپ ، بعد أن عاقبه على فعلته ، إلى عرشه المفاس الهزيل ، وعرض على بلاد اليونان كلها أن يعيد إليها حريتها . واحتجت العصبة الاستعمارية من أعضاء مجلس الشيوخ ولكن الأحرار تغلبوا إلى وقت ما ؛ وأعلن رسول من قبل فلامينوس فى عام ١٩٦ إلى حشد كبير اجتمع فى الألعاب التى كانت قائمة فى البرزخ اليونانى أن بلاد اليونان ستحرر من سيطرة رومة ومقدونية ، وستعفى من أداء الجزية ، وأن الحامية الرومانية نفسها ستسحب منها . ويقول أفلوطرخس إن الجمهور المحتشد هتف له هتافاً عالياً بلغ من شدته أن ماتت الغربان التى كانت تطير فوق الملعب وهوت إلى الأرض[٢] . ولما أظهر العالم المتشكك ريبته فى نيات القائد الرومانى ، بدد شكوكه بسحب جيشه إلى إيطاليا ، وكان هذا العمل صفحة ناصعة البياض فى تاريخ الحروب .

ولكن الحرب تستتبع الحرب على الدوام ، فقد استاء الحلف الإيتولى من تحرير المدن اليونانية التى كانت من قبل خاضعة له ، وطلب إلى أنتيوخوس الثالث Antiochus III أن يحرر بلاد اليونان من حريتها . واغتر أنتيوخوس

بما حازه من نصر رخيص فى بعض المعارك التى خاض غمارها فى الشرق ، فسولت له نفسه أن يبسط سلطانه على غرب آسية بأجمعه . وخشيت برجوم عاقبة بغيه فلجأت إلى رومة تستعينها عليه ، وأرسل مجلس الشيوخ سپيو الإفريقى وأخاه لوسيوس Lucius مع أول جيش رومانى تطأ أقدامه أرض آسية . والتحم الجيشان عند مجنيزيا Magnesia (١٨٩) وانتصر الرومان نصراً كان بداية الفتوح التى شملت بلاد الشرق ذى الصبغة اليونانية . وزحفت الجيوش الرومانية نحو الشمال وردوا الغاليين إلى جلاشيا Jalatia (الأناضول) وكانوا من قبل يهددون برجوم وحمد لهم اليونان سكان الجزائر الأيونية حسن صنيعهم هذا .

لكن اليونان فى أوربا لم يعجبهم هذا العمل لقد أضحت الجيوش الرومانية تحيط ببلاد اليونان من الشرق والغرب ، وإن كانت لم تطأ بعد أرضها ، ولقد حررت رومة اليونان من عدوهم ولكنها اشترطت أن يضعوا حداً لحرب الطبقات وللحروب الخارجية . غير أن حياة الحرية بغير حرب كانت حياة جديدة شاقة على دول المدن التى تتكون منها هلاس ، وكانت الطبقات العليا تتوق إلى فرض سلطانها السياسى على المدن المجاورة لبلادها ، كما أن الطبقات الفقيرة أخذت تتهم رومة بأنها أينما حلت تعين الأغنياء على الفقراء . وكانت نتيجة هذه العوامل مجتمعة أن عقد پرسيوس Perseus بن فليپ الخامس وخليفته على عرش مقدونية حلفا مع سلوقس الرابع Seleucus IV ومع أهل جزيرة رودس ، وأهاب باليونان فى عام ١٧١ أن يثوروا معه على رومة ، ولكن لوسيوس إيمليوس پولس ابن القنصل الرومانى الذى قتل فى معركة كانى هزم پرسيوس فى پدنا Pydne بعد ثلاث سنين من ذلك العام ، وخرب سبعين مدينة مقدونية ، وأسر پرسيوس نفسه وسار به مصفداً يزين موكب نصره فى شوارع رومة — وعوقبت رودس بتحرير كل المدن الأسيوية التى كانت تؤدى إليها الخراج ، وبإنشاء ميناء منافس لها فى ديلوس . وقبض على ألف

من اليونان ومنهم المؤرخ پولبيوس Polybius واتخذوا رهائن فى إيطاليا ، وظلوا فى النفى ستة عشر عاماً مات منهم فى خلالها سبعمائة(*) .

وسارت العلاقات بين اليونان والرومان خلال العشرة الأعوام التالية سيرا حثيثا نحو العداوة السافرة : ذلك أن المدن والأحزاب والطبقات المتنافسة فى بلاد اليونان لجأت إلى مجلس الشيوخ فى رومة تطلب إليه العون ، وهيأت لرومة بطلبها هذا سبيلا للتدخل انتهى بأن أضحت بلاد اليونان خاضعة خضوعاً فعلياً إلى رومة وإن ظلت بالاسم حرة مستقلة .

ولم يستطع أشياع سپيو وأسرته فى مجلس الشيوخ أن يصمدوا أمام الواقعيين الذين كانوا يشعرون أن النظام والسلام لا يستتبان فى بلاد اليونان إلا إذا خضعت خضوعا كاملا لحكم الرومان وبينا كان النزاع قائما بين رومة من جهة وقرطاجنة وأسبانيا من جهة أخرى خرجت مدائن الحلف الآخر على رومة وثارت مطالبة بحريتها ، وتزعم الحركة زعماء الطبقات الفقيرة ، فحرروا العبيد وسلحوهم ، وأجلوا الوفاء بالديون ، وأشعلوا مع الحرب نار الثورة فى البـــلاد . ولما دخل الرومان يقودهم موميوس Mummius بلاد اليونان وجدوا أهلها منقسمين على أنفسهم ،

(*) وقد وجه پولوس Paulus ، وهو سائر إلى هذه الحرب ، تحيته المشهورة إلى الهواة الخبيرين فى الفنون الحربية والتى قال فيها : « إن فى المناصب العامة جميعها ، وفى الأحزاب الخاصة : رجالا يعرفون أين يجب أن تحشد الجيوش فى مقدونية ، وأى النقط الحربية ذات المنعة يجب أن تحتلها جيوشنا ... وهم لايكتفون بأن يقرروا ما يجب علينا أن نفعله ، ولكنهم يتجاوزون ذلك إلى السخرية من القنصل إذا ما استقر الرأى على شىء لا يتفق مع آرائهم ، سخرية لا تقل عن اتهامه بالخيانة ... وهذا عمل يعطل سير الحرب إلى غايتها المرجوة تعطيلا خطيرا ... فإذا كان (أحد منكم) يحس بأن فى وسعه أن يسدى إلى النصح السديد فليسر معى إلى مقدونية ... أما إذا ظن أنه لا يطيق هذا السير فعليه ألا يعمل عمل المرشدين فى البحار وهو على ظهر الأرض(٣) » .

وكان من السهل عليهم أن يهزموا الجيوش اليونانية غير المدربة وحرق موميوس كورنثة Corinth وذبح رجالها وباع نساءها وأطفالها بيع الرقيق ، ولم يكن يترك فيها شيئاً من الثروة المنقولة أو الآثار الفنية بل نقلها كلها تقريباً إلى رومة . وأصبحت مقدونية وبلاد اليونان من ذلك الحين ولاية تابعة لرومة يحكمها حاكم رومانى ، وكانت أثينا واسپارطة هما المدينتين الوحيدتين اللتين سمحت لها رومة بأن تحتفظا بشرائعهما . واختفت اليونان من تاريخ العالم السياسى مدى ألفى عام .

الفصل الثانى

تبـدل أحوال رومة

ونمت الإمبراطورية الرومانية نمواً تدريجياً ، ولم يكن معظم هذا النماء نتيجة خطة موصوعة عن قصد وتدبير ، بل كان الدافع إليه ضغط الظروف وتراجع الحدود تراجعاً يتطلبه سلامة البلاد . فقد أخضعت الفيالق الرومانية مرة أخرى بلاد غالة الجنوبية فى معركتى كرمونا Cremona (٢٠٠) وموتينا (١٩٣) ، ودفعت حدود إيطاليا الشمالية حتى أوصلتها إلى جبال الألب ؛ كذلك كان لا بد لرومة أن تحتفظ بسيطرتها على أسپانيا بعد أن استعادتها من قرطاجنة كيلا تعود هذه إلى الاستيلاء عليها ، هذا إلى ما فى تلك البلاد من ثروة معدنية عظيمة تشمل الحديد والفضة والذهب . وقد فرض عليها مجلس الشيوخ جزية سنوية باهظة من المعادن الغفل والنقود ، وكان حكامها الرومان يعوضون أنفسهم تعويضاً سخياً عن السنة التى يقضونها فيها بعيدين عن موطنهم . وحسبنا أن نذكر دليلا على هـذا أن كونتس منوسيوس Quintus Minucius ، لما عاد إلى رومة بعد فترة قصيرة قضاها قنصلا فى أسپانيا ، جاء إليها بأربعة وثلاثين ألفاً وثمانمائة رطل وخمسة وثلاثين ألف دينار من الفضة ؛ وكان الأسپان يجندون فى الجيش الرومانى فكان منهم أربعون ألفاً فى القوة التى استولى بها سپيو إيميليانوس Scipio Aemilianus على نومانتيا Numantia الأسپانية . ولما ثارت على الحكم الرومانى ثورة عنيفة فى عام ١٩٥ ق . م أخضعها ماركس كاتو Marcus Cato ولكنه جرى فى إخضاعها على سنة الرومان الأفاضل الذين كان جيلهم آخذاً فى الانقراض ، فكان عادلا رحيما . ووفق تيبيريوس سمپرونيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus (١٧٩) توفيقاً مشوبا بالعطف والرأفة بين

حكمه وبين أخلاق الأهلين وحضارتهم ، واتخذ له أصدقاء من زعماء القبائل ، ووزع الأراضي على الفقراء . ولكن واحداً من خلفائه يدعى لوسيوس لوكاس Lucius Lucullus (١٥١) أخل بشروط المعاهدات التي عقدها جراكس وهاجم من غير سبب كل قبيلة يستطيع أن يجد عندها مالا يغتصبه منها ، وقتل أو استعبد آلافاً من الأسبان دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن حجة يبرر بها هذا الاعتداء . واتبع هذه السنة نفسها سلپسيوس جلبا Sulpicius Galba (١٥٠) فاستقدم إلى معسكره سبعة آلاف من الأهلين بعد أن عقد معهم معاهدة يعدهم فيها بأنه سيوزع عليهم بعض الأراضي ؛ فلما جاءوا أمر أعوانه بأن يحيطوا بهم ثم ذبحهم أو استرقهم . وفي عام ١٥٤ شنت قبائل لوزتانيا Lusitania (البرتغال) على رومة حرباً دامت سبع سنين . وظهر بين هذه القبائل زعيم قدير يدعى ڤرياثوس Viriathus قوى البنية ، فارع الطول ، شجاعاً ، صبوراً ، شهماً ، نبيلا . وظل ثماني سنين يكيل الضربات إلى كل جيش روماني يرسل لقتاله ويوقع به الهزيمة حتى ابتاع الرومان آخر الأمر من يقتله غيلة . وصبر الكلتبريان Celtibrians الثائرون أهل أسبانيا الوسطى على الحصار في نومانتيا خمسة عشر شهراً ، لا يتناولون من الطعام إلا جثث موتاهم ، حتى أرغمهم سپيو إيمليانوس في عام ١٣٣ على التسليم . ويمكن القول بوجه عام إن السياسة التي سارت عليها الجمهورية الرومانية في أسبانيا قد بلغت من الوحشية والغدر حداً جعل ضررها برومة أكثر من فائدتها لها . وفي هذا يقول ممسن Mommsen المؤرخ الألماني « إن التاريخ كله لم يشهد حرباً تضارع هذه الحرب الأسپانية فيما انطوت عليه من ضروب الغدر والقسوة والجشع[4] » .

وكانت الثروة المنتهبة من الولايات هي التي أمدت رومة بالمال الذي تتطلبه حياة التهتك والفساد والأنانية التي أشعلت نار الثورة في البلاد ، وقضت آخر الأمر على الجمهورية ؛ ذلك أن الغرامات الحربية التي فرضتها رومة على قرطاجنة

وسوريا ، والعبيد الذين سيقوا إليها من جميع ميادين النصر ، والمعادن الثمينة التي استولت عليها بعد فتح بلاد الغالة الجنوبية وأسبانيا ، والأربعمائة ألف ألف سسترس (وهي تساوى ستين مليون ريال أمريكي) التي انتزعها من أنتيوخوس ، وپرسيوس ، وال ٤٥٠٣ رطل من الذهب ، وال ٢٢٠٫٠٠٠ رطل من الفضة التي اغتصبها مانليوس ڤلسو Manlius Vulso في حروبه الأسيوية ، هذه كلها وغيرها من أسباب الثراء الفجائي الذي ساقته إليها المقادير بدلت طبقات الملاك في رومة في مدى نصف قرن من الزمان (٢٠٢ — ١٤٦ ق . م) من رجال ذوى موارد وسطى مكتسبة إلى أشخاص مترفين يستمتعون بثراء ونعيم لم يعرفها قبلهم إلا الملوك . وكان الجند يعودون من هذه الغارات يجر الحقائب بالمال والأسلاب ، ولما أخذت النقود يتضاعفت مقدارها في رومة أسرع من المباني فإن أصحاب الأملاك العقارية تضاعفت ثروتهم ثلاثة أضعاف دون أن يحركوا في سبيل ذلك عضلة أو عصباً . واضمحلت الصناعة وراجت التجارة ، ولم تكن رومة في حاجة إلى إنتاج السلع ، فقد كانت تأخذ أموال العالم لتؤدى منها أثمان بضائعه . وازدادت الأعمال العامة زيادة لا عهد للرومان بها ، وأثرى منها المكاسون الذين كانوا يعيشون من العقود التي تبرمها الحكومة ، وزاد عدد أصحاب المصارف المالية وأثروا . وكانوا يصرفون فوائد عن الودائع ، ويقبضون التحاويل المالية (praescriptions) ، ويخصمون السفاتج لعملائهم ، ويقرضون المال ويقترضونه ، ويستثمرون ما يتجمع لديهم من الأموال أو يديرون المشروعات المالية ، وأثروا من الربا الفاحش الذي كانوا ينتزعونه بلا رحمة حتى أصبح القاتل (sector) والمرابي يعبر عنها بلفظ واحد[7] . وهكذا أخذت رومة تخطو خطوات واسعة في أن تكون المركز المالي والسياسي — لا المركز الصناعي والتجاري — للعالم الذي يسكنه الجنس الأبيض .

وبهذه الوسائل وأمثالها انتقل الأشراف ومن يلونهم من رجال الطبقة

الوسطى بخطى واسعة من البساطة الرواقية إلى التنعم والترف الطليق ، وبلغ هذا التبدل أقصى مداه أو كاد فى أيام كاتو (٢٣٤ — ١٤٩) ؛ فاتسعت البيوت ، وتناقصت الأسر ، وتسابق الناس فى تأسيس دورهم بأفخم الأثاث وأغلاه ثمناً ، فأخذوا يشترون الطنافس البابلية بأغلى الأثمان ، ويبتاعون الأسرة المطعمة بالعاج أو الفضة أو الذهب ؛ وكانت الأحجار والمعادن الثمينة تتلألأ على النضد والكراسى وأجسام النساء ، وسروج الخيل . ولمـا قل المجهود الجسمى وزاد الثراء استبدل الناس بغذائهم القديم البسيط وجبات ثقيلة طويلة من لحوم الحيوان والطير وغيرهما من ألوان الطعام الشهى والتوابل والمشهيات ، وأصبحت الأطعمة النادرة المستوردة من خارج البلاد لا تخلو منها موائد ذوى المكانة فى المجتمع ومن يدعون أن لهم فيه مكانة . وحسبنا شاهداً على هذا الإسراف أن أحد كبار الموظفين قد ابتاع حيوانات بحرية فى وجبة واحدة بألف سسترس ، واستورد آخر « أنشوجة » بألف وستمائة سسترس للبرميل ، وابتاع ثالث كمية من البطارخ بألف ومائتى سسترس ، وكان الطاهى الماهر يباع بأغلى الأثمان فى سوق النخاسة . كذلك كان شأن الشراب ، فقد انتشر وزادت مقاديره وكان لا بد أن تكون الكؤوس كبيرة ومصنوعة من الذهب قدر المستطاع ، وقل مقدار ما يمزج به الخمر من ماء ، بل إنه كان يشرب أحياناً بلا ماء على الإطلاق . وسن مجلس الشيوخ قوانين صارمة تحدد مقدار ما ينفق من الأموال على المآدب والملابس ، ولكن الشيوخ أنفسهم كانوا يتجاهلون هذه القوانين ولذلك لم يأبه بها غيرهم من الأهلين . وفى ذلك يقول كاتو فى ألم وحسرة : « إن المواطنين لم يعودوا يستمعون النصح لأن البطون لا آذان لها[٩] » وأخذ الناس يشعرون بأنهم أفراد لا شأن للدولة بهم ، وثاروا عليها وعلى تدخلها فى شئونهم ، كما ثار الابن على أبيه ، وكما ثارت المرأة على الرجل .

وقد جرت العادة من قديم الزمان أن يقوى سلطان المرأة كلما زادت ثروة

المجتمع ؛ ذلك أنه إذا امتلأت البطون أخلى الجوع الميدان للحب ، ولذلك فشت الدعارة فى رومة وانتشر اللواط حين اتصل الرومان ببلاد اليونان وبلاد آسية ، فكان كثير من الأغنياء يدفع الواحد منهم تالنتا (٣٦٠٠ ريال أمريكى) ثمناً للغلام الوسيم ، وشكا كاتو من أن ثمن الولد الجميل يزيد على ثمن مزرعة[١٠] . على أن النساء لم يخلين الميدان لهؤلاء الغزاة اليونان والسوزيين ، فأخذن يتجملن بكل وسائل التجميل التى هيأتها لهن الثروة الجديدة ، وأصبحت الأدهان ضرورة لا غنى لهن عنها ، وشرعن يستوردن من غالة أنواعاً من الصابون تخفى لون شعرهن الأشيب وتحيله أحمر[١١] . وكان الثرى من أهل الطبقة الوسطى يتباهى بأن يزين زوجه وبناته بالملابس والجواهر الغالية ويطلقهن فى المدينة يعلن عن ثروته ، وزاد شأن النساء فى دور الحكم نفسها ، وفى ذلك يقول كاتو : « إن الرجال فى جميع أنحاء العالم يحكمون النساء ، أما نحن الرومان الذين نحكم جميع الرجال فإن نساءنا يحكمننا[١٢] » . وحدث فى عام ١٩٥ ق . م أن خرجت نساء رومة الحرائر إلى السوق العامة ونادين بإلغاء قانون أپيوس Appius الصادر فى عام ٢١٥ والذى يحرم على النساء التحلى بالذهب والملابس الكثيرة الألوان وركوب العربات . وأنذر كاتو الرومان بأن رومة سيحل بها الخراب إذا ألغى هذا القانون ، وينطقه ليفى بهذه الخطبة التى قرأها كل جيل من الأجيال من ذلك الوقت إلى هذه الأيام :

« لو أننا كلنا قد استمسكنا فى بيوتنا بحقوق الأزواج وسلطانهم ، لما تورطنا الآن فى هذه المشاكل مع نسائنا . أما ونحن لم نستمسك بهذه الحقوق وهذا السلطان فإن نفوذنا الذى قضى عليه استبداد النساء فى البيت قد وطئته الأقدام وقضى عليه هنا فى السوق ... ألا فلتذكروا جميع النظم والقوانين الخاصة بالنساء ، والتى حاول بها آباؤنا أن يقللوا من فجورهن ويجعلوا منهن زوجات طائعات لأزواجهن ؛ ومع ذلك فإنكم رغم هذه القيود لاتستطيعون أن تكبحوا جماحهن .

فما بالكم إذا ما تساوين بأزواجهن ؟ هل تظنون أنكم فى هذه الحال ستطيقونهن ؟ إن الساعة التى يصبحن فيها مساويات لكم ستكون هى الساعة التى يصرن فيها ذوات الأمر والنهى عليكم »[١٣] . وسخر منه النساء وألزمنه الصمت وأصررن على طلبهن حتى ألغى القانون . وانتقم كاتو لنفسه وهو رقيب بأن زاد الضرائب المفروضة على السلع التى يحرمها قانون أبيوس إلى عشرة أضعاف ما كانت عليه . ولكن التيار كان جارفاً ، ولم يكن فى وسع أحد أن يصده ، فألغيت القوانين الأخرى التى كانت تحد من حرية النساء أو عدلت أو أغفلت ؛ فأصبح للنساء الحق المطلق فى الإشراف على استثمار بائناتهن ، وصرن يطلقن أزواجهن أو يجرعنهم السم فى بعض الأحيان ، وبدا لهن أن ليس من سداد الرأى أن يلدن الأبناء فى عصر ازدحمت فيه المدن بالسكان وكثرت فيه حروب الفتح والاستعمار .

وكان كاتو وپولبيوس قد أدركا فى عام ١٦٠ ق . م أن السكان يتناقصون ، وأن الدولة عاجزة عن أن تجند من الجيوش ما استطاعت أن تجنده لقتال هنيبال ؛ وورث الجيل سيادة العالم ، ولكنه لم يجد لديه من من الوقت أو الرغبة ما يستطيع بهما أن يدافع عنه ؛ ذلك أن الاستعداد لتلبية نداء الحرب كلما دعا لها الداعى ، وهو الاستعداد الذى كان من خصائص الملك الرومانى ، لم يعد له وجود ، بعد أن تركزت الملكية فى أيدى أسر قلائل ، وغصت أقذر أحياء رومة بالصعاليك الذين لا مصلحة لهم فى البلاد يخافون عليها أو يدافعون عنها وأصبح الناس شجعاناً بالنيابة إن صح هذا التعبير . فقد كانوا يهرعون إلى المدرجات ليشاهدوا الألعاب التى تجرى فيها الدماء ، وكانوا يستأجرون المجالدين ليصطرعوا أمامهم فى ولائمهم . وأنشئت مدارس للبنين والبنات يتعلم فيها كلا الشبان والشابات الغناء والموسيقى والمشى الرشيق[١٤] . ورقت طباع الطبقات العليا بعد أن فسدت أخلاقها ؛ أما الطبقات الدنيا فقد ظلت طباعها غليظة خشنة قوية ، وكانت وسائل لهوها فى الغالب عنيفة ولغتها بذيئة . وإنا لنشم رائحة هذه البذاءة فى پلوتس **Plautus**

وندرك السبب فى أن الجماهير كانت لا تطيق مشاهدة مسرحيات ترنس Terence ، ولما أن حاولت فرقة من الموسيقيين أن تعزف فى أحد مواكب النصر فى عام ١٦٧ أرغم النظارة أولئك الموسقيين على أن يستبدلوا بعزفهم مباراة فى الملاكمة(١٥) .

وسيطرت النزعة التجارية على الطبقات الوسطى المطردة الزيادة ، ولم يعد أساس ثرائها هو العقار كما كان من قبل ، بل أصبح هذا الأساس هو الاستثمار التجارى أو إدارة الأعمال التجارية . ولم يكن فى وسع القانون الأخلاقى القديم أو فى وسع حفنة من الرجال من طراز كاتو أن يحولوا بين هذا العهد الجديد عهد رؤوس الأموال المتحركة أن يصبغ الحياة الرومانية كلها بصبغته . فكان كل إنسان يسعى جاهداً للحصول على المال ، وكان كل إنسان يقدَّر ويقدِّر غيره بما عنده من المال ، وكان المتعاقدون على الأعمال يغشون ويخدعون ، وبلغ من غشهم وخداعهم أن تخلت الحكومة عن كثير من أملاكها — كمناجم مقدونية — لأن المتعاقدين معها على استغلالها كانوا يسخرون العمال ويبتزون أموال الدولة ابتزازاً أصبحت معه المشروعات مصدر بلاء للدولة لا مورد ربح لها(١٦) . وتخلق الأشراف بالخلق الجديد ، وشاركوا غيرهم فى الثروة الجديدة — إذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين ، ومن واجبنا ألا نصدقهم — بعد أن كانوا من قبل يرون أن الشرف أعلى قدراً من الحياة . وأصبحوا لا يفكرون فى الأمة ، بل يفكرون فى امتيازاتهم ومطالبهم الطائفية والفردية ، وصاروا يقبلون الهدايا والرشا الكبيرة لكى يمنحوا عطفهم على الأفراد والدول ، وما أسهل ما كانوا يجدون سبباً لشن الحرب على البلاد التى فيها من الثروة أكثر مما فيها من القوة . وكان الأشراف يعترضون العامة فى الطرقات ويستجدونهم أصواتهم أو يبتاعونها منهم ؛ وأصبح من الأمور المألوفة أن يختلس الحكام الأموال العامة كما أصبح من غير المألوف أن يحاكم هؤلاء على ما يختلسون

منها . ومنذا الذى يعاقب اللصوص من زملائه إذا كان نصف أعضاء مجلس الشيوخ قد ائتمروا على خرق المعاهدات ، وسرقة الأحلاف ، وانتهاب الولايات ؟ وفى ذلك يقول كاتو : « من يسرق مال مواطن يقضى بقية أيامه مكبلا بالسلاسل والأغلال ؛ ولكن من يسرق مال المجتمع يقضى بقية أيامه رافلا فى أفخر الثياب ومتحلياً بالذهب الوهاج »[١٧] .

ومع هذا فإن منزلة مجلس الشيوخ قد علت عما كانت عليه من قبل ، ذلك بأن رومة بقيادته قد خرجت ظافرة من الحربين البونيتين ومن الحرب المقدونية الثلاث ، وتحدت كل منافسيها ، وتغلبت عليهم ، وكسبت صداقة مصر ، وبسطت عليها نفوذها ، واستولت على جزء كبير من ثروة العالم أمكنها به أن ترفع عن إيطاليا كلها فى عام ١٤٦ عبء الضرائب المباشرة . وقد اغتصب مجلس الشيوخ فى خلال أزمات الحرب والسياسة كثيراً من اختصاصات الجمعيات والحكام ، ولكن النصر الذى نالته رومة قد برر هذا الاغتصاب ؛ وفوق هذا فإن تحول البلاد إلى إمبراطورية متسعة الرقعة قد جعل الجمعية أداة سمجة غير صالحة للحكم ؛ ذلك أن الشعوب الثائرة التى خضعت وقتئذ لحكم مجلس شيوخ كثرة أعضائه من الساسة المحنكين والقواد الظافرين ، لم يكونوا يقبلون أن يتصرف فى شئونهم بضعة آلاف من الإيطاليين الذين يستطيعون حضور الجمعيات الوطنية فى رومة . إن الحرية لمساس الدمقراطية ، والنظام أساس الحرب ، وكلاهما لا وجود له مع الآخر. ذلك أن الحرب تتطلب قدراً عظيما من الذكاء والشجاعة ، والحزم والسرعة فى اتخاذ القرارات ، والعمل الجماعى المتحد ، والطاعة العاجلة لأوامر الرؤساء ؛ ومن أجل هذا قضت كثرة الحروب على الدمقراطية . وكان القانون ينص على أن من حق الجمعية المئوية وحدها أن تعلن الحرب وتعقد الصلح ؛ ولكن مجلس الشيوخ كان يستطيع بما له من حق الهيمنة على صلات الدولة الخارجية أن يدفع الأمور إلى حيث لا تجد الجمعية مناصاً من الخضوع لرأيه[١٨] . وكان مجلس الشيوخ هو المشرف على خزانة الدولة ، كما كان هو المسيطر على

الشئون القضائية ، وذلك بحكم القاعدة المتبعة من قديم الزمن وهى أن جميع المناصب القضائية الهامة كان يختار شاغلوها من أعضاء المجلس أو المرشحين لعضويته ، يضاف إلى هذا كله أن وضع القوانين وشرحها كانا من اختصاص طبقة الأشراف .

وكان فى داخل هذه الأرستقراطية ألجركية محصورة فى الأسر ذات السلطان ، ذلك أن التاريخ الرومانى قد ظل إلى عهد صلا **Sulla** سجلا لأعمال الأسر لا أعمال الأفراد ؛ فلسنا نرى فيه أسماء ساسة عظماء بارزين ولكنا نرى جيلا فى إثر جيل أسماء بعينها تشغل أعلى مناصب الدولة ؛ ترى من بين مائتى قنصل شغلوا هذا المنصب الخطير بين عامى ٢٣٣ ، ١٣٣ ق . م مائة وتسعة وخمسين ينتمون إلى ست وعشرين أسرة ، ومائة ينتمون إلى عشرة أسر . وكانت أقوى أسرة فى ذلك العهد هى آل كورنيليوس **Cornelius** . وليس تاريخ رومة الحربى والسياسى من أيام پبليوس كورنيليوس سبيو **Publius Cornelius Scipio** الذى خسر معركة تريبيا **Trebia** فى عام ٢١٨ أيام ولده سبيو الإفريقى قاهر هنيبال وأيام حفيد ثانيهما وتبناه سبيو إيمليانوس الذى دمر قرطاجنة فى عام ١٤٦ ، نقول ليس تاريخ رومة الحربى والسياسى طوال ذلك العهد فى جملته إلا تاريخ هذه الأسرة ، ولقد بدأت الثورة التى قضت على طبقة الأشراف على يد ابنى جراكس وهما حفيدا إيمليانوس . ولقد أصبح سبيو الإفريقى بعد انتصاره فى واقعة زاما التى أنجت رومة من الدمار محبباً لجميع الطبقات ، وظلت رومة فترة من الزمان على استعداد لأن تمنحه أى منصب يرغب فيه ،

فلما أن عاد هو وأخوه لوسيوس **Lucius** من ميدان القتال فى آسية (١٨٧) طلب أشياع كاتو أن يعرض على المجلس حساب الغرامة الحربية التى أداها إليه أنتيوخوس ليبعث بها إلى رومة ، وأبى سبيو الإفريقى أن يجيب أخوه هذا الطلب ، ومزق سجلات الحساب أمام مجلس الشيوخ ، وحوكم

لوسيوس أمام الجمعية وحكم عليه بأنه اغتصب الأموال العامة ، ولم ينجه من العقاب إلا رفض التربيون تيبيريوس سمپرونيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus زوج ابنة سبيو الإفريقي أن يجيز هذا العقاب بما له من حق الرفض . واستدعى سبيو الإفريقي إلى المحاكمة فما كان منه إلا أن عطل الإجراءات القضائية بأن دعا الجمعية وسار أمام أعضائها إلى هيكل چوپتر للاحتفال بذكرى معركة زاما . ولما دعى مرة ثانية أبى أن يجيب الدعوة وسافر إلى ضيعته في ليترنوم Liternum وبقي فيها بقية أيامه لا يجرؤ أحد على أن يمسه بسوء : وكان يقابل هذه النزعة الفردية في السياسة نمو الفردية في التجارة وفي الأخلاق . وما لبثت الجمهورية الرومانية أن قضى عليها نشاط عظماء رجالها وجهودهم الطليقـــة من جميع القيود

وقد رفع من شأن الأرستقراطية ومن شأن هذا العهد كله ، ما سرى في نفوس تلك الطبقة من تقدير للجمال . ذلك أن اتصال الرومان بالثقافة اليونانية في إيطاليا وصقلية وآسية قد جعلهم على علم بكل مستلزمات الحياة المترفة ، وبكل ثمار الفنون الجميلة في العالم القديم . ولما عاد الفاتحون إلى بلادهم جاءوا معهم بكثير مما اشتهر في أنحاء العالم من روائع الصور الملونة ، والتماثيل ، والكؤوس ، والمرايا ، والمعادن المنقوشة ، والمنسوجات الغالية ، والأثاث الثمين . وقد ارتاع الجيل القديم حين رأى مرسلس Marcellus يزين الميادين الرومانية بالتماثيل التي اغتصبها من سرقوسة . ولم يكن ما يشكو منه أهل ذلك الجيل اغتصاب قائدهم لهذه التماثيل ، بل كانوا يشكون « البطالة ولغو الحديث » اللذين أصبحا عادة لازمة للمواطنين المجدين الذين يقفون الآن « ليفحصوا عن السفاسف وينتقدوها[١٩] » . واغتصب فلڤيوس Fulvius ١٠١٥ تمثالا من مجموعة تماثيل پرس pyrrhus في أمبراشيا Ambracia . وشحن إيمليوس پولس خمسين غربة في موكب نصره بالكنوز الفنية التي استولى عليها من بلاد اليونان ضمن ما استولى عليه منها نظير تحريرها . وفعل هذا الفعل نفسه صلا Sulla ، وڤريس Verres ، ونيرون Nero ومئات

غيرهم من الرومان خلال مائتى عام من تاريخ البلاد جردوا منها بلاد اليونان من روائع فنها ليكتسى بها العقل الرومانى .

وطغى هذا الغزو على الفن الإيطالى فنبذ صفاته الأصلية ، وطرازه الوطنى واستسلم بأجمعه — إلا فى شىء واحد — إلى الفنانين اليونان وإلى الموضوعات والأشكال اليونانية . وأقبل المثالون ، والمصورون ، والمهندسون اليونان إلى رومة حيث كان الذهب يتدفق فى جيوبهم ، وما لبسوا أن صبغوا عاصمة فاتحى بلادهم بالصبغة اليونانية . وشرع سراة الرومان يشيدون قصورهم على الطراز الرومانى حول فناء غير مسقوف ، ويزينونها بالعمد ، والتماثيل ، والصور اليونانية ، وبالأثاث اليونانى . أما الهياكل فقد تحولت على مهل حتى لا تغضب الآلهة من هذا التحول وبقى جسم الهيكل القصير والقاعدة المرتفعة للتماثيل — وهما من مميزات الفن التسكانى — القاعدة المتبعة فى بناء الهياكل ونحت التماثيل . فلما أن زاد عدد الآلهة الأولمبية ، رأى الرومان أن من حق تلك الآلهة أن تبنى بيوتها على الطراز الهلينى الرفيع . غير أن الفن الرومانى قد ظل فى ناحية واحدة جوهرية يعبر بوسائله الخاصة وبقوته الفذة عن الروح الإيطالية الفنية ، وإن ظل يسترشد بالفن اليونانى . أما فيما عدا هذا فقد استبدل المهندسون الرومان القوس بالعارضة الراكزة على الأعمدة فى الأبنية التى خلدوا بها نصرهم أو زينوا بها دورهم ، وفى القنوات التى تجر الماء لدورهم وفى أبنية محاكمهم . وعلى هذا النحو شاد كاتو من الحجارة فى عام ١٨٤ الدار المعروفة باسم باسلكا پورشيا **Bacilica portia** ، وبعد خمس سنين من ذلك العام شاد إيمليوس پولس باسلكا إيمليا **Bacilica Aemilia** فى صورتها الأولى التى أصلحها فيما بعد أبناؤه وأحفاده جيلا بعد جيل ، وجملوها أحسن تجميل(*) . وكانت الباسلكا الرومانية النموذجية

(*) وكانت الباسلكا تطبيقاً من جانب اليونان للعقود على هندسة القصور الفارسية والأبهاء المصرية ذات السقف المرتكزة على العمد . وكانت ديلوس وسرقوسة قد أقامتا مثل هذه المبانى فى القرن الثالث قبل الميلاد .

داراً تقام لتصريف الأعمال التجارية والقضائية ، وتتألف من بناء فى شكل مستطيل طويل يقسمها إلى ممشى وأفنية صفان من الأعمدة الداخلية ، يعلوها فى العادة سقف فى صورة قبة مصندقة ، وهو طراز أخذ فى الأصل من الإسكندرية(٢٠) . وإذ كان الممشى مرتفعاً عن الأفنية فقد كان من المستطاع حفر شبكة من الفتحات فى الحجارة فوق كل فناء يدخل منها الضوء والهواء ، ذلك بطبيعة الحال هو الشكل الأساسى للجزء الداخلى من الكنائس الكبرى فى العصور الوسطى ، وبهذه الصروح الضخمة شرعت رومة تتخذ لنفسها مظهر القوة والفخامة الذى امتازت به فى مستقبل أيامها حتى بعد أن لم تكن عاصمة العالم كله .

الفصل الثالث

الآلهة الجدد

ترى ماذا كان شأن الآلهة القديمة في ذلك العهد ، عهد التحول السريع الذى لا يبتى ولا يذر ؟ يلوح أن شيئاً من الكفر بهذه الآلهة قد سرى من الأشراف إلى عامة الشعب ، وإلا فكيف يرضى شعب لا يزال يؤمن بالآلهة القديمة عن هذه المسرحيات الهزلية التى يسخر فيها پلوتس plautus – مهما كانت حجته فى أنه إنما يحاكى النماذج اليونانية – من أعمال چوپتر مع ألكمينا Alcmena ، ويجعل من عطارد مهرجا ضحكة ، ثم هو لا يرضى عن هذا فحسب بل يحيى هذه المشاهد بالصخب والضجيج . إن كاتو نفسه وهو الحريص على العادات القديمة ، كان يعجب من قدرة اثنين من العرافين إذا التقيا على ألا يسخر كلاهما من الآخر[٢١] . لقد طالما خضع هؤلاء العرافون لأساليب الختل السياسية ، وكثيراً ما كان الفأل والطيرة ينطق بهما لتكييف الرأى العام كما يهوى الزعماء ، وكثيراً ما كانت أصوات الشعب فى الاقتراع على أمر من الأمور تكفيها وسائل التهريج والشعوذة الدينية . ولطالما رضى الدين بأن يُحوّل استغلال الشعب إلى واجب مقدس تتطلبه الآلهة .

ولقد كان من الدلالات السيئة أن يكتب پولبيوس حوالى عام ١٥٠ ق . م ، بعد أن عاش سبعة عشر عاماً فى أرقى المجتمعات فى رومة ، ما يستدل منه على أن الدين الرومانى لم يكن إلا أداة طيعة من أدوات الحكم :

« إنى أرى أن الميزة التى تمتاز بها الجمهورية الرومانية ، والتى ترفع من قدرها فوق سائر بلاد العالم ، إنما هى طبيعة دينها ، ذلك أن ما يعد عند الأمم الأخرى عيباً من العيوب وسبة فى الأعقاب – وهو الخرافات – هو نفسه

العامل الأكبر فى تماسك الدولة الرومانية . فهذه الشئون تكتسى بثوب من الأبهة والفخامة ، وتسرى فى الحياة الخاصة والعامة سرياناً لا يضارعها فيه غيره من الأديان . . . ويقينى أن الحكومة قد نهجت هذا النهج لخير الشعب . ولو أنه كان مستطاعاً إقامة دولة كل رجالها من الحكماء ، لما كان هذا النهج واجباً محتوماً . ولكن الجماهير كلها بلا استثناء متقلبة الأهواء لا تثبت على حال ، تملأ قلوبها الرغبات الطليقة التى لا تتقيد بقانون ، والشهوات التى لا تخضع لحكم العقل ، والانفعالات العنيفة ؛ ومن أجل هذا كان لا بد من وجود أسباب للإرهاب لا تراها العين ، ومواكب ومظاهر دينية فخمة تمسك هذه الجماهير بعضها ببعض » .

ولعله كان فى وسع پولبيوس أن يؤيد قوله هذا بحوادث فى أيامه تثبت أن الخرافات لا تزال هى المسيطرة على عقول الرومان ، على الرغم من پلوتس وعلى الرغم من الفلسفة . من ذلك أنه لما حلت بالرومان كارثة كانى Cannae ، ولاح أن رومة لن يعصمها عاصم من هنيبال ، استولى الرعب على الشعب الرومانى المهتاج ونادى : « أى إله نرتجيه لينجى رومة من البلاء الذى هى فيه ؟ »

وحاول مجلس الشيوخ أن يسكن هذا الذعر بالتضحية البشرية ، ثم بالصلاة إلى الآلهة اليونانية ، ثم باستخدام الطقوس اليونانية فى عبادة الآلهة كلها الرومانية منها واليونانية على السواء . ثم قرر المجلس فى آخر الأمر أنه إذا كان قد عجز عن القضاء على الخرافات فإنه سينظمها ويسيطر عليها . من ذلك أنه أعلن فى عام ٢٠٥ أن الكتب السبيلية Sibylline تنبئ بأن هنيبال سيغادر إيطاليا إذا جئ بالأم الكبرى Magna Mater — وهى صورة من الإلهة سيبيل Cybele — من پسينس pessinus فى فريجيا Phygi إلى رومة . ووافق على ذلك أتالس Attalus ملك برجموم ونقل الحجر الأسود الذى كان فى اعتقادهم جسد الأم الكبرى إلى أستيا حيث استقبله سپيو الإفريقى وطائفة من فضليات

السيدات بمظاهر التكريم . ولما أن ارتطمت السفينة التى كانت تحمله بطين نهر التيبر رفعتها العذراء كلوديا القستية ، وجرتها فى النهر صعداً إلى رومة بما للعفة من قوة سحرية ، ثم أمسكت السيـــدات جميعهن كل واحدة بعد الأخرى بالحجر فى يدها وحملته فى موكب رهيب إلى هيكل النصر ، وأخذ الأهلون الأتقياء يحرقون البخور أمام بيوتهم أثناء مرور الأم الكبرى . وارتاع مجلس الشيوخ حين وجد أن المعبود الجديد لا بد أن يقوم على خدمته كهنة يخصُون أنفسهم . وكان من المستطاع العثور على رجال يقبلون هذا ، ولكن الرومان لم يكن يسمح لهم بأن يكونوا من بينهم . وشرعت رومة من ذلك الوقت تحتفل فى شهر إبريل من كل عام بعيد الآلهة الكبرى Magalesia ، واتخذ الاحتفال فى بادئ الأمر صورة الحزن العنيف ، ثم انقلب بعدئذ إلى المرح العنيف . ذلك أن سيبيل كانت إلهة نباتية ، وتروى الأساطير أن ابنها أتيس Attis رمز الخريف والربيع مات وانتقل إلى الجحيم Hades ، ثم عاد إلى الحياة من بين الأموات ٥

وغادر هنيبال إيطاليا فى عام ٢٠٥ ، وهنأ مجلس الشيوخ نفسه على الطريقة التى اتبعها فى علاج الأزمة الدينية ، ولكن الحروب التى دارت مع مقدونية قد فتحت لرومة أبواب اليونان والشرق . وقد جاء أثر الجنود الذين عادوا بأســلاب الشرق وأفكاره وأساطيره أفواج من الأسرى اليونان والأسيويين ، ومن الرقيق واللاجئين ، والتجار والسياح ، والرياضيين والفنانين والممثلين والموسيقيين ، والمدرسين والمحاضرين ، والناس إذا هاجروا جاءوا معهم بآلهتهم . واغتبطت الطبقات الدنيا فى رومة بما عرفته من ديونيسس باخوس Dionysus Bacchus ؛ وأرفيوس Orpheus ويريديس Eurydice ، والطقوس الغامضة الخفية وهى فى اعتقادهم مصدر الإيحاء الإلهى ، والخمر القدسى ، والاتصال الروحى ، الذى يكشف عن الآلهة التى تبعث حيَّة وتَعِد عبادها الخلود . وارتاع مجلس الشيوخ فى عام ١٨٦ حين علم أن من الشعب أقلية كبيرة قد اعتنقت الطقوس الديونيسية ،

وأن الإله الجديد تقام له حفلات تدار فيها كؤوس الخمر على المحتفلين . وإذ كانت هذه الحفلات تقام سراً وفى الليل فقد راجت الإشاعات القائلة بأنها كانت حفلات حمراء يصحبها الخمر والفجور الطليق ، وقد وصفها ليفى بقوله : « إن الفسق بالرجال كان أكثر من الفسق بالنساء » ؛ ثم يقول بعد هذا — ولعله فى ذلك ينزل لغو القول منزلة التاريخ المحقق : « ومن لم يكن يرضى بالدنس . . . كان يضحى به قرباناً للإله »[٣] . وحرم مجلس الشيوخ هذه الطقوس الدينية ؛ وقبض على سبعة آلاف من القائمين بها ، وقضى بإعدام مئات منهم . وكان هذا نصراً مؤقتاً فى الحرب العوان التى خاضت رومة غمارها لصد تيار الأديان الشرقية(*) .

(*) يريد أديان اليونان .

الفصل الرابع

بداية عصر الفلسفة

كانت الطريقة التى غزت بها بلاد اليونان رومة أن بعثت إلى عامتها بالدين اليونانى والمسرحيات الهزلية اليونانية ،وإلى الطبقات العليا من أبنائها بالأخلاق وبالفلسفة اليونانية . وائتمرت هذه الهدايا اليونانية مع الثروة الرومانية ومع الإمبراطورية الرومانيـــة على تقويض دعائم دين رومة وأخلاقها ، وكان هذا إحدى السبل التى اتبعتها هلاس فى انتقامها الطويل المدى من غزاتها . وبلغ هذا الغزو غايته فى الفلسفة اليونانية من أبيقورية لكريشيوس الرواقية إلى رواقية نسنكا الأبيقورية . وفى الدين المسيحى غلبت فلسفة ما وراء الطبيعة اليونانية الآلهة الإيطالية ، ولمـــا نشأت القسطنطينية كانت الغلبة فيها للثقافة اليونانية ، فنافست فى بادئ الأمر الثقافة الرومانية ، ثم حلت فى آخر الأمر محلها ؛ ولما أن سقطت القسطنطينية عادت الآداب والفلسفة والفنون اليونانية فغزت إيطاليا وأوربا كلها فى عصر النهضة . ذلك هو المجرى الرئيس فى تاريخ الحضارة الأوربية ، أما ما عداه فتيارات فرعية وروافد جانبية . وفى ذلك يقول شيشرون : لم يكن منشأ الفيض الذى أقبل من بلاد اليونان إلى مدينتنا مجرى صغيراً بل كان منشؤه نهراً خضما من الثقافة والعلم »[24] ، أصبحت حياة رومة الذهنية والفنية والدينية من بعده جزءاً من العالم المصطبغ بالصبغة الهلينية(*) .

ووجد الغزاة اليونان فى مدارس رومة وقاعات المحاضرات فيها ثغرة طيبة ينفذون منها إلى رومة ، وموقعاً صالحا يثبتون فيه أقدامهم . فجاء فى أعقاب

(*) من أقوال هوراس ذلك القول الذى ملت الأذن سماعه « أسرت بلاد اليونان المغلوبة غالبها الهمجى [24] »

الجيوش الرومانية التي عادت من بلاد الشرق تيار دافق من « اليونان الصغار » Graeculi كما كان يسميهم الرومان استهزاء بهم . وكان منهم أرقاء كثيرون استخدموا معلمين فى الأسر الرومانية ، ومنهم النحاة الذين أنشأوا الدراسات الثانوية فى رومة بما افتتحوه من المدارس لتعليم لغة اليونان وآدابهم ؛ ومنهم البلغاء الذين كانوا يلقون محاضرات عامة فى فن الخطابة والأدب والإنشاء والفلسفة ، أو يعطون فيها دروساً خاصة . وشرع الخطباء الرومان — حتى من كان منهم يبغض الثقافة اليونانية أمثال كاتو — يتخذون خطب ليسياس Lysias ، وإيسكين Aeschines ودمستين Demosthenes نماذج لهم ينسجون على منوالها .

ولم يكن لهؤلاء المدرسين اليونان دين يؤمنون به إلا القليلين منهم ، وأقل من هؤلاء المتدينين من كانوا يبثون فى قلوب تلاميذهم شيئاً من العقيدة الدينية . وكانت منهم أقلية صغيرة تحذو حذو أبيقور ، وتسبق لكريشيس فى وصفه الدين بأنه أكبر الشرور فى حياة البشر . وأدرك الأشراف مهب العاصفة وحاولوا أن يسدوا عليها الطريق ، فنفى مجلس الشيوخ من البلاد فى عام ١٧٣ اثنين من الأبيقوريين ، وأصدر فى عام ١٦١ قراراً يقضى بأن لا يبقى فى رومة أحد من الفلاسفة أو البلغاء » . ولكن العاصفة لم تسكن ، فقد جاء إلى رومة فى عام ١٥٩ كراتس الملوسى Crates of Mallus مدير المكتبة الملكية الرواقى فى برجوم فى عمل رسمى ، وكسرت فيها ساقه ، فأقام بها ، وأخذ وهو فى دور النقاهة يلقى محاضرات فى الأدب والفلسفة . وفى عام ١٥٥ بعثت أثينة إلى رومة سفراء من أهلها كانوا زعماء المدارس الفلسفية الثلاث العظيمة : كارنيدس Carneades الأكاديمى أو الأفلاطونى ، وكرتولوس Critolaus المشائى أو الأرسطاطيلى ، وديوجين Diogenes الرواقى الساوسى (of Selucia) . وكان قدوم هؤلاء إلى رومة مبعث نهضة علمية وفلسفية لا تكاد تقل فى قوتها عما بعثه قدوم كرسولوراس Chrysoloras إلى إيطاليا فى عام ١٤٥٣ . وتحدث كارنيدس عن البلاغة

بفصاحة حملت الشبان على أن يجتمعوا حوله فى كل يوم ليستمعوا له[٢٥] . وكان الرجل شكاكا إلى أقصى حد ، فكان يشك فى وجود الآلهة ، ويقول إن فى الإمكان تبرير الظلم بأسباب لا تقل فى وجاهتها عن الأسباب التى يبرر بها العدل . وفى هذا تسليم من جانب الفلسفة الأفلاطونية بآراء ترازيماكس Thrasymachus

ولما سمع كاتو — وكان وقتئذ شيخاً طاعناً فى السن — بهذا القول طلب إلى مجلس الشيوخ أن يأمر بإعادة السفراء الثلاثة إلى بلادهم ، فعادوا ولكن بعد أن ذاق الجيل الجديد لذة الفلسفة ؛ ومن ذلك الحين أخذ الأثرياء من شباب رومة يذهبون إلى أثينة وردس ليستبدلوا فيها بإيمانهم القديم أحدث ما فيها من تشكك .

وكان الذين فتحوا بلاد اليونان هم أنفسهم الذين نشروا الثقافة اليونانية والفلسفة اليونانية فى رومة ، وكان فلامينوس Flaminus يحب الآداب اليونانية قبل أن يغزو مقدونية ويحرر اليونان ، فلما أن غزاها تأثر كثيراً بما رأى فى بلاد اليونان من فنون ومن مسرحيات . وخليق بنا أن نذكر لرومة أن بعض قوادها العسكريين كانوا يستطيعون فهم پوليكليتس polycleitus وفيدياس Pheidias وإن كانوا قد تغالوا فى تقدير هذين الفنانين إلى حد السرقة . ولما أن انتصر إيمليوس پولس على پرسيوس لم يستبق لنفسه من كل ما جاء به من الغنائم إلا مكتبة الملك ليرثها أبناؤه من بعده ، وقد حرص على أن يتعلم هؤلاء الأبناء الآداب والفلسفة اليونانية حرصه على أن يتعلموا فنون الصيد والحرب الرومانية ، وكان يشترك معهم فى هذه الدراسات بالقدر الذى تسمح له به واجباته الرسمية .

ولما مات پولس تبنَّى أصغر أبنائه صديقة پ . كرنليوس سپيو ابن الإفريقى واتخذ الابن المتبنى اسم الرجل الذى تبناه جرياً على عادة الرومان وقتئذ ، وأضاف إليه اسم عشيرة أبيه فأصبح اسمه بعدئذ ، كرنليوس

سپيو إيمليانوس وهو الذى سنطلق عليه اسم سپيو فى صحائف هذا الكتاب ، وكان شابا وسيم الطلعة قوى البلية ، بسيطا فى عاداته ، متزناً فى حديثه ، رقيق القلب ، كريماً ، شريفاً طاهر اليد ، ولم يترك وراءه عند وفاته إلا ثلاثة وثلاثين رطلا من الفضة ورطلين من الذهب ، وإن كانت جميع غنائم قرطاجنة قد مرت بين يديه ، وإن كان قد عاش عيشة العالم المتقشف لا عيشة الرجل الثرى ، وقد التقى فى شبابه بپولبيوس اليونانى الذى نفى من بلاده وأسداه پولبيوس النصح والكتب القيمة ، وكانت هذه يد حفظها له الشاب طول حياته . وذاعت شهرته وهو لا يزال شابا يحارب تحت إمرة أبيه فى بدنا pydna ، ولما استخف به عدوه فى أسپانيا وطلب إليه أن يبارزه قبل هذا التحدى وانتصر فى المبارزة(٢٧) .

وقد جمع حوله فى حياته الخاصة طائفة من الرومان الممتازين الذين شغفوا بالأفكار اليونانية . ومن أعظم هؤلاء شهرة جايوس ليليوس Gaius Laelius وهو رجل حكيم فى رأيه ، وفىٌّ فى صداقته ، عادل فى أحكامه ، تقى السيرة ، طاهر السريرة ، لا يفوقه فى فصاحة اللسان وجمال الأسلوب إلاَّ إيمليانوس نفسه . وقد أحب شيشرون ليليوس وأعجب به بعد مائة عام من وفاته ، وسمى باسمه مقاله عن الصداقة ، وكان يتمنى أن لم يعش فى عصره المضطرب بل فى تلك الدائرة الرفيعة التى كانت تضم شباب رومة المفكر .

وكان لهذه الدائرة أبلغ الأثر فى الأدب الرومانى ، ولقد كسب ترنس Terence بفضل اشتراكه فيها ما امتازت به لغته من دقة فى التعبير وجمال فى الأسلوب ، ولعل جايوس لوسليوس (١٨٠ – ١٠٣) قد أفاد منها قدرته على أن يجعل لهجائه اللاذع الذى كان يسلطه على رذائل عصره وترفه هدفاً اجتماعياً .

وكان اللذان يشرفان على هذه الفئة من اليونان رجلين هما پولبيوس Polybius وپانيتيوس Panaetius . وقد عاش أولهما سنين كثيرة فى بيت سپيو . وكان رجلا واقعياً عقلياً ، قليل الاغترار بالناس وبالدول . أما پانيتيوس فقد جاء من

رودس ، وكان كزميله پوليبيوس من الأشراف اليونان . وعاش كثيراً من السنين مع سپيو ينعم بصداقته ويشاركه فى نفوذه وسلطانه . وهو الذى غرس فى نفس سپيو فضائل الرواقية ونبلها ، وأكبر الظن أن سپيو هو الذى حمله على أن ياطف من المطالب الخلقية المتطرفة لهذه الفلسفة ، ويجعل منها عقيدة عملية . ولقد شرح پانيتيوس فى كتاب له « فى الواجبات » المبدأين الأساسيين للفلسفة الرواقية وهما أن الإنسان جزء من كل يجب أن يتعاون معه — مع أسرته ، وبلده ، ومع روح العالم القدسى ؛ وأنه لم يوجد فى العالم ليستمع بملاذ الحواس وإنما وجد ليؤدى واجبه من غير أن يشكو أو يتململ . ولم يكن پانيتيوس كالرواقيين الأولين يدعو إلى الفضيلة الكاملة أو عدم المبالاة التامة بطيبات الحياة ومتعها . واستمسك الرومان المتعلمون بهذه الفلسفة واتخذوها بديلاً كريماً مقبولا من دينهم القديم الذى لم يعودوا يؤمنون به ، ووجدوا فى مبادئها قانوناً أخلاقياً يتفق كل الاتفاق مع تقاليدهم ومُثلهم العليا .

وهكذا أصبحت الرواقية هى الملهمة لسپيو والمطمح الذى يصبو إليه شيشرون ؛ كما كانت هى خير ما فى سنكا ، والمرشد الهادى لتراچان Trajan ، والمواسية لأورليوس Aurelius . وجملة القول أنها أصبحت هى ضمير رومة ؛

الفصل الخامس

النهضة الأدبية

لقد كان الغرض الذى يهدف إليه سپيو وجماعته أن يناصروا الفنون والفلسفة ، وأن يجعلوا اللغة اللاتينية لغة رقيقة سلسة أدبية ، وأن يجتذبوا ربات الشعر الرومانية إلى ينابيع الشعر اليونانى المتدفقة ، وأن يهيئوا للكتاب والشعراء الناهضين مستمعين وقراء . من ذلك أنه لما أن جاء كاتو — وهو العدو الألد لكل شىء يمثله سپيو وأكرم مثواه . وكان هذا الشاعر هو كونتس إينيوس Qnintus Ennius . وكان قد ولد فى عام ٢٣٩ بالقرب من برنديزيوم Brundisium من أبوين أحدهما يونانى والآخر إيطالى . وتلقى علومه فى تارنتم ، وكان ذا روح حماسية تأثرت أشد التأثر بالمسرحيات اليونانية التى كانت تعرض على مسرح تلك المدينة . واسترعت شجاعته العسكرية فى سردينيا التفات كاتو . ولما جاء إلى رومة أخذ يشتغل بتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية ، وينشد أشعاره لأخصائه . وسرعان ما وجد سبيله لجماعة سپيو وأصدقائه ؛ ولم يكن ثمة بحر من بحور الشعر إلا حاوله ، وكتب عدداً قليلا من المسالى وما لا يقل عن عشرين مأساة ، وكان يعجب بيورپديز ويعبث مثله بالآراء المتطرفة ، ويغيظ الأتقياء بما ينطق به من الأمثال التهكمية الأبيقورية كقوله : « أسلم معكم أن ثمة آلهة ولكنهم لا يبالون بما يفعله الآدميون ، وإلا لكانت عاقبة الطيبين الخير وعاقبة الخبيثين الشر — وهذا قلما يحدث(٢٨) » . ويقول شيشرون إن من استمعوا لهذا القول طربوا له وصفقوا له استحساناً(٢٩) . وقد ترجم أو شرح كتاب « التاريخ المقدس » تأليف يوهمروس Euhemerus وهو الكتاب الذى يثبت فيه كاتبه أن الآلهة ليسوا إلا أبطالا أمواتاً ألهتهم

عواطف الشعب وتعلقه بهم . على أنه لم يكن مجرداً كل التجرد من الآراء الدينية ، وآية ذلك أنه أعلن فى وقت ما أن روح هوميروس قد تنقلت فى عدة أجساد منها جسم فيثاغورس ومنها جسم طاووس ثم استقرت فى جسم إينيوس Ennius . وقد كتب تاريخاً حماسياً لرومة فى صورة ملحمة كبيرة تبدأ من مجيء إيناياس Aeneas إلى پيرس Pyrrhus ، وقد ظلت هـذه الحوليات إلى أيام ڤرچيل الملاحم القومية لإيطاليا ؛ وبقيت منها قطع صغيرة قليلة العدد أشهرها كلها بيت لا يمل المحافظون الرومان ترديده وهو :

قوام الدولة الرومانية أخلاقها القديمة ورجالها العظماء » .

وكانت القصيدة من حيث الوزن تعد ثورة على الأوزان الشعرية القديمة . فقد استبدل فيها بالوزن المهلهل غير المنتظم الذى كان يستخدمه نيڤيوس Naevius الشعر المرن السداسى الأوتاد الذى كان يستخدم فى الملاحم اليونانية . وصاغ إينيوس الشعر اليونانى فى صور جديدة ، وبث فيه قوة جديدة ، وغمر أبياته بالأفكار ، وأعده من حيث طريقته وألفاظه وموضوعه وأفكاره للكريشيس وهوراس وڤرچيل . وقد توج أعماله الأدبية برسالة عن ملاذ الفم ، ومات بذات الرئة فى سن السبعين بعد أن ألف هذه القبرية التى يفخر فيها بنفسه :

لا تبكوا على ولا تحزنوا لوفاتى ؛ فإن أبقى على شفاه الرجال وأحيا[٣٠] .

ونجح إينيوس فى كل شيء عدا المسلاه ، ولعل سبب إخفاقه أنه عنى بالفلسفة عناية جدية فوق ما يجب ، ونسى نصيحته التى قال فيها « يجب على الإنسان أن يتفلسف دون أن يسرف فى فلسفته[٣١] » . وكان الناس يفضلون الضحك على الفلسفة وكانوا فى ذلك على حق ؛ وقد أغنوا بهذا التفضيل بلوتس وأفقروا إينيوس . ولهذا السبب عينه لم تلق المآسى المسرحية شيئاً من التشجيع فى رومة . نعم إن الأشراف قد أعجبوا بمآسى پكوڤيوس Pacuvius وأكيوس Accius ، ولكن الشعب تجاهلها والزمان لم يبق على ذكراها .

وكان موظفو الدولة يعرضون المسرحيات على الجماهير ، رومة ، كما ...
أمثالهم يعرضونها عليه فى أثينة ، على أنها جزء من الحفلات التى تقام فى الأعياد الدينية أو فى جنائز المواطنين الممتازين . وكان الملهى الذى تمثل فيه مسرحيات پلوتس وترنس يتكون من محالة(*) خشبية تعلوها خلفية مزخرفة scaena أمامها طوار مستدير للرقص جزؤه الخلفى هو المسرح Proscaenium . وكان هذا البناء الهش الرقيق يهدم عقب كل حفل كما نفعل نحن بالمقاعد والحواجز التى نقيمها للاستعراض فى هذه الأيام . وكان النظارة يشاهدون الألعاب وهم وقوف أو جلوس على مقاعد يأتون بها معهم ، أو يتربعون على الأرض فى العراء . ولم تبن فى رومة دار كاملة للتمثيل قبل عام ١٤٥ ق . م ، وحتى فى ذلك الوقت كانت الدار لا تزال بناء خشبياً لا سقف له ، ولكن به مقاعد مصفوفة على نظام المدرجات اليونانية نصف الدائرية . ولم يكن النظارة يؤدون لدخولها أجراً ، وكان فى مقدور الأرقاء أن يدخلوا دون أن يكون لهم حق الجلوس ، أما النساء فلم يكن يسمح لهن إلا بالجلوس فى المقاعد الخلفية . ولعل النظارة فى ذلك العهد كانوا أخشن من شهدهم تاريخ التمثيل كله وأشدهم غباوة — فكانوا جماعة من الصخابين المتزاحمين الوضيعين . وكثيراً ما كان يطلب إليهم فى بداية التمثيل أن يراعوا قواعد الأدب والأخلاق ، كما أن الفكاهات والنكات السمجة والأفكار البسيطة العادية كان يطلب تكرارها لكى يستطيع النظارة إدراكها . وكان يطلب إلى الأمهات فى بعض الأحيان أن يتركن أطفالهن فى منازلهن ، وكانت الخطب الافتتاحية تنذر الأطفال بالعقاب إذا أحدثوا شيئاً من الضجيج ، أو تحذر النساء من الثرثرة فى أثناء التمثيل . وترى هذه المطالب كلها مدونة حتى فى وسط المسرحيات التى نشرت فيما بعد[٣٢] . وإذا حدث أن صحب التمثيل صراع ينال المتفوق فيه جائزة ، أو ألعاب بهلوانية على الحبال ، فقد كان التمثيل ينقطع أحياناً حتى ينتهى الصراع

(*) المحالة الخشبة التى يستقر عليها الطيانون وهى المعروفة بالسقالة . (المترجم)

أو تنتهى الألعاب ، وهما أشد إثارة لحماسة النظارة من التمثيل ؛ وعند ختام تمثيل مسلاة رومانية كانت تلقى العبارة الآتية : « والآن فليصفق الجميع » أو ما فى معناها للدلالة على أن الرواية قد انتهت وأن التصفيق مباح ؛

وكان التمثيل خير ما فى المسرح الرومانى ، وكان مدير المسرح من الأحرار ، وكان هو الذى يمثل الدور الرئيسى عادة ، أما غيره من الممثلين فكان معظمهم من الأرقاء اليونان . وكان كل مواطن يتخذ التمثيل حرفة له يفقد بذلك حقوقه المدنية — وهى عادة ظلت قائمة إلى أيام ڤلتير ؛ وكان الرجال يمثلون أدوار النساء ؛ وكان النظارة قليلى العدد ، ومن أجل ذلك لم يكن الممثلون يلبسون أقنعة بل كانوا يكتفون بالأصباغ والشعر المستعار ؛ فلما أن ازداد عدد النظارة أصبحت الأقنعة واجبة لتمييز أشخاص المسرحية بعضهم من بعض ، وكان يطلق على القناع لفير پرسونا **persona** وهو فى أغلب للظن مشتق من الكلمة التسكانية فرســو **ph rsu** بمعنى قناع ؛ وكانت الأدوار تسمى دراماتيس پرسونى **dramatis personae** أى أقنعة المسرحية . وكان ممثلو الأدوار المحزنة يلبسون أحذية عالية **cothurnus** أما ممثلو الأدوار المضحكة فكانوا يحتذون نعالا وطيئة **soccus** ؛ وكانت بعض أدوار المسرحية تغنى على أنغام المزمار ، وكان المغنون فى بعض الأحيان يغنون الأدوار ، والممثلون يمثلونها تمثيلا صامتاً بالإشارات .

وقد كتبت ملاهى پلوتس بالشعر السهل المكون من أسباب وأوتاد يتلو بعضها بعضاً تقليداً لأوزان الشعر اليونانى وموضوعاته ، ومعظم الملاهى اللاتينية التى وصلت إلينا مأخوذة من المسرحيات اليونانية مباشرة ، أو بمزج مسرحيتين يونانيتين أو أكثر بعضها ببعض ، وهى مأخوذة فى الغالب من مسرحيات فيلمون **Philemon** ومناندر **Menander** أو غيرهما من كتاب «المسلاة الجديدة» فى أثينة ، وكان اسم المسرحية الرومانية واسم مؤلفها يكتبان عادة على الصفحة الأولى . وقد حظر الاقتباس من مسرحيات أرسطوفان و «المسلاة القديمة» بمقتضى

قانون الألواح الاثنى عشر الذى كان يعاقب على الهجاء السياسى بالإعدام[٣٣].
ولعل خوف كتاب المسرحيات اللاتين أن يطبق عليهم هذا التشريع الرهيب هو الذى حدا بهم إلى الاحتفاظ بالمناظر والشخصيات والعادات والأسماء ، وحتى النقود ، كما كانت فى الأصل اليونانى . ولولا بلوتس لكان القانون الرومانى قد أبعد الحياة الرومانية كلها تقريباً عن المسرح الرومانى . ولكن هذه الرقابة الصارمة لم تمنع فحش القول وبذيئه أن ينطق به على المسرح ، فقد كان الهدف الذى يبتغيه المشرفون على التمثيل هو تسلية النظارة لا رفع مستواهم ، ولم يكن جهل العامة ليسوء قط الحكومة الرومانية ، وكان النظارة يفضلون المزاح السمج على الفكاهة الرقيقة ، ويعجبهم الهزل والتهريج أكثر مما يعجبهم الحذق والدهاء ، ويطربهم فحش القول أكثر مما يطربهم الشعر ، وكان بلوتس أحب إليهم من ترنس .

وكان أول دخول تيتس مكسيوس بلوتس **Titus Maccius Plautus** أى تيتس المهرج ذى القدم الكرشاء(*) فى أمبريا **Umbria** عام ٢٥٤ ق . م ؛ ولما قدم إلى رومة عمل فيها خادماً من خدم المسرح وادخر بعض المـــال وحرص على استثماره ولكنه أضاعه . واضطره العيش إلى كتابة المسرحيات ، وسر الجماهير بما كان يبثه من الإشارات الرومانية فى مسرحياته المقتبسة من المسرحيات اليونانية . واستطاع بهذه الطريقة أن يجمع بعض المال وأن يمنح مواطنية رومة . وكان بلوتس رجلا شعبياً شديد المرح ضحاكاً صخاباً ، يضحك مع كل إنسان على كل إنسان ، ولكنه كان طيب القلب عطوفاً على الناس جميعاً . وقد بلغ عدد ما كتبه أو صقله من المسرحيات مائة وثلاثين بقيت منها إلى الآن عشرون . ومن هذه المسرحيات الباقية مسرحية **Miles Gloriosus** وهى صورة مرحة لجندى صخاب يغذيه خادمه وينفحه بالأكاذيب .

(*) القدم الكرشاء هى التى استوى أخمصها وانبطحت على الأرض فى عرض وغلظ فيها . (المترجم)

الخادم : أرأيت الفتاتين اللتين استوقفتانى بالأمس ؟

الضابط : ماذا قالتا لك ؟

الخادم : لما مررتَ بنا سألتانى :

« يا عجبا ! هل هنا أخيل العظيم ؟ » فأجبتهما :

« كلا ! وإنما هو أخوه » . ثم قالت الأخرى :

« فى الحق إنه لجميل ! ياله من رجل نبيل !

« ما أبهى شعره ! » . . . وتوسلت إلىّ كلتاهما :

. . . أن أطلب إليك أن تخرج اليوم مرة أخرى .

حتى تستطيعا رؤيتك عن قرب .

الضابط : ألا ما أكثر ما يجره الجمال على الإنسان من متاعب[٣٤] !

وفى مسرحية أمفتريون Ampitryon تنصب السخرية على چوف Jove فهو يتنكر فى صورة زوج الكمينا Alcmena ويدعو نفسه ليستمع إلى قسمه ، ويقرب القربان إلى چوبتر[٣٥] . وفى اليوم التالى يغرر بهذه السيدة فتتم . ويطلب پلوتس إلى الإله فى آخر المسرحية أن يعفو عنه وأن يتقبل من الجماهير أكبر قسط من الثناء . وقد نالت هذه القصة من إعجاب الجماهير فى رومة أيام پلوتس بقدر ما نالت فى أثينة أيام منادر Menander وفى باريس أيام مليير Moliére ، وما تناله فى نيويورك فى الوقت الحاضر ، أما مسرحية أولولاريا Aulularia فهى قصة رجل بخيل يكنز المال ، وفيها من العطف عليه أكثر مما فى رواية البخيل Avare لمليير . وترى البخيل فيها يجمع قلامة أظفاره ويتحسر على ما خسره من الماء فيما أذرفه من الدموع . ومسرحية منكمى Menaechmi هى القصة القديمة : قصة التوأمين اللذين يختلط أمرهما على الناس ثم يتبينونهما ، ويرى لسنج Lessing أن مسرحية الأسير Captive خير مسرحية مثلت فى ملهى[٣٥] . وقد أعجب بها پلوتس أيضاً ويقول فى مستهلها :

ليست مبتذلة ولا هي كغيرها من المسرحيات :
وليس فيها سطور قذرة يستنكف الإنسان أن ينطق بها .
وليس فيها قواد كاذب ولا مومس خبيثة .

وهو قول حق ، ولكن حبكة المسرحية معقدة غاية التعقيد ، وتعتمد كل الاعتماد المصادفات غير المتوقعة ، وعلى الرؤى العجيبة التي لا يلائم صاحب العقل الحريص على صدق التاريخ أن يمر بها دون أن يعيرها أية عناية . ولم يكن سر نجاح هذه المسرحيات هو حبكاتها القديمة بل كثرة ما فيها من الحادثات الفكهة المضحكة والنكات اللفظية المرحة التي لا تقل فحشاً عما في مسرحيات شيكسپير ، والصخب القذر البذىء ، والنساء الطائشات وما يظهرنه في بعض الأحيان من عواطف طيبة : وقد كان في وسع النظارة في كل مسرحية أن يثقوا من وجود حادثة من حوادث الحب ، وتغرير بفتاة ، وبطل وسيم فاضل ، وعبد أرجح عقلا من كل من فيها من الشخصيات مجتمعة . وفي هذه المسرحيات نرى الأدب الروماني منذ بدايته تقريباً وثيق الارتباط بالرجل العادى ، ويصل بما اقتبسه من المسرحيات اليونانية إلى حقائق الحياة ، ويبلغ في هذا حداً لم يبلغه قط فيما بعد .

وفي السنة التي توفى فيها پلوتس على الأرجح (١٨٤ ق . م) ولد في قرطاجنة پبليوس ترنتيوس آفر Publius Terentius من أصل فينيقي ، ولربما كان من أصل إفريقي . ولسـنا نعرف عنه شيئاً قبل أن يكون عبداً من عبيد ترنتيوس لوكانس Terentius Lucanus في رومة . فقد أدرك هذا الشيخ مواهب الشاب الحي فعلمه ووهبه حريته ، وتسمى الشاب باسم سيده اعترافاً منه بفضله عليه . وفي وسعنا أن نعرف شيئاً من أخلاق الرومان الطيبـة حين نسمع أن ترنس « الفقير الخلق الثياب » جاء إلى بيت كاسليوس استاتيوس Caecilius Statius — وكانت مسرحيات هذا المؤلف المضحكة هي المسيطرة في ذلك الوقت على المسرح

الرومانى – وقرأ عليه المشهد الأول من مسرحية أندريا ؛ وأعجب كاسليوس بهذا المشهد إعجاباً حمله على أن يستبقى الشاعر إلى العشاء معه وأن يستمع إلى بقية المسرحية فى طرب وإعجاب[٢٧] . وما لبث ترنس أن استرعى أسماع إيمليوس Aemilius وليليوس ، وقد حاول كلاهما أن يصقل أسلوبه فيجعله هو الأسلوب اللاتينى الحبيب إلى قلبه . ومن ثم راجت الإشاعة القائلة بأن ليليوس هو الذى كان يكتب لترنس مسرحياته ، وهى إشاعة رأى المؤلف كياسة منه وحصافة إلا يؤيدها أو ينكرها[٢٨] . واستمسك ترنس فى أمانة وإخلاص بأصول المسرحيات اليونانية التى نقلها إلى اللاتينية وأطلق على هذه المسرحيات أسماء يونانية ، وتحاشى أن يشير فيها إلى الحياة الرومانية ، ولم يدع لنفسه أكثر من أنه مترجم لهذه الروايات – وهو تواضع منه وبخس لأعماله[٢٩] . ولعل الذى دفعه إلى هذا هو تأثره بالهلينية المتغلبة على سپيو وجماعته .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير تلك المسرحية التى كان كاسليوس يحبها ويعجب بها أشد الإعجاب ، ولكننا نعرف أن هسيرا Hecyra مسرحية ترنس الثانية قد أخفقت لأن النظارة غادروا الملهى فى أثناء التمثيل ليشهدوا صراعاً للدببة . ثم بسم له الحظ فى عام ١٦٢ حين كتب أشهر مسرحياته كلها وهى مسرحية « المعذب نفسه » Heauton Timoroumenos وهى تروى قصة أب منع ابنه أن يتزوج الفتاة التى اختارها لنفسه ، ولكن الابن تزوجها رغم هذا ، فما كان من الأب إلا أن تبرأ منه ونفاه من البلاد ، ثم أنبه ضميره وندم على فعلته وعاقب نفسه على ما فعل بامتناعه عن أن يمس ثروته وبأن يعيش عيشة الكدح والفقر ، ثم عرض عليه جار له ن يتدخل فى الأمر ليحل مشكلته ، فيسأله الأب عما يدعوه إلى الاهتمام بغيره والإشفاق عليهم ، فيرد عليه الجار بهذه العبارة المعروفة فى جميع أنحاء العالم والتى صفق لها النظارة طرباً وإعجاباً وهى : Hums sum humani njhil a me atienum puo » إنى إنسان ؛ ولا أرى أن شيئاً مم

يتصل بالإنسان غريب على » . ومثلت فى السنة التالية مسرحية « الخصى » وبلغ من إعجاب النظارة بها أن مثلت مرتين فى يوم واحد (ولم يكن ذلك مألوفاً فى تلك الأيام) ، وربح منها ترنس ثمانية آلاف سسترس (نحو ١٢٠٠ ريال أمريكى) فى يوم وليلة(٤٠) . وظهرت بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت رواية « الفورميو » وقد سميت كذلك نسبة إلى الخادم الفكه الذى أنقذ سيده من غضب أبيه ، والذى أصبح فيما بعد نموذجاً لشخصية فيجارو Figaro القوية فى رواية بومارشيه Beaumarchais . وفى عام ١٦٠ ق . م مثلت آخر مسرحية لترنس وهى مسرحية أدلفى أو « الإخوة » فى الألعاب التى أقيمت بمناسبة وفاة إيمليوس پولس . وبعد قليل من ذلك الوقت سافر الكاتب بطريق البحر إلى بلاد اليونان ، ثم مرض وهو عائد منها ، ومات فى أركاديا فى الخامسة والعشرين من عمره .

وانصرف الجمهور بعض الانصراف عن مسرحياته الأخيرة ، لأن الصبغة الهلينية التى اصطبغت بها قد أعلت من قدره فوق ما يجب . فقد كان يعوزه مرح پلوتس وخفة روحه وفكاهته ؛ هذا إلى أنه لم يعن فى مسرحياته بمعالجة الحياة الرومانية ، فلم يدخل فى المضحك منها أنذالا فاسدين أو مومسات طائشات ، بل صور كل النساء فى تلك المسرحيات فى صور رقيقة ، حتى العاهرات منهن كن يحمن على حافة الفضيلة . وقد احتوت تلك المسرحيات سطوراً تعد من جوامع الكلم ، وعبارات جرت مجرى الأمثال ، منها hinc illae lacrimae (« ومن ثم كانت تلك الدموع ») ومنها fortes Portuna adiuvat (« الحظ يواتى الشجعان ») ، quot homines tot sententiee (« عدد الآراء كعدد الرجال ») ، وعشرات العشرات من أمثالها ، ولكن هذا الحكم لا يقدرها إلا أصحاب الذهنية الفلسفية أو الحساسية الأدبية ، وهما ما لم يجدها العبد الإفريقى فى جمهرة الشعب الرومانى . ومن أجل هذا النقص لم يعبأ ذلك الشعب بمسالية التى توشك أن تكون مآسى ، وبحبكاته المتقنة البناء ولكنها تسير فى بنائها على مهل ،

وبدراسته الدقيقة للشخصيات الغريبة ، وبحواره الهادئ ، وبأسلوبه المفرط في الهدوء ، وفي نقاء لغته نقاء يكاد أن يكون إهانة للشعب الروماني ؛ وكأن النظارة وهم يشاهدون هذه المسرحيات كانوا يشعرون بأن قد حدث بينهم وبين الأدب الروماني صدع لن يلتئم قط . وقد كان شيشرون — وهو القريب من كتلس قرباً لا يمكنه من أن يراه عن حقيقته ، والحصيف حصافة تحول بينه وبين الإعجاب بلكريشيوس — نقول كان شيشرن يظن . أن ترنس أرق شعراء الجمهورية . وكان قيصر أعدل في حكمه عليه حين أثنى عليه بقوله إنه « المحب للكلام الطاهر » ، ولكنه آسف لأنه لم يوهب القدرة على الضحك vis csmica ووصفه بأنه « نصف مناندر » **Dimitiatus Menander** . على أن ترنس قد أفلح في شيء واحد على الأقل ؛ ذلك أن هذا الرجل السامي الأجنبي ، الذي تشبع بروح ليليوس وبلاد اليونان ؛ قد صاغ من اللغة اللاتينية أداة أدبية هي التي استطاع بها شيشرون في القرن التالي أن يكتب نثره وفرچيل أن ينشئ شعره .

الفصل السادس

كاتو والمعارضون المحافظون

وامتلأت قلوب الرومان أصحاب النزعة المحافظة خوفاً كما امتلأت نفوسهم اشمئزازاً من هذا الغزو اليونانى لآداب الرومان ، وفلسفتهم ، ودينهم ، وعلومهم ، وآدابهم ؛ ومن هذا الانقلاب العنيف فى أخلاقهم ، وعاداتهم ، ودمائهم . وكان من هؤلاء الرومان القدامى المحافظين شيخ متقاعد يدعى فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus يقيم فى مزرعة سبينية ؛ وأخذ هذا الشيخ يأسف لما أصاب الأخلاق الرومانية القديمة من ضعف وانحلال ، وما أصاب السياسة من فساد ، ومن حلول الأفكار والأساليب اليونانية محل « أساليب أجدادنا » . وكان الرجل شيخاً طاعناً فى السن لا تمكنه قواه من أن يكافح بنفسه هـذا التيار الجارف ، ولكن اتفق أن كان فى مسكن بالقرب منه وفى جوار بلدته ريت Reate ، وفى خارج حدودها ، شاب مزارع من العامة اجتمعت له كل الصفات الرومانية القديمة ، فكان يحب فلاحة الأرض ولا يمل العمل المجهد الشاق ، وكان مقتصداً يعيش عيشة البساطة القديمة ، ولكنه مع ذلك يتحدث حديث المتظرفين النابهين . وكان اسم هذا الرجل ماركس پورسيوس كاتو Marcus Porcius Cato وكان سبب تسميته پورسيوس أن أسرته ظلت أجيالا عدة تربى الخنازير ، أما سبب تسميته كاتو فإن أفراد هذه الأسرة كانوا على جانب عظيم من الدهاء . وأشار عليه فلاكوس أن يدرس القانون ، فعمل كاتو بنصيحته وكسب ما رفعه جيرانه من القضايا فى المحاكم المحلية . ثم نصحه فلاكوس أن يسافر إلى رومة ، ففعل ، وما زال يرقى فى المناصب العامة حتى أصبح كوسترا يشرف على الشئون المالية Quaestor ولما يبلغ الثلاثين من عمره (٢٠٤) . وفى عام ١٩٩ عين إيديلا مشرفاً على

الأشغال العامة والملاعب والأسواق والشرطة . وما وافت سنة ١٩٨ حتى كان بريتوراً Praetor يلي القنصل في المرتبة ، ثم صار قنصلا في عام ١٩٥ ، ثم تربيوناً في عام ١٩١ ، ثم رقيباً Censro في عام ١٨٤ . وكان في هذه المدة قد خدم في الجيش ستة وعشرين عاماً ، وكان فيها كلها جندياً شجاعاً وقائداً محنكاً ، قاسي القلب شديد البأس . وكان من رأيه أن النظام أساس الأخلاق والحرية ، وكان يحتقر الجندي « الذي يستخدم يديه في المشي وقدميه في الحرب ، والذي يعلو غطيطه في النوم على صراخه في الحرب » . ولكنه كسب احترام جنده بسيره إلى جانبهم على قدميه ، وبإعطاء كل منهم رطلا من الفضة من غنائم الحرب ، وعدم احتفاظه بشيء من هذه الغنائم لنفسه[41]

وكان في فترات السلم يندد بالخطابة والخطباء ، وأصبح بهذا العمل أقوى خطباء زمانه . وكان الرومان يستمعون إليه وهم مأخوذون على الرغم منهم بسحر بيانه ، لأن أحداً من قبله لم يتحدث إليهم بمثل ما تحدث به هو من الإخلاص الواضح والفكاهة اللاذعة . وكان في مقدوره أن يسلط سوط لسانه على أي إنسان يستمع خطبه ، ولكن من يستمعه كان يسره أن يرى هذا السوط يسلط على جاره . وظل كاتو يكافح الفساد والرشوة في رومة غير عابئ بما يصيبه في هذا الكفاح ، ولم تغرب عليه شمس يوم من الأيام إلا وقد خلق له فيه عدواً جديداً . وقلما كان أحد يحبه لأنه كان يقلق بال الناس بوجهه الكثير الندب ، وشعره الأحمر الأشعث ، ويخيفهم ويهددهم بأسنانه الكبيرة ، ويخجلهم بتقشفه ، ويسبقهم بجده وكدحه ، وتنفذ نظراته التي يلقيها عليهم من عينيه الخضراوين خلال ألفاظهم إلى مكنون صدورهم ، فيطلع فيها على أنانيتهم . وحاول أعداؤه من الأشراف أن يقضوا عليه بما وجهوه إليه من التهم العلنية ، ولكنه في كل مرة كان ينجيه من هذا الاتهام اعتراض الزراع الذين كانوا لا يقلون عنه بغضاً للفساد والترف[42] . ولما أن رفعته أصوات العامة إلى منصب الرقيب وجفت قلوب

الرومان أجمعين . وما أن تولى هذا المنصب حتى أخذ ينفذ النذر التى أنذر بها ، والتى كسب بها المعركة الانتخابية ، ففرض الضرائب الباهظة على الكماليات ، وأوقع غرامة على أحد أعضاء مجلس الشيوخ لإسرافه ، وأخرج من هذا المجلس ستة من أعضائه وجد فى سجلاتهم أحكاماً قضائية . وطرد منه مانايوس لأنه قبل زوجته علناً ، وقال عن نفسه أنه لم يعانق قط زوجته إلا وقت قصف الرعد — وإن كان يسره أن يقصف الرعد . وأتم كاتو نظام المجارى فى المدينة ، وقطع الأنابيب التى تأخذ الماء خفية وخيانة من القنوات المبنية العامة ، وأجبر الملاك على أن يهدموا ما كان يمتد من مبانيهم فى عرض الطريق أو فوقه ، وخفض ما كانت تؤديه الدولة ثمناً للأعمال العامة ، وأرغم جباة الضرائب على أن يؤدوا لخزانة الدولة نصيبا أوفى مما كانوا يجنونه من الأهلين(٤٨) . وبعد أن قضى خمس سنين يجاهد جهاد الأبطال فى أعمال تتعارض مع طبيعة الإنسان ، اعتزال منصبه واستثمر ما كان له من المال استثماراً ناجحا ، وملأ ضيعته التى اتسعت رقعتها فى ذلك الوقت بالعبيد ، وأخذ يقترض المال بربا فاحش ويبتاع الرقيق بأبخس الأثمان ، ثم يدربهم على بعض الأعمال التى تتطلب شيئا من المهارة ، ويبيعهم بأغلاها ، وبذلك أثري إثراء مكنه من أن ينقطع لتأليف الكتب — وهى مهنة كان يزدريها

وكان كاتو أول كاتب عظيم من كتاب النثر اللاتينى ، وقد بدأ كتاباته بنشر مجموعة خطبه ، ثم أصدر كتابا فى فن الخطابة دعا فيه إلى التزام الأسلوب الخشن الرومانى بدل أسلوب الخطباء الإيزوقراطى **Isocratean**(*) الرقيق ، وعرّف الخطيب بأنه «رجل صالح برع فى الكلام **vir bonus dicendi peritus** وهما صنفان قل أن اجتمعتا فى إنسان» ، وبهذا التعريف أوجد مجالا لجدل كونتليان **quintilian**

(*) نسبة إلى إيزوقراطيس الخطيب والكاتب الأثينى البليغ (٤٣٦ — ٣٣٥ ق . م) (المترجم)

ولقاشة ، وكتب رسالة جمع فيها تجاربه فى الزراعة وسماها **De agricultura** ، وهى الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا من كتب كاتو ، وأقدم كتاب فى اللغة اللاتينية الأدبية أبقى عليه الدهر ، وقد كتب هذا الكتاب بأسلوب سهل رصين مركز تركيزا يجعله من جوامع الكلم : فهو لا يسرف فى الألفاظ ، وقلما ينزل فيه إلى استخدام حرف من حروف الوصف ، وفى هذا الكتاب يقدم النصائح المفصلة لمن يريد أن يشترى أو يبيع الرقيق (فيقول مثلا : إن كبار السن منهم يجب أن يباعوا قبل أن يصيروا مصدر خسارة لسادتهم) ، ولمن يؤجر الأرض بجزء من غلتها ، ولزراع الكروم والأشجار ، وتدبير شئون المنازل والصناعات ، وصنع الأسمنت وطهو أصناف الطعام النادرة الشهية ، وعلاج الإمساك والإسهال ، ومداواة لسع الأفاعى بروث الخنازير ، وتقريب القربان للآلهة . ويسأل كاتو نفسه فى هذا الكتاب عن أحكم الطرق للإفادة من الأرض الزراعية ، ثم يجيب عن هذا السؤال بقوله إنها « تربية الماشية المربحة » ، وتليها « تربية الماشية المتوسطة الربح » ، وتليها « تربية الماشية العديمة الربح » ويليها كلها « حرث الأرض وزرعها » . وهذه هى الحجج التى أوجدت الضياع الواسعة فى إيطاليا .

ولعل أهم كتبه كلها هو كتاب « الأصول » **Oaigines** الذى لم يعثر عليه حتى الآن ، وهو محاولة جريئة للبحث فى آثار إيطاليا ، وشعوبها ، ونظمها ، وتاريخها منذ نشأتها إلى السنة التى مات فيها كاتو ، ولا نكاد نعرف من هذا الكتاب أكثر من أن مؤلفه أراد أن يغيظ الأشراف بالسخرية من أسلافهم فلم يذكر فيه اسم أحد من قواد الحرب ، ثم ذكر فيلا باسمه ، وأثنى عليه لأنه قاتل بيرس **Pyrrhus** قتال الأبطال(٤٥) . وكان الغرض الذى يهدف إليه كاتو من تأليف هذا الكتاب ومن مقالاته عن الخطابة ، والزراعة والصحة العامة ، والعلوم العسكرية ،

والقانون ، أن يؤلف دائرة معارف يستعين بها على تربية ولده . وكان يرجو من الكتابة اللاتينية أن تحل الكتب المكتوبة بهذه اللغة محل الكتب المدرسية اليونانية التي كان يرى أنها تربك عقول شباب الرومان وتفسدها ويلوح أنه ، وإن كان هو نفسه قد درس اليونانية ، كان مخلصا فى اعتقاده أن دراسة الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية ستعجل بالقضاء على العقائد الدينية لدى شباب الرومان ، فلا يكون فى حياتهم الخلقية ما يحميها من الشراهة والخصام والغرائز الجنسية ، وكان يسخط على سقراط كما يسخط عليه نتشه ، ويصفه بأنه أشبه بالقابلة العجوز الثرثار ، ويقول إن قتله مسموماً كان جزاء حقا على إفساده أخلاق أثينة وشرائعها(٤٦) . وحتى الأطباء اليونان أنفسهم كانوا من أبغض الناس إليه ، وكان يفضل على طبهم العلاج المنزلى القديم ، ولا يثق بالجراحين الذى يعجلون باستعمال المبضع فى أكثر الحالات . وقد كتب إلى ولده يقول :

« اليونان جنس مجرم عنيد وأؤكد أن هذا الشعب إذا ما غمر أدبه رومة سيقضى على كل شىء فيها . . . وسيكون هذا القضاء عاجلا إذا ما بعث إليه بأطبائه ؛ لقد أجمعوا أمرهم بينهم على أن يقتلوا كل « البرابرة » . . . حذار أن تكون لك صلة بالأطباء »(٤٧)

وكان وهو الذى يعتنق هذه الآراء العدو الطبيعى الأكبر للندوة السبيونية ، وهى التى كانت ترى أن انتشار الآداب اليونانية فى رومة عاملا لا بد منه لرفع الآداب اللاتينية والعقلية الرومانية إلى كمال نموها ؛ وكان كاتو ممن أشاروا بمحاكمة سبيو الإفريقى وأخيه ؛ وقال إن القوانين التى تحرم الرشوة والفساد يجب ألا يفرق فيها بين الأشخاص . أما الدول الأجنبية فكان ينادى بأن تعامل جميعها ، إلا واحدة منها بالعدل ، وألا تتدخل رومة فى شئونها ، وكان يحتقر اليونان وإن كان يعظم آدابهم ويجلها . ولما أن قام دعاة الاستعمار النهابون من أعضاء مجلس الشيوخ يدعون إلى محاربة رودس الغنية ألقى عليهم خطبة قوية يدعو فيها إلى

السلام وإلى مصالحة أهل تلك الجزيرة . أما الدولة التى كان يـ
استثنائها من المعاملة العادلة ، ومن عدم التدخل فى شئونها فهى — كما
يعلم العالم كله — قرطاجنة . ولما أرسل إليها فى بعثة رسمية عام ١٧٥ هاله
ما رأى من انتعاش المدينة واستعادتها حياتها بعد الذى أصابها فى حروب
هنيبال ، وما وقعت عليه عيناه من بساتين الفاكهة والكروم ، وما
يتدفق فيها من الثروة الناتجة من انتعاش تجارتها ، وما كانت تخرجه دور
الصناعة فيها من أسلحة . فلما عاد أمسك أمام المجلس بكمية من التين الطازج
قطفها من أشجار قرطاجنة منذ ثلاث أيام ليتخذها رمزاً لرخاء المدينة
وقربها من رومة ، وهما القرب والرخاء اللذان كانا نذيرى شؤم لرومة ؛
وتنبأ بأنه إذا تركت قرطاجنة وشأنها فإنها لا تلبث أن يكون لها من الثراء
ومن القوة ما يحفزها إلى العودة إلى كفاحها للسيطرة على البحر الأبيض
المتوسط . وظل من ذلك اليوم يختم كل خطاب له فى مجلس الشيوخ أيا كان
موضوعه بتلك العبارة التى تنم عن عقيدته وعناده ، ويصر عليها
إصراراً عجيباً : « هذا إلى أنى أعتقد أن قرطاجنة يجب أن تدمر »
Ceterum censes delendnm esse Carthaginem . وكان دعاة الاستعمار
فى مجلس الشيوخ متفقين معه فى رأيه ، ولم يكن ذلك لأنهم يطمعون
تجارة قرطاجنة ، بل لأنهم كانوا يرون فى حقول شمالى إفريقية ،
وهى الحقول الخصبة التربة الجيدة الإرواء ، مجالا جديداً يستثمرون فيه
أموالهم ويفلحونه على أيدى الرقيق . وكانوا والحالة هذه ينتظرون على
أحر من الجمر حجة يتذرعون بها لخوض غمار الحرب البونية الثالثة .

الفصل السابع

يجب أن تمحى قرطاجنة من الوجود

وجاءتهم هذه الحجة من أعجب حكام ذلك الوقت — مسينسا Masinissa ملك نوميديا Numidia — وهو ملك عمر تسعين عاماً (٢٣٨ — ١٤٨) ورزق ولداً وهو فى السادسة والثمانين من عمره[٤٨] ، ووضع لنفسه نظاماً صارماً لحياته استمسك به كل الاستمساك ، واستبقى به صحته وقوته إلى آخر أيامه تقريباً . وقد أفلح هذا الملك فى تنظيم رعاياه البدو ، وبدلهم من حياة الترحال حياة الاستقرار الزراعية ، وأنشأ منهم دولة منظمة ظل يحكمها حكماً صالحاً مدى ستين عاماً ؛ وجعل مدينة سرتا Cirta حاضرة البلاد بما أنشأه فيها من المبانى الفخمة . ودفن بعد وفاته فى قبره وهو الهرم العظيم الذى لا يزال باقياً إلى اليوم قرب مدينة قسطنطينة فى بلاد تونس . واستطاع هذا الملك أن يكسب صداقة رومة ، وكان يدرك ما عليه قرطاجنة من ضعف سياسى ، فأخذ يغير المرة بعد المرة على أراضيها ، وينتقصها من أطرافها ، فاستولى على لپتس Leptis العظيمة وغيرها من المدن ، وما زال على هذه الخطة حتى سيطر بها على جميع المسالك البرية المؤدية إلى العاصمة المنهوكة القوى . وإذا كانت المعاهدة المعقودة بين رومة وقرطاجنة تحرم على ثانيتهما الاشتباك فى حرب إلا برضاء أولاهما فقد أرسلت قرطاجنة سفراء من عندها إلى مجلس الشيوخ فى رومة ليحتجوا على عدوان مسينسا . فما كان من هذا المجلس إلا أن نبه هؤلاء السفراء إلى أن الفينيقيين على بكرة أبيهم دخلاء فى إفريقية ، وأنهم ليس لهم فيها حقوق تضطر أية أمة مسلحة أن تحترمها . فلما أدت قرطاجنة إلى رومة آخر الإقساط السنوية الخمسين من الغرامة المفروضة عليها بمقتضى معاهدة زاما وهى ٢٠٠ تالنت ظنت أنها بهذا الأداء قد تحررت من التزاماتها ، وأعلنت الحرب على

نوميديا فى عام ١٥١ ، وفى السنة الثالية أعلنت رومة الحرب على قرطاجنة
ووصل هذا النبأ الأخير إلى مسامع القرطاجنيين ، ووصل معه أن الأسطول الرومانى قد أقلع إلى إفريقية . ولم تكن المدينة القديمة مستعدة لخوض غمار حرب عوان مهما يكن من كثرة سكانها وضخامة تجارتها ؛ ذلك أن جيشها كان صغيراً وأن أسطولها كان أصغر من جيشها ، ولم يكن لها جنود مرتزقة ولا حلفاء يضاف إلى هذا أن رومة كانت تسيطر على البحار ، ومن أجل هذا أعلنت أتكا انضمامها إلى رومة ، وحال مسينسا بين قرطاجنة وبين الاتصال بالأرض التى خلفها فى القارة الإفريقية ، وأرسلت قرطاجنة بعثة عاجلة إلى رومة وأمرتها أن تجيبها إلى جميع مطالبها فوعدها مجلس الشيوخ الرومانى بأنه إذا أسلمت قرطاجنة إلى القنصلين الرومانيين فى صقلية ثلثمائة من أبناء أشرف الأسر فيها ليكونوا رهائن لديهما ، وأجابت القنصلين إلى جميع مطالبهما أيا كانت هذه المطالب ، احتفظت فى نظير ذلك بحريتها وسلامة أرضها ؛ وأرسل مجلس الشيوخ أوامر سرية إلى القنصلين لينفذا ما صدر إليهما قبل من الأوامر . وأسلم القرطاجنيون أطفالهم بقلوب واجفة وعيون باكية ، واحتشد آباؤهم عند شاطئ البحر يودعونهم . وهم فى أشد الألم والحسرة ، وحاولت أمهاتهم فى آخر لحظة أن يمنعن السفن من المسير ، وألقت بعضهن أنفسهن فى الماء ، وأخذن يسبحن فيه ليلقين آخر نظرة على أطفالهن . وأرسل القنصلان الأطفال إلى رومة ، وعبر البحر إلى يتكا Utca على رأس الجيش والأسطول ، واستدعيا سفراء قرطاجنة ، وطلبا أن تسلم بلدهما كل ما بقى لها من السفن ، وكمية كبيرة من الحبوب وجميع الأسلحة والمعدات الحربية . فلما أجيبت هذه المطالب كلها ، طلب القنصلان بعدئذ أن يخرج جميع سكان قرطاجنة منها ، وأن يقيموا على بعد عشرة أميال من المدينة ، لأنهما سيأمران بإحراقها عن آخرها . وحاول السفراء عبثاً أن يقنعوا الرومان بأن تدمير مدينة أسلمت إلى أعدائها رهائن من أهلها وجميع أسلحتها من غير قتال غدر وخيانة

لا نظير لهما فى التاريخ كله . وعرضوا ان يقدموا حياتهم فداء لمدينتهم وتكفيرا عما عساها أن تكون قد اقترفته من الذنوب ، وخروا على الأرض سجداً وأخذوا يضربونها برؤوسهم . فأجابهم القنصلان بقولهم إن هذه هى شروط مجلس الشيوخ وإنهما لا يستطيعان أن يغيرا منها شيئاً .

ولما سمع أهل قرطاجنة بما هو مفروض عليهم جن جنونهم ، وطاشت أحلامهم ، فأخذ آباء الأطفال الذين أسلموا رهائن إلى رومة يقطعون أجسام القواد الذين أشاروا بتسليمهم ، وقتل آخرون القواد الذين أشاروا بتسليم السلاح ، وأخذ غيرهم يجرون السفراء العائدين فى شوارع المدينة ويرجمونهم بالحجارة ، ومنهم من قتلوا كل من وجدوهم فى المدينة من الإيطاليين ، ومنهم من وقفوا فى دور الصناعة الخالية من السلاح يبكون وينتحبون . وأعلن مجلس شيوخ قرطاجنة الحرب على رومة ، وأهاب بكل من فيها من البالغين رجالا ونساء ، أرقاء وأحراراً ، أن يجيشوا جيشاً جديداً ، وأن يصنعوا أسلحة جديدة يدافعون بها عن المدينة . وثبت الغضب قلوبهم ، وقوى عزائمهم ، وأخذوا يهدمون المبانى العامة لينتفعوا بما فيها من خشب وحديد ، وصهرت تماثيل الآلهة الأعزاء لتصنع منها السيوف ، وجزت شعور النساء لتصنع منها الحبال ، ولم يمض على المدينة المحصورة إلا شهران حتى أخرجت ٨٠٠٠ درع ، ١٨٠٠٠ سيف ، ٣٠٠٠٠ حربة ، وستين ألف قذيفة منجنيقية ، وبنت فى مينائها الداخلى عمارة بحرية مؤلفة من ١٢٠ سفينة(٤٩) .

وقاومت المدينة الحصار براً وبحرا ثلاث سنين ، كان القنصلان فى خلالهما يهاجمان أسوارها بجيوشهما ، وكانا فى كل مرة يرتدان عنها خائبين . ولما كان سبيو إيمليانس وحده — وهو أحد التربيونين العسكريين — هو الذى أظهر فى هذا الحصار براعة ودهاء ؛ فقد عينه مجلس الشيوخ الرومانى والجمعية قنصلا وقائداً فى عام ١٤٧ ، ولم يعارض هذا التعيين أحد حتى كاتو نفسه . ولم يمض على ذلك إلا قليل حتى نجح ليليوس فى تسلق أسوار المدينة . ودافع القرطاجنيون

عنها شارعاً شارعاً ، وإن كان الجوع قد أضناهم وأهلك الكثيرين منهم ، ولكنهم واصلوا دفاعهم ستة أسابيع كاملة ، وأعداؤهم يحصدونهم حصداً بلا شفقة ولا رحمة . ولما رأى سپيو أن قناصة الأعداء يصيدون رجاله وهم كامنون وراء الجدران ، أمر أن تشعل النيران فى كل الشوارع التى يستولون عليها ، وأن تدك مبانيها دكاً ، فاحترق فى اللهب كثير من الجنود المختبئين فى الدور . ووجد القرطاجنيون آخر الأمر أن لا بد لهم من التسليم بعد أن نقص عددهم من خمسمائة ألف إلى خمسة وخمسين ألفاً . وطلب قائدهم هزدروبال أن يؤمن على حياته فأجابه سبيو إلى ما طلب ، ولكن زوجته عيرته بجبنه وألقت بنفسها وبأولادها فى اللهب . وبيع من بقى من الأهالى حياً فى سوق الرقيق ، وأسلمت المدينة إلى الجيوش الرومانية ينهبونها ويعيثون فيها فساداً . وأحجم سبيو عن تدميرها ، وأرسل إلى مجلس الشيوخ يسأله رأيه الأخير ، فرد عليه المجلس بأن قرطاجنة نفسها وكل ما انضم إليها فى الحرب من البلاد التابعة لها يجب أن تدمر عن آخرها ، وأن تحرث أرضها وتغطى بالملح ، وأن تصب اللعنات على كل من يحاول بناء شىء فى موضعها ، وظلت النار مشتعلة فى المدينة سبعة عشر يوما كاملة .

ولم يعقد صلح أو توقع معاهدة ، لأن الدولة القرطاجنية لم يبق لها وجود ، وتركت يتكا Utica وغيرها من مدن إفريقية التى ساعدت رومة حرة تحت حمايتها ؛ وأما ما بقى من أملاك قرطاجنة فقد جعل ولاية خاضعة لرومة وسمى ولاية « إفريقية Africa » . وجاء المموِّلون الرومان وقسموا الأرض ضياعاً ، وورث التجار الرومان التجارة القرطاجنية ، وأضحى الاستعمار العامل المحرك الدافع للسياسة الرومانية ، والغرض السافر الصريح الذى تعمل له عن قصد وتدبير ، وضمت سرقوسة إلى ولاية صقلية الرومانية ، وأخضعت بلاد غالة الجنوبية لتكون هى الطريق البرى لأسبانيا بعد أن خضعت كلها لرومة ، ولم تجد رومة

صعوبة فى إقناع مملكتى مصر وسوريا المصطبغتين بالصبغة الهلينية بالخضوع لى رغبات رومة — كما اضطر پوپليوس **Popilius** أنتيوخوس **Antiochus** الرابع — إلى الخضوع لها بلا قتال . وإذا نظرنا إلى تدمير قرطاجنة وكورنثة فى عام ١٤٦ من الناحية الأخلاقية — وهى نظرة لها شأنها على الدوام فى السياسة الدولية — حكمنا دون تردد بأن هذا العمل من أفظع الفتوح وأشدها وحشية فى التاريخ كله . أما من ناحية الاستعمار وبناء الإمبراطوريات — أى من ناحية السلامة والثراء — فقد كان هذا الفتح حجر الزاوية فى سيادة رومة التجارية والبحرية ، فقد أضحت منذ تلك اللحظة هى المسيطرة على البحر الأبيض المتوسط ، والمتصرفة فى مصائره ، وارتبط تاريخه بتاريخها أوثق ارتباط .

ومات فى أثناء هـذه الحرب من أشعلوا نارها تحيطهم هالة من النصر والفخار : فمات كاتو فى عام ١٤٩ ، ومسينسا فى عام ١٤٨ ، وترك الرقيب الطاعن فى السن(*) أثراً عميقاً فى التاريخ الرومانى وظل الناس قرونا كثيرة يرون فيه الرومانى النموذجى فى عصر الجمهورية ، واتخذه شيشرون فى كتابه **De Senectute** المثل الأعلى للرجال ، وحاول حفيد حفيده أن يأخذ نفسه بفلسفته خالية من فكاهته كما حاول ماركس أورليوس أن يتخذه نموذجا له ينسج على منواله ، وكان فرنتو **Fronto** يهيب بالأدباء اللاتين أن يعودوا إلى أسلوبه البسيط الخالى من الالتواء والتعقيد . ولكنه مع ذلك لم يفلح إلا فى أمر واحد وهو تدمير قرطاجنة ، أما مقاومته للهلينية ومحاولته أن يمنعها من السيطرة على الحياة الرومانية فقد أخفق فيهما كل الإخفاق ، واستسلمت كل نواحى الحياة الرومانية من أدب ، وفلسفة ، وخطابة ، وعلم ، وفن ، ودين ، وأخلاق وعادات ، وملابس ، استسلمت هذه كلها لتأثير اليونان . لقد كان كاتو يكره الفلاسفة اليونان ؛ ولكن حفيده الشهير كان يحيط نفسه بهم ، وظلت العقيدة الدينية التى فقدها هو تضمحل رغم ما بذل من الجهود

(*) يريد كاتو .

لإحيائها وأهم من هذا كله أن الفساد السياسي الذى قاومه فى شبابه أخذ ينتشر ويعظم كلما زادت مخاطر المناصب الحكومية باتساع رقعة الإمبراطورية • وكان كل فتح حربى جديد يزيد فى ثراء رومة كما يزيد فى فسادها ووحشيتها ، وكانت قد كسبت كل حرب خاضت غمارها عدا حرب الطبقات ، وأزال تدمير قرطاجنة آخر عائق قائم فى سبيل الانقسام والفتن فى المدينة ، وجوزيت رومة على تملكها العالم بثورات طاحنة وفتن صماء دامت قرناً من الزمان .

الكتاب الثانی

الثورة

١٤٥ – ٣٠ ق . م

جدول للحوادث التاريخية

مرتبة حسب أزمانها

ق . م	
١٣٩ —	حرب الرقيق الأولى فى صقلية .
١٣٣ —	تعيين تيبيريوس جراكس تريبوناً واغتياله
١٣٢ وما بعدها —	لوسليوس پانيتيوس فى رومة .
١٢٤ — ١٢٣	كيوس جراكس تريبون .
١٢٢ —	كيوس جراكس يبدأ نظام توزيع الحبوب من قبل الدولة .
١٢١ —	انتحار كيوس جراكس تريبون .
١١٩ —	ماريوس تريبون .
١١٦ —	ثم بريتور .
١١٣ — ١٠١	حروب رومة ضد السمبريين والتيوتون .
١١٢ — ١٠٥	الحرب اليجرثية .
١٠٧ ، ١٠٤ — ١٠٠ ، ٧٨	ماريوس قنصل .
١٠٦ —	مولد شيشرون وپمپى .
١٠٥ —	السمبريون يهزمون الرومان قرب أروسيو .
١٠٣ — ٩٩	حرب الرقيق الثانية فى صقلية .
١٠٣ — ١٠٠	سترنيوس تريبون .
١٠٢ —	ماريوس يهزم السمبريين عند أكواسكستيا .
١٠٠ —	ماريوس يقهر سترنيوس ؛ مولد يوليوس قيصر .
٩١ —	إصلاحات م . ليڤيودروسس واغتياله .
٩١ — ٨٩	الحرب الاجتماعية فى إيطاليا .
٨٨ —	صلا قنصل ؛ فرار ماريوس .
٨٨ — ٨٤	الحرب المثرداتية الأولى .
٨٧ —	تمرد سنا وماريوس ؟ حكم الإرهاب المتطرف .
٨٦ —	صلا يستولى على أثينة ويهزم أركيلوس فى قيرونية .
٨٦ —	ماريوس وسنا يخلعان صلا ؛ موت ماريوس .
٨٥ — ٨٤	القنصليتان الثالثة والرابعة وموت سنا .
٨٣ — ٨١	الحرب المثرداتية الثانية .

ق . م	
٨٣ —	صلا ينزل فى برنديزيوم .
٨٢ —	صلا يستولى على رومة . حكم الإرهاب الرجعى .
٨١ —	القوانين الكرنيلية لصلا .
٨٠ — ٧٢	ثورة سرتوريوس فى أسبانيا .
٧٩ —	استقالة صلا وموته فى عام ٧٨
٧٦ وما بعدها —	ڤرو .
٧٥ — ٦٣	الحرب المثرداتية الثالثة — انتصارات لوكس وپمپى .
٧٥ —	شيشرون يعين كوسترا فى صقلية .
٧٣ — ٧١	حرب الرقيق الثالثة : إسپارتكوس وپمپى .
٧٠ —	كراسس وپمپى قنصلان للمرة الأولى . محاكمة ڤرس . مولد ڤرجيل .
٦٩ —	تيڤس پمپى نپوس أنكس .
٦٨ —	قيصر كوستر فى أسبانيا .
٦٧ —	پمپى يخضع القراصنة .
٦٦ —	كتاب شيشرون **Pro lege manilia** .
٦٣ —	شيشرون يفضح كتلين . مولد أكتاڤيوس .
٦٣ — ١٢	م . ف أجرپا .
٦٢ —	قيصر بريتور مهندس . مسلك كلوديوس السيئ .
٦١ —	قيصر حاكم فى أقاصى أسبانيا . عودة پمپى . وانتصاره .
٦٠ —	الحكومة الثلاثية الأولى : قيصر وكراسس وپمپى .
٦٠ — ٥٤	قصائد كاتلس ؛ كونليوس نيپوس .
٥٩ —	قيصر قنصل .
٥٨ —	كلوديوس تربيون يخرج شيشرن من البلاد ؛ قيصر يهزم هلڤتى وأريوڤستس فى غالة .
٥٧ —	عودة شيشرون ؛ قيصر يهزم بلجا .
٥٦ —	التقاء أعضاء الحكومة فى لوكا .
٥٥ —	پمپى وكراسس قنصلان ، ملهى پومپى؛ قيصر فى ألمانيا وبريطانيا .
٥٤ —	غزو قيصر لبريطانيا للمرة الثانية .
٥٣ —	أعمال العنف التى قام بها كلوديوس وميلو فى رومة ، هزيمة كراسس فى كارهى .
٥٢ —	مقتل كلوديوس ؛ محاكمة ميلو ؛ پمپى ينفرد بالقنصلية ؛ ثورة ڤرسنجتركس .
٥١ —	شيشرون حاكم قليقية ؛ كتاب شيشرون **de re publica** ، كتاب كتاب قيصر **de bello Gallico**

رقم	
٥٩ —	قيصر يعبر الربكون ويستولى على رومة .
٤٨ —	معركتا دراكيوم وفرسالس .
٤٨ — ٤٧	قيصر فى مصر وسوريا ؛ فتروفيوس المهندس المعمارى ؛ كولوملا النباتى .
٤٧ —	انتصار قيصر فى زيلاوثبسوس ؛ انتحار كاتو الأصغر .
٤٦ —	قيصر يعين دكتاتورا لمدة عشر سنوات ، تعديل التقويم ، سالست المؤرخ كتاب شيشرون **Pro marcello** .
٤٥ —	قيصر يهزم أنصار پمپى فى أسبانيا ؛ كتابا شيشرون **Academica De Finibus** .
٤٤ —	اغتيال قيصر ؛ كتب شيشرون **Disputationes Tusculanaec De nature pecorum, De officii** .
٤٣ —	الحكومة الثلاثية الثانية ؛ أنطونيوس ، وأكتاڤيان وليپدوس ، مقتل شيشرون .
٤٢ —	موت بروتس وكاسيوس فى فلپاى .
٤١ —	أنطونيوس وكليوبطره فى طرطوس .
٤٠ —	صلح أنطونيوس وأكتاڤيان فى برنديزيوم ، نشيد الرعاة الرابع لڤرجيل .
٣٦ —	أنطونيوس يغزو بارثيا .
٣٢ —	أنطونيوس يتزوج كليوبطرة .
٣١ —	أكتاڤيان يهزم أنطونيوس فى أكتيوم .
٣ —	انتحار أنطونيوس وكليوبطرة ؛ ضم مصر إلى الإمبراطورية ؛ أكتاڤيان يحكم رومة بمفرده .

الباب السادس

الثروة الزراعية

١٤٥ – ٧٨ ق . م

الفصل الأول

العوامل التي هيأت البلاد للثورة

كان للثورة أسباب كثيرة ، وكان لها نتائج يخطئها الحصر ، وكانت الشخصيات التي أطاحت بها الأزمة من ابتداء ابني جراكس إلى أغسطس من أقوى الشخصيات في التاريخ ، ولم تنشب قط قبل الحرب أو بعدها إلى أيامنا هذه حرب كان لأهدافها من الخطر مثل ما كان لتلك الحرب ، ولم تمثل على المسرح العالمي في يوم من الأيام مأساة ما تمثيلا أقوى مما مثلت به مأساة تلك الأيام . وكان أول أسباب هذه الثورة تدفق الحبوب الناتجة من عمل الرقيق في صقلية وسردانية وأسبانيا وإفريقية ، وما أحدثه تدفقها من خراب حل بالزراع الإيطاليين ، إذ خفض ثمن الحبوب التي تنتجها أراضيهم إلى أقل من تكاليف إنتاجها . وكان سببها الثاني تدفق الرقيق الذين حلوا محل الزراع في الريف والعمال الأحرار في المدن ، وكان ثالث هذه الأسباب زيادة عدد الضياع الواسعة . وكانت الدولة قد أصدرت في عام ٢٢٠ قانوناً يحرم على أعضاء مجلس الشيوخ أن يتعاقدوا على الأعمال العامة أو يستثمروا أموالهم في التجارة ، فلما أن زاد ثراؤهم من غرائم الحرب اشتروا بهذه الأموال مساحات واسعة من الأراضي الزراعية . وكانت الأرض في البلاد المفتوحة تقسم في بعض الأحيان قطعاً صغيرة وتباع للرومان

المستعمرين ، وقلت بذلك حدة الفتن والنزاع القائمين فى المدن ؛ وأعطى جزء كبير من هذه الأراضى للممولين وفاء ببعض ما أقرضوه للدولة من أموال فى أثناء الحروب ، أما الجزء الأكبر منها فقد ابتاعه أعضاء مجلس الشيوخ ورجال الأعمال أو استأجروه بشروط حددها مجلس الشيوخ نفسه . وكان من أثر انتشار هذه الضياع الواسعة أن اضطر المالك الصغير إلى اقتراض المال بأرباح فاحشة يستحيل عليه الوفاء بها ، فلم يلبث أن وقع فى هاوية الفقر أو الإفلاس أو فقد أرضه ونزح إلى المدن ليسكن فى أحيائها القذرة الحقيرة الوبيئة . وآخر ما نذكره من أسباب الثورة ما طرأ على حال الفلاح نفسه من تغيير كبير لقد جند هذا الفلاح فى فى الجيش وهيأت له انتصاراته سبيل انتهاب الثروة من العالم ، وأصبح يكره العمل الانفرادى الرتيب الخالى من المغامرات فى الحقول ولا يستطيع الصبر عليه ، وكان أحب إليه من هذا العمل أن ينضم إلى صعاليك المدينة المشاغبين ، ويرقب الألعاب المثيرة فى المجتلدات بلا أجر ، ويأخذ الحبوب من الحكومة بأرخص الأثمان ، ويبيع صوته فى الانتخابات لمن يبتاعه بأغلى الأثمان أو لمن يمنيه بأعظم الأمانى ، ويختفى فى غمار الجماهير المعدمة الخاملة الوضيعة .

وأصبح المجتمع الرومانى يزداد اعتماده شيئاً فشيئاً على الانتهاب من الخارج واسترقاق فى الداخل ، بعد أن كان فى أول الأمر مؤلفاً من زراع أحرار . فأما فى المدن فكانت كل الخدمات المنزلية ، وكان كثير من الصنائع اليدوية . ومعظم الأعمال التجارية ، وكثير من الأعمال المصرفية ، وكل أعمال المصانع والأشغال العامة ، كانت هذه الأعمال كلها يقوم بها الأرقاء ، وقد أدى ذلك إلى انخفاض أجور العمال الأحرار انخفاضاً يكاد يجعل الكدح والبطالة فى الكسب سواء . وكان الأرقاء فى الضياع الواسعة يفضلون على العمال الأحرار لأنهم لم يكونوا يلزمون بالخدمة العسكرية ، لأن عددهم كان يمكن الاحتفاظ به جيلا بعد جيل نتيجة المتعة الوحيدة التى كان يسمح لهم بها أو نتيجة الرذيلة التى كان ينهمك فيها

سادتهم(*) ؛ وكانت الغارات لا تنقطع على بلاد البحر الأبيض المتوسط كلها للمجيء بالأداة الحية اللازمة للمزارع التي تصنعت . وكان يضاف إلى أسرى الحرب الذين يساقون إلى رومة بعد كل معركة تنتصر فيها جيوشها ضحايا القراصنة الذين كانوا يقبضون على العبيد أو الأحرار على سواحل آسية أو بالقرب منها ، وضحايا الموظفين الرومان الذين كانوا يقتنصون الناس اقتناصاً منظماً ويستعبدون من أهل الولايات كل من لا يجرؤ حكامها المحليون على حمايته(1) . ولم يكن يمضي أسبوع لا يأتي فيه النخاسون بفرائسهم البشرية من إفريقية ، واسپانية ، وغالة ؛ وألمانية ، والبلاد الواقعة على ضفتي نهر الطونة ، والروسيا ، وآسية ، واليونان — من هذه الأقاليم كلها إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود . ولم يكن من هذه الحوادث غير المألوفة أن يباع في ديلوس مائة ألف من الأرقاء في يوم واحد . وقد قبضت الجيوش الرومانية في عام ١٧٧ على أربعين ألفاً من أهل سردانية ، وفي عام ١٦٧ على مائة وخمسين ألفاً من أهل أپيروس ، بيعوا في أسواق النخاسة . وكان ثمن الواحد منهم في الحالة الثانية لا يزيد على ما يعادل ريالا أمريكياً(2) . وكان مما خفف من شقاء الأرقاء في المدينة ما كان يبرم من العقود الإنسانية بينهم وبين سادتهم ؛ وما كانوا يطمعون فيه من نيلهم حريتهم ؛ أما في الضياع فلم يكن يسمح للصلات الإنسانية بأن تتدخل في أعمال الاستغلال ؛ فلم يعد العبد في تلك الضياع عضواً في الأسرة كما كان في بلاد اليونان أو في رومة نفسها في عهدها الأول ؛ وقلما كان العبد يرى مالكه ، وكان يطلب إلى الحراس أن يعتصروا من هذه الآلات البشرية الموكولة إلى أسواطهم كل ما يستطيعون اعتصاره منها ، وبقدر هذا الاعتصار يكون أجر هؤلاء الحراس . أما أجر العبد نفسه في الضياع الواسعة فلم يكن يزيد على ذلك القدر من الطعام والكساء الذي يمكنه من أن

(*) يقصد بهذه العبارة تناسل هؤلاء الأرقاء فيما بينهم أو بين النساء وأسيادهن .
(المترجم)

يكدح كدحاً متواصلا فى كل يوم من شروق الشمس إلى غروبها — عدا بعض أيام الأعياد — حتى تدركه الشيخوخة . فإذا شكا أو عصى أمر حارسه ألزم أن يعمل ورجلاه مكبلتان بالأغلال ، وأن يقضى الليل فى جب تحت الأرض ergastulum لا تكاد تخلو منه كل ضيعة واسعة . لقد كان فى هذا النظام من التلف والخسارة الاقتصادية بقدر ما فيه من الوحشية ، لأنه لم يكن يعول إلا نحو جزء من عشرين جزءاً من الأسر التى كانت تعيش من قبل على هذه الأرض نفسها معيشة الأحرار من الناس .

وإذا ذكرنا أن نصف هؤلاء الأرقاء ، إن لم يكن أكثر من نصفهم ، كانوا من قبل أحراراً (لأن الأرقاء قلما كانوا يشتركون فى الحروب) ، كان مقدورنا أن نتصور ما يشعر به هؤلاء البائسون المطحون من مرارة ، ولا يسعنا إلا أن نعجب من ندرة ما كانوا يلجئون إليه من الثورات . وقد حدث فى عام ١٩٦ ، أن ثار أرقاء الريف فى إتروريا وعمالها الأحرار ، ولكن الجيوش الرومانية أرهبتهم « وقتلت الكثيرين منهم وأسرتهم ومنهم من جلدوا أو صلبوا عقاباً لهم على فعلتهم » كما يقول لبى[٣] . وحدثت مثل هذه الثورة عام ١٨٥ فى أپوليا ؛ فقبض على سبعة آلاف من العبيد وحكم عليهم أن يعملوا فى المناجم[٤] . وكان أربعة آلاف من الأرقام الأسبان يعملون فى مناجم قرطاجنة الجديدة وحدها ، وفى عام ١٣٩ شبت نار « حرب الأرقاء الأولى » فى صقلية[٥] ، فقد لبى دعوة إينوس Eunus أربعمائة من الأرقاء وذبحوا الأحرار من أهل مدينة إنا Enna ، ثم أقبلت أفواج العبيد من الضياع ومن الأجباب الخاصة فى صقلية ، فضاعفوا عدد الثوار حتى بلغ سبعين ألفاً . وما لبثوا أن احتلوا أجرجنتم Agrigentum ، وهزموا الجيوش الرومانية التى كانت فى الولاية ، واستولوا على الجزيرة كلها تقريباً ،

واحتفظوا بها حتى عام ١٣١ : وفى تلك السنة حاصرهم جيش القنطل فى إنا ومنع الزاد حتى اضطرهم الجوع إلى الاستسلام : وسيق اينوس الى رومة ، وألقى فى جب تحت الأرض ، وبقى فيه حتى قضى عليه الجوع والقمل(٥) . وقامت للثورات أقل من هذه شأناً انتهت بإعدام مائة وخمسين من الأرقاء فى رومة ، وأربعمائة وخمسين فى منتورنا Menturnae وأربعة آلاف فى سينوسا Sinuessa . وفى تلك السنة استصدر تيبريوس جراكس Tiberius Dracchus القانون الزراعى الذى فتح باب الثورة الرومانيــة على مصراعيه .

الفصل الثانى

تيبيريوس جراكس

هو ابن تيبريوس سمبرينوس جراكس Tiberiue Sempronius Oraccus الذى تدين له أسپانيا بالشكر لأنه حكمها حكماً عادلا كريما ، والذى عين قنصلا مرتين ورقيباً مرة ، والذى أنقذ من الهلاك أخا سپيو الإفريقى وتزوج ابنته ، وأنجبت كرنليا اثنى عشر طفلا توفوا كلهم إلا ثلاثة منهم قبيل البلوغ ، وتحملت هى بعد وفاته عبء تربية تيبريوس وكيوس وأخت لهما — تدعى أيضاً كرنليا — صارت فيما بعد زوجة سپيو إيمليانس ؛ وكان للزوج والزوجة نصيب من الثقافة الهلينية ، وكان ممن يعطفون على الدائرة الثقافية السپيونية ؛ وكان لكرنليا ندوة أدبية ، وكتبت رسائل بأسلوب سليم رشيق جعلها من خير ما كتب فى الآداب اللاتينية ، ويقول أفتوطوخس إن ملكا من ملوك مصر عرض عليها بعد أن ترملت أن تتزوجه ، وأن ينزل لها عن عرشه ؛ فأبت وآثرت أن تبقى ابنة لسپيو ، وحماة لسپيو آخر وأماً لجراكس .

ونشأ تيبريوس وكيوس جراكس فى جو مشبع بطرائق الحكم والفلسفة عرفا فيه مشاكل الحكومة الرومانية ونظريات الفلسفة اليونانية . وقد تأثرا بآراء بلسيوس Blossius وهو فيلسوف يونانى من كومى Cumae بعث فيهما نزعة حرة قوية استخفت بقوة المحافظين فى رومة . ويكاد الأخوان أن يكونا متماثلين فى طموحهما ، وكبريائهما ، وإخلاصهما وفصاحتهما التى لا يكاد يصدقها العقل ، وشجاعتهما التى لا تشوبها قط شائبة . ويحدثنا كيوس أن تيبريوس شاهد مأساة الزراع ، وتأثربها أشد التأثر حين كان مسافراً فى إتروريا ، فرأى قلة السكان ولاحظ أن الذين كانوا يحرثون

الأرض ويرعون قطعان الضأن هم العبيد الأجانب »[٦] ، وإذ كان تيبريوس يعرف وقتئذ أن الملاك وحدهم هم الذين يجندون للخدمة فى الجيش فقد سأل نفسه كيف تستطيع رومة أن تحتفظ بزعامتها أو استقلالها إذا حل محل زراعها الأقوياء الذين كانوا يؤلفون الكثرة الغالية فى الفيالق الرومانية عبيد غرباء لا تربطهم بها صلة ما ؟ وكيف تكون الحياة الرومانية حياة طيبة ، الدمقراطية الرومانية دمقرطية صالحة ، إذا غصت بصعاليك المدن المعدمين بدل الزراع الأباة الأعزاء الذين يمتلكون الأرض ويفلحونها بأنفسهم ؟ وخيل إليه أن توزيع الأرض على المواطنين الفقراء هو الحل الصحيح البين الذى لا بد من الالتجاء إليه لحل المشاكل الثلاث القائمة وقتئذ فى البلاد : الاسترقاق فى الريف ، والازدحام والفساد الخلقى فى المدن وضعف الروح الحربية بين المواطنين .

وما كاد تيبريوس جراكس يختار تربيونا فى مستهل عام ١٣٣ حتى أعلن أنه يعتزم أن يعرض على الجمعية القبلية ثلاثة اقتراحات (١) ألا يسمح لأى مواطن أن يمتلك أكثر من ٣٢٣ فدانا — أو ٦٦٧ فدانا إذا كان له اثنان من الأبناء — من الأراضى المشتراة أو المستأجرة من الدولة (٢) وأن يُرد إلى الدولة كل ما عدا هذا القدر من الأرض العامة التى باعتها أو أجرتها للأفراد ، على أن ترد الدولة لهم أثمانها أو الإيجار الذى أدوه مضافاً إلى قدر من المال نظير ما أنفقوه فى إصلاحها (٣) وأن تقسم هذه الأراضى التى ترد إلى الدولة إقطاعيات مساحة كل منها عشرون فدانا توزع على المواطنين الفقراء على شرط أن يتعهدوا بألا يبيع أحد منهم نصيبه من هذه الأرض ، وأن يؤدوا عنها ضريبة سنوية إلى خزانة الدولة ولم يكن هذا الإصلاح الزراعى خيالا متعذر التنفيذ ، بل كان مجرد محاولة لتنفيذ قوانين ليسنيوس كالفس Licinius Calvus الصادرة فى عام ٣٦٧ ق . م والتى ألغيت ولم تنفذ قط . وقد قال تيبريوس للعامة الفقراء فى إحدى خطبه الشهيرة التى تعد من أعظم الخطب فى التاريخ الرومانى كله :

« إن لحيوانات الأرض جحورها ولطير الهواء أوكارها ومخابئها ،
أما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل إيطاليا فلا يستمتعون فيها
إلا بالضوء والهواء . إن قواد الجيش ينادون جنودهم أن يقاتلوا دفاعاً عن
قبور آبائهم وأضرحتهم ، ولكن نداءهم هذا نداء سخيف باطل ، إذ ليس
فى وسعك أن تدلهم على مذبح لآبائهم يقربون فيه لآلهتهم ، وليس للفقراء
مقابر لأسلافهم . إنكم أيها الفقراء تقاتلون وتموتون لينعم غيركم بالثروة
والترف ، ويقال لكم : إنكم سادة العالم ، ولكنكم لا تجدون فى هذا العالم
موضعاً لقدم ، فى وسعكم أن تقولوا إنه ملك لكم »[٧] .

وأعلن مجلس الشيوخ أن هذه الاقتراحات ليست فى واقع الأمر
إلا مصادرة لأموال الناس ، واتهم تيبيريوس بأنه يعمل ليكون طاغية حاكماً
بأمره ، وأقنع إكتافيوس وهو تريبون آخر أن يستخدم ماله من حق
الاعتراض فى منع عرض المشروع على الجمعية ، فما كان من جراكس
إلا أن تقدم باقتراح يقضى بأن كل تريبون يعمل ضد مصالح من يمثلهم
يجب أن يسقط على الفور من عداد أعضاء الجمعية . ووافقت الجمعية على
هذا الاقتراح وأخرج حرّاس تيبيريوس أكتافيوس قوة واقتداراً من قاعة
الجمعية على الفور ، ووافقت الجمعية بعدئذ على الاقتراحات الأصلية
فأصبحت قانوناً واجب التنفيذ ، ثم أوصلته محروساً إلى منزله لخوفها أن
يغتاله مغتال فى الطريق[٨] .

غير أن تحكمه غير المشروع فى حق التريبون فى الاعتراض ، وهو الحق
الذى جعلته الجمعية نفسها من أقدم الأزمان حقاً مطلقاً غير مقيد بقيد ما ،
قد وضع فى معارضيه سلاحاً يشهرونه فى وجهه ويقضون به على قانونه ؛
فجهروا بعزمهم على أن يتهموه فى نهاية العام الذى يتولى فيه منصبه بالخروج
على دستور البلاد واستخدام العنف ضد أحد التريبونيين . وأراد تيبيريوس
أن يحمى نفسه بالسخرية من الدستور مرة أخرى ، وذلك بترشيح نفسه

لأن يعاد اختياره تريبونا فى عام ١٣٢ . وإذا كان إيمليانس وليليوس وغيرهما من الشيوخ الذين عضدوا اقتراحه الأول قد تخلوا عنه الآن ، فقد لجأ بكليته إلى العامة ووعدهم بأن ينقص إذا اختاروه مدة الخدمة العسكرية ويلغى استئثار الشيوخ بأعمال المحلفين ، وأن يجعل حلفاء رومة من الإيطاليين مواطنين رومانيين . ورفض مجلس الشيوخ فى هذه الأثناء اعتماد الأموال التى طلبتها اللجنة الزراعية التى نيط بها تنفيذ قوانين تيبريوس فلما أوصى أتلس الثالث Atallus III ملك برجموم Pergamum بمملكته لرومة فى عام ١٣٣ عرض جراكس على الجمعية أن تباع أملاك أتلس الخاصة والمنقولة ، وأن يوزع ما يتحصل من بيعها على من نالوا إقطاعات من أراضى الدولة ليبتاعوا بها ما تحتاجه مزارعهم من أدوات ؛ وأثار هذا الاقتراح غضب مجلس الشيوخ لأنه رأى أن ما له من سيطرة على الولايات وعلى الأموال العامة قد أخذت تنتقل إلى جمعية قوية الشكيمة غير ممثلة للبلاد ، معظم أعضائها من أصل وضيع ومن غير أبناء البلاد الأصليين ، فلما كان يوم الانتخاب ظهر جراكس فى السوق العامة بملابس الحداد ومن حوله حراس مسلحون للدلالة على أن هزيمته فى الانتخاب ستؤدى إلى اتهامه وإعدامه . وحدث فى أثناء الاقتراع أن لجأ كلا الطرفين إلى العنف . ونادى سيبو نسكا Seipio Nasica بأن تيبريوس يريد أن ينصب نفسه ملكاً ، وقاد الشيوخ إلى السوق العامة مسلحين بالهراوات . وارتاع أنصار جراكس حين شاهدوا أثواب الأشراف الفخمة فتخلوا عنه ، وأصيب تيبريوس بضربة على أم رأسه خر على أثرها صريعاً وهلك معه بضع مئين من أتباعه . ولما طلب كيوس Caius أخوه الأصغر أن يؤذن له بدفنه لم يجب إلى طلبه ، وألقيت جثث العصاة الموتى فى نهر التيبر وكرنليا فى أثناء ذلك حزينة باكية .

وأراد مجلس الشيوخ أن يهدئ من ثورة العامة فوافق على تنفيذ قوانين جراكس . ويستدل من ازدياد عدد المواطنين المدونة أسماؤهم

فى السجلات بمقدار ٧٦٠٠٠ من عام ١٣١ إلى ١٢٥ على أن مساحات واسعة من الأراضى قد وزعت حقاً على الزراع ، ولكن اللجنة الزراعية وجدت نفسها أمام عقبات كثيرة . ذلك أن كثيراً من الأراضى التى يراد توزيعها كانت قد أخذت من الدولة قبل ذلك الوقت بعدة سنين أو بعدة أجيال ، وأصبح لمن يمتلكونها وقتئذ حقوق اكتسبوها بوضع أيديهم عليها زمناً طويلا ، وأن منها أراضى كثيرة أخرى قد ابتاعها الملاك الجدد بأثمان غالية ممن اشتروها من الحكومة بأثمان منخفضة . ولجأ أحلاف رومة الإيطاليون الذين أضرت القوانين بحقوقهم التى اكتسبوها بوضع اليد إلى سبيو إيمليانس ليحميهم من اللجنة الزراعية ، واستطاع بما له من النفوذ أن يؤجل عملها فاستشاط الرأى العام غضباً عليه لهذا العمل ، واتهمه بالخيانة وعدم الوفاء بذكرى جراكس التى أضحت وقتئذ ذكرى عزيزة مقدسة . وفى صباح يوم من أيام عام ١٢٩ وجد الرجل ميتاً فى فراشه ، وأكبر الظن أن يداً أثيمة قد اغتالته ولم يعرف أحد من هو هذا المغتال

الفصل الثالث

كيوس جراكس

وأخذ النمامون الذين خلت قلوبهم من الرحمة يشيعون أن كرنليا قد ائتمرت مع ابنتها زوجة سپيو المشوهة المكروهة على قتل تيبريوس ؛ وأخذت كرنليا وسط هذه الكوارث الفادحة تواسى نفسها بالعكوف على العناية بابنها الذى لم يبق لها فى هذا العالم عزيز سواه . ولم يكن ما أثاره مقتل تيبريوس فى قلب أخيه كيوس هو مجرد الرغبة فى الانتقام ، بل آثار فيه صادق العزم على أن يتم ما بدأه أخوه . وكان قبلئذ قد أظهر كثيراً من الذكاء والشجاعة فى أثناء خدمته بقيادة إيميليانس فى نوماتيا ، ونال إعجاب الناس على اختلاف مشاربهم باستقامته وبساطة معيشته ، وكان رجلا حاد المزاج جياش العواطف ، إذا ثار زادت حدتها لطول كبتها ، وقد أصبح بفضلها أعظم خطباء الرومان قبل أيام شيشرون ، وفتحت أمامه أبواب المناصب كلها تقريباً فى مجتمع كان للفصاحة فيه المحل الثانى بعد الشجاعة فى رقى الرجال وبلوغهم أسمى المراتب . لهذا كله اختير تربيونا فى خريف عام ١٢٤ .

وكان كيوس رجلا واقعياً أكثر من أخيه ، ومن ثم أدرك أن لا بقاء لأى إصلاح إذا لم يقو على مغالبة القوة الاقتصادية أو القوة السياسية فى الدولة ، ولذلك استقر رأيه على أن يضم إلى جانبه خمس طبقات من طبقات الشعب المختلفة : طبقة الزراع ، والجيش وعامة المدن ورجال الأعمال . فأما الطبقة الأولى فقد ضمها إليه بالعودة إلى القوانين الزراعية التى سنها أخوه ، ووسع مداها بأن طبقها على الأراضى الزراعية التى تمتلكها الدولة فى الولايات التابعة لها ، ثم أعاد تشكيل لجنة الأراضى ، وأشرف بنفسه على أعمالها . وحقق مطامع الطبقات الوسطى بإنشاء مستعمرات جديدة فى كبوا ، وتارنتم وناربو Narbo ، وقرطاجنة ، وبتنمية هذه

المستعمرات وجعلها مراكز مزدهرة للتجارة . وأرضى الجنود بأن قرر أن تؤدى أثمان ملابسهم من الخزانة العامة ، وأرضى عامة المدن بإصدار قانون الحبوب lex frumentaria وبمقتضاه أخذت الحكومة على نفسها أن تعطى القمح لكل من يطلبه بسعر ستة آسات وثلث آس لكل موديوس Modius (أى بما يعادل $\frac{٣٦}{١٠٠}$ من الريال الأمريكى لكل جالونين) وهو نصف ثمنه فى السوق . وكان هذا العمل الأخير صدمة عنيفة للمبادئ الرومانية القديمة – مبادئ الاعتماد على النفس – كما كان له آثار خطيرة فى التاريخ الرومانى كله . وكان كيوس يعتقد أن تجار الحبوب يبيعونها للجمهور بضعفى نفقات إنتاجها ، وأن الإجراء الذى اتخذه لن يكلف الدولة خسارة ما لأن توحيد عمليات البيع والشراء سينزل بالنفقات إلى حد كبير . وسواء كان هذا أو لم يكن فإن القانون قد جعل الفقراء من سكان المدن الأحرار يناصرون ابنى جراكس ويناصرون من بعدهما مارينوس وقيصر بدل أن كانوا موالى للأشراف وأتباعاً لهم ، يعملون لإطعامهم وتوفير أسباب الترف لهم ، كما كان عماد الحركة الدمقراطية التى بلغت ذروتها فى كلوديوس Clodius وقضى عليها فى أكتيوم .

وكان الإجراء الخامس يهدف إلى تثبيت سلطان الحزب الذى ينتمى إليه بالقضاء على السنة المتبعة من زمن قديم والتى تجعل الأغنياء يقترعون فى الجمعية المئوية قبل غيرهم من الطبقات ، فاستبدل كيوس بهذه السنة تقليداً جديداً يجعل المئات فى الجمعية يعطون أصواتهم حسب نظام يعين بالقرعة . ثم استرضى رجال الأعمال بأن جعل لهم وحدهم حق العمل محلفين عند النظر فى جرائم الولايات ، فأصبحوا بذلك حكاماً فى قضاياهم إلى حد بعيد . ولم يكتف بهذا بل أراد أن يستثير مطامعهم فاقترح أن تفرض على جميع غلات آسية الصغرى ضريبة توازى عشر هذه الغلات يجبونها هم أنفسهم . ثم زاد ثراء المقاولين ، وأنقص عدد المتعطلين ، بأن وضع برنامجاً لإنشاء الطرق فى كافة أنحاء إيطاليا . ولقد

كانت هذه القوانين فى جملتها - رغم ما يغشى بعضها من خداع سياسى - أعظم مجموعة من التشريع الإنشائى سنت لرومة قبل أيام قيصر .

واستطاع كيوس باعتماده على هـذا العون المتعدد النواحى أن يطرح ما جرت به العادة من قديم ، وأن يُختار تربيوناً للمرة الثانية . وأكبر الظن أنه قد فكر فى ذلك الوقت فى السيطرة على مجلس الشيوخ بإضافة ثلثمائة عضو جديد إلى أعضائه الثلثمائة ، تختارهم الجمعية من بين رجال الأعمال . واقترح كذلك أن يعطى حق الانتخاب كاملا لجميع الأحرار من سكان لاتيوم ، وأن يعطى هذا الحق منقوصاً إلى سائر الأحرار من سكان إيطاليا . وكانت هذه أجرأ حركة قام بها فى طريق الدمقراطية السياسية ، ولكنها كانت أيضاً أول ما ارتكب من أغلاط فى خططه . ذلك أن من كان لهم حق الاقتراع لم يتحمسوا كثيراً لأن يشترك معهم غيرهم فى هذه الميزة التى اختصوا بها حتى ذلك الوقت ، ولو كان شركاؤهم فيها قوم لا يستطيع حضور جلسات الجمعيات فى رومة إلا أقلية صغيرة منهم . ولم يدع مجلس الشيوخ هذه الفرصة تفلت من بين يديه ، ذلك أن كيوس كاد يتجاهله ولا يحسب له حساباً حتى ظن أنه قد فقد كل ما كان له من قوة ومكانة فى البلاد ، ولم ير فى هذا التربيون النابه لا زعيماً شعبياً مستبداً يريد أن يستحوذ لنفسه على أكبر قسط من السلطة بتوزيع أملاك الدولة وأموالها ذات اليمين وذات الشمال . ولاح له فجأة حليف جديد هو صعاليك رومة الغيورون على حقهم القديم ، وانتهز فرصة غياب كيوس ، وكان قد غادر رومة ليثبت قواعد مستعمرته الجديدة فى قرطاجنة ، فأشار على تربيون آخر هو ماركس ليڤيوس دروسس **Marcus Livius Drosus** أن يضم إليه الزراع الجدد بإصدار قانون يلغى به الضرائب المفروضة على أراضيهم بمقتضى قوانين جراكس ، وأن يسترض صعاليك المدن ويضعفهم فى الوقت نفسه بأن يقترح إنشاء اثنتى عشرة مستعمرة جديدة فى إيطاليا تتسع كل واحدة منها لثلاثة آلاف من رجال رومة . ووافقت الجمعية من فورها

على هذين المشروعين ، ولما عاد كيوس وجد دروسس قد كسب قلوب الشعب ، ينازعه الزعامة عند كل خطوة يخطوها . ورشح كيوس نفسه لأن يختار تريبيونا مرة ثالثة ولكنه هزم ، وقال أصدقاؤه إنه انتخب ولكن أصوات الناخبين قد تناولها الغش والتزوير ، غير أنه نصح أتباعه بألا يلجئوا إلى وسائل العنف واعتزل السياسة وفضل عليها الحياة الخاصة .

وأشار مجلس الشيوخ فى العام الثانى أن تجلو رومة عن المستعمرة المنشأة فى قرطاجنة ، وفسرت الأحزاب جميعها هذا الاقتراح – سراً أو جهراً – بأنه مقدمة لحرب يشنها المجلس على قوانين جراكس لإلغائها . وجاء بعض أنصار جراكس إلى الجمعية مسلحين ، وقتل أحدهم رجلا من المحافظين همّ بالقبض على كيوس . فما كان من أعضاء مجلس الشيوخ إلا أن خرجوا فى اليوم الثانى على استعداد تام للقتال ، ومع كل منهم عبدان مسلحان ، وهاجموا أنصار جراكس المتحصنين فوق تل الأڤنتين . وبذل كيوس كل ما فى وسعه لتسكين الفتنة ، ومنع اعتداء كلتا الطائفتين على الأخرى ؛ فلما عجز عن ذلك ولى هارباً وعبر نهر التيبر ، ولما أن لحقه أعداؤه أمر خادمه أن يقتله ، وصدع الخادم بالأمر ثم قتل نفسه . وقطع أحد أصدقاء كيوس رأس صديقه ، وحشاها بالرصاص المصهور ، وحملها إلى مجلس الشيوخ ، وكان المجلس قد أعلن أنه يكافئ من يأتيه بهذا الرأس بما يساوى وزنه ذهباً(٩) . وقتل من أنصار كيوس فى المعركة مائتان وخمسون ، وأعدم ثلاثة آلاف غيرهم تنفيذاً لقرار أصدره مجلس الشيوخ ؛ ولما ألقيت جثته وجثث أتباعه فى نهر التيبر لم يحتج على هذا العمل غوغاء المدينة الذين كان يعمل لخيرهم ، ذلك أن هؤلاء الغوغاء كانوا وقتئذ فى شغل عن هذا الاحتجاج بنهب بيته(١٠) : وحرم مجلس الشيوخ على كرنليا أن تلبس ثياب الحداد حزناً على ولدها .

الفصل الرابع

ماريوس

واستخدم الأشراف الظافرون كل ما وهبوا من ذكاء لهدم العناصر الإنشائية من تشريعات كيوس لا العناصر التى أراد بها كسب محبة الشعب الرومانى . فلم يجرءوا مثلا على إخراج رجال الأعمال من منصب المحلفين فى القضايا ، أو أن يحرموا المكاسين والمقاولين مرابع صيدهم الوفيرة فى آسية ، ورضوا بأن يظل توزيع الحبوب على الأهلين كما كان حتى لا يثور الشعب . ثم أفسدوا ذلك القرار الصالح قرار توزيع الأراضى على الفقراء بأن أضافوا إليه مادة تجيز لملاك هـذه الأراضى الجديدة أن يبيعوها ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى باع آلاف منهم ما يمتلكون إلى كبار ملاك الرقيق ، وأخذت الضياع الكبيرة تعود إلى سابق عهدها . ثم ألغيت لجنة الأراضى فى عام ١١٨ ، ولم تحتج الجماهير فى العاصمة على الإلغاء ، لأن الجماهير قد عقدت النية على أن الأكل من قمح الدولة فى المدينة خير من فلح الأرض أو الكدح فى المستعمرات الناشئة . وتعاون الكسل والتخريف (ونقول التخريف لأن أرض قرطاجنة كانت فى زعمهم أرضاً منحوسة ملعونة) على إبطال كل محاولة بذلت قبل أيام قيصر للتخفيف من حدة الفقر بالهجرة إلى خارج البلاد . وزاد ثراء الأثرياء ولكن عدد الأثرياء لم يزد على ما كان من قبل ، وقد قرر أحد الدمقراطيين المعتدلين فى عام ١٠٤ أن عدد الملاك من المواطنين الرومان لا يزيد على ألفى مالك[١١] . وفى ذلك يقول أپيان Oppian : « إن الفقراء قد أصبحت حالهم أسوأ مما كانت من قبل وقد كانت من قبل سيئة » . . . فقد خسر العامة كل شىء . . وظل عـدد المواطنين والجنود يتناقص تناقصاً مطرداً »[١٢] وكان لا بد من سد النقص فى صـفوف الجند بمجندين من الولايات

الإيطالية ، ولكن هؤلاء لم يكن لهم صبر على القتال ، ولم تكن قلوبهم عامرة بحب رومة ؛ وأخذ عدد الفارين من الجند يتضاعف على مدى الأيام ، واختل النظام فى الجيش وانحطت قدرة المدافعين عن الجمهورية إلى أدنى حل:

ولم تلبث أن هاجمها الأعداء ، وكاد هجومهم عليها أن يكون من الشمال ومن الجنوب وفى وقت واحد . ذلك أن قبيلتين من قبائل الكلت وهما قبيلتا السمبريين والتيوتون انحدرت جموعهما كالسيل الجارف فاخترقت لألاليا عام ١١٣ فى عربات مغطاة ، وكانت عدتهم ثلثمائة ألف من المحاربين، ومعهم أزواجهم وأبناؤهم ودوابهم ، وكأنهم أرادوا أن يشعروا رومة بما يتهددها من أخطار فى المستقبل القريب ، ولعل هؤلاء الأقوام قد ترامى إليهم من فوق جبال الألب أن رومة قد افتتنت بالثروة وكرهت الحرب . وكان القادمون الجدد طوال القامة ، أقوياء البنية ، شجعاناً لا يجد الخوف سبيلا إلى قلوبهم ، وكانوا بيض البشرة شقر الشعر حتى قال عنهم الإيطاليون إن شعر أطفالهم أبيض كشعر الشيوخ . والتقوا بجيش رومانى فى نوريا Noreia وهى نورماكت Neurmarkt الحالية فى كارنثيا) وأفنوه عن آخره ؛ ثم عبروا نهر الرين وهزموا جيشاً رومانياً آخر ، ثم تدفقوا غرباً إلى غالة الجنوبية وبددوا شمل جيش رومانى ثالث ورابع وخامس ، وأسفرت معركة أروسيو Arausio (أورنج) عن قتل ثمانين ألفاً من الجيوش الرومانية النظامية ، وأربعين ألفاً من المدليين الذين يتعقبون معسكرات الجنود(١٣) . وتفتحت أبواب إيطاليا بعد هذه المعارك أمام الغزاة ، واستوى الرعب على رومة وكان رعباً لم تعرف له مثيلا منذ أيام هنيبال .

وفى الوقت عينه تقريباً شبت نار الحرب فى نوميديا . وذلك أن يوجورثا Jugurtha حفيد هاسنسا عذب أخاه تعذيباً انتهى بموته وحاول أن يحرم أبناء عمه حقهم فى الملك ، فأعلن مجلس الشيوخ الحرب عليه فى عام ١١١ لعله يستطيع أن يجعل نوميديا ولاية رومانية ويفتح أبوابها للتجارة ولرؤوس

الأموال الرومانية ، واستطاع يوجورثا أن يبتاع بالمال بعض الأشراف ليدافعوا عن قضيته وعن جرائمه أمام مجلس الشيوخ ، وأن يرشوا القواد الذين أرسلوا لقتاله ، فعقدوا معه صلحا مواتيا أو اكتفوا بمناوشات لا تلحق به أذى . ولما استدعى إلى رومة كان أكثر سخاء منه قبل قدومه إليها ، واستطاع بذلك أن يعود إلى عاصمته دون أن تقام فى سبيله العقبات(١٤) .

ولم يخرج من هذه الحروب موفور الكرامة سليم الشرف إلا ضابط واحد هو جايوس ماريوس Gaius Marius . وقد ولد هذا القائد كما ولد شيشرون فى أربينوم Arpinum وكان والده عاملا يتقاضى أجراً يومياً قليلا ، وتطوع فى الجيش وهو صغير السن ، وأصيب بعدة جراح فى نومنتيا Numantia ، وتزوج من عمة لقيصر ، واختير تريبونا رغم جهله وسوء أخلاقه أو بسبب جهله وسوء أخلاقه . ولما عاد من الخدمة العسكرية فى خريف عام ١٠٨ ، وكان وقتئذ ياوراً لكونتس متلس Quintus Meteitus القائد الضعيف العاجز فى إفريقية ، اعتلى منصة للخطابة وطلب أن يختار قنصلا بدل متلس ، وقطع على نفسه عهدا إذا اختير لهذا المنصب أن يقود الجيوش الرومانية إلى النصر فى الحرب اليوجورثية . فأجابه الشعب إلى طلبه ، وتولى قيادة الجيش ، وأرغم يوجورثا على الاستسلام له فى عام ١٠٦ ، ولم يعلم الشعب وقتئذ أن أكبر من عمل للنصر فى هذه الحرب شاب جرىء من الأشراف هو لوسيوس صلا Lucus Sulla وإن كان قد عرف منه ذلك فيما بعد . أما فى ذلك الوقت فقد استمتع ماريوس بأعظم ما يستمتع به القائد المنتصر ، وبلغ من حب الشعب له أن تجاهلت الجمعية نصوص الدستور المحتضر ، وصارت تنتخبه قنصلا عاماً بعد عام (من ١٠٤ - ١٠٠) . وناصره رجال الأعمال لأن انتصاراته قد فتحت آفاقا جديدة لمشروعاتهم الاستغلالية من جهة ، ولأنهم رأوه الرجل الوحيد الذى كان فى استطاعته أن يرد جحافل الكلت من جهة أخرى . وتبينت رومة من ذلك الوقت

فى عم قيصر منافع القيصرية — ذلك أن الدكتاتورية الممثلة فى قائد محبوب من الشعب ، ومن ورائه جيش مخلص له ، قد بدت للكثيرين من الرومان المنهوكى القوى البديل الوحيد من المساوى الألجركية التى تلازم الحرية .

وكانت الجحافل السمبرية بعد انتصارها فى أروسيو قد أجلت زحفها على رومة ، وعبرت جبال البرانس ، وعاثت فى أسبانيا فساداً ، غير أنها عادت إلى غالة فى عام ١٠١ ، وهى أكثر عدداً مما كانت قبل ، واتفقت مع التيوتون على أن يهاجما السهول الغنية فى شمال إيطاليا من طريقين مختلفين وبلجأ ماريوس فى صد هذا الخطر المحدق بالمدينة إلى طريقة جديدة من طرق التجنيد أحدثت انقلاباً خطيراً فى الجيش أولا وفى الدولة نفسها فيما بعد . ذلك أنه دعا إلى الخدمة العسكرية كل من شاء من المواطنين سواء كان له ملك أو لم يكن . وعرض أجوراً مغرية على المتطوعين ، ووعدهم أن يطلق سراحهم وأن يقطعهم أرضاً فى نهاية الحرب . وكان معظم الجيش الذى جمع بهذه الطريقة مكوناً من فقراء المدن ، وكانت عواطفه معادية لجمهورية الأشراف ، وكان إذا حارب لا يحارب دفاعاً عن بلاده بل يحارب فى سبيل قائده ومن أجل الغنائم . وبهذه الوسيلة وضع ماريوس الأساس العسكرى للثورة القيصرية ، ولعله فعل ذلك على غير علم منه . وكان ماريوس جندياً لا رجلا سياسياً ، ومن ثم فإنه لم يكن يتسع وقته لتدبر العواقب السياسية البعيدة . فلما أن ألف الجيش بهذه الطريقة السالفة الذكر قاده فوق جبال الألب وقوى أجسام جنده بالسير الطويل والتدريب ، كما قوى قلوبهم بالهجوم على مواقع كان من السهل التغلب عليها ، وكان يرى أن من المجازفة أن يلتحم وإياهم فى حرب حقيقية إلا بعد أن يتم تدريبهم على هذا النحو . ومر النيوتون بمعسكره دون أن يلقوا مقاومة ما ، وكانوا يسألون الرومان ساخرين هل يريدون أن يبعثوا معهم برسائل إلى زوجاتهم اللاتى يوشك هؤلاء أن يستمتعوا بهن . وفى وسع القارىء أن يتصور عدد هؤلاء النيوتون إذا علم أنهم قضوا فى مرورهم بمعسكر

الرومان ستة أيام كاملة . فلما أن تم مرورهم أمر ماريوس جنده بالانقضاض على مؤخرتهم ؛ ودارت بين الجيشين معركة عند أكوا سكستيا Sextiea Aquae (١٠٢) (وهى مدينة إكس Aix فى مقاطعة بروفانس Provence) وبلغ عدد القتلى والأسرى من جيوش النيوتون مائة ألف . وفى ذلك يقول أفلوطرخس : « ويقال إن أهل مرسيليا أقاموا حول كرومهم أسواراً من عظام القتلى وإن الأرض بعد أن تحللت فيها أجسامهم وهطلت عليها أمطار الشتاء أخصبها ما تسرب إليها من المواد المتعفنة ، حتى بلغ محصولها فى الموسم الذى تلا ذلك الفصل درجة من الوفرة لم يكن لها مثيل من قبل[15] » . وبعد أن أراح ماريوس جيشه عدة شهور رجع على رأسه إلى إيطاليا والتقى بالسمبريين فى فرسلا Vercellae بالقرب من نهر البو (١٠١) فى المكان الذى انتصر فيه هنيبال على الرومان فى أول معركة خاض غمارها معهم . وأراد البرابرة أن يظهروا قوتهم وبأسهم ، فساروا عراة الأجسام وسط الثلوج ، وتسلقوا الجبال المكسوة بالجليد ، وخاضوا مناسفه العميقة إلى قلل الجبال ، ثم انزلقوا منها وهم يهللون ويضحكون فوق المنحدرات الوعرة ، واستخدموا دروعهم مزالق فى أقدامهم[16] . فلما دارت المعركة بعدئذ بينهم وبين الرومان لم يكد يبقى منهم أحد على قيد الحياة .

واستقبل ماريوس فى العاصمة المبتهجة كأنه « كمليوس ثان » صد عنها غارة كلتية ، « ورميولوس » آخر أنشأ رومة من جديد » ووهبته جزءاً من الغنيمة التى جاء بها مكافأة له على عمله ؛ فأصبح بذلك من أثرياء المدينة يمتلك من الضياع ما « يكفى لأن يكون وحده مملكة » . وفى عام ١٠٠ ق . م اختير قنصلا للمرة السادسة . وكان زميله فى القنصلية لوسيوس ستورنينس Lucius Saturninus وكان رجلا متطرفاً حاد الطبع عقد النية على أن يبلغ الهدف الذى كان يسعى له إبنا جراكس بالتشريع إن استطاع وبالقوة إن لم يستطع . وكسب ود ماريوس بأن عرض على الجمعية قانوناً يقضى بتوزيع بعض أراضى المستعمرات على الجنود

المضرسين الذين اشتركا فى المعارك الحديثة ؛ ولما أنقص ثمن للقمح الذى توزعه الدولة على العامة من ستة آسات وثلث آس (أى ما يعادل ٣٩ر من الريال الأمريكى) إلى خمسة أسداس آس (أى نحو ٥٠ر من الريال الأمريكى) لكل موديوس لم يعارض ماريوس فى هذا الإجراء . وأراد مجلس الشيوخ أن يحمى خزانة الدولة ، ويحمى نفسه بتحريض أحد التربيونين على أن يمنع الاقتراع على هذين المشروعين . ولكن ستورنينس لم يعبأ بهذا الاعتراض وتقدم بهما إلى الجمعية : واحتدم النزاع بين الطرفين ، ولجأ كلاهما إلى العنف. ولما أن قتل أنصار ستورنينس كيوس مميوس Caius Memmius ، وكان من أكبر الأشراف مقاماً ، لجأ مجلس الشيوخ إلى آخر سهم فى كنانته واستخدم حقه فى حماية الشعب senatus consultum de re publica defendeuda وأمر مريوس بوصف كونه قنصلا أن يخمد الفتنة .

وكان على ماريوس أن يختار بين أمرين ليس فيهما حظ لمختار ، وكان هذا الاختيار أسوأ ما مر عليه طول حياته . فقد كان شديداً على نفسه أن يختم جهاده الطويل لخدمة العامة من أهل رومة هذه الخاتمة التعسة فيهاجم زعماءهم وأصدقاءه السابقين ، على أنه هو أيضاً كان لا يرضى عن استخدام العنف ويعتقد أن الثورة تنتج من الشرور أكثر مما تستطيع علاجه . وأخيراً سار على رأس قوة لمهاجمة الثوار وسمح بأن يقتل ستورنينس رجماً بالحجارة ، ثم طلق السياسة وعاش فى عزلة عيشة نكدة يائسة ، يحتقره العامة الذين دافع عنهم وأخذ بناصرهم ، والأشراف الذين أنجاهم من البلاء .

الفصل الخامس

ثورة إيطاليا

كانت الثورة فى ذلك الوقت تتطور إلى حرب أهلية داخلية « ولما استعان مجلس الشيوخ أحلاف رومة من ملوك الشرق لصد غارات السمبريين رد عليه نقوميدس ملك بثينيا بقوله إن جميع الرجال القادرين على حمل السلاح فى مملكته قد بيعوا فى سوق الرقيق للوفاء بمطالب جباة الضرائب الرومانيين الفادحة . ورأى مجلس الشيوخ أن الجيش فى ذلك الوقت أفضل من الرقيق فأصدر قراراً يقضى بتحرير كل من أصبحوا أرقاء لعجزهم عن أداء الضرائب ؛ فلما سمع الأرقاء بهذا القرار اجتمع مئات منهم فى صقلية ، وكان كثيرون منهم من يونان بلاد الشرق الهلنستية ، وتركوا سادتهم واحتشدوا عند باب قصر البريتور وطالبوا بحريتهم ، فعارض أسيادهم فى ذلك الطلب واحتجوا عليه ، واستمع البريتور إليهم وأجل تنفيذ قرار التحرير ، ونظم الأرقاء أنفسهم بقيادة دعى ديني يسمى سلفيوس Salvius وهاجموا مدينـــة مورجنتيا Morgantia . واستطاع مواطنو المدينة أن يضمنوا وفاء معظم عبيدهم حين وعدوهم بأن يحرروهم إذا صدوا هجمات المغيرين ؛ فلما صدوها أخلف سادتهم وعدهم ولم يحرروهم ، فانضم معظمهم إلى الثائرين . وثار حوالى ذلك الوقت نفسه (١٠٣) نحو ستة آلاف من الأرقاء فى طرف الجزيرة الغربى بقيادة أثنيون Athenion ، وهو رجل متعلم ذو عزيمة ماضـــية ؛ وهزمت هذه القوة تباعاً عدداً من الجيوش التى سيرها البريتور لإخماد ثورتها ، ثم تحركت نحو الشرق وانضمت إلى الثوار الذين كانوا تحت قيادة سلفيوس . وتغلبت جموعهم على جيش بعثت به رومة من إيطاليـــا نفسها ، ولكن سلفيوس مات فى ساعة النصر ، ثم عبرت جيوش رومانيـــة أخرى مضيق صقلية

بقيادة القنصل مانيوس أكوليوس (١٠١) ؛ فبارز أثليون هذا القنصل وقتله فى المبارزة وأصبح الأرقاء بلا قائد ، فهزموا وقتل آلاف منهم فى الميدان ، وأعيد آلاف آخرون إلى سادتهم ، ونقل مئات منهم على ظهور السفن إلى رومة ليقاتلوا الوحوش فى الألعاب التى أقيمت احتفالا بانتصار أكوليوس ، ولكن الأرقاء لم يقاتلوا الوحوش بل أغمد كل منهم خنجره فى قلب زميله وماتوا عن آخرهم .

وبعد بضع سنين من هذه الحرب — حرب الأرقاء الثانية — امتشقت إيطاليا كلها الحسام . وسبب ذلك أن رومة — وهى أمة صغيرة بين كومى وكيرى Caere ، وبين جبال الأپنين والبحر — قد ظلت نحو قرنين من الزمان تحكم سائر إيطاليا كما تحكم الشعوب المغلوبة ؛ وبلغ من أمرها أن مدناً قريبة منها مثل تيبور Tibur وبرانستى Praeneste لم يكن لها من يمثلها فى الحكومة التى تصرف أمورها ، بل كان مجلس الشيوخ والجمعيات والقناصل يصدرون المراسيم والقوانين إلى الهيئات الإيطالية كأنها ولايات أجنبية مغلوبة على أمرها ؛ وكانت موارد هؤلاء « الأحلاف » من مال ورجال تستنزف فى الحروب التى لم يكن لها هدف إلا ملء خزائن عدد قليل من الأسر فى رومة ، ولم تنل الولايات التى ظلت موالية لها فى صراعها المرير مع هنيبال على هذا الولاء جزاء يستحق الذكر ، أما التى قدمت إلى هنيبال فى هذا الصراع شيئاً من المعونة أيا كان نوعها فقد كان عقابها أن أخضعت إلى رومة خضوعاً أذلها إذلالا جعل كثيراً من أهلها ينضمون إلى الأرقاء فى ثورتهم عليها . وكان عدد قليل من أثرياء المدن قد منحوا حق مواطنى رومة ، وكانت رومة نفسها تستخدم سلطانها فى كل مكان لمساعدة الأغنياء على الفقراء ؛ وفى عام ١٢٦ حرمت الجمعية على سكان المدن الإيطالية أن يهاجروا إلى رومة ، وفى عام ٩٥ أخرجت هذه العاصمة الغنية كل من لم يكن من أهلها مواطناً رومانياً بل كان مواطناً إيطالياً فحسب

وحاول أحد الأشراف أن يصلح هذه الحال فكان جزاؤه على هذه

المحاولة الإعدام . كان م . لڤيوس دروسس M. Livius Drusus ابن التريبيون الذى كان ينافس تيبويوس جراكس ؛ ولما كان متهناه قد أصبح والد زوجة أغسطس ، فإن الأسرة ربطت مصيرها بمبادئ الثورة ، وجرياً وراء هدفها هذا عرض لڤيوس دروسس ، بعد أن اختير تريبوناً فى عام ٩١ ، ثلاثة إجراءات وهى (١) أن يوزع مقدار آخر من أراضى الدولة على الفقراء (٢) أن ترد إلى مجلس الشيوخ حقوقه القضائية التى كانت مقصورة عليه ، مشترطاً أن يضم إليه فى الوقت نفسه ثلمائة من رجال الأعمال (٣) أن يمنح جميع الأحرار فى إيطاليا حقوق المواطنين الرومانيين وأجازت الجمعية الاقتراح الأول وهى مغتبطة ، وأجازت الثانى دون أن تبدى اغتباطاً أو استياء ؛ ولكن مجلس الشيوخ رفض الاقتراحين كليهما وأعلن أنه لا يرتبط بشىء منهما ، أما الاقتراح الثالث فلم يعرض للاقتراع لأن مغتالا مجهولا طعن دروسس طعنة قاتلة فى منزله .

وبعثت هذه الاقتراحات الأمل فى نفوس الولايات الإيطالية وأيقنت مما حل بها أن مجلس الشيوخ والجمعية لن يقبلا بطريقة سلمية أن يشترك غيرهما معهما فيما يعود عليهما من المزايا بفضل هذه الاقتراحات . فأخذت هذه الولايات تستعد للثورة . وتألفت منها جمهورية اتحادية ، عاصمتها كنفرنيرم Confirnium ، وعهدت بالحكم إلى مجلس الشيوخ مؤلف من خمسماية عضو يختارون من جميع القبائل الإيطالية عدا التسكان والأمبريان الذين رفضوا الانضمام إلى هذا الاتحاد . فلم يسع رومة إلا أن تعلن الحرب من فورها على المنشقين . واشتركت أحزاب العاصمة كلها فى الحرب التى كانت فى رأيهم دفاعاً عن وحدة إيطاليا ؛ وملأ الخوف قلوب الرومانيين على بكرة أبيهم من انتقام الدول المتمردة إذا انتصرت فى هذه « الحرب الاجتماعية»(*) القائمة بين الإخوة بعضهم وبعض » وخرج ماريوس من عزلته ،

(*) هذه هى الترجمة الخاطئة للعبارة اللاتينية Bellum Sociale – أى حرب الأحلاف (socii) ضد رومة . وهى ترجمة أكسبتها الأيام حرمة لا تستحقها .

وتولى القيادة ، وانتصر فى معركة بعد معركة مع أن جميع القواد الرومانيين — ما عدا صلا — قد منوا بالهزيمة ، وقتل فى ثلاث سنين حوالى ثلثمائة ألف نفس ، وخربت إيطاليا الوسطى أشد تخريب : ولما أوشكت إتروريا وأمبريا أن تنضما إلى الثوار استرضتهما رومة بأن منحت أهلهما جميع حقوق المواطنين الرومانيين ، وفى عام ٩٠ منحت حقوق الرومان السياسية لجميع الأحرار والمحررين الإيطاليين الذين يقسمون يمين الولاء لرومة . وكان من أثر هذه الامتيازات القليلة أن ضعفت قوة الأحلاف المناوئين لرومة ، فألقت المدن واحدة بعد الأخرى سلاحها ، ولم يحل عام ٨٩ حتى كانت هذه الحرب الوحشية الضروس قد وضعت أوزارها ، واختتمت بسلام نكد لا خير فيه للطرفين . ذلك أن الرومان قد قضوا على ما منحوه للولايات الإيطالية من حقوق سياسية ، بأن جمعوا المواطنين الجدد فى عشر قبائل جديدة لا تقترع إلا بعد أن تفرغ الخمس والثلاثون قبيلة التى كانت موجودة قبل من الاقتراع ، وبذلك لم يكن لاقتراعها هذا قيمة فى معظم الأحيان ، يضاف إلى هذا أنه لم يكن فى وسع المواطنين الجدد أن يحضروا الجمعيات فى رومة إلا قلة ضئيلة منهم . لذلك صبرت الجماعات التى غرر بها والتى أضلتها الحرب وخربت بلادها على مضض ، فلما أن مضت على ذلك الوقت أربعون سنة فتحت أبوابها لقيصر يعرض عليها حقوق المواطنين فى جمهورية لا وجود لها .

الفصل السادس

صلا السعيد

ولم يلبث النزاع بين الرومانيين والإيطاليين أن قام من جديد بعد بضع سنين قلائل ساد فيها السلام ، وكل ما فى الأمر أن تبدل اسم هذا النزاع من نزاع « اجتماعى » إلى نزاع « أهلى » وأن تبدل ميدانه من المدن الإيطالية إلى رومة نفسها . وتفصيل ذلك أن لوسيوس كرنليوس صلا اختير ايتولى فى عام ٨٨ ق . م منصب القنصلية . وتولى قيادة الجيش الذى كان يعبأ لقتال مثرداتس Mithridates حاكم پنتس Pontus ، ولكن التربيون سلپيسيوس روفس Sulpicius Rufus لم يكن يرضى أن يتولى رجل محافظ مثل صلا قيادة هذه القوة العظيمة ، وأقنع الجمعية بأن يتولى القيادة ماريوس ، وكان وقتئذ رجلا بديناً فى التاسعة والستين من عمره ، ولكنه مع ذلك لم تفارقه مطامعه العسكرية . وأبى ماريوس أن تفلت من عمره ، ولكنه مع ذلك لم تفارقه مطامعه العسكرية . وأبى ماريوس أن تفلت من يده فرصة القيادة التى طال انتظارها ، وأن تفلت منه لما لاح له أنه نزوة من نزوات جمعية خاضعة لتأثير زعيم شعبي مهرج ، وللرشا التى لم يكن يشك فى أنها قد تلقتها من التجار الذين يحبون ماريوس . فلم يكن منه إلا أن فر إلى نولا Nola وكسب ولاء الجيش وزحف به على رومة .

وكان صلا رجلا فذاً فى منشئه ، وأخلاقه ، ومصيره . فقد ولد فقيراً ولكنه أصبح المدافع عن الأشراف ، كما أصبح ابنا جراكس ودروسس Drusus وقيصر وهم من الأشراف زعماء الطبقات الفقيرة ؛ وثأر لنفسه من الحياة إذ جعلته شريفاً ومعدماً ؛ وذلك بأنه حين أصبح رب المال استخدمه فى قضاء شهواته ، فأطلق لها العنان ، ولم يتقيد فيها بعرف ، ولم يؤنبه على إسرافه فيها ضمير . وكان دميم الخلق — له عينان زرقاوان براقتان فى وجه أبيض

تلطخه بقع شديدة الحمرة – كأنه توت منثور عليه دقيق[١٧] » ؛ لكن هذه الملامح كانت تخفى وراءها تعليماً راقياً ، فقد كان يتقن الآداب اليونانية والرومانية ، وكان مولعاً بجمع روائع الفن دقيقاً فى اختيارها (مستعيناً على ذلك فى العادة بالوسائل العسكرية) . وأمر أن تحمل له من أثينة مؤلفات أرسطوطاليس ، واختص بها نفسه لتكون جزءاً من أثمن غنائمه ، ووجد خلال أيام الحرب والثورة من الوقت ما استطاع فيه أن يكتب مذكراته ليضل بها الناس من بعده . وكان رقيقاً مرحاً لطيفاً ، وصديقاً كريماً ، يدمن الخمر ، ويشتهى النساء ، ويولع بالحرب ، ويطرب للغناء ؛ ويقول عنه سلست Sallust إنه «كان يعيش عيشة البذخ ، ولكن ملذاته لم تحل قط بينه وبين أداء واجباته ، إذا استثنينا من ذلك التعميم أنه كان فى وسعه أن يجعل سلوكه مع زجته أشرف مما كان[١٨] » . وسلك الرجل طريقه إلى المجد سلوكاً سريعاً ، وخاصة فى الجيش وسيلته الموفقة إلى أغراضه . وكان يعامل جنوده معاملة الزميل لزميله ، يشترك معهم فى أعمالهم وفى سيرهم ، ويتعرض لما يتعرضون له من الأخطار ؛ « وكان همه الوحيد ألا يسمح لإنسان ما أنه يفوقه فى حكمته وشجاعته[١٩] » . ولم يكن يؤمن بآلهة الرومان ، ولكنه يؤمن بالخرافات . وفيما عدا هذا كان الرجل من أكثر الرومان واقعية كما كان أشدهم قسوة ، خياله ومشاعره خاضعة لسلطان عقله . ومما قيل عنه أنه كان نصف أسد ونصف ثعلب ، وأن الثعلب فيه كان أشد خطراً من الأسد[٢٠] . قضى نصف أيامه فى ميادين القتال ، وقضى العشر السنين الأخيرة منها فى الحروب الأهلية ، ولكنه رغم هذا ظل محتفظاً بفكاهته ومرحه إلى آخر أيام حياته ، يوشى قسوته ووحشيته بكتابة المقطوعات الشعرية الفكاهية ، ويملأ رومة ضحكا ، خلق لنفسه مائة ألف عدو ومات فى فراشه .

وكان يلوح أن هذا الرجل الذى يتألف من مزيج كيميائى من الفضائل والرذائل هو الذى تحتاجه البلاد لقمع الثورة فى الداخل والقضاء على مثرداتس فى الخارج ؛ وكان من السهل على رجاله المدربين البالغ عددهم ٣٥٫٠٠٠ أن

يبددوا شمل الأشتات غير المتجانسين الذين جمعهم ماريوس ارتجالا فى رومة . فلما أيقن ماريوس بحرج موقفه فر إلى أفريقية ، وقُتل سلپسيوس إذ غدر به خادمه . وأمر صلا أن يدق رأس التربيون فى منبر الخطابة الذى كان منذ قليل تتجاوب فيه أصداء خطبه البليغة ؛ وحرر العبد مكافأة له على خدمته ، ثم أمر بقتله جزاء له على غدره . وبينا كان جنوده يسيطرون على السوق العامة أصدر قراراً بألا يعرض أى أمر على الجمعية إلا بإذن مجلس الشيوخ ، وأن يكون نظام الاقتراحات هو النظام المقرر فى « دستور سرڤيوس » ، وهو الذى يجعل الأولوية والميزة للطبقات العليا ؛ ثم عمل على أن يكون هو القنصل الأول وسمح بأن يختار نيوس أوكتاڤيوس **Cnaeus Octavius** وكرنليوس سنا **Cornelius Cinna** قنصلين (٨٧) ، ثم سار للقاء مثرداتس العظيم .

ولكنه لم يكد يغادر إيطاليا حتى قام النزاع من جديد بين طبقة العامة وطبقتى الأشراف والفرسان الممتازين ، ونشب القتال فى السوق العامة بين أنصار أكتاڤيوس المحافظين وأتباع سنا المتطرفين ، وقتل من الفريقين فى يوم واحد عشر آلاف رجل ، وانتصر أكتاڤيوس فى آخر الأمر وفر سنا لينظم الثورة فى المدن المجاورة ، ثم أبحر إلى إيطاليا بعد أن قضى الشتاء مختفياً ، وأعلن تحرير الرقيق ، وسار على رأس قوة مؤلفة من ستة آلاف رجـل لقتال أكتاڤيوس فى رومة . وانتصر الثوار وذبحوا آلافاً مؤلفة من أعدائهم ، وزينوا منابر الخطابة برؤوس الشيوخ المقتولين ، وساروا فى الشوارع صفوفاً صفوفاً ورؤوس الأشراف فوق رماحهم ، وأضحت هذه سنة جرى عليها الثوار فيما بعد . واستقبل أكتاڤيوس الموت فى هدوء واطمئنان وهو جالس على كرسى التربيون مرتدياً ملابسه الرسمية . ودامت المذبحة خمسة أيام بلياليها ، كما دام الإرهاب عاماً كاملا ، واستدعت محكمة الثورة الأشراف للمثول أمامها ، وقضت بإدانتهم إذا كانوا قد قاوموا ماريوس وصادرت أملاكهم . وكانت إيماءة ماريوس تكفى لأن تطيح برأس أى إنسان

مهما كانت منزلته ، وكان يقتل فى أغلب الأحيان لساعته قبل أن يبرح مكانه . وقتل بهذه الطريقة أصدقاء صلا جميعهم ؛ وصودرت أملاكه ، وعزل من قيادة الجيش ، وأعلن أنه عـــدو الشعب . ولم يسمح بدفن الموتى بل تركت جثثهم فى الشوارع تلتهمها الكلاب والطيور الجارحة . وانطلق الأرقاء المحررون فى البلدة ينهبون ، ويفسقون ، ويقتلون الناس بلا تمييز بينهم ، وظلوا على هذه الحال حتى جمع سنا أربعة آلاف منهم ، وأحاطهم بجنود من الغاليين وأمر بقتلهم عن آخرهم[٢١] .

ثم اختير سنا قنصلا مرة ثانية ، كما اختير ماريوس للمرة السادسة ، ولكن ماريوس توفى فى الشهر الأول بعد توليه منصبه وهو فى الواحدة والسبعين من عمره . منهوك القوى من فرط ما لاقى من الشدائد وضروب العنف . وانتخب ڤلريوس فلاكوس Valerius Flaccus قنصلا بدلا منه ، وأصدر مرسوماً بإلغاء ثلاثة أرباع الديون جميعها ، ثم زحف شرقاً على رأس جيش مؤلف من اثنى عشر ألفاً لخلع صلا من القيادة ، وبقى سنا فى رومة يتولى فيها الحكم بمفرده ، فاستبدل بالجمهورية دكتاتورية ، وعين جميع موظفى المناصب الكبرى ، وعمل على أن ينتخب قنصلا أربع سنين متتالية .

ولما غادر فلاكوس إيطاليا كان صلا يحاصر أثينة لأن هذه المدينة انضمت إلى مثرداتس فى ثورته على رومة . ولما حبس عنه مجلس الشيوخ المال اللازم لمرتبات جنوده عمد إلى الهياكل والكنوز فى أولمپيا وإپدورس ودلفى فنهبها ليمون بها جنده وينفق منها على حروبه . وفى شهر مارس من عام ٨٦ اقتحم الجند أحد الأبواب فى أسوار أثينة ، وتدفقوا منه إلى داخل المدينة ، وانتقموا لما عانوه من طول الحصار ومشاقه بأن عاثوا فى المدينة فساداً ، يقتلون وينهبون . ويقول أفلوطرخس « إن عدد القتلى كان يخطئه الحصر . . . وقد جرت الدماء أنهاراً فى شوارع المدينة ، وخرجت منها إلى الضواحى النائية[٢٢] » . وأخيراً أمر صلا

بوقف المذبحة ، وقال إنه « يصفح عن الأحياء إكراماً للموتى » . ثم قاد جنوده نحو الشمال بعد أن استراحوا من متاعب القتال ، وهزم قوة كبيرة عند قيرونية Chaeronea ، وأركومينس Orchomenus ، وطارد فلولها إلى آسية مجتازاً مضيق الهلسبنت (الدردنيل) ، وأخذ يعد العدة للقاء القسم الأكبر من جيش ملك پنت(*) ، ولكن فلاكوس كان قد وصل فى هذه الأثناء إلى آسية على رأس جيشه ، وأبلغ صلا مرة أخرى أن عليه أن يتخلى عن القيادة . ولكنه استطاع أن يقنع فلاكوس بأن يتركه حتى يتم حملته ، وكانت نتيجة هذا أن قتل فلاكوس بيد ياوره فمبريا Fimbria ، ثم نصب هذا الضابط نفسه قائداً للجيوش الرومانية كلها ، وتقدم شمالا لملاقاة صلا . فما كان من صلا أمام هذا الخرق إلا أن عقد مع مثرداتس صلحاً (٨٥) ينزل هذا الملك بمقتضاه عن كل ما ظفر به من الفتوح فى تلك الحرب ، ويسلم إلى رومة ستين سفينة حربية ، ويؤدى لها غرامة مقدارها ألفى تالنت . ثم اتجه صلا بعدئذ نحو الجنوب والتقى بفمبريا فى ليديا ، فانضمت جنود فمبريا إلى صلا ، وانتحر قائدها وأصبح صلا سيد بلاد الشرق اليونانية ، ففرض عليها غرامة حربية مقدارها عشرون ألف تالنت ، وشرع يجبى الضرائب من مدائن أيونيا الثائرة . ثم سارع مع جيشه بطريق البحر إلى بلاد اليونان ، وزحف على پترى Patrae ووصل إلى برانديزيوم فى عام ٨٣ . وحاول سنا أن يقف زحفه ولكن جنوده قتلوه .

وحمل صلا إلى خزائن رومة خمسة عشر ألف رطل من الذهب ، ومائة وخمسة عشر رطلا من الفضة ، مضافة إلى ما حمله من النقود ومن روائع الفن التى خص بها نفسه . ولكن الزعماء الدمقراطيين ، وكانوا لا يزالون أصحاب الأمر والنهى فى رومة ، ظلوا يتهمونه بأنه عدو الشعب ، ووصفوا المعاهدة التى عقدها مع مثرداتس بأنها مذلة قومية ، واضطر صلا على الرغم منه أن يزحف بجنوده

(*) يقصد ملك البلاد الواقعة على شاطىء البحر الأسود . (المترجم)

الأربعين ألفاً على رومة ، وواصل هذا الزحف حتى بلغ أبوابها ؛ وخرج كثيرون من الأشراف لينضموا إليه ، وجاء إليه أحدهم وهو نيوس پمپى بفيلق يتألف كله من موالى أبيه وأصدقائه ؛ وسار ابن ماريوس على رأس جيش لملاقاة صلا ، فهزم وفر إلى پرانست ، بعد أن أرسل إلى البريتور الشعبى يأمره بأن يقتل كل من لا يزال فى العاصمة من زعماء الأشراف ، وصدع الرجل بالأمر فجمع مجلس الشيوخ وقتل جميع هؤلاء الزعماء وهم جلوس فى مقاعدهم أو فى أثناء فرارهم . ثم جلت القوات الديمقراطية عن رومة ودخلها صلا دون أن يلقى مقاومة ، ولكن جيشاً من السمنيين قوامه مائة ألف مقاتل زحف من الجنوب وانضم إلى فلول القوات الدمقراطية ليثأر للولايات الإيطالية ويغسل عار الهزيمة التى منيت بها فى « الحرب الاجتماعية » ؛ وخرج صلا لملاقاتهم وانتصر عليهم عند باب كلين Colline بجيشه البالغ خمسين ألفاً فى معركة تعد من أشد معارك التاريخ القديم هولا ، جرت فيها الدماء أنهاراً ؛ وبعد أن تم له النصر أمر بقتل ثمانية آلاف من الأسرى رمياً بالسهام بحجة أنهم وهم أحياء يسببون له من المتاعب أكثر مما يسببون له منها وهم أموات ؛ ورفعت رؤوس من أسر من الزعماء على أسنة الرماح أمام أسوار پرانست ، حيث كان آخر جيوش الدمقراطيين محصوراً ؛ ثم سقطت پرانست ، وانتحر ماريوس الصغير ، وعرض رأسه مسمراً فى السوق العامة — وهو عمل كانت السوابق الكثيرة قد جعلته فى نظر الناس أمراً مألوفاً مشروعاً .

ولم يجـد صلا بعدئذ صعوبة فى إقناع مجلس الشيوخ بأن ينصبه دكتاتوراً ، فلما تم له ذلك أصدر من فوره حكماً بإعدام أربعين من الشيوخ ، وألفين وستمائة من رجال الأعمال ، وكان هؤلاء الرجال ممن أعانوا ماريوس عليه وابتاعوا أملاك الشيوخ الذين قتلوا فى أثناء حكم المتطرفين ؛ وعرض صلا مكافآت لمن يبلغونه عن أسماء هؤلاء الرجال ، كما عرض مكافآت قدرها اثنا عشر ألف دينار (٧٢٠٠ ريال أمريكى) على من يأتونه بالمحكوم عليهم أمواتاً كانوا أو أحياء ؛ وزينت السوق

العامة برؤوس القتلى وبقوائم بأسماء المحكوم عليهم تتجدد من آن إلى آن ، ولم يكن يسع المواطنين إلا الاطلاع عليها بعد الفينة والفينة ليعرفوا مصيرهم أهو الموت أم الحياة . وانتشرت أهوال المذابح والنفى ومصادرة الأملاك من رومة إلى الولايات ، وكان ضحاياها هم الثوار الإيطاليين وأتباع ماريوس أينما وجدوا ، وكان عدد من قتلوا فى هـــذا الإرهاب الأرستقراطى حوالى أربعة آلاف وسبعمائة نفس . ويصف أفلوطرخس هذا الإرهاب بقوله : « وكان الأزواج يذبحون بين أحضان زوجاتهم ، والأبناء فى حجور أمهاتهم » . وقد حكم على كثيرين ممن وقفوا على الحياد أو كانوا من المحافظين ، فمنهم من قتل ومنهم من نفى ، وقيل إن صلا قد فعل بهم ذلك لحاجته إلى أموالهم ، ينفقها على جنوده أو فى ملذاته . أو يكافىء بها أصدقاءه . وكانت الأملاك المصادرة تباع لمن يعرض فيها أغلى الأثمان ، أو للمقربين ذوى الحظوة عند صلا ، وأضحت هذه الأملاك أساساً لثراء كثيرين من الناس أمثال كراسس Crassus وكتلين Catiline .

واستخدم صلا حقوقه الدكتاتورية فى إصدار طائفة من المراسيم — تعرف بالقوانين الكرنيلية نسبة إلى العشيرة التى ينتمى إليها — كان يرجو أن ينشىء بها دستوراً أرستقراطيا يظل دستور رومة طوال حياتها . وأراد أن يسد ما طرأ على عدد مواطنى رومة من النقص بسبب الموت ، فأعطى حق المواطنين لكثير من الأسبان وللكلت ولبعض الأرقاء السابقين ، فأضعف من سلطان الجمعيات بحشد هؤلاء الأعضاء الجدد فيها وهم المدينون له بعضويتها ، وبتجديد القانون القديم القاضى بألا يعرض قانون على الجمعية إلا بموافقة مجلس الشيوخ . ثم عمل على وقف نزوح الإيطاليين إلى رومة فوقف توزيع الغلال من قبل الدولة على الأهلين ثم قلل ازدحام السكان فى المدينة بتوزيع الأراضى الزراعية على اثنى عشر ألفاً من جنوده الأقدمين . وأراد أن يمنع القنصل الذى يختار لمنصبه جملة مرات متتالية أن يكون دكتاتوراً فعليا ، فأصر على تنفيذ السنة القديمة التى كانت تحرم على أى موظف أن يشغل منصبه مرة

ثانية إلا بعد مضى عشر سنوات على خروجه منه فى المرة السابقة : وأنقص مكانة التربيون بتقييد حقه فى الرفض وحرمان التربيون السابق من حق التعيين فى أى منصب من المناصب الكبرى ، واسترد من رجال الأعمال حقهم الذى كان مقصوراً عليهم فى أن يكونوا محلفين فى المحاكم العليا ، ورد هذا الحق إلى مجلس الشيوخ ، واستبدل بنظام الالتزام فى الضرائب نظام جبايتها من الولايات نفسها وإرسالها إلى خزانة الدولة مباشرة . ثم أعاد تنظيم المحاكم ، وزاد فى عددها ضماناً لسرعة البت فى القضايا ، وحدد اختصاصها ومدى سلطتها تحديداً دقيقاً ، ورد إلى مجلس الشيوخ كل ما كان له قبل ثورة ابنى جراكس من مزايا تشريعية وقضائية وتنفيذية واجتماعية ، وحق أعضائه فى لبس زى خاص . وقد فعل صلا كل هذا ليقينه أن الحكم الملكى أو الأرستقراطى هما اللذان يصلحان دون غيرهما من النظم لحكم الإمبراطوريات حكماً حازماً حكيماً ؛ ثم عمل على زيادة عدد أعضاء مجلس الشيوخ إلى الحد المقرر ، فأجاز للجمعية القبلية أن ترقى إلى عضويته الثلاثمائة من طبقة « الفرسان » ، وأراد أن يبرهن على ثقته بعدالة هذا الإجراء الشامل واطمئنانه له فسرح جيوشه وقرر ألا يسمح ببقاء جيوش فى إيطاليا كلها . وبعد أن ظل حاكماً بأمره عامين تخلى عن سلطته بأجمعها ، وأعاد الحكم القنصلى ، واعتزل الحياة العامة (عام ٨٠ ق . م) .

وكان فى حياته الجديدة آمناً على نفسه ، لأنه قد قتل قبل كل من يستطيعون الائتمار به . ولذلك سرح حرسه وقواصيه ، وكان يسير فى السوق العامة لا يخشى أذى ، وعرض أن يفسر أعماله الوطنية لكل مواطن يطلب إليه أن يفسرها ؛ ثم ذهب ليقضى أيامه الأخيرة فى قصره الصغير فى كومى ، بعد أن مل الحرب والسلطان والمجد ، ولعله قد مل أيضاً صحبة الناس ، فأحاط نفسه بالمغنيين والمغنيات والراقصين والراقصات ، والممثلين والممثلات ، وأخذ يكتب شروحه Commentarii ويتسلى بصيد الحيوان والسمك ، والانهماك فى الطعام والشراب ؛ وأطاق عليه الناس

من ذلك الوقت اسم « صلا السعيد » لأنه انتصر فى كل معركة ، واستمتع بكل لذة ، واستحوذ على كل سلطة ، وعاش عيشة لا يساوره فيها خوف ولا ندم ، وتزوج خمس نساء طلق منهن أربعاً واستكمل متعته بالمحاظى ، ولما بلغ الثامنة والخمسين من عمره أصيب بخراج فى القولون بلغ من شدته « أن اللحم النتن استحال قملا ، بلغ من الكثرة حداً كان لا بد معه من استخدام كثير من الرجال والنساء لقتله ، ولكن القمل أخذ يزداد ويتضاعف حتى لم تتلوث به ثيابه ، وحماماته . وآنيته فحسب ، بل تلوث به أيضاً طعامه نفسه ،[23] على حد قول أفلوطرخس » ومات صلا على أثر نزيف فى الأمعاء ، ولم يكد يقضى فى عزلته عاماً واحداً (٧٨ ق . م) ولم يفته أن يملى قبريته قبل وفاته : « لم يخدمنى قط صديق ، ولم يسئ إلى أبداً عدو ، إلا جزيت الأول على خدمته والثانى على إساءته الجزاء الأوفى » .

الباب السابع

الحركة الرجعية الألجركية

٧٧ — ٦٠ ق . م

الفصل الأول

الحكومة

على أن صلا قد أخطأ مرتين بإسرافه فى الكرم ، وكان خطؤه الأول أنه أبقى حياة رجل كان ابن عدو له وابن أخى عدو آخر . ذلك هو كيوس يوليوس قيصر المرح النابه الذى كان يوشك أن يبدأ العقد الثالث من عمره فى سنى الإرهاب . وكان صلا قد طلب إعدامه فيمن طلب إعدامهم ، ولكنه عفا عنه استجابة لشفاعة أصدقائه وأصدقاء الشاب . على أنه لم يكن مخطئا فى حكمه حين قال : « إن هذا الشاب هو ماريوس مكررا » . ولعله أخطأ كذلك إذ عجل باعتزال الحياة السياسية وأسرف فى الملاذ فقرب إسرافه أجله ؛ ولو أنه أوتى من الصبر وبعد النظر بقدر ما أوتى من القسوة والشجاعة لأنجى روما من الفوضى التى ضربت أطنابها فيها خمسين عاما ، ولأمكنها أن تستمتع فى عام ٨٠ ق . م بالأمن والسلام والنظام والرخاء التى أعادها إليها أغسطس قيصر حين عاد إليها من أكتيوم ، ولكان ما عمله أغسطس خلقاً وإبداعاً لا إرجاعاً للقديم .

ولم تكد تمضى على وفاته عشر سنين حتى ذهبت كل أعماله . ذلك أن الأشراف قد غرهم ما أوتوا من نصر فى صراعهم المرير ، فأهملوا واجبات الحكم وسعوا لكسب المال من طريق التجارة لينفقوه فى ترفهم وشهواتهم . واستمر

النزاع بين الأشراف والعامة قوياً مريراً لا ينقصه إلا فرصة تتاح حتى يلجأ الطرفان فيه إلى أشد ضروب العنف . وكان الأشراف : « خيار الناس » optimates يستمسكون بنبلهم ، ولكن لم يكن معنى استمساكهم به أن يترفعوا بسبب هذا النبل عن ارتكاب الدنايا ، بل كان معناه فى نظرهم أن الحكم الصالح يطلب قصر المناصب العليا فى الدولة على الذين تولوها أسلافهم من قبل ، فإذا تقدم لمنصب منها رجل لم يكن آباؤه ممن تولاها قبله سخروا منه وسموه « رجلا حديثا » Novus homo أى « حديث النعمة » ، وكان من هؤلاء الحديثي النعمة ماريوس وشيشرون . أما العامة فكانوا يطلبون أن تتاح الفرصة لذوى المواهب والكفايات ، وأن تكون السلطة كلها فى يد الجمعيات ، وأن توزع الأراضى الحرة على الفقراء والجنود المسرحين . ولم يكن الأشراف ولا العامة ممن يؤمنون بالدمقراطية بل كانت كلتا الطبقتان تسعى لأن تكون هى الحاكمة بأمرها ، وتلجأ إلى ضروب الإرهاب والفساد والرشوة على ملأ الناس بلا خوف ولا وخز ضمير . واستحالت الجماعات التى كانت من قبل جمعيات خيرية لتبادل البر بين أعضائها وكالات لبيع أصوات العامة فى الانتخابات كُتَلاً كتلا . وارتقت عملية ابتياع الأصوات حتى تطلبت درجة كبرى من التخصص ، وطائفة من الإخصائيين ، فكان منهم المشترون divisores الذين يبتاعون الأصوات ، والوسطاء interpretes والحراس sequestres الذين يحتفظون بالمال حتى تعطى الأصوات[٢] . وفى أقوال شيشرون وصف للمرشحين وهم يسيرون بين الناخبين فى حقل المريخ وأكياس نقودهم فى أيديهم[٣] . واستطاع بمپى أن يحمل الناس على اختيار صديقه أفرانيوس Afranius قنصلا بدعوة زعماء القبائل إلى حدائقه ، وفيها أعطى كل زعيم أثمان أصوات قبيلته[٤] . وبلغ ما كان يستدان من المال لشراء أصوات الناخبين حدا رفع سعر فائدة الأموال التى تقترض فى أثناء الحملة الانتخابية إلى ثمانية فى الشهر الواحد[٥] .

وكانت المحاكم نفسها — بعد أن اختص بها أعضاء مجلس الشيوخ — لا تقل فساداً عن عمليات الانتخاب ، وفقدت الأيمان كل ما كان لها من قيمة فى الشهادة ، وفشت شهادة الزور كما فشت الرشوة . ولما أن اتُّهم ماركس مسالا Marcus Messala بأنه ابتاع بالمال الأصوات التى انتخب بها قنصلا فى عام ٥٣ برىء بالإجماع ، وإن كان أصدقاؤه أنفسهم شهدوا عليه واعترفوا بجريمته[٦] . وكتب شيشرون لابنه يصف هذه الحال بقوله : « لقد أصبح المال أساس كل المحاكمات ، ولذلك لن يحكم على إنسان إلا فى جرائم القتل »[٧] ، وكان خليقاً به أن يقول « إنسان ذى مال » ، « فبغير المال وبغير المحامى القدير » كما قال محام آخر فى ذلك الوقت « قد يتهم إنسان ساذج برىء بأية جريمة لم يرتكبها قط ، ثم يحكم عليه ما فى ذلك شك »[٨] . ولما برئ لنتولس صورا Lentulus Sura بأغلبية صوتين حزن أشد الحزن على ما أنفق من مال فى رشوة قاض أكثر من العدد الذى كان يجب عليه أن يرشوه[٩] . ولـمـا أدان المحلفون من أعضاء مجلس الشيوخ البريتور كونتس كليدس Quintus Calidus قال « إنهم لم يكن فى وسعهم مع احتفاظهم بشرفهم أن يطلبوا أقل من ثلثمائة ألف سسترس إذا أريد منهم أن يحكموا على بريتور »[١٠] .

وكان ولاة الأقاليم من أعضاء الشيوخ السابقين ، وجباة الضرائب ، والمرابون ، ووكلاء التجار ، يبتزون الأموال من الأقاليم تحت حماية هذه المحاكم ابتزازاً لو سمع به أسلافهم لغضبوا له غيرةً من هؤلاء وحسداً لهم . ولسنا ننكر أنه كان من بين حكام الأقاليم طائفة من الكفاة الأشراف ، أما كثرتهم العظمى فماذا عسى أن ينتظر منها ؟ لقد كانوا يعملون بلا أجور ، وكانت العادة المألوفة أن يظلوا فى مناصبهم عاماً واحداً ، وكان عليهم فى خلال هذه الفترة القصيرة أن يجمعوا من المال ما يكفى للوفاء بديونهم ، وابتياع منصب جديد ، وأن يضمنوا لأنفسهم فيما بعد عيشاً رغداً يليق بالرومانى العظيم . ولم يكن البلاد

من يحول بينهم وبين أطماعهم إلا مجلس الشيوخ ، وكان فى وسع الحكام أن يثقوا بأن الشيوخ وهم سادة مهذبون يمنعهم كرم محتدهم أن يكونوا سبباً فى لغط غير محبوب لأنهم كلهم قد فعلوا مثل ما فعله هؤلاء الحكام ، أو يرجون أن يفعلوا مثله بعد قليل : ولنضرب لذلك مثلا يوليوس قيصر نفسه ، فقد ذهب ليحكم أسپانيا فى عام ٦١ ق . م وعليه من الديون ما يعادل ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى . فلما عاد فى عام ٦٠ ق : م وفى بهذا الدين كله دفعة واحدة . وكان شيشرون يظن أنه رجل شريف متزمت شرفه إلى حد يؤلمه أشد الألم ، لأنه لم يجمع فى السنة التى ولى فيها حكم قليقية أكثر من ١١٠٫٠٠٠ ريال أمريكى ، وكان يملأ رسائله بالدهشة من اعتداله .

وكان القواد الذين يفتحون الولايات أول من يستفيد منها . فقد كان لوكلس بعد حروبه فى الشرق مضرب المثل فى الترف ؛ وجاء پمپى من تلك البلاد نفسها بما قيمته أحد عشر مليون ريال أمريكى لنفسه ولأصدقائه ، وإذا قلنا إن قيصر جمع لنفسه من بلاد الغالة ملايين يخطئها الحصر فإن قولنا هذا لا يعدو الحقيقة إلى المجاز . ويلى هؤلاء الحكام فى ابتزاز المال الملتزمون وكانوا يجمعون من الأهلين ضعفى ما يرسلونه إلى رومة : فإذا عجزت مدينة أو ولاية عن أن تجمع من سكانها ما يكفى من المال لأداء ما يجب عليها أن تؤديه من الخراج أو الضرائب أقرضها الماليون أو الساسة الرومان ما تحتاجه من المال بفائدة تتراوح بين اثنى عشر وأربعين فى المائة ، على أن يتجمع منها رأس المال وفائدته ، إذ لزم الأمر ، الجيش الرومانى نفسه بحصارها أو فتحها أو نهبها . وقد حرم مجلس الشيوخ على أعضائه أن يشتركوا فى هذه القروض ، ولكن عظماء الأشراف أمثال پمپى ، والصالحين منهم أمثال بروتس ، لم يعدموا وسيلة للاحتيال على القانون باستخدام الوسطاء فى إقراض المال . وحسبنا دليلا على ما وصلت إليه هذه الحال أن أقاليم آسية

الرومانية قد أدت إلى الرومان فوائد على ما اقترضته منهم ضعفى ما أدته إلى الملتزمين وإلى الخزانة الرومانية[11] . وفى عام ٧٠ ق . م بلغ ما أدته وما لم تؤده مدن آسية الصغرى من فوائد على الأموال التى اقترضتها للوفاء بمطالب صلا فى عام ٨٤ ستة أضعاف هذه القروض ؛ ولم تجد العشائر والجماعات وسيلة لأداء أرباح هذا الدين الفادح إلا أن تبيع أبنيتها العامة وتماثيلها ، وأن يبيع الآباء أطفالهم فى أسواق الرقيق ، وذلك لأن المدين الذى يعجز عن أداء دينه كان يعذب على العذراء ؛ فإذا ما بقى فى الولاية شىء من موارد الثروة بعد هذا كله هرعت إليها من إيطاليا وسوريا وبلاد اليونان جماعات من المقاولين ، تعاقد معهم مجلس الشيوخ على « تنمية » ثروة الولاية المعدنية والخشبية وغيرهما ؛ وكانت التجارة تسير على الدوام فى ركاب العلم الرومانى ، فمن التجار من كانوا يشترون الأرقاء ، ومنهم من كانوا يشترون السلع أو يبيعونها ، ومنهم من كانوا يشترون الأرض وينشئون فى الأقاليم ضياعاً أوسع رقعة من ضياع إيطاليا . وفى ذلك يقول شيشرون فى عام ٦٩ ق . م مبالغاً فى قوله كعادته : « لا يستطيع رجل من الغاليين أن يقوم بعمل تجارى إلا عن طريق مواطن رومانى ؛ ولا ينتقل درهم واحد من يد إلى يد دون أن يمر بسجل أحد الرومان » .

وقصارى القول أن التاريخ القديم لم يشهد فى جميع أدواره حكومة تضارع حكومة ذلك العهد فى ثرائها وسطوتها وفسادها .

الفصل الثانى

أصحـاب الملايين

ورضى رجال الأعمال بحكم مجلس الشيوخ لأنهم كانوا أكثر من الأشراف استعداداً لاستغلال موارد الولايات ، وبهذا تم « ائتلاف الطبقات » أو تعاون الطبقتين العاليتين وهو المثل الأعلى الذى كان ينادى به شيشرون والذى أصبح حقيقة واقعة فى شبابه ؛ فقد اتفقت الطبقتان على الاتحاد والغزو . وكان رجال الأعمال ووكلاؤهم المعتدون يملأون أروقة رومة وطرقاتها ، وتغص بهم أسواق الولايات وحواجزها . وكان رجال المصارف يصدرون خطابات الاعتماد إلى الهيئات المالية المرتبطة بهم[13] ، ويقرضون المال لكل غرض من الأغراض حتى لخوض غمار الحياة السياسية ؛ وكان التجار يتذبذبون بين العامة والأشراف فيعينون بنفوذهم الأولين إذا زادت أنانية الشيوخ ، ثم يعودون إلى الشيوخ إذا حاول الزعماء الدمقراطيون أن يبروا بوعودهم التى قطعوها للطبقات الفقيرة قبل الانتخاب.

ويعد كراسس Crassus ، وأتكس Attcus ولوكلس Lucullus نماذج صادقة لمظاهر الثراء الرومانى الثلاثة : الحصول عليه ، والمضاربة به ، ثم استخدامه للتنعم والترف . كان ماركس ليسينيوس كراسس Marcus Licinius Crassus ينحدر من أسرة شريفة ؛ فقد كان أبوه خطيباً مصقعاً ذائع الصيت ، وقنصلا ، ورقيباً ، حارب إلى جانب صلا ثم فضل الانتحار على التسليم لماريوس ؛ وفأكا صلا ابنه بأن سمح له بشراء أملاك المحكوم عليهم المصادرة بطريق المساومة ؛ وكان ماركس فى شبابه قد درس الأدب والفلسفة ، واشـتغل بجد فى الأعمال القضائية ، ولكن رائحة المال أسكرته فى تلك الأيام الأخيرة ، فأنشأ فرقة لإطفاء الحريق — وكان ذلك عملا جديداً لم تألفه رومة من قبل ؛

وكانت إذا شبت النار سارعت إلى مكانها ، وعرضت أن تستأجر لإطفائها ، أو ابتاعت المبانى المعرضة لخطر الحريق بأثمان اسمية . ثم أطفأت الحريق . وحصل كراسس بهذه الطريقة على مئات من البيوت والمساكن كان يؤجرها بأجور مرتفعة . واشترى كذلك عدداً من مناجم الدولة حين أخرجها صلا عن نطاق الأملاك العامة . وما لبثت ثروته أن ارتفعت بهذه الطريقة من سبعة ملايين سسترس إلى مائة وسبعين مليوناً (أى نحو ٢٥٫٥٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) — أو ما يقرب من جميع دخل الخزانة العامة فى عام كامل . ويقول كراسس إنه لا يحق لإنسان ما أن يعد نفسه غنياً إذا لم يكن فى مقدوره أن يجند لنفسه جيشاً ، ويعد له كل ما يلزمه من سلاح وعتاد ويحتفظ به[14] . وقد شاءت الأقدار أن يكون هلاكه بسبب ثرائه الذى يحدده هذا التحديد . ذلك أنه بعد أن أصبح أغنى رجل فى رومة ظل حليف الشقاء ، شديد الرغبة فى أن يشغل منصباً عاماً ، وأن يكون والياً على أحد الأقاليم وقائداً لحملة أسيوية . ومن أجل ذلك كان يطوف الشوارع يستجدى الناس أصواتهم فى ذلة وخضوع ، ويحتفظ بالأسماء الأولى لعدد لا حصر له من المواطنين ، ويتظاهر بشظف العيش ، ويعمل على ضم ذوى النفوذ من رجال السياسة إليه بإقراضهم المال من غير فائدة على شرط أن يؤدوه له متى طالبهم بأدائه . على أنه رغم حرصه وطمعه كان طيب القلب ، لا يصد عن بابه من يريد لقاءه ، يكرم أصدقاءه إلى أقصى حدود الكرم ، يسدى للنصيحة لكلا الحزبين السياسيين بالحكمة التى امتاز بها أمثاله من الرجال على مدى الأيام ، وقد حقق فى حياته كل آماله ، فاختير قنصلا فى عام ٧٠ ق : م ، واختير إلى هذا المنصب مرة أخرى فى عام ٥٥ ، وحكم سوريا ، وأعان على تجييش الجيش العظيم الذى قاده لفتح پارثيا parthia . وهُزم فى كارهى Carrhae وأسر غدراً وخيانة ، ثم قتل قتلة وحشية فى عام ٥٣ ، فقطع رأسه ، وصب أعداؤه الذهب المصهور فى فمه .

وكان تيتس پمپونيوس أتكس Titus Pomponius Atticus أصدق

أرستقراطية من كراسس ، ومن طراز من أصحاب الملايين أسمى من طرازه : فقد كان يضارع فى الشرف والأمانة ماير أنشل سليل آل رتشيلد Meyer Anschel of the rot Schild ولا يقل علماً عن لورنزو ده مديشى Lerenzo de Medici وكان حاذقاً فى الشئون المالية حذق ڤلتير Voltaire . ونحن نسمع به فى بادئ الأمر وهو يطلب العلم فى أثينة حين سحر بحديثه وبقراءاته للشعر اليونانى واللاتينى لب صلا ، فألح عليه هذا القائد السفاح أن يعود معه إلى رومة ليكون فيها رفيقاً له ، فأبى تيتس أن يستجيب لإلحاحه . وكان عالماً ومؤرخاً ، كتب تاريخاً موجزاً للعالم[١٥] . وعاش معظم حياته فى الأوساط الفلسفية فى أثينة ، وسمى أتكس لعامه الغزير ببلاد أتكا وحبه العظيم لأهلها . ورث الرجل عن أبيه وعمه أموالا تبلغ قيمتها نحو ٩٦٠٫٠٠٠ ريال أمريكى استثمرها فى مزرعة عظيمة لتربية الماشية فى إبيروس Epirus وفى شراء الدور فى رومة وتأجيرها ، وفى تدريب المصارعين وأمناء السر وتأجيرهم ، وفى نشر الكتب . وكان إذا تهيأت أسباب المشروعات النافعة أقرض المال بفوائد مجزية ، ولكنه كان يقرض أثينة وأصدقاءه قرضاً حسناً من غير فائدة[١٦] . وكان شيشرون وهورتنسيوس Hortensius وكاتو الأصغر يودعون عنده ما ادخروه من المال ، ويعهدون إليه تدبير شئونهم ، ويجلونه لبعد نظره واستقامته وعظم ما يؤديه إليهم من الأرباح .

وكان يسر شيشرون أن يستشيره فيما يبتاعه من البيوت ، وفيما يختاره لتزيينها من التماثيل وفيما يملأ به مكتباته من الكتب . وكان أتكس يولم الولائم فى قصد واعتدال ، ويعيش فى تواضع الأبيقورى الحق ، ولكن بشاشته لأصدقائه وحديثه المطرب المثقف جعلا بيته ملتقى العظماء من رجال السياسة ، وكان يعاون الأحزاب جميعها ، وقد نجا من اضطهادها جميعاً . ولما بلغ السابعة والسبعين من عمره . وأصيب بداء عضال آلمه ويئس من شفائه منه أمات نفسه جوعاً .

وأبحر لوسيوس لوسيليوس لوكلس Lucius Lucinius Lucullus وهو

رجل من أسرة من كبريات الأسر الشريفة ، عام ٧٤ ليتم ما بدأه صلا من حرب مثرداتس : وظل ثمانى سنين يقود جنوده القلائل فى شجاعة ومهارة حتى أوشكت حملته أن تظفر بالنصر المؤزر على عـــدوه ؛ ثم تمرد جنوده المتعبون ، فقادهم هو وهم مرتدون من أرمينية إلى أيونيه وسط مخاطر لا تقل عن المخاطر التى خلدت اسم زينوفون Zenophon . ولما أفلحت الدسائس فى إبعاده عن قيادة الجيش ، عاد إلى رومة حيث قضى بقية حياته فى هدوء وترف ونعيم . وشاد على تل پنسيوس Pincius قصراً واسع الأبهاء ، وبوائك ، ودور كتب ، وحدائق . وكان له فى تسكولم Tusculum ضيعة تمتد عدة أميال ، وابتاع له فى ميسينيوم قصراً صغيراً ذا حديقة بعشرة ملايين مسترس (أى نحو مليون ونصف مليون ريال أمريكى) ، وحول جزيرة نسيدا Nesida بأكملها إلى مصيف له لا يشاركه فيه سواه . وذاعت شهرة حدائقه بما حوت من غروس لم يكن لها نظير من قبل فى رومة . من ذلك أنه هو الذى أدخل شجرة الكرز إلى إيطاليا من بلاد پنتس ، ومن إيطاليا نقلت هذه الشجرة إلى شمالى أوربا وإلى أمريكا . وكانت موائده من الحادثات الهامة التى يتناقل الناس أخبارها فى رومة طوال العام . ولقد حاول شيشرون فى يوم من الأيام أن يعرف كيف يتعاطى لوكلس طعامه إذا كان بمفرده ، فطلب إليه أن يدعوه هو وجماعة من أصدقائه ليتعشى معه ذات ليلة ، ولكنه استحلف لوكلس ألا يخبر بذلك أحداً من خدمه . ووافق لوكلس على هـــذا ولم يشترط إلا أن يسمح له بأن يخبر رجاله بأنه سيتعشى فى « قاعة أپلون تلك الليلة » ،

ولما أقبل شيشرون ومن معه وجدوا مائدة فخمة . ذلك أنه كان للوكلس عدة حجرات للطعام فى قصره بالمدينة يختار كل واحدة منها حسب فخامة الوليمة . وكانت قاعة أپلون مخصصة بالواجبات التى تكلف الواحدة

منها مائتي ألف سسترس أو أكثر[١٧] . ولكن لوكلس لم يكن بالرجل النهم ، وكانت بيوته بمثابة معارض لروائع الفن المختارة أحسن اختيار ، وكانت مكتباته مورداً عذباً للعلماء والأصدقاء ، وكان هو نفسه ضليعاً فى الآداب القديمة وفى الفلسفة على اختلاف أنواعها ؛ وكان يفضل منها بطبيعة الحال فلسفة أبيقور ؛ وكان يسخر من حياة پمپي الشاقة المجهدة ، ويرى أن حسب المرء طول حياته حملة حربية واحدة ، وأن كل ما زاد على ذلك غرور لا خير فيه .

وحذا حذوه كثيرون من أثرياء رومة وإن لم يكن لهم ذوقه ، وسرعان ما أخذ الأشراف والأثرياء يتنافسون فى مظاهر الترف والنعيم ، على حين كان وميض نار الثورة يلوح فى الولايات المفلسة ، والناس يموتون جوعاً فى أكواخهم القذرة الحقيرة . وكان الشيوخ لا يستيقظون من نومهم إلا وقت الظهيرة ، وقلما كانوا يحضرون جلسات المجلس . وكان بعض أبنائهم يتزيون بأزياء العاهرات ، ويختالون فى الطرقات كاختيالهن ، على أجسامهم ثياب مطرزة مزركشة ، وفى أرجلهم صنادل كصنادل النساء ، متعطرين متحلين بالجواهر ، لا يقبلون على الزواج ، وإذا تزوجوا عملوا على ألا يكون لهم أبناء ، وينافسون شبان اليونان فى التخنث ؛ وكان الشيخ الواحد فى رومة ينفق على بيته ما لا يقل عن عشرة ملايين سسترس . وقد بنى كلوديوس زعيم العامة قصراً كلفه ١٤٫٨٠٠٫٠٠٠ . وكان المحامون أمثال شيشرون وهورتنسيوس **Hortensius** يتنافسون فى تشييد القصور تنافسهم فى الخطابة رغم قانون سنسيوس الذى يحرم الأجور القضائية ؛ وكانت حدائق هورتنسيوس تحوى أكبر مجموعة من الحيوانات فى إيطاليا كلها . وكان لكل رجل ذى مقام منزل ذو حديقة فى بايا **Baiae** أو بالقرب منها ، حيث كان الأشراف يتمتعون بحمامات البحر وجمال خليج نابلى ،

ويطلقون لشهواتهم الجنسية العنان ، وقامت قصور أخرى من نوعها على التلال المجاورة لرومة . وكان لكل ثرى عدد من هذه القصور ، فكان يتنقل من قصر إلى قصر فى فصول السنة المختلفة . وكانت الأموال تنفق جزافاً فى تزيينها من الداخل ، وفى تأثيثها وشراء ما يلزمها وما لا يلزمها من الصحاف الفضية وحسبنا أن نذكر أن شيشرون أنفق خمسمائة ألف سسترس على نضد من خشب الليمون . ولم يكن غريباً أن ينفق أمثاله مليون سسترس على نضد آخر من خشب السرو ، ولقد قيل إن كاتو الأصغر ، وهو الذى كان مضرب المثل فى الفضائل الرواقية بأجمعها ، قد ابتاع من مدينة بابل أغطية خوان بثمانمائة ألف سسترس[18] .

وكان يقوم بالخدمة فى هذه القصور جيوش من الأرقاء إخصائيون فى أعمالهم المختلفة — منهم خدم حجرة السيد نفسه ، ومنهم حاملو رسائله ، وموقدو مصابيحه ، وموسيقيوه ، وأمناء سره ، وأطباؤه ، وفلاسفته ، وطهاته . وأصبح الأكل وقتئذ أهم أعمال الطبقات العليا فى رومة . وكان القانون الأخلاقى عندهم هو قانون مترودورس القائل بأن : « الشيء الطيب هو ما له صلة بالبطن » . وحسبنا دلالة على فهم أهل ذلك العصر وتفننهم فى ملء بطونهم أن نذكر أن وليمة أقامها كاهن كبير فى عام ٦٣ ق . م وحضرها خليط من الجلسين منهم قيصر وعذارى فستا ، كانت المشهيات فيها بلح البحر ، وطيور الدج بالخنجل (الاسفراغ) والطيور السمينة ، وفطائر البطلينوس(**) ، وحشيشة القريض البحرية ، وشرائح البطارخ والسمك الصدفى الأحمر ، والطيور المغردة . ثم يجىء بعد هذا كله الطعام نفسه ويتكون من أثداء الخنازير ، ورؤوسها ، والسمك ، والبط المنزلى والبرى ، والأرانب ، والدجاج ، والفطائر والحلوى[19] . وكانت الأطعمة الشهية النادرة تستورد من جميع أجزاء الإمبراطورية ومن البلاد الخارجية ، فالطواويس تستورد

(*) فيلسوف أبيقورى يونانى (؟ — ٢٧٧ ق . م) .

(**) حيوان بحرى . (المترجم)

من جزيرة ساموس Samos ، والقطا من فريجيا ؛ والكركى من أيوليا ، والتن (التونة) من خلقدونية Chalcedon والشيق(*) من جاديز Gades ، والبطلينوس من تارنتم Tarentum والدخس(**) من رودس . وكانت الأطعمة التي تنتجها إيطاليا نفسها تعد حقيرة بعض الشيء لا تليق إلا بالسوقة ؛ وقد أولم الممثل أيزوپس Aesopus وليمة أكل فيها من الطيور المغردة ما ثمنه خمسة آلاف ريال أمريكي بنقود هذه الأيام[20] . وظلت القوانين تصدر بتحريم الإسراف في الطعام ، ولكن أحداً لم يكن يأبه بها . وحاول شيشرون أن يتقيد بهذه القوانين فلا يأكل إلا الخضر المباحة شرعاً ، وظل عشرة أيام يشكو زحار البطن » ».

وأنفقت بعض الثروة الجديدة في إقامة الملاهي الرحبة والألعاب على أوسع نطاق ؛ من ذلك أن إيمليوس اسكورس Aemilius Scaurus شاد ملهى يحتوى ثمانية آلاف مقعد ، وثلثمائة وستين عموداً ، وثلاثة آلاف تمثال ، ومسرحاً ذا ثلاث طبقات وثلاثة صفوف من الأعمدة منها صف من الخشب ، وصف من الرخام ، وثالث من الزجاج . وتمرد عبيده لشدة ما أرهقهم من العمل فحرقوا الملهى بعد الفراغ من بنائه ، وحملوه ديناً يبلغ مائة مليون سسترس[22]. وقدم بمبي في عام ٥٥ ما يلزم من المال لإقامة أول ملهى حجري دائم في رومة — وكان يحتوى على ١٧٫٥٠٠ مقعد ، وعلى بستان فسيح ذى أروقة يتنزه فيها النظارة بين الفصول ، وأقام اسكريبونيوس كوريو Scribonius Curio أحد قواد قيصر عام ٥٣ ملهيين من الخشب كلاهما على شكل نصف دائرة يتصلان بظهريهما ، وكان الملهيان يعرضان مسرحيات في الصباح ، فإذا انتهى التمثيل دار البناءان ، والنظارة لا يزالون في مقاعدهم ، على قطبيهما وعجلهما فاستحال نصفا الدائرتين مدرجاً ،

(*) نوع من السمك ويسمى أيضاً مرينة و « أبو مرينا » .

(**) نوع آخر من السمك Sturgeon (المترجم)

وأضحى المسرحان حلبة للمصارعة[٢٤] . ولم تبلغ الألعاب فى بلد من البلاد أو فى عصر من العصور من الكثرة وعظم النفقة وطول الزمن مثل ما بلغته وقتئذ فى رومة[٢٥] : وحسبنا دليلا على ذلك أن ألعاباً أقامها قيصر اشترك فيها يوم واحد عشرة آلاف مجالد ، وقتل فيها الكثيرون منهم . وعرض صلا قتالا للآساد اشترك فيه مائة أسد ، وعرض قيصر قتالا آخر كان فيه أربعمائة ، وعرض بمبي قتالا كان فيـــه ستمائة . وكانت الوحوش فى هذه الألعاب تقاتل الرجال والرجال يقاتل بعضهم بعضاً ، والنظارة الذين تغص بهم الساحات يشاهدون مناظر الموت وهم مغتبطون .

الفصل الثالث

المرأة الجديدة

كان ازدياد الثراء وفساد الأخلاق من أكبر العوامل فى الانحلال الخلقى وانفصام رابطة الزواج . وظلت الدعارة منتشرة فى البلاد رغم ازدياد التنافس من النساء ومن الرجال . وازداد عدد المواخير والحانات التى تأوى هؤلاء العاهرات زيادة جعلت بعض الساسة يلجئون فى الحصول على أصوات الناخبين إلى اتحاد أصحاب المواخير (٣٥) . وأصبح الزنى من الأمور العادية ، وألفه الناس حتى لم يعد يستلفت أنظار إنسان ما إلا إذا استخدم للأغراض السياسية . ولم يكن ثمة امرأة موسرة إلا طلقت مرة على الأقل ؛ ولم يكن اللوم فى ذلك واقعاً على النساء ، فقد كان أكبر أسباب انتشار الطلاق أن الزواج عند الطبقات العليا أصبح خاضعاً للمال وللسياسة . ذلك أن الرجال كانوا يختارون أزواجهم أو كانت الأزواج يخترن للشبان ليحصلوا منهن على أكبر البائنات أو على صلات يفيدون منها جاها ومالا ؛ وقد تزوج صلاح وبمبى خمس مرات ؛ وأراد صلا أن يضم بمبى إلى جانبه فأقنعه بالتخلص من زوجته الأولى والاقتران بإميليا ربيبة صلا ، وكانت وقتئذ متزوجة وحاملا . ووافقت إميليا على هذا الزواج مكرهة ولكنها ماتت فى أثناء الوضع عقب انتقالها إلى بيت بمبى . وزوج قيصر ابنته يوليا Julia إلى بمبى ليضمن بذلك انضمامه إليه فى الحلف الثلاثى . وأغضبت كاتو هذه الحال فوصفها بقوله « إن الإمبراطورية أصبحت توكيلا لإدارة شئون الزواج »(٢٥) . ولم تكن هذه الزيجات إلا زيجات سياسية ، إذا تم النفع المرجو منها تطلع الزوج إلى زوجة أخرى يرقى على كتفيها إلى منصب أعلى أو مال أوفر . ولم يكن ثمة حاجة إلى سبب يبديه ؛ وحسبه أن يرسل إليها خطابا يبلغها فيه أنها أصبحت حرة فى شئونها كما أصبح

هو حراً فى شئوله . وامتنع بعض الرجال عن الزواج امتناعاً تاماً ، وكانت حجتهم فى هذا أن المرأة الجديدة قد ذهب حياؤها وأسرفت فى حريتها ، واكتفى كثيرون منهم باتخاذ السرارى والإماء . وكان الرقيب متلس المقدونى Metellus Macedonicus (١٣١) يرجو الرجال أن يتزوجوا وينجبوا الأبناء لأن هذا واجب تفرضه عليهم الدولة مهما ضاقت نفوسهم بالزوجات(٢٦) ، ولكن عدد الأعذاب والزيجات العقيمة أخذ بعد هذا النصح يزداد أسرع من ازدياد قبله ، وأصبح الأطفال من الكماليات التى لا يطيقها إلا الفقراء .

وهل تلام المرأة وهى تعيش فى هذه الظروف إذا استخفَّت بقسم الزواج ووجدت فى الصلات الجنسية غير المشروعة الحب والعطف اللذين لم ينلها إياهما الزواج السياسى . لقد كانت هناك بطبيعة الحال كثرة من النساء الصالحات حتى بين الأغنياء أنفسهم ، ولكن الحرية الجديدة أخذت تحطم ما كان للأب من سيطرة تامة على أسرته Patria Potestas كما أخذت تحطم كيان الأسرة بأكمله . وخلعت النساء الرومانيات العذار ، وكان لهن من الحرية مثل ما للرجال سواء بسواء ، واتخذن لهن أثواباً من الحرير المهلهل الشفاف المستورد من الهند والصين ، وأرسلن رسلهن يجوبون أسواق آسية ليأتوهن بالحلى والعطور ، واختفى الزواج الذى يتبعه انتقال الزوجة إلى دار زوجها Marriahe cum manu ، وكانت النساء يطلقن أزواجهن كما يطلق الرجال زوجاتهم . وأخذت طائفة متزايدة من النساء تنفس عن نفسها بالأعمال الثقافية . وأخذت طائفة متزايدة من النساء تنفس عن نفسها بالأعمال الثقافية ، فتعلمن اللغة اليونانية ، ودرسن الفلسفة ، وكتبن الشعر ، وألقين المحاضرات العامة ، ولعبن وغنين ورقصن ، وأقمن الندوات الأدبية واشتغل بعضهن بالتجارة والشئون المالية ، ومارست فئة قليلة منهن صناعة الطب أو المحاماة .

وكانت كلوديا Clodia زوج كونتس كاسليوس متلس Quintus Caecilius Metellus أشهر النساء اللاتى أكملن ما فى أزواجهن من نقص بالقيام بطائفة

من أعمال الفروسية والشهامة ، فقد تملكتها نزعة قوية للدفاع عن حقوق النساء . وهزت مشاعر الجيل القديم بسيرها بعـــد زواجها مع أصدقائها الرجال دون أن يكون معها مَحْرَم ، وكانت تستقبل من تعرف من أصدقائها وتقبلهم أحياناً على ملأ من الناس ، بدل أن تغض الطرف وتنزوى فى عربتها شأن النساء الراقيات فى عرف تلك الأيام ، وكانت تولم الولائم لأصدقائها من الرجال ، وكان زوجها يتعمد الغياب فى أثنائها كما كان يفعل بعدئذ ماركيز ده شاتليه Marquis ds châtelet . ويصف شيشرون — وهو الرجل الذى لا يوثق بوصفه — « حبها ، وزناها ، وعهرها ، وأغانيها ، وما كانت تقيمه من حفلات موسيقية وولائم الطعام ، ومقاصف الشراب فى بايا Baiae براً وبحراً »(٣٧) . وكانت فى الحق امرأة ماهرة إذا زلت فى ظرف وكياسة ، يعجز الإنسان عن ألا يزل معها ، ولكنها أخطأت فى الاستخفاف بأنانية الرجال . لقد كان كل واحد من عشاقها يحب أن يستأثر بها حتى تفتر شهوته ، كما كان كل واحد منهم يصبح عدوها الألد حين تتخذ لها صديقاً غيره . ومن أجل ذلك لطخها كتاس Cutullus (إذا كانت هى التى يسميها لزبيا Lesbia) بالنكات البذيئة ، وذكرها كاليوس Caelius فى حديث له عن الذى تُبتاع به أفقر العاهرات ، ووصفها علنا فى المحكمة بأنها المرأة التى تُبتاع بربع آس Quadrantaria (أى ما يعادل $\frac{1,5}{100}$ من الريال الأمريكى) . ذلك بأنها كانت قد اتهمته بأنه حاول قتلها بالسم ، واستأجر هو شيشرون للدفاع عنه ، ولم يتورع الخطيب المدره عن اتهامها بالفسق مع محارمها وبالقتل ، وقال فى خلال دفاعه إنه رغم هذا « ليس عدوا للنساء وأولى له ألا يكون عدوا لامرأة هى صديقة لكل الرجال » . وبرئ كتلس مما اتهم به وجوزيت كلوديا بعض الجزاء لأنها أخت پبليوس كلوديوس أشد الزعماء تطرفا فى رومة وألد أعداء شيشرون .

الفصل الرابع

كاتو ثان

وقام في وسط هذا الفساد والانحلال رجل كان بقية من رجال الأيام الخالية وداعية للسير على سننها. ذلك هو ماركس پورسيوس كاتو Marcus Porcius Cato الأصغر. وكان قد خرج على مبدأ من مبادئ جده الأعلى فدرس اللاتينية وأفاد منها تلك الفلسفة الرواقية التي بعثت فيه مع عقيدته الجمهورية إخلاصه القوى الذى لم يفارقه قط طول حياته. وورث كاتو من المال مائة وعشرين تالنتا (أي ما يعادل ٤٣٢٫٠٠٠ ريال أمريكى) ولكنه عاش عيشة بسيطة كلها جد ونشاط، وكان يقرض المال ولكنه لا يتقاضى عن قروضه فوائد: وكانت تعوزه فكاهة جده الأعلى الخشنة، وقد أزعج الناس بما كان يتصف به في ظنهم من الاستقامة الصارمة العنيدة والاستمساك بالمبادئ استمساكاً لا يتفق في رأيهم مع روح العصر الذى يعيش فيه. ذلك أن حياته نفسها كانت اتهاماً لحياتهم لا يغفرونه له، وكانوا يتمنون أن لو مال قليلا نحو الرذيلة، ولو لم يكن هذا إلا احتراماً لعادات بنى الإنسان وتأدباً في حقهم. وما من شك في أنهم قد ابتهجوا حين فعل كاتو فعلة تكاد تنم عن سخريته بالمرأة واعتقاده أنها ليست إلا أداة للتناسل « فأعار » زوجته مارسيليا إلى صديقه هورتنسيوس Hortensius — أى طلقها وحضر زواجها بالخطيب الذائع الصيت — ولما مات هورتنسيوس بعدئذ أعادها إلى عصمته(٢٨). ولم يكن في وسع معاصريه أن يحبوه لأنه كان ألد أعداء الخيانة والسفالة. وأشد المدافعين عن حقوق الآباء على أبنائهم وأسرهم. وكان نقده لأخلاق ذلك العصر أقسى وأشد صرامة من نقد الرقيب كاتو الأكبر نفسه. وقلما كان يضحك أو يبتسم، ولم يحاول

قط أن يكون لطيفاً بشوشاً ، وكان يؤنب كل من يجرؤ على تملقه أشد التأنيب . وقد قال شيشرون إنه أخفق فى أن ينتخب قنصلا لأنه كان يحيا حياة مواطن فى جمهورية أفلاطون لا حياة رومانى بين حثالة أبناء رميولوس »(٢٩) ».

ولما عين كوسترا كان سوط عذاب يصب على العجز وعلى استغلال سلطان الوظيفة ، وحفظ أموال الخزانة العامة من جميع الغارات السياسية ، ولم تضعف يقظته وحرصه على هذه الخزانة بعد أن انقضت فترة توليه منصبه . وكان يصب تهمه على جميع الأحزاب على حد سواء ، وقد أفاد من هـذه التهم آلاف المعجبين ولكنها لم تترك له صديقاً واحداً . ولما كان بريتورا أقنع مجلس الشيوخ بأن يصدر قراراً بأن يأمر كل مرشح للقنصلية أن يحضر إلى ساحة القضاء ، وبعد أن يقسم اليمين يعرض على القضاة بياناً مفصلا بما أنفقه أثناء الحملة الانتخابية ، وما اتبعه فيها من الوسائل ، وأزعج هذا القرار كثيراً من السياسيين لأن الكثرة الغالبة منهم كانت تعتمد فى انتخابها على الرشا ، فلما أن ظهر كاتو بعدئذ فى السوق العامة أخذوا هم ومواليهم يسبونه ويرمونه بالحجارة ، فلم يكن منه إلا أن اعتلى المنصة وواجه المجتمعين وهو ثابت الجنان ، وما زال يخطب فيهم حتى خضعوا له . ولما اختير تريبيونا سار على رأس جيش إلى مقدونية ، وامتطى خدمه وأتباعه الجياد ، أما هو فسار راجلا . وكان يهزأ برجال الأعمال ويدافع عن الأرستقراطية أو حكم أبناء الأسر الشريفة ، ويرى أنه إن لم يحكم البلاد هؤلاء الأشراف فلا مفر من أن يحكمها ذوو الثراء ، وهذا شر أيما شر . وشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الذين كانوا يفسدون السياسة الرومانية بالمال والأخلاق الرومانية بالترف ، وظل إلى آخر أيام حياته يقاوم كل خطوة يخطوها بمبى أو قيصر نحو الطغيان الفردى . ولما أن قضى قيصر على الجمهورية تخلص كاتو من حياته بيده وإلى جانبه كتاب من كتب الفلسفة .

الفصل الخامس

اسبارتكوس

ووصل سوء الحكم وقتئذ إلى غايته كما تأصلت الدمقراطية فيه بدرجة قلما نجد لها نظيراً فى تاريخ الدول . وحدث فى عام ٩٨ ق . م أن أعاد القائد الرومانى ديديوس Didius مافعله من قبله سابسيوس جلبا Swpicius Galba فقد خادع قبيلة كاملة من الأسپان المشاغبين حتى استدرجهم إلى معسكر رومانى فى أسپانيا مدعياً أنه يريد أن يسجل أسماءهم ليوزع الأرض الزراعية عليهم ، فلما دخلوا المعسكر هم وأزواجهم وأبناؤهم أمر بهم فذبحوا عن آخرهم ، ولما عاد إلى رومة احتفل بعودته احتفال الظافرين[٣٠] : ولم يطق هذه الفظائع وأمثالها من ضروب الوحشية التى كان يقترفها رجال الإمبراطورية ضابط سبينى فى الجيش الرومانى يدعى كونتس سرتوريوس Quintus Sertorius فذهب الأسپان ، ونظم صفوفهم ودربهم على القتال وقادهم من نصر إلى نصر على الجيوش الرومانية التى سيرت لإخضاعهم ، وظل ثمانى سنين (٨٠ — ٧٢) يحكم مملكة ثائرة خارجة على حكم الرومان ، كسب فى خلالها قلوب الأسپان بحكمه العادل و بإنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ، وعرض متلس القائد الرومانى مائة تالنت أى ما يقرب من ٣٦٠٫٠٠٠ ريال أمريكى ، وعشرين ألف فدان من الأرض مكافأة لأى رومانى يقتل سرتوريوس ، وكان لهذا العرض السخى أثره فدعاه پرپنا Perpenna ، وهو لاجئ رومانى فى معسكره ، إلى وليمة ، واغتاله ، وتولى قيادة الجيش الذى دربه سرتوريوس ، وأرسل پمپى لقتال پرپنا ولم يلق صعوبة ما فى التغلب عليه . وأسر پرپنا وأعدم وعاد الرومان إلى استغلال أسپانيا من جديد .

وكان العمل الثانى من أعمال الثورة من فعل الأرقاء لا من فعل الأحرار ،

ذلك أن لنتولس بتياتس Lentulus Batiates قد أنشأ فى كپوا مدرسة للمصارعين ، رجالها من الأرقاء أو المجرمين المحكوم عليهم ، ودربهم على صراع الحيوانات أو صراع بعضهم بعضاً ، فى حلبة الصراع العامة أو فى البيوت الخاصة . ولم يكن ينتهى الصراع حتى يقتل المصارع . وحاول مائتان من هؤلاء المصارعين أن يفروا ، ونجح منهم ثمانية وسبعون ، وتسلحوا واحتلوا أحد سفوح بركان ڤيزوف ، وأخذوا يغيرون على المدن المجاورة طلباً للطعام(٣٧) . واختاروا لهم قائداً من أهل تراقية يدعى اسپارتكوس Spartacns يقول فيه أفلوطرخس إنه « لم يكن رجلا شهماً شجاعاً وحسب ، بل كان إلى ذلك يفوق الوضع الذى كان فيه ذكاء فى العقل ودماثة الأخلاق »(٣١) . وأصدر هذا القائد نداء إلى الأرقاء فى إيطاليا يدعوهم إلى الثورة ، وسرعان ما التف حوله سبعون ألفاً ، ليس منهم إلا من هو متعطش للحرية وللانتقام . وعلمهم أن يصنعوا أسلحتهم ، وأن يقاتلوا فى نظام أمكنهم به أن يتغلبوا على كل قوة سيرت عليهم لإخضاعهم . وقذفت انتصاراته الرعب فى قلوب أثرياء الرومان ، وملأت قلوب الأرقاء أملا ، فهرعوا إليه يريدون الانضواء تحت لوائه ، وبلغوا من الكثرة حداً اضطر معه أن يرفض قبول متطوعين جدد بعد أن بلغ عدد رجاله مائة وعشرين ألفا لأنه لم يكن يسهل عليه أن يعنى بأمرهم . وصار بجيوشه صوب جبال الألب ، وغرضه من هذا « أن يعود كل رجل إلى بيته بعد أن يجتاز هذه الجبال »(٣٢) . ولكن أتباعه لم يكونوا متشبعين مثله بهذه العواطف الرقيقة السلمية ، فتمردوا على قائدهم ، وأخذوا ينهبون مدن إيطاليا الشمالية ، ويعيثون فيها فساداً . وأرسل مجلس الشيوخ قوات كبيرة بقيادة القنصلين لتأديب العصاة . والتقى أحد الجيشين بقوة منهم كانت قد انشقت على اسپارتكوس وأفنتها عن آخرها . وهوجم الجيش الثانى قوة العصاة الرئيسية فهزمته وبددت شمله . ثم سار اسپارتكوس بعدئذ صوب جبال الألب والتقى فى أثناء سيره بجيش ثالث يقوده كاسيوس فهزمه شر هزيمة ، ولكنه وجد جيوشاً

رومانية أخرى تقف فى وجهه وتسد عليه المسالك فولى وجهه شطر الجنوب وزحف على رومة .

وكان نصف الأرقاء فى إيطاليا متأهبين للثورة ، ولم يكن فى وسع أحد فى العاصمة نفسها أن يتنبأ متى تنشب هذه الثورة فى بيته ، وكانت تلك الطائفة الموسرة المترفة التى تتمتع بكل ما فى وسع الرق أن يمتعها به ، كانت تلك الطائفة كلها ترتعد فرائصها فرقاً حين تفكر فى أنها ستخسر كل شىء — السيادة والملك والحياة نفسها . ونادى الشيوخ وذوو الثراء يطالبون بقائد قدير ، ولكن أحـــداً لم يتقدم للاضطلاع بهذه القيادة ، فقد كان القواد كلهم يخافون هـــذا العدو الجديد العجيب ، ثم تقدم كراسس Crassus آخر الأمر وتولى القيادة ، وكان تحت إمرته أربعون ألفاً من الجنود ، وتطوع كثير من الأشراف فى جيشه لأنهم لم ينسوا كلهم تقاليد الطبقة التى ينتمون إليها ولم يكن يخفى على اسپارتكوس أنه يقاتل إمبراطورية بأكملها ، وأن رجاله لا يستطيعون أن يصرفوا شئون العاصمة بله الإمبراطورية نفسها إذا استولوا عليها . فلم يعرج فى زحفه على رومة وواصل السير حتى بلغ ثورياى Thurii مخترقاً إيطاليا كلها من شمالها إلى جنوبها ، لعله يستطيع نقل رجاله إلى صقلية أو إلى إفريقية . وظل سنة ثالثة يصد الهجمات التى يشنها عليه الرومان ، ولكن جنوده نفد صبرهم وسئموا القتال ، فخرجوا عليه وعصوا أوامره ، وأخذوا يعيثون فساداً فى المدن المجاورة . والتقى كراسس بجماعة من أولئك النهابين وفتك بهم ، وكانوا اثنى عشر ألفاً وثلثمائة ظلوا يقاتلون إلى آخر رجل فيهم . وفى هذه الأثناء كان جنود بمپى قد عادوا من أسپانيا فأرسلوا لتقوية جيوش كراسس ، وأيقن اسپارتكوس أن لا أمل له فى الانتصار على هذه الجيوش الجرارة ، فانقض على جيش كراسس وألقى بنفسه فى وسطه مرحباً بالموت

فى وسط المعمعة ، وقتل بيديه ضابطين من ضباط المئين ، ولما أصابته طعنة ألقته على الأرض وأعجزته عن النهوض ظل يقاتل وهو راكع على ركبتيه إلى أن مات وتمزق جســمه لم يكن من المستطاع أن يتعرف عليه . وهلك معه معظم أتباعه ، وفر بعضهم إلى الغابات ، وظل الرومان يطاردونهم فيها ، وصلب ستة آلاف من الأسرى فى الطريق الأبياوى الممتد من كپوا إلى رومة (٧١) . وتركت أجسامهم المتعفنة على هذه الحال عدة شهور تطمينا لجميع السادة وإرهاباً لجميع العبيد .

الفصل السادس

پمپي

ولما عاد كراسس وپمپي من هذه الحملة لم يسرحا جنودهما أو يجرداهم من سلاحهم عند أبواب رومة استجابة لرغبة مجلس الشيوخ وإطاعة للقانون ، بل عسكرا بهم خارج أسوار المدينة ، وطالبا أن يؤذن لهما بأن يرشحا لفسيهما للقنصلية دون أن يدخلا المدينة — وخالفا بذلك مرة أخرى كل السوابق المألوفة . وزاد پمپي على ذلك أن طاب أرضاً لجنوده وموكب نصر لنفسه . ولكن مجلس الشيوخ لم يجبه إلى طلبه ، وكان يرجو أن يفرق بين القائدين ويثير كلا منهما على الآخر . غير أن كراسس وپمپي اتفقا فيما بينهما ، وعقدا حلفاً فجائياً مع الطبقات الدنيا ومع رجال الأعمال ، ونجحا بفضل الرشا السخية فى أن يختارا قنصلين فى عام ٧٠ ق . م وقد ناصرهما رجال الأعمال لغرضين عاجلين أولهما رغبتهم فى أن يستعيدوا ما كان لهم من سلطان فى مناصب المحلفين الذين يحاكمونهم ، وثانيهما أن يستبدلوا بلوكلس Lucullus — الذى كان يحكم الشرق حكماً صالحاً لا نفع فيه لهم رجلا من طبقتهم يعمل بمبادئهم . وقد وجدوا فى پمپي ضالتهم المنشودة .

وكان پمپي وقتئذ فى الخامسة والثلاثين من عمره ولكنه كان جنديا ضرسته الحروب وخاض معارك كثيرة . وكان من أسرة غنية من طبقة الفرسان ، نال إعجاب مواطنيه اشجاعته واعتداله وحذقه كل ضروب الألعاب وفنون الحرب . وكان قد طهر صقلية وإفريقية من أعداء صلا ولقبه القنصل الفكه بلقب « العظم » جزاء له على زهوه وانتصاره فى الحروب . وقد أحرز بعض النصر وهو شاب أمرد(٣٣) . وقد بلغ

من الجمال حدا أنطق فلورا Flora إحدى سرارى ذلك الوقت بقولها إنها لم تكن تستطيع أن تفارقه قط دون أن تعضه(٣٤) . وكان مرهف الشعور ، شديد الحياء ، يحمر وجهه من شدة الخجل إذا اضطر إلى خطابة فى اجتماع عام ، أما فى الحرب فقد كان فى تلك الأيام باسلا مقداماً يخوض غمارها ولا يبالى بما يتعرض له من الأخطار . ولما تقدمت به السن أثر حياؤه كما أثرت بدانته فى قدرته على القيادة ، وكان تردده سبباً فى هزائمه . ولم يكن ألمعياً سريع الخاطر أو عميق التفكير ؛ ولم يكن هو الذى يرسم الخطط التى يسير عليها ، بل يضعها غيره ـ كان يضعها له فى أول الأمر السياسيون من طبقته العامة ثم الأثرياء من الشيوخ . وكان ثراؤه الواسع سبباً فى انتشاله من المغريات السياسـية الدنيئة ؛ فكان وهو فى وهدة الفساد والأنانية التى يتردى فيها أهل زمانه علماً فى الوطنية والاستقامة ؛ ويلوح أنه كان فى أعماله يستهدف الصالح العام مع صالحه الخاص ؛ وكان أبرز عيوبه غروره وكبرياؤه ، ومنشأ ذلك أن انتصاراته الأولى قد جعلته يغالى فى تقدير مواهبه ، وكان مما يعجب له ولا يستطيع فهمه أن تتلكأ رومة هـذا التلكؤ الطويل فى أن تجعله يستمتع بكل ما يستمتع به الملوك إلا الاسم وحده .

ولما تسنم صنيعتا صلا منصب القنصلية أخذا يعملان ما فى وسعهما لتقويض أركان الدستور الذى وضعه ولى نعمتهما . وأراد بمبى وكراسس أن يوفيا بما عليهما من دين للعامة فأقرا مشروع قانون يهدف إلى إرجاع ما كان للتربيون من سلطات ، ووطدا دعائم حلفهما مع رجال الأعمال فأمرا لوكلس أن يخول الملتزمين الإشراف التام على جباية الضرائب فى بلاد الشرق ، وأيدا التشريع الذى يقضى بأن توزع مناصب المحلفين بالتساوى بين أعضاء الشيوخ وطبقتى الفرسان ورجال المال . ومضى على كراسس خمسة عشر عاماً قبل أن يلقى جزاءه ـ وهو أن يصب الذهب فى جوفه صبا فى بلاد آسية . أما بمبى فقد نال جزاءه فى عام ٦٧ حين خولته الجمعية سلطة تكاد أن تكون مطلقة من كل قيد فى

تأديب قراصنة قليقية . ذلك أن جزيرة رودس قد استطاعت فى الأيام السالفة أن تطهر بحر إيجة من هؤلاء القراصنة ، فلما أن ذلت رودس وافتقرت على يد رومة وديلوس لم يكن فى مقدورها أن تحتفظ بالعمارة البحرية التى تمكنها من هذا العمل، ولم يكن الأشراف ملاك الأراضى المسيطرون على مجلس الشيوخ شديدى الحرص على أن تبقى مسالك التجارة البحرية آمنة من الأخطار. أما التجار والعامة فقد تأثروا بهذه الحال أشد التأثر ، فقد تعذرت التجارة أو كادت فى بحر إيجة بل وفى القسم الأوسط من البحر الأبيض المتوسط ، ونقص المستورد من الحبوب نقصاً سريعاً ارتفع بسببه ثمن القمح فى رومة حتى بلغ عشرين سسترس لكل موديس(*) أو نحو ثلاثة ريالات أمريكية لكل جالونين . وتباهى القراصنة بنصرهم فرفعوا على سفنهم التى تبلغ عدتها ألف سفينة الساريات المذهبة والأشرعة الأرجوانية ، وجهزوها بالمجاذيف المصفحة بصفائح الفضة ، وقد استولوا على أربعمائة من المدن الساحلية ، واحتفظوا بها ، ونهبوا الهياكل فى سمثريس Samothrace . وساموس Samos ، وإپدورس Epidaurus ، وأرجوس Argos ولوكاس Leucas وأكتيوم Actium ، وعمدوا إلى اختطاف الموظفين الرومان ، وبلغت بهم الجرأة أن هاجموا سواحل أپوليا Apaulia وإتروريا .

وأراد جابينيوس Gabinias صديق بمپى أن يعالج هذا الموقف ، فتقدم بمشروع قانون يجعل له السيطرة التامة مدى ثلاث سنوات على جميع الأساطيل الرومانية وعلى جميع الأشخاص المقيمين على مدى خمسين ميلا من شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وعارض كل الشيوخ ، ما عدا قيصر ، هذا الإجراء العجيب ، ولكن الجمعية أجازته فى حماسة بالغة ووافقت على أن تمد بمپى بجيش مؤلف من ١٢٥٫٠٠٠ مقاتل وأسطول مؤلف من ٥٠٠ سفينة ، وأبلغت خزانة

(*) مكيال رومانى سعته نحو جالونين . (المترجم)

الدولة أن تضع تحت تصرفه ٠٠٠ر٠٠٠ر١٤٤ سسترس . وكان هذا المشروع فى واقع الأمر سلباً للسلطة من مجلس الشيوخ ، وختاماً لعودة « صلا » إلى الحكم ، وإقامة لملكية مطلقة مؤقتة كانت فاتحـــة لملكية قيصر ومثلا له يحتذيه .

وكانت نتيجة هذا العمل مؤيدة لهذه السابقة الخطيرة ، فلم يمض على تنصيب پمپي إلا يوم واحد حتى أخذ ثمن القمح فى الانخفاض ، وقبل أن يمضى عليه فى هذا المنصب ثلاثة شهور أتم العمل الذى نيط به — فاستولى على سفن القراصنة ومعاقلهم وأعدم زعماءهم وإن لم يسئ استعمال السلطة غير العادية التى وضعت بين يديه . وتشجع التجار فانشطت التجارة الخارجية ، ومخرت السفن عباب البحار ، وتدفق على رومة سيل من الحبوب .

وقبل أن يعود پمپي من قليقية عرض صديقه منليوس **Manilius** على الجمعية مشروع قانون بنقل قيادة الجيوش وحكم الولايات التى كان يقودها ويحكمها لوكلس(٦٦) إلى پمپي ، وإطالة الفترة التى حددها قانون جابينيوس لسلطاته المتعددة . وعارض مجلس الشيوخ فى هذا المشروع ، ولكن التجار والمرابين أيدوا الاقتراح تأييداً قوياً ، ذلك أنهم كانوا يؤملون أن يكون پمپي أقل ليناً من لوكلس لمدينيهم فى آسية ، وأن يعيد إلى الملتزمين حق جباية الضرائب ، وأنه لن يكتفى بفتح بثينيا وپنتس بل سيفتح كذلك كبدوكيا وسوريا وبلاد اليهود ، وأن هذه الحقول الغنية ستُفتح أبوابها إلى التجارة والأموال الرومانية تحت حماية الجيوش الرومانية . وقام « رجل جديد » هو ماركس تليوس شيشرون **Marcus Tullius Cicero** كان قد اختير بريتورا فى ذلك العام بمعونة رجال الأعمال فأيد « قانون منليوس ، وهاجم العصبة المالية الحاكمة فى مجلس الشيوخ بفصاحة وتهور لم يسمع بمثلهما فى رومة من أيام ابنى جراكس ، وبصراحة لم تعهد قط فى السياسيين » . ومن أقواله فى هذا الهجوم :

« إن جميع النظم الخاصة بالمال والائتمان التى تسير عليها رومة ترتبط بخراج

الولايات الأسيوية ارتباطاً لا انفصام له ، فإذا ما حجز هذا الخراج انهارت جميع نظم المال والائتمان فى هذه البلاد . . . وإذا ما خسر بعض الناس أموالهم كلها جرّوا معهم كثيرين غيرهم . فأنقذوا الدولة من هذه الكارثة . . . وابذلوا فى الحرب على مثرداتس كل ما استطعتم من جهود حتى تحتفظوا بشرف رومة وسلامة أحلافنا ، وبأمن جزء من مواردنا ، وبثروة عدد لا يحصى من المواطنين » .

وأجازت الجمعية من فورها مشروع القانون ، ولم يكن ذلك لأن العامة يعنون أقل عناية بأموال الماليين ، بل لأنهم كان يسرهم أن يجدوا فى تخويل قائد من القواد سلطات واسعة غير محدودة وسيلة لإلغاء تشريعات « صلا » والقضاء على سلطان مجلس الشيوخ عدوّهم القديم .

ومن ذلك اليوم أخذ أجل الجمهورية ينصرم ، وأخذت حياتها تقترب من نهايتها . ذلك أن الثورة الرومانية مستعينة بفصاحة عدوها الألد ، كانت قد خطت خطوة أخرى نحو طغيان قيصر .

الفصل السابع

شيشرون وكاتلين

يقول أفلوطرخس إن ماركس تليوس إنما سمى شيشرون لأن أحد أجداده كانت له على أنفه ثؤلولة تشبه الحمصة الجبلية (cicer) . ولكن أرجح من هذا التعليل أن أباءه قد اكتسبوا هذا اللقب لما كانوا ينتجونه من حمص ذائع الصيت . ويصف شيشرون فى كتاب « القوانين » وصفاً رقيقاً يخلب الب بيته الصغير المتواضع الذى شهد مولده بالقرب من أربينوم Arpinum فى منتصف المسافة بين رومة ونابلى على التلال المتصلة بجبال أبنين Appenine . وكان لولده من الثروة ما يكفيه لأن يعلم ولده خير تعليم يستطيع أن يناله فى ذلك الوقت ، فاستأجر الشاعر اليونانى أركياس Archias ليعلم ماركس الأدب واللغة اليونانية ، ثم أرسله ليدرس القانون مع كونتس موسيوس أسكيفولا Quinuts Mucius Scaevola أعظم رجال القانون فى عصره .

وكان شيشرون يستمع فى شوق وانتباه إلى المحاكمات والمناقشات التى تدور فى السوق العامة ، وسرعان ما أتقن الفنون والأساليب المتبعة فى الخطب القانونية . وقد قال فى إحدى المناسبات : « من أراد النجاح فى القانون فعليه أن يتخلى عن جميع مسراته ، ويتجنب كل ضروب اللهو . ويودع التسلية والألعاب والطرب ، وأكاد أقول إن عليه أن يقطع صلاته أصدقائه(٣٦) » .

وسرعان ما كان هو نفسه يشتغل بالقانون ويلقى خطباً رنانة حوت من البلاغة والشجاعة ما أكسبه شكر الطبقات الوسطى والدنيا . وقد قاضى أحد صنائع صلا وشهر بما كان يرتكبه من الاضطهاد حين كان حكم الإرهاب

الذى أقامه صلا على أشده (٨٠ ق . م)(٣٧) . ثم سافر بعد قليل من ذلك الوقت إلى بلاد اليونان ، ولعله سافر إليها فراراً من غضب ذلك الطاغية ، وظل فى تلك البلاد يدرس الفلسفة وفن الخطابة . وبعد أن قضى ثلاث سنين فى أثينة هنيئاً سعيداً انتقل إلى رودس حيث استمع إلى محاضرات أپولونيوس بن مولون Appollonius Molon فى البلاغة ، وإلى محاضرات پوسيدونيوس Poseidonius فى الفلسفة ، وتعلم من أولهما تراكيب الجمل المتعاقبة وعفة اللفظ وهما الصفتان اللتان كان يمتاز بهما أسلوبه ؛ وتعلم من ثانيهما تلك الرواقية المعتدلة التى نادى بها بعدئذ فيما كتبه من مقالات عن الدين وفن الحكم والصداقة والشيخوخة .

ثم عاد إلى رومة فى سن الثلاثين وتزوج ترنشيا Terentia واستطاع بباثنتها السخية أن يشتغل بالسياسة ، وعلا شأنه ونبه ذكره بعدله وحسن إدارته حين كان كوستراً فى صقلية عام ٧٥ ق . م ولما عاد إلى الاشتغال بالمحاماة فى عام ٧٠ ق . م أهاج عليه طبقة الأشراف إذ قبل أن يوكل فى قضية أقامتها مدن صقلية على كيوس ڤيرس Caius Verrs عضو الشيوخ ، واتهمته فيها بأنه وهو صاحب الخراج فى تلك الجزيرة (٧٣ — ٧١) كان يبيع المناصب والأحكام ، ويخفض الضرائب بنسبة ما يناله من الرشا ، وأنه لم يكن يبقى فى سرقوسة شيئاً من تماثيلها ، وأنه وهب إيراد مدينة بأكملها إلى إحدى سراريه ، وأسرف فى الظلم ، وابتزاز الأموال والسرقات حتى غادر الجزيرة وهى أكثر خراباً مما كانت بعد حربين من حروب الرقيق . وشر من هذا كله أن ڤيرس قد اختص نفسه ببعض ما كان يختص به الملتزمون عادة ، وناصر رجال الأعمال شيشرون فى اتهاماته ، أما هرتنسيوس الزعيم الأرستقراطى للمحامين الرومان فقد تولى زعامة المدافعين عن ڤيرس ، وأجيز لشيشرون أن يقضى فى صقلية حوالى مائة يوم يجمع فيها الأدلة ؛ ولكنه اكتفى منها بخمسين يوماً ، وعرض فى خطبته الافتتاحية من الأدلة الدامغة ما جعل هرتنسيوس — وكان قد زين حدائقه ببعض ما نهبه

ڤيرس من التماثيل - يتخلى عن موكله . وحكم على ڤيرس بغرامة قدرها أربعون مليون سسترس ، ففر إلى خارج البلاد . ونشر شيشرون بعدئذ الخمس الخطب الإضافية التي كان قد أعدها ، وكانت كلها هجوماً عنيفاً على فساد الحكم الروماني في الولايات . وبلغ ما أحرزه من تأييد الشعب بجده وشجاعته أنه حين رشح نفسه للقنصلية في عام ٦٣ ق . م انتخب بحماسة بالغة منقطعة النظير .

وكان شيشرون من أبناء طبقة الفرسان ، ولذلك كانت ميوله بطبيعة الحال مع الطبقة الوسطى ، وكانت تشمئز نفسه من كبرياء الأشراف ويستنكر امتيازاتهم سوء حكمهم ، ولكنه كان يخشى أشد خشية أولئك الزعماء المتطرفين ، فقد كان يرى أن منهجهم ، بوضعه أزمة الحكم في أيدي الغوغاء ، يعرض الملكية لأشد الأخطار . ولهذا كانت الخطة السياسية التي وضعها لنفسه حين تولى الحكم أن يقيم « حلفاً من الطبقات » — أي تعاوناً بين الأشراف ورجال الأعمال ، يحول دون عودة تيار الثورة الجارف .

على أن أسباب التذمر وقواه كانت أعمق وأكثر من أن يقضى عليها بسهولة . فقد كان كثيرون من الفقراء يستمعون إلى الخطباء ينادون بوجوب قيام دولة مثالية ، وكان بعض من يستمعون إليهم على استعداد لأن يستخدموا أساليب العنف في تحقيقها . وكان يعلو عن هؤلاء قليلا جماعات من العامة خسروا أملاكهم لعجزهم عن أداء ما عليها من رهون . وكان بعض جنود صلا القدامى قد عجزوا عن استغلال أراضيهم استغلالا مربحاً ، وكانوا مستعدين للاشتراك في أي اضطراب يتيح لهم فرصة لانتهاب المال بلا كد . وكان بين الطبقات العليا طائفة من المدينين المفلسين العاجزين عن أداء ديونهم ، والمضاربين الذين فقدوا كل أمل أو رغبة في الوفاء بالتزاماتهم ، ومنهم من كانت لهم مطامع سياسية ولكنهم وجدوا سبل الرقي تسدها عليهم طائفة من المحافظين طالت آجالهم فوق ما ينبغي لها أن تطول . وكان إلى جانب هؤلاء كلهم عدد قليل من الثوار المخلصين لمثلهم العليا الذين

لا يخالجهم شك فى أنه لا سبيل إلى تلطيف ما تئن منه الدولة الرومانية من فساد وظلم إلا بانقلاب كامل وثورة جارفة .

ولم يحاول أحـــد جمع هذه الطوائف المشتتة وضمها كلها فى قوة سياسية مؤتلفة إلا رجل واحد هو لوسيوس سرجيوس كاتلين Lucius Sergius Catiline ، وهو رجل لا نعرف عنه إلا ما يصفه به أعداؤه — أى ما نستقيه من تاريخ حركته كما كتبها سلست Sallust الغنى صاحب الملايين ، وما نقرؤه من اتهامات ومثالب مقذعة فى خطب شيشرون ضد كاتلين . فأما سلست فيصفه بأنه « روح ملطخ بالإجرام ، هو والآلهة والناس على طرق نقيض ، لا يجد الراحة فى نومه ولا فى يقظته لأن ضميره قد قسا عليه فأتلف عقله المضنى المنهوك . وكان هذا سبباً فى صفرة وجهه ، وحمرة عينيـــه ، وهرجلته فى مشيه ، فتارة يسرع وتارة يبطئ ؛ وملاك القول أن وجهه ونظراته لا تترك مجالا للشك فى أن بعقله خبالا »[٣٨] . ذلك وصف يوحى بالصورة التى يرسمها لأعدائهم فى الحرب أقوام يكافحون فى سبيل الحياة والسلطان ؛ حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها هذبت الصورة شيئاً فشيئاً . أما صـــورة كاتلين فلم تهذب قط ؛ فقد اتهم فى شبابه بافتراع عذراء فستية ، وهى أخت غير شقيقة لزوجة شيشرون الأولى ، وبرأت المحكمة العذراء من هذه التهمة ولكن ألسنة السوء لم تبرئ منها كاتلين ، بل فعلت عكس هذا إذ أضافت إلى التهمة الأولى تهمة ثانية هى أنه قتل ابنه ليرضى بقتله عشيقته الغيور[٣٩] . ولسنا نجد ما نعارض به هذه القصص إلا قولنا إن عامة النـــاس فى رومة — « الغوغاء اليائسين الجياع » كما يسميهم شيشرون — ظلوا أربع سنين بعد وفاة كاتلين ينثرون الأزهار على قبره[٤٠] . وينقل لنا سلست هـــذه الفقرة وهى كما يلوح فحوى خطبة له :

« منذ وقعت الدولة فى قبضة عدد قليل من أقوياء الرجال . . . أصبح لهم فيها كل النفوذ والمنزلة والثروة ، ولم يتركوا لنا فيها إلا الخطر والهزيمة والمحاكمات

والفقر : : ; وماذا بقى لنا فى الحياة إلا الأنفاس التى تتردد فى صدورنا ؟ . . . أليس خيراً لنا أن نموت شجعاناً من أن نفقد حياتنا اليائسة الذليلة بعد أن نصير لعبة فى أيدى السفهاء »[٤١] .

وكانت الخطة التى يريد أن يضعها لضم عناصر الثورة المتعارضة خطة سهلة بسيطة تتلخص فى كلمتين هما « سجلات جديدة » ، ويقصد بهما إلغاء الديون كلها إلغاء تاماً بلا قيد ولا شرط . وأخذ يعمل لهذه الغاية بهمة لا تعادلها إلا همة قيصر ؛ والحق أنه نال إلى حين عطف قيصر إذا لم يكن قد نال فى السر معونته . وقد قال فيه شيشرون : « لم يكن ثمة شىء لا يستطيع فعله ، ولم تكن ثمة آلام لا يقاسيها فى سبيل تعاون عناصر الثورة ويقظتها وكدحها . وكان فى وسعه أن يتحمل البرد والجوع والعطش »[٤٢] . ويقول لنا أعداؤه إنه نظم فرقة قوامها أربعمائة رجل عهد إليها قتل القنصلين والاستيلاء على أزمة الحكم فى أول يوم من عام ٦٥ ق . م فلما حل ذلك اليوم لم يحدث شىء غير عادى ، وفى عام ٦٤ ق . م رشح كاتلين نفسه للقنصلية ضد شيشرون وشن عليه حملة انتخابية شديدة(*) ، روعت أصحاب رؤوس الأموال ، وبدأت أموالهم تتسرب من إيطاليا . واتحدت الطبقات العليا لتأييد شيشرون وتحقق بذلك ما كان ينادى به من « تعاون الطبقات » ، ودام هذا التعاون عاماً كاملا ، وكان هو ممثل هذا التعاون وصوته الناطق .

ولما وجد كاتلين أبواب السياسة موصدة أمامه ولى وجهه شطر الحرب ، فجهز أتباعه سراً جيشاً فى إتروريا من عشرين ألف مقاتل ، وجمعوا فى رومة عصبة من المتآمرين كان فيها ممثلون لجميع الطبقات من الشيوخ إلى الرقيق . وكان نيها

(*) وفى هذه الحملة الانتخابية وضع كونتس شقيق شيشرون له دستوراً يسير عليه فى حملته فقال : « عليك بالإسراف فى الوعد ، لأن الوعد الكاذب أحب إلى الناس من الرفض الصريح . . . واخترع فضيحة جديدة تذيعها عن منافسيك جريمة كانت أو رشوة أو فضيحة خلقية »[٤٣] .

بريتوران هما سثيجس Sefhegus ولنتولس Lentulus ، وتقدم كاتلين للقنصلية مرة أخرى فى شهر اكتوبر التالى .

ويقول لنا المترجمون له من المحافظين إنه أراد أن يضمن لنفسه النجاح فى هذا الانتخاب ، فدبر قتل منافسه فى أثناء الحملة ، واغتيال شيشرون فى الوقت عينه . وادعى شيشرون أنه علم بهذا التدبير فملأ « ميدان المريخ » بحرس مسلح ، وأشرف بنفسه على عملية الانتخاب ، وهزم كاتلين للمرة الثانية رغم تأييد الطبقات الدنيا وتحمسهم له . ويحدثنا شيشرون أنه فى اليوم السابع من نوفمبر طرق بابه عدد من المتآمرين ، ولكن حراسه صدوهم عنه وأبصر شيشرون فى اليوم الثانى كاتلين فى مجلس الشيوخ فأخذ يكيل له ذلك السباب الذى كان كل تلميذ ينطق به فى وقت من الأوقات . وبينا كان الخطيب يصب اللعنات على كاتلين خلت المقاعد التى حوله واحداً بعد واحد حتى لم يبق فى المجلس غيره . وتحمل وهو صامت سيل التهم الجارف والألفاظ المقذعة القاسية تنصب انصباب السياط على رأسه .

وأخذ شيشرون يستثير كل عاطفة من عواطفه ، فشبه الأمة بالأب العام وشبه كاتلين بقاتل أبيه ، واتهمه غمزاً وضمناً بغير دليل بأنه يأتمر بالدولة ، وبالسرقة ، والزنى ، والأفعال الجنسية الشاذة ، وتوجه آخر الأمر إلى جوف Jove أن يقى رومة السوء ، وأن يصب عذابه السرمدى على كاتلين .

ولما أتم شيشرون خطبته خرج كاتلين من المجلس دون أن يعترضه أحد ، وانضم إلى قواته فى إتروريا . وأرسل قائده لوسيوس منليوس Lucius Manlius آخر نداء له إلى مجلس الشيوخ وقال فيه :

إنا لنُشهد الآلهة والناس على أننا لم نمتشق الحسام لنقاتل به بلدنا ، أو نهدد به سلامة بنى وطننا . وكل الذى يدفعنا نحن المعدمين البائسين الذين تضافر علينا عنف المرابين وقسوتهم فشردونا من أوطاننا ، وحكم علينا

بالفاقة والحرمان ، وأصبحنا سخرية للساخرين — كل الذى يدفعنا إلى ما نحن فاعلوه هو رغبتنا فى أن نحمى أنفسنا من الظلم . وأما المال وأما السلطان ، وهما أكبر أسباب النزاع بين بنى الإنسان ، فلا مأرب لنا فيهما ، بل كل الذى نطلبه هو الحرية ، ذلك الكنز الذى لا يفرط فيه الإنسان إلا حين يسلم الروح . وإنا لنتوسل إليكم أيها الشيوخ أن تستشعروا الرحمة على بنى وطنكم المعذبين(٤٤) !

وخطب شيشرون فى اليوم الثانى خطبة وصف فيها أتباع منافسه العاصى بأنهم طائفة ملتفة حول عصبة من الضالين المارقين المتعطرين ، وأطلق العنان لعبقريته فاخترع كل ما أسعفته به من سخرية وسباب ، وختم خطبته مرة أخرى بنغمة دينية . وعرض على مجلس الشيوخ فى الأسابيع التالية ما زعم أنه براهين تثبت أن كاتلين قد حاول أن يشعل نار الثورة فى بلاد الغاليين ، وأفلح فى اليوم الثالث من ديسمبر أن يقنع أولى الأمر بالقبض على لنتولس وسثيجس وخمسة غيرهما من أتباع كاتلين . وصرح فى خطبة ثالثة له بالجريمة التى ارتكبوها ، وأعلن أنهم قد زجوا فى السجن ، وأبلغ المجلس والشعب أن المؤامرة قد أخفقت ، وأن فى وسعهم أن يعودوا إلى بيوتهم آمنين مطمئنين . وفى اليوم الخامس من ديسمبر دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وسأله عما يفعله بالمعتقلين ، فاقترح سلانوس أن يقتلوا ، وأشار قيصر أن يكتفى بسجنهم ، وذكر الشيوخ بأن قانون سمپرونيوس يحرم إعدام المواطن الرومانى . ونصح شيشرون فى خطبة له رابعة أن يعدموا ، وكان فى هذه المرة رقيقاً فى نصحه ، غير عنيف فى عرضه . وأيد كاتو بفلسفته هذا الرأى ، ورجحت كفة القائلين بالإعدام . وحاول بعض الشبان من الأشراف أن يغتالوا قيصر وهو خارج من قاعة المجلس ولكنه نجا من شرهم .

وذهب شيشرون ومعه رجال مسلحون إلى السجن الذى كان فيه المعتقلون ، وهناك نفذ الحكم على الفور ، ثم أرسل ماركس أنطونيوس زميل شيشرون فى القنصلية ، ووالد ماركس أنطونيوس الذائع الصيت — أرسل على رأس جيش

رومانى للقضاء على قوة كاتلين . ووعد مجلس الشيوخ أن يعفو عن كل رجل يترك صفوف الثوار ، وأن يمنحه فوق ذلك مائتى ألف سسترس ؛ ولكن « أحداً لم يفر من معسكر كاتلين » على حد قول سلست . ودارت رحى القتال بين الجيشين فى سهول بستويا Pistoia (٦١) . وقاتل الثوار ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل ، قتال الأبطال ، ودافعوا عن أعلامهم — نستور ماريوس — العزيزة عليهم إلى آخر رجل منهم رغم ما كانوا عليه من قلة بالنسبة لأعدائهم . ولم يستسلم واحد منهم أو يفر من الميدان ، بل ماتوا جميعاً فى المعركة كما مات بينهم كاتلين نفسه .

وإذ كان شيشرون من رجال الفكر لا من رجال العمل ، فقد أدهشه وأثر فيه ما أظهره من المهارة والشجاعة فى القضاء على هذه الفتنة الصماء . ومن أقواله فى مجلس الشيوخ : « إنى ليخيل إلىّ أن تدبير هذا العمل العظيم يتطلب حكمة فوق حكمة الآدميين »[٤٥] وشبه نفسه برميولوس ، ولكنه قال إن حفظ رومة أعظم من تشييدها[٤٦] .

وتبسم الشيوخ وكبار الموظفين ضاحكين من قوله ، ولكنهم كانوا يعلمون أنه هو الذى أنجاهم ، وهتف له كاتو وكاتلس ولقباه بأبى الوطن Pater Patriae . ويحدثنا هو عن نفسه بقوله إنه لما اعتزل منصبه فى عام ٦٣ ق . م قدمت له جميع الطبقات ذوات الأملاك شكرها ، ولقبته بالرجل الخالد ، وسارت من حوله إلى بيته[٤٧] . ولم يشترك صعاليك المدينة فى هذه المظاهرة ، ذلك أنهم لم يغفروا له اعتداءه على قوانين رومة بقتله المواطنين دون أن يتيح لهم فرصة استئناف حكم الإعدام ، وأحسوا بأنه لم يحاول قط إزالة أسباب ثورة كاتلين أو تخفيف أعباء الفقر عن جمهرة الشعب ، ومنعوه أن يخطب فى الجمعية فى آخر يوم من حكمه ، وكانوا يستمعون له وهم غضاب حين أقسم أنه قد حافظ على المدينة . والحق أن الثورة لم ينقض عهدها فى ذلك الوقت بل اندلعت نيرانها فيما بعد حين أصبح قيصر قنصلا .

الباب الثامن

الأدب فى عهد الثورة

١٤٥ – ٣٠ ق . م

الفصل الأول

لكريشيوس

لم يغفل الناس الأدب وسط هذا الانقلاب العنيف فى أحوال البلاد الاقتصادية ونظم حكمها وأخلاقها ، كما أنه لم يكن بمنجاة من حمى ذلك العهد وما فيه من دوافع قوية . من ذلك أن ڤارو Varro ونيپوس Nepos قد وجدا السلامة فى دراسة الآثار القديمة وفى البحوث التاريخية . وعاد سلست من حروبه ليدافع عن حزبه ويغشى أخلاقه بستار من المقالات الأدبية الرائعة . ونزل قيصر من عليائه على رأس الإمبراطورية ليكتب فى النحو ويواصل حروبه فى شروحه Commentaries ، وحاول كاتلس وكلڤس Calvus أن يجدا فى الحب وفى الغزل ملجأ يعصمهما من أعاصير السياسة ، وفر لكريشيوس وأمثاله من ذوى القلوب الضعيفة والنفوس المرهفة الحس إلى حدائق الفلسفة ، وغادر شيشرون من آن إلى آن حرارة السوق العامة ليهدئ أعصابه ويروح عن نفسه بين صفحات الكتب ؛ ولكن أحداً من هؤلاء لم يجد ما ينشده من السلام لأن الحروب والثورات كانت تطغى عليهم جميعاً . وما من شك فى أن لكريشيوس نفسه قد أحس بالقلق الذى يصفه فى الفقرة الآتية :

« إن عبئاً يثقل عقولهم وجبلا من الشقاء يرسو فوق قلوبهم . . . » ذلك أن

كلا منهم لا يعرف ما يريد فيعمل دائباً لتبديل مكانه ظناً منه أن فى استطاعته أن يلقى حمله عن عاتقه . فهاك رجلا قد مل الحياة فى منزله ، فتراه يخرج من قصره بين الفينة والفينة ، ولكنه لا يجد نفسه فى خارج الدار أحسن منه حالا فى داخلها فيعود إليها فجأة . فتراه مسرعاً يسوق جياده إلى بيته الريفى لا يلوى على شىء . . . ولكنه لا يكاد يجتاز عتبة الدار حتى يتثاءب أو يحاول نسيان متاعبه فى النوم العميق . وقد يبلغ به الأمر أن يعود من فوره إلى المدينة . وهكذا يفر كل امرىء من نفسه ، ولكن نفسه التى لا يستطيع الفرار منها تزيد التصاقاً به رغم إرادته كما هو المنتظر منها ؛ وهو يكره نفسه لأنه وهو إنسان مريض لا يعرف سبب شكواه . وكل من يستطيع أن يرى هذا بوضوح يطرح عمله من وراءه ظهرياً ، ويسعى قبل كل شىء لفهم طبيعة الأشياء ».

وكل ما نعرفه عن حياة تيتس لكريشيوس كارس **Titus Lucretius Carus** هو قصيدته . ولم يشأ أن يذكر فى هذه القصيدة شيئاً عن نفسه ؛ أما فيما عداها فإن الأدب الرومانى يغفل إغفالا عجيباً شأن رجل من أعظم رجاله إذا استثنينا إشارات قليلة فى مواضع منه مختلفة . وتحدد الرواية المأثورة تاريخ مولده بعام ٩٩ أو ٩٥ ، وتاريخ وفاته بعام ٥٥ أو ٥١ ق . م . ، أى أنه عاش نحو خمسين سنة من سنى الثورة الرومانية : سنى الحرب الاجتماعية ، ومذابح ماريوس ، وإرهاب صلا ، ومؤامرة كاتلين ، وقنصلية قيصر . وكانت الأرستقراطية التى ينتمى إليها فى الأغلب الأعم آخذة فى الانحلال البادى للعيان ؛ وكان العالم الذى يعيش فيه يتصدع ويتردى فى الفوضى التى لا يأمن فيها أحد على حياته أو ماله . وقصيدته حنين منه إلى الراحة الجسمية والسلامة العقلية .

وبدأ لكريشيوس من متاعب العالم إلى الطبيعة والفلسفة والشعر . ولعله أيضاً قد عرج على الحب ، فإذا كان قد وقع له شىء منه فما من شك فى أنه لم يوفق فيه ، لأنه يقسو فى كتابته على النساء ، ويشهر بفتنة الجمال ،

وينصح الشباب المتعطش لإشباع شهواته بأن يسد مطالب الجسد بالاختلاط الجنسى الهادئ الطليق[٢] . وكان يجد فى الغابات والحقول ، وفى النبات والحيوان ، وفى الجبال والأنهار والبحار ، كان يجد فى هذه كلها بهجة لا يعادلها إلا شغفه بالفلسفة . وكان مرهف الحس سريع التأثر كوردسورث Wordsworth ، قوى الإدراك مثل كيتس Keats ، توحى إليه المدرة أو ورقة الشجرة ، كما توحى لشلى Shelley ، علم ما وراء الطبيعة . وكان بجمال الطبيعة ورهبتها وكل ما يتصل بهما أثره فيه ، فكانت تحرك عواطفه صور الأشياء وأصواتها ، وروائحها ومذاقها ؛ وكان يحس بصمت المرابض الخمية ، وسدول الليل الهادئ ، وطلوع النهار المتثاقل . وكان كل شىء طبيعى أعجوبة الأعاجيب فى نظره — ماء ينساب على مهل ، ونبات يخرج من البذور ، وتغير دائم فى الجو ، ونجوم فى السماء ثابتة لا تحول . وكان يرقب الحيوانات فى شغف وعطف ، ويحب ما فيها من صور القوة والجمال ، ويحس بآلامها ، ويعجب من فلسفتها التى لا تعبر عنها الألفاظ . ولم يرقبه شاعر عبر عن جلال العالم وما حواه من تباين دقيق وقوة متناسقة ملتئمة ، بمثل ما عبر عنه هو . فهنا كسبت الطبيعة فى آخر الأمر معاقل الأدب ، وأفاضت على شاعرها قدرة على الوصف لم يفقه فيهما إلا هومروس وشيكسبير .

وما من شك فى أن هذه الروح الحساسة التى تستجيب إلى ما حولها من المؤثرات قد تأثرت تأثراً عميقاً بخفايا الدين ومظاهره الخلابة ، ولكن الدين القديم الذى كان فيما مضى دعامة قوية لكيان الأسرة والنظام الاجتماعى قد فقد ما كان له من سيطرة على الطبقات المتعلمة فى رومة . فقد كان قيصر مثلا يبتسم فى لطف وهو يمثل دور الكاهن الأكبر ، كما كانت مآدب الكهنة متعة الأبيقوريين الرومان . وكان من الأهلين أقلية صغيرة تكفر بالآلهة الرومانية جهرة ، وكان بعض الساسة الرومان يقوم بالليل ويحطم أصنام الآلهة ، كما كان يفعل ألقبيادس Alcibiades فى أثينة[٣] . أما الطبقات الدنيا فإن الطقوس الرسمية لم تعد تلهم

الكثيرين من أفرادها أو تخفف عنهم أحزانهم ، فأخذوا يهرعون إلى الهياكل الملطخة بالدماء والتى كانت تعبد فيها « الأم الكبرى » الفريجية ، أو الإلهة ما الكپدوكية ، أو بعض الآلهة الشرقية التى جاء بها الجنود أو الأسرى من بلاد الشرق إلى إيطاليا . وتطورت الفكرة الرومانية القديمة عن « أوركوس » Orcus ، وهى التى كانت تمثلها فى صورة مكان تحت الأرض يأوى إليه الموتى بلا تمييز بينهم ، فصاروا يعتقدون بوجود جحيم حقيــقى « ترتاروس Tartarus » أو أكيرون **Acheron** يعذب فيه الناس جميعاً عذاباً أبدياً إلا طائفة قليلة تولد من جديد وتبدأ حياة جديدة فى مجتمع جديد[4] . وقد نظر إلى الشمس والقمر على أنهما إلهين ، وكان كل كسوف وخسوف يحدث لهما يبعث الرعب فى القرى المنعزلة وفى قلوب الكثيرين من الأهلين ، وأقبل العرافون والمتنبؤون الكلدان على إيطاليا يجوسون خلالها ويستطلعون طلع المعدمين والأثرياء على السواء ، ويكشفون عن الكنوز المخبأة وعما يخبئه المستقبل ، ويفسرون الأحلام والفؤول تفسيراً ماؤه الحذر والغموض ، أو الملق النافع . وكانوا يبحثون كل ظاهرة طبيعية غير مألوفة ، ويدعون أنها نذير تنذرهم به الآلهة . وكان الدين الذى يعرفه لكريشيوس هو هذا الحسد العظيم من الخرافات والطقوس والنفاق .

فلا عجب والحالة هــذه إذا اشمأزت نفسه منه ، وثارت عليه ، وهاجمه بكل ما فى قلب المصلح الديني من جرأة وحماسة .

وفى وسعنا أن نحكم على مقدار ما كان يعمر قلبه أيام شبابه من تقى وإيمان ، وما أصابه بعدئذ من خيبة رجاء ، إذا عرفنا مقدار ألمه الشديد من حال الدين وقتئذ . فقد أخذ يبحث لنفسه عن دين يعوضه عما فقده من إيمانه بالدين القديم ، فتنقل من تشكك إنيوس **Ennius** إلى قصيدة أنبادقليس الرائعة التى شرح فيها مبدأ التطور وتنازع الأضداد . ولما عرف آراء أبيقور خيل إليه أنه عثر على جواب المسائل التى كانت

تحير عقله ، وبدا له أن الرجل الحر يجد فى ذلك الخليط العجيب من المادية وحرية الإرادة ، ومن الآلهة المرحة والعالم الذى لا يؤمن بالآلهة ، جواباً عما ينتابه من شكوك ومخاوف . ولاح أن نسمة من نسمات التحرر من المخاوف السماوية تنبعث من حدائق أبيقور ، وتكشف عن سلطة القانون العليا واستقلال الطبيعة بشئونها وسلطانها على مصائرها ، ومن أن الموت أمر طبيعى لا تلام عليه . ولذلك اعتزم لكريشيوس أن ينتزع هذه الفلسفة من النثر القبيح الذى صاغها فيه لكريشيوس ويصهرها فيخرجها شعراً ، ثم يقدمها لمعاصريه على أنها هى الطريقة المثلى ، وهى الحقيقة ، بل هى الحياة نفسها . وكان يحس أن فى نفسه قوة نادرة مزدوجة — فيها إدراك العالِم الموضوعى ، وعاطفة الشاعر الذاتية ؛ ويرى فى نظام الطبيعة بأكمله سمواً ، وفى عناصرها جمالا ، يشجعان ويبرران هـذا التزاوج بين الفلسفة والشعر . وقد أبرز هذا الهدف العظيم الذى كان يعمل له جميع قواه الكامنة وسما به إلى مستوى رفيع فذ من الرقى الفعلى ، ثم تركه قبل أن يبلغ هذا الهدف منهوكا خائر القوى ، أو لعله تركه ناقص العقل مخبولا . غير أن كدحه الطويل المبهج المطرب قد حباه بسعادة استحوذت عليه فصب فيها كل ما كان كامناً فى روحه الدينية من إخلاص عميق .

ولم يختر لكريشيوس لقصيدته عنواناً شعريا بل اختار لها عنواناً فلسفيا هو : De Rerum Natura « فى طبيعة الأشياء » ، وهى ترجمة بسيطة لعبارة Peri Physeos (عن الطبيعة) التى اختارها الفلاسفة قبل سقراط اسماً عاماً لرسالاتهم . وبعد أن كتبها قدمها لأبناء كيوس ميمس Caius Memmius فى عـام ٥٨ ق . م لتكون لهم سبيلا هادياً يخرجهم من الخوف إلى الإدراك . وقد حذا فى طريقة عرضه لمـا احتوته من الآراء طريقة أنبادقليس فى ملحمته ، كما احتذى فى تعبيره لغة إنيوس العجيبة الخالية من الزخرف والتجميل ، واختار لها

الوزن السهل الصالح للتعبير عن مختلف الأغراض ، وهو الوزن السداسى الأوتاد ، ثم نسى إلى حين إهمال الآلهة شئون الناس وتباعدها عنهم فبدأ بدعوة حارة موجهة إلى ڤينوس إذ خالها رمزاً للرغبة المبدعة ، والطرائق السلم كما كانت محبوبة أنبادقليس فقال :

يا أم شعب إنياس ، يا بهجة الخلق والآلهة ، أى ڤينوس المغذية المربية ! . . . إن جميع الأحياء تحمل بها أمهاتها وتلدها ، ثم تنظر إلى الشمس عن طريقك أنت . وإذا أقبلت فرت الرياح أمامك ، وتبددت سحب السماء ؛ إليك ترفع الأرض ذات المعجزات أزهارها الجميلة ، وإليك تضحك أمواج البحر وتتلألأ السماء الصافية بالضياء الشامل . ذلك أنه إذا ما بدت تباشير النهار فى فصل الربيع وهبت ريح الجنوب المخصبة فأكسبت كل الأشياء نضارة وخضرة ، هللت لك طيور الهواء أولا ورحبت بقدومك ، أيتها الإلهة المقدسة ، لأن قوتك قد نمنمت فى قلبها ، ثم أخذت القطعان البرية تقفز فوق المراعى التى تفرح بقفزها ، وتعبر الجداول السريعة الجريان ، وهكذا يصبح كل واحد منها أسير جمالك ويسير فى ركابك أينما سرت ، ثم تبعثين بالحب الجميل فى صدور كل المخلوقات من خلال البحار والجبال والأنهار الجارية ، وأوكار الطير بين أوراق الشجر والحقول الخضراء ؛ وتوحين إليها بأن تتناسل وتخلد أنواعها . وإذ كنت أنت وحدك تتحكمين فى طبيعة الأشياء ، وبغيرك لا يرتفع شىء إلى شواطىء الضوء اللامعة ، ولا يوجد شىء بهيج أو جميل ؛ فإن نفسى تتوق إليك لتكونى شريكتى فى كتابة هذه الأبيات . . . ألا فامنحى أيتها الإلهة ألفاظى جمالا لا يدركها الفناء ، واجعلى فى خلال ذلك الوقت أعمال الحرب الوحشية تنام وتسكن . . . وإذا ما استند المريخ إلى جسمك المقدس فانحنى حوله من عليائك ، وصبى الألفاظ الحلوة من فمك ، واطلبى نعمة السلام إلى الرومان(٥) .

الفصل الثانى

فى طبيعة الأشياء

إذا حاولنا أن نصوغ ما فى جدل لكريشيوس من اضطراب حماسى فى صورة منطقية ، فإن فكرته الأساسية تتمثل فى ذلك البيت المشهور :

Tantum religio potint suadere malorum

« ما أكثر ما بعثه الدين فى قلوب الناس من شرور ! »(٦) .

فهو يروى قصة إفجينيا فى أوليس ، والضحايا البشرية التى يخطئها الحصر ، والذبائح التى تقدم قرباناً للآلهة التى يمثلونها فى صورة البشر النهمين ، ويذكرنا بالأهوال التى تحيط بالسذج والشبان حين يضلون فى أجام الآلهة المنتقمة الجبارة ، وما يقذفه فى قلوبهم الرعد والبرق والموت والجحيم من رعب ، وبالأهوال السفلى التى يصورها الفن الإتروررى والقصص الشرقية الغامضة الخفية ، وهو ينحى باللائمة على بنى الإنسان لأنهم يفضلون مراسم التضحية على التعقل الفلسفى ويقول :

« أيها الخلائق البائسون ما بالكم تعزون إلى الآلهة هذه الأعمال الشائنة وهذا الغضب المرير ! كم من أحزان يهيئها الناس لأنفسهم (بهذه العقائد) وكم من جراح تثخن بها أجسامنا ، ودموع تذرفها أعين أبنائنا ! ذلك أن التقوى لا تكون فى كثرة توجيه الرأس المقنع إلى الأحجار ، ولا فى الاقتراب من جميع مذابح القربان ، ولا فى الركوع والسجود . . . أمام هياكل الآلهة ، ولا فى إسالة دماء الحيوانات على المذابح . . . بل التقوى هى أن يكون فى طاقة الإنسان أن ينظر إلى الأشياء جميعها بعقل هادئ مطمئن »(٧) ؛

ولا ينكر لكريشيوس وجود الآلهة ، ولكنه يقول إنها تقيم بعيدة عنا ، سعيدة كل السعادة فى عزلتها وبعدها عن أفكار البشر ومتاعبهم ، هنالك « وراء أسوار العالم المشتعلة » (extra flammantia moeina mundi) بمنأى عن ضحايانا وصلواتنا ، وهى تعيش كما يعيش أتباع أبيقور بعيدة عن الشئون الدنيوية ، فائقة بتأمل الجمال وعمل ما تتطلبه الصداقة والسلام[٨] . وليست الآلهة فى رأيه هى التى خلقت العالم ، وليست هى سبب ما يقع فيه من الأحداث ، فمنذا الذى يظلمها ذلك الظلم الصارخ فيتهمها بأنها سبب ما فى الحياة على الأرض من تلف ، واضطراب ، وآلام ، ومظالم ؟ كلا إن هذا الكون اللانهائى الذى يشمل عدة عوالم مستقل عما سواه ، ولا شأن له بغيره ، ولا يسيطر عليه قانون خارج عنه ؛ فالطبيعة تفعل كل شىء من نفسها . منذا الذى أوتى من القوة ما يستطيع به أن يتصرف فى الأشياء مجتمعة ، ويقبض بيده على ذلك العنان القوى عنان الأبدية التى لا قرار لها ؟ منذا الذى يستطيع أن يحرك السموات كلها دفعة واحدة . . . ويهز السماء الصافية بالرعد القاصف ، ويقذف بالبرق فيزلزل به فى كثير من الأحيان هياكل الآلهة ، ويرسل الصواعق فيقضى بها على البرىء وينجو منها المجرم »[٩] . إن إله الكون الذى لا إله سواه هو القانون ، وأصدق العبادات ، والسبيل الوحيدة إلى السلام أن يعرف الناس ذلك القانون ويحبوه . إن مخاوف العقل وظلمته لا تبددها أشعة الشمس . . . بل يبددها النظر فى قوانين الطبيعة[١١] .

وهكذا « يمس » لكريشيوس « برحيق ربات الشعر » مادية دمقريطس الخشنة ، ويصرح بأن مبــدأه الأساسى المقرر أن لا وجود إلا للذرات والفراغ »[١٢] أى المادة والفضاء ، ثم ينتقل من فوره إلى مبدإ جوهرى (وافتراض) من مبادئ العلم الحديث ، وهو أن ما فى العالم من مادة وحركة لا يتغير أبداً ، وألا شىء ينشأ من لا شىء ، وأن ليس الإئتلاف والتحطيم إلا تغيراً فى الشكل ، وأن الذرات لا تتحطم ، ولا تتبدل ، وأنها

صلبة ، مرنة ، عديمة الصوت والرائحة والذوق واللون ، وأنها لاحدود لها ، يتدخل بعضها فى بعض ليتكوّن منها مُركبات وصفات لا حصر لها ، وتتحرك حركة لا انقطاع لها ، فى سكون الأشياء العديمة الحركة البادى للأنظار :

« فكثيراً من نرى على سفوح الجبال . . . الأغنام ذات الأصواف تزحف حيث يغريها بالزحف الكلأ الذى تتلألأ عليه قطرات الندى ، وترى الحملان التى شبعت ورويت تلعب وتتناطح فى لعبها برؤوسها . ولكن هـــذه كلها تنطمس للبعيد عنها حتى لا تستطيع العين أن تميزها ، وتبدو لطخة بيضاء على تل أخضر . وتنتشر الجيوش الجرارة فى بعض الأحيان فى ميادين واسعة ؛ وتتحرك حركات تمثل بها الحروب ، تسطع دروعهم البرنزية فتضىء ما حولها ، وتنعكس على قبة السماء ، وتزلزل الأرض وتجلجل تحت أقدام الجند وسنابك الخيل ، وتصطدم هـــذه الأصوات بالجبال فتدفع بها مرة أخرى إلى نجوم السماء . ومع هذا فإن فى قلل الجبال مكاناً تبدو منه هذه الجيوش كأنها ساكنة لا تتحرك ؛ ولا تعدو أن تكون بقعة صغيرة بيضاء مستقرة فوق السهل »[13] .

وتحتوى الذرات(*) على المنيات minima أو « أصغر الأشياء » ، وكل منيمة minimum جسم نهائى صلب ، لا يقبل الانقسام ، ولعل اختلاف ترتيب هذه الأجزاء هو السبب فى اختلاف أحجام الذرات وأشكالها ، وهو الاختلاف الذى ينشأ منه تباين الطبيعة تبايناً يسر النفوس وينعشها . والذرات لا تتحرك فى خطوط مستقيمة أو منتظمة ، بل إن فى حركتها انحرافاً أو زيغاً دقيقاً لا يستطاع قياسه ، وفيها تلقائية عنصرية تسرى فى جميع الأشياء وتصل إلى غايتها فى إرادة الإنسان الحرة(**) .

(*) لم يستعمل لكريشيوس هذا اللفظ قط ، ولكنه يطلق على جزيئاته الأولية إسم « الأوليات » أو العناصر أو البذور primordia, elementa. Semina .

(**) قارن هذا بمبدأ « الحتمية » التى يعزوها بعض علماء الطبيعة فى هذه الأيام للكهارب (الإلكترونات) . (المترجم)

لقد كانت كل الأشياء من قبل عماء ، ولكن التوزيع التدريجى للذرات المتحركة حسب أحجامها وأشكالها قد أنتج — عن غير قصد — الهواء والنار والماء والتراب ومن هذه كلها نشأت الشمس والقمر والكواكب والنجوم ؛ وفى الفضاء اللانهائى تنشأ باستمرار عوالم جديدة وتفنى عوالم أخرى قديمة ، والنجوم نيران مثبتة فى حلقة من الأثير (وهو ضباب من ذرات أرق من الذرات السابقة) المحيطة بكل مجموعة كوكبية . وهذا الجدار الكونى النارى هو الذى يكون « أسوار العالم الملتهبة » : ثم انفصل جزء من الضباب البدائى عن هذه الكتلة وأخذ يدور وحده وبرد فتكونت منه الأرض . وليست الزلازل ناشئة من صراخ الآلهة بل من تمدد الغازات والمجارى التى تحت الأرض : كما أن الرعد والبرق ليسا صوت الإله وأنفاسه بل هما نتيجتان طبيعيتان لتكاثف السحب واصطدامها بعضها ببعض : وليس المطر مرحمة من جوفه بل هو رجوع الرطوبة التى بخرتها الشمس إلى الأرض .

والحياة فى رأيه لا تختلف فى جوهرها عن غيرها من خصائص المادة ، فهى نتيجة حركة الذرات التى لا حياة فى كل منها بمفردها . وكما أن الكون قد اتخذ صورته الخاصة به طوعا لقوانين المادة المتأصلة فيها ، فكذلك أخرجت الأرض كل أنواع الكائنات الحية وأعضاءها بطريقة الانتخاب الطبيعى لا بغيرها من الطرق .

لا شىء ينشأ فى الجسم ويقصد به أن نستخدمه ، ولكن ما ينشأ فيه ينتج بعد وجوده الغرض الذى يستخدم فيه[١٤] . . . فلم يكن هدف الذرات هو الذى جعلها ترتب نفسها ترتيبا قائما على الذكاء والفطنة ، بل السبب فى ترتيبها هذا أن كثيرا من الذرات منذ الأزل قد تحركت والتمت بطرق مختلفة لا حصر لها ، وجربت كل التراكيب المختلفة . . . ومن ثم نشأت مبادئ الأشياء العظيمة . . ، وأجيال الكائنات الحية[١٥] . وما أكثر ما حاولت الأرض أن توجده من الهولات ، فمنها ما لم تكن له أقدام ، ومنها ما لم تكن له يدان أو فم أو وجه أو أطراف ملتصقة بجسمه . . . ولكن هذه المحاولات

كلها ذهبت أدراج الرياح ، فقد ضنت عليها الطبيعة بالنماء ، ولم تستطع هي أن تجد لنفسها الطعام ، أو أن تتصـــل بعضها ببعض اتصالا مبعثه الحب ... وما من شك فى أن كثيراً من الحيوانات قد بادت فى ذلك الوقت لأنها عجزت عن الاحتفاظ بأنواعها عن طريق التزاوج والتناسل ، وسبب ذلك أن الأنواع التى لم تهبها الطبيعة صفات « تحميها من أعدائها » كانت تحت رحمة غيرها ، وسرعان ما هلكت وانقرضت(١٦) .

وليس العقل (Animue) إلا عضواً كالقدمين والعينين ، وهو مثلهما أداة أو وظيفة لتلك الروح (Anima) أو النسمة الحيوية ، وهى مادة جد رقيقة تنتشر فى الجسم كله ، وتبعث الحياة فى كل جزء من أجزائه . وعلى الذرات الشديدة الحساسية التى يتكون فيها العقل تسقط الصـــور أو الأشرطة التى لا ينقطع خروجها من سطوح الأشياء ، وهذا هو منشأ الإحساس . وينشأ الذوق والشم والسمع والبصر واللمس من جزيئات تخرج من هذه الأشياء وتقع على اللسان أو الحالق أو الخياشيم أو الآذنين أو العينين أو الجلد . والحواس كلها صـــور اللمس . وهى المحك النهائى حقائق ، فإذا ما ظن أنها أخطأت فليس ذلك إلا نتيجة لسوء التفسير ، ولا يصحح خطأ إحدى الحواس إلا حاسة أخرى ، ولا يمكن أن يكون العقل محك الحقائق لأن العقل يعتمد على التجارب أى على الإحساس .

وليست النفس شيئا روحيا ، ولا هى خالدة ، فهى لا تستطيع تحريك الجسم إلا إذا كانت ذات جسم ، وهى تنمو وتشيخ مع الجسم ، وتتأثر بما يتأثر به من مرض ودواء وخمر ، وتتبدد ذراتها تبددا ظاهريا حين يموت ؛ ولو وجدت النفس بغير الجسم لكانت عديمة الإحساس عديمة المعنى ؛ وما فائدة النفس بغير أعضاء اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ؟ والحياة لا توهب لنا لتكون ملكا خالصا لنا بل هى عارية نستعيرها ونحتفظ بها ما دمنا قادرين على الانتفاع بها ، فإذا ما استنفدنا قوانا وجب علينا أن نغادر مائدة الحياة مغتبطين شاكرين ، كما يغادر

الضيف الوليمة ؛ وليس الموت نفسه أمراً مخيفاً رهيباً ، بل الذى يسبب رهبته هو خوفنا مما نلقاه فى الدار الآخرة . ولكن الدار الآخرة لا وجود لها ، والجحيم هو جحيم هذه الدنيا ، فهو العذاب الناشئ من الجهل والانفعالات والتخاصم والشره ؛ والجنة توجد على ظهر هذه الأرض ، وهى معابد الحكماء الصافية sapientum templa serena [١٧] .

وليست الفضيلة فى خوف الآلهة ، ولا فى تجنب الملذات وخشيتها . بل هى فى تناسق أعمال الحواس والمواهب بإرشاد العقل ؛ ومن الناس من يفنون أعمارهم من أجل تمثال يقام لهم ، أو شهرة يتحدث بها الناس عنهم ، ولكن « ثروة الإنسان الحقة هى أن يعيش عيشة بسيطة وعقله فى سلام » (vivere parce Aequo Animo)[١٨] ، وخير من العيش الجامد المعنت فى الأبهاء المذهبة « الرقود فى جماعات على الكلأ الناعم بجوار غدير تحت أشجار باسقة »[١٩] ، أو سماع الألحان الموسيقية العذبة اللطيفة ، أو أن يفقد الإنسان ذاته فى حب أطفاله والعناية بهم . والزواج خير ولكن الحب المثير للعواطف جنون ، يجرد العقل من صفائه وتدبيره . « فإذا أصابت الإنسان سهام ڤينوس — سواء أطلق هذه السهام غلام له أعضاء فتاة ، أو أطلقتها امرأة يشع الحب من جسمها كله — فإنه ينجذب نحو مصدر الضربة ويتوق إلى الاتحاد معه »[٢٠] . ولا يستطيع زواج ولا مجتمع أيا كان نوعه أن يجد قاعدة سليمة يقوم عليها فى هذا الغرام الجنونى .

ولما كان لكريشيوس قد وجه عواطفه كلها نحو الفلسفة ولم يجد فى قلبه متسعاً للحب ، فإنه أبى أن يعود إلى العهد الروائى العاطفى القديم الذى يقول به اليونان الذين كانوا يمجدون الحياة البدائية ، وينادون بالعودة إلى الطبيعة ، كما مجدها روسو ونادى بالعودة إليها .

نعم لقد كان الناس فى ذلك الوقت أصلب عوداً ، ولكنهم كانوا يعيشون فى الكهوف ، ولا يعرفون الناس ، ويتناكحون بلا زواج ، ويقتل بعضهم

بعضاً بغير قانون ، ويموت منهم جوعاً بقـــدر من يموت من المتحضرين بالتخمة[٢١] .

أما الطريقة التى تمت بها الحضارة فيشرحها لكريشيوس فى خلاصة موجزة لتاريخ الإنسان الطبيعى يقول فيها إن التنظيم الاجتماعى قد وهب الإنسان القدرة على البقاء بعد أن بادت الحيوانات التى كانت أشد منه قوة وبطشاً . وقد اهتدى إلى النار حين رآها تندلع من احتكاك أوراق الأشجار وأغصانها ، وأنشأ من الإشارات والحركات لغة ، وتعلم الغناء من الطير ، وأنس الحيوان لمنفعته ، كما استأنس هو بالزواج والقانون ؛ ثم شق الأرض ، ونسج الملابس ، وصهر المعادن وصنع منها أدواته ؛ ثم رصد كواكب السماء ، وقاس الزمن وتعلم الملاحة ؛ ثم رقى فن القتل ، وتغلب على الضعفاء ، وشاد المدن ، وأقام الدول .

وليس التاريخ إلا موكب الدول والحضارات التى تنشأ وتزدهر ثم تضمحل وتفنى ، ولكن كلا منها تخلف وراءها تراثاً من العادات والأخلاق والفنون تتلقاه عنها الحضارات التى تأتى من بعدها « فهى كالعدائين فى سباق يسلم كل منهم مصباح الحياة إلى غيره »[٢٢] (et quasi cursores vitai lampada tradut) وكل ما ينمو من الأشياء يضمحل : الأعضاء ، والكائنات الحية ، والأسر ، والدول ، والأجناس ، والكواكب ، والنجوم . والذرات وحدها هى التى لا تموت أبداً ، وتوجد إلى جانب قوى الخلق والنماء قوى أخرى تعادلها وتوازنها وهى قوى التدمير ، وهذه لا تنقطع عن العمل ما بين دفع وجذب وتراخ وانقباض ، وحيات وموت . وفى الطبيعة خير وشر ، والآلام يلقاها كل كائن حى وإن لم يستحقها ، والانحلال يتبع خطى كل تطور ، وأرضنا نفسها فى طريقها إلى الموت والفناء ، وها هى ذى الزلازل تخربها وتدمرها ، والأرض تفقد قدرتها على الإنتاج والأمطار والأنهار تقرضها وتفتتها ، وتنقل الجبال نفسها آخر الأمر إلى البحار ، وسيأتى على عالمنا النجمى كله يوم يفنى فيه كما تفنى هذه الجبال ؛

فتهاجم جدران السماء من كل جوانبها وتتصدع ثم تتهدم وتتخرب[٢٣] ؛ ولكن ساعة الفناء نفسها تكشف عما فى العالم من حيوية لا تقهر ، ويمتزج بالعويل على الموتى البكاء على الطفل الوليد »[٢٤] وتتكون عوالم جديدة ونجوم وكواكب جديدة ، وتنشأ أرض أخرى وحياة غير الحياة الأولى ، ويبدأ التطور من جديد .

وإذا ألقينا نظرة عامة على هذه القصيدة التى تعد « أروع نتاج الأدب القديم كله »[٢٥] ، فقد نلاحظ لأول وهلة ما فيها من عيوب : كاضطراب موضوعاتها التى حال موت الشاعر فى مقتبل العمر دون مراجعتها ، وتكرار عباراتها وأبياتها وفقرات منها برمتها ، واعتقاده أن الشمس والقمر والنجوم ليست فى حقيقتها أكبر مما تبدو للناظر إليها[٢٦] ، وعجز النظام الذى تشرحه القصيدة عن أن يفسر كيف تستحيل الذرات الميتة إلى حياة وإدراك ، وإغفال الشاعر ما يبعثه الإيمان فى المؤمن من نظر ثاقب وطمأنينة وسلوى ، وإلهام وشاعرية قوية محركة ، كما أغفل ما للدين من آثار اجتماعية . ولكن ما أقل هذه الأغلاط وما أضعف شأنها أمام المحاولة الجريئة التى بذلها الشاعر لتفسير العالم والتاريخ والدين والمرض تفسيراً منطقياً معقولا(*) ، وأمام ما صور به الطبيعة من أنها عالم يسيطر عليه القانون لا يعترى المادة والحركة فيه زيادة أو نقصان . وأمام عظمة الموضوع الذى تحدث عنه ونبل الطريقة التى عرض بها ؛ وأمام قوة الخيال المتصلة التى تشعر فى كل مكان « بجلال الأشياء » وتسمو برؤى أنبادقليس ، وعلم دمقريطس ، ومبادئ أبيقور الأخلاقية ، إلى شعر يبلغ من الروعة والجمال أسمى ما بلغه الشعر المعروف فى جميع العصور . فها هى ذى لغة كانت لا تزال بعد غير مصقولة ولا ناضجة تكاد فى ذلك الوقت أن تكون

(*) توجد كثير من بذور الأشياء التى تعيننا على الحياة ، ولكن لا شك أيضا فى أن ثمة بذوراً أخرى كثيرة تتطاير حولنا وتؤدى إلى المرض[٢٧] .

خلواً من المصطلحات الفلسفية والعلمية ، ولكن لكريشيوس لم يخلق فيها مفردات جديدة فحسب ، بل خلقها ثم وجه الكلام القديم وجهات جديدة من حيث الوقع والجرس ، وصاغ الوزن السداسى صياغة أكسبته حيوية وقوة لم تكن له فى أية لغة أخرى من اللغات المعروفة ، وسما به بين الفينة والفينة إلى درجة من الرقة والجمال والسلاسة لا تقل من نظائرها فى شعر ڤرچيل . وإن ما فى قصائد لكريشيوس من حيوية لا نفارقه فى وقت من الأوقات ليدل على أنه قد استمتع بحياته كلها ، لم يكد يترك فيها فترة قصيرة أو طويلة من يوم مولده إلى يوم وفاته إلا عاش خلالها على الرغم مما كان يحيط به من آلام متعددة وخيبة مريرة .

وكيف مات لكريشيوس ؟ يقول القديس چيروم Saint Jerome إن « لكريشيوس قد جن على أثر تجرعه دواء يولد الحب ، بعد أن كتب عدة كتب . . . ثم مات منتحراً فى الرابعة والأربعين من عمرة »[٢٨] . وليس لهذه القصيدة ما يؤيدها ، ويشك الكثيرون فى صحتها ، ولسنا نعتقد أن قديساً يستطيع أن يروى رواية عن حياة لكريشيوس منزهة عن الهوى . وقد وجد بعضهم ما يؤيد هذه القصة فى قصيدته نفسها ؛ ذلك أن منها شواهد على الذهن المكدود غير الطبيعى ، فضلا عن أن موضوعاتها مهوشة غير منظمة ، وأنها مقتضبة تنتهى انتهاء فجائيا غير متوقع[٢٩] . ولكن الإنسان ليس فى حاجة إلى أن يكون لكريشيوس — ولكريشيوس دون غيره — لكى يكون حاد المزاج سريع التهيج ، مهوشاً ، ولكى يموت .

لقد كان لكريشيوس كما كان يوريبديز رجلا من الطراز الحديث ، وكان تفكيره وإحساسه يوائمان عصرنا الحاضر أكثر مما يوائمان القرن الأول قبل ميلاد المسيح . وقد تأثر به هوارس وڤرچيل فى أيام شبابهما ، وهما يذكرانه من غير أن يبوحا باسمه فى كثير من عباراتهما الجزلة ، ولكن الجهود التى كان يبذلها أغسطس لإعادة الدين القديم قد جعلت هذين الشاعرين وهما صنيعتا أغسطس يريان أن

ليس من الحكمة أن يعبرا فى صراحة عن إعجابهما بلكريشيوس ويعترفا بما فى عنقهما له من دين يضاف إلى هذا أن الفلسفة الأبيقورية لم تكن توائم العقل الرومانى ، كما كانت أعمال الأبيقوريين توائم الذوق الرومانى فى عصر لكريشيوس(*) ، فقد كانت رومة فى حاجة إلى رجل ذى فلسفة ميتافيزيقية يمجد القوى الصوفية الباطنية لا القوانين الطبيعية ، وإلى عالم أخلاقى ينشئ شعباً حربياً كامل الرجولة لا شعباً من أصحاب النزعة الإنسانية المحبين للسلم والهدوء ؛ وكانت فى حاجة إلى فلسفة سياسية شبيهة بفلسفتى ڤرچيل وهوراس ، تبرر سيطرة رومة الإمبراطورية . ولما بعث الدين من جديد بعد سنكا كاد الناس ينسون لكريشيوس ، ولم يبدأ يظهر أثره فى الفكر الأوربى إلا بعد أن كشفه بجيو Poggio من جديد فى عام ١٤١٨ ب . م . وقد أخذ طبيب من مدينة ڤيرونا Varona يدعى چيرولامو فراكستورو Girolamo Fracastoro (١٤٨٣ – ١٥٥٣) عن الشاعر لظريته التى يقول فيها إن المريض ينشأ من « بذور » Semina خبيثة تسبح فى الهواء ، وفى عام ١٦٤٧ أحيا جاسندى Gassndi الفلسفة الذرية . وكان فلتير يقرأ فى طبيعة الأشياء فى خشوع ويقول كما قال أوفد Ovid إن ما فيها من أبيات ثورية سيبقى ما بقيت الأرض[٣٠] :

وقد خاض لكريشيوس بمفرده أقسى الوقائع فى زمانه ونعنى بها إحدى وقائع الحرب الأبدية بين الشرق والغرب ، بين « القلب الحنون » والإيمان الباعث للسلوى المخفف للأحزان من جهة ، والعقل العنيد الجاسى والعلم المادى من جهة أخرى . ولسنا فى حاجة إلى القول بأنه أعظم الشعراء الفلاسفة ، وأنه هو الذى سما بالأدب اللاتينى كما سما به كاتلس وشيشرون إلى ذروة مجده ؛ وبه انتقلت زعامة الأدب نهائياً من بلاد اليونان إلى رومة .

(*) سنستخدم لفظى أبيقورى ورواقى فى هذه المجلدات بمعنى المؤمن بفلسفة أبيقور وزينون فيما وراء الطبيعة وفى الأخلاق . وقد نستعملها فى بعض الأحيان لوصف الشخص الذى يميل إلى الدعة والنعيم فى الحالة الأولى أو إلى تجنبهما الحالة الثانية .

الفصل الثالث

حبيب لزبيا

فى عام ٥٧ ق . م غادر رومة كيوس ممیوس Caius Memmius الذى أهدى إليه لكريشيوس قصيدته ليكون بريتورا اولا فى بثينيا Bithynia ، وكان حكام الولايات الرومان قد أخذوا فى ذلك الوقت يعتادون عادة جديدة هى أن يصطحب كل منهم عند سفره إلى ولايته أحد المؤلفين . ولم يأخذ هذا الحاكم معه لكريشيوس بل أخذ شاعراً يختلف عنه فى كل شىء عدا قوة عاطفته ويدعى كونتس (أوكيوس) فلير يوس كاتلس Quintus Valerius Catullus . وكان كونتس هذا قد قدم إلى رومة من مدينة ڤيرونا موطنه الأصلى ، وكان لأبيه فيها من المنزلة ما يجيز له أن يكون ضيفاً كثير التردد على قيصر ، وما من شك فى كونتس نفسه كان على جانب كبير من الثراء ، فقد كانت له بيوت ذات حدائق بالقرب من تيبور Tibur وعلى شواطئ بحيرة جاردا Garda ، وكان له بيت جميل فى رومة . وهو يقول عن هذه الأملاك إنها كانت مستغرقة فى الدين ، ولا ينفك يعلن أنه فقير ، ولكن الصورة التى نستطيع أن نرسمها له من قصائده هى صورة الرجل المهذب الذى لا يهتم بكسب العيش ، ولكنه يمتع نفسه بطيبات الدنيا من غير حساب فى صحبة أمثاله المترفين فى عاصمة الدولة . وكانت هذه الفئة تضم طائفة من العقول وأبرع الخطباء السياسيين من الشبان أمثال ماركس كثيليوس Marcus Caeliua وهو شريف أصبح فيما بعد شيوعيا ، وليسينيوس كلفس Licinius Calvus الشاعر النابه والقانونى الضليع ؛ وهلڤيوس سنا Helvius Cinna الشاعر الذى كاد الغوغاء من أنصار أنطونيوس يحسبونه أحد قتلة قيصر وينهالون عليه ضربا حتى يقضى نحبه . وكان هؤلاء يعارضون قيصر ويوجهون له كل ما تسعفهم

به عقولهم من نكات لاذعة ، وهم لا يعرفون أن ثورتهم الشعرية إنما تعبر عن الثورة التي يعيشون في جوها ؛ وكان هؤلاء جميعا قد ملوا الأدب القديم ، ولم يطيقوا فجاجة نيفيوس Naevius وإنيوس Ennius وألفاظهما الطنانة المزوقة . وتاقت نفوسهم لأن يغنوا عواطف الشبان في أوزان جديدة غنائية في لفظ عذب رقيق عرف يوما من الأيام في الإسكندرية أيام كلمكس Calimachus ولكن رومة لم تشهد مثله قبل أيامهم هذه . ولم يكونوا راضين عن المبادئ الأخلاقية القديمة وعن تقاليد السلف التي كانت تلقى على أسماعهم في كل حين من أفواه الكبراء المنهوكين . وكانوا ينادون بقدسية الغرائز ، وبراءة الشهوات وعظمة التهتك والانغماس في الملاذ ، ولم يكونوا هم وكاتلس أسوأ من غيرهم من أدباء الشبان الذين كانوا يعيشون في ذلك الجيل وفي الجيل الذي يليه : من هوراس Horace وأوفد Ovid وتيبلس Tibullus وپروپرتيوس Propertius ، بل ومن ڤرچيل الخجول في أيام شبابه ، أولئك الذين جعلوا الشعر يدور حول كل امرأة متزوجة أو غير متزوجة ، تقدم لربات شعرهم حبا سهلا عابرا .

وكانت كلوديا Clodia أرشق فتاة في هذه الفئة ، وهي من سلالة أسرة كلوديوس التي لم تذهب عنها حتى تلك الأيام عظمة الأباطرة(*) . ويؤكد لنا أپوليوس Apeulius[31] أنها هي التي سماها كاتلس باسم لزبيا Lesbia إحياء لذكرى ساپفو Sappho التي كان يترجم قصائدها أحياناً ، ويحاكيها كثيراً ، ويحبها دائما . ولما جاء كاتلس إلى رومة في الثانية والعشرين من عمره اتخذها صديقة له ، بينا كان زوجها حاكما في بلاد غالة الإيطالية . وقد سحرت لبه من ساعة أن وضعت « قدمها البراقة على عتبة داره التي أبلتها أعتاب الناس من قبل ، وكان يدعوها إلهته المتألقة ذات الخطوة الرشيقة » . ولا غرابة في أن تفتنه خطاها ، فإن مشية المرأة قد تكفي وحدها لتفتن الرجل كما يفتنه صوتها . وقد عطفت عليه فرضيت

(*) انظر ما قلناه عنها قبل في هذا الكتاب .

أن يكون من بين عبادها . ولم يكن فى وسع الشاعر الهائم بها أن يضارع فى غير ميدان الشعر مواهب منافسيه فوضع تحت قدميها أجمل ما فى اللغة اللاتينية من القصائد الغنائية ، وترجم لها أحسن ترجمة وصفت بها سابفو بلجنون المحبين وهو الجنون الذى كان يتملكه وقتئذ[٣٢]. وكتب فى الطائر الذى كانت تضمه إلى صدرها أبياتاً تعد من خير ما كتب فى وصف الغيرة :

أيها الطائر يا بهجة حبيبتى
التى تلعب معك وتضمك إلى صدرها
والتى تمد لك سبابتها إذا طلبتها ،
وتغريك بأن تعضها عضة قوية .
لست أدرى أية دعابة لطيفة يلذ لحبيبتى الوضاءة
أن تداعب بها أمنيتى . . .(*) .

وقد أحس وقتاً ما بأن السعادة قد غمرته ، وظل يتردد عليها كل يوم ينشدها قصائده ، ونسى كل شىء إلا حبه إياها وافتتانه بها .

أى لزبياى حبيبتى هيا بنا نعيش ،
ولا تلق بالاً إلى شىء مما ينطق به العجائز القساة
ونراه حقيرا غير جدير بالاعتبار :
قد تغرب الشموس ثم تعود ؛
أما نحن فإذا غربت شمسنا القصيرة الأجل
غلب علينا السبات الطويل فى ليانا الأبدى .
ألا فاعطنى ألف قبلة ثم مائة
ثم ألفاً أخرى ، ثم مائة ثانية

(*) لم يترجم أحد حتى الآن قصيدة كاتلس شعراً إنجليزياً والعبارة العربية التى فى هذه الصفحة تكاد تكون ترجمة حرفية لما يقابلها فى الاتينية .

ثم ألفاً بعدها ، ثم مائة
حتى إذا بلغت القبلات آلافا مؤلفة
تعمدنا الخطأ فى العد والحساب لكيلا نعرف نحن عديدها
أو تحسدنا عليه نفس حقيرة
إن عرفت عدد قبلاتنا الكثيرة :

ولسنا نعرف كم من الوقت دامت هذه النشوة ؛ وأكبر الظن أنها قد ملت آلافه المؤلفة ، فرأت أن تروح عن نفسها بعد أن خانت زوجها من أجله بأن تستبدل به عاشقا غيره . واتسعت وقتئذ دائرة عشاقها حتى خالها كاتلس فى نوبة من نوبات الجنون « تعانق ثلاثة آلاف زان مرة واحدة »(٣٥) . وأبغضها فى الوقت الذى كانت فيه نار الحرب تلتهم فؤاده (adi et Amo)(٣٦) ، وأبى أن يستمع إلى ما كانت تحدثه به من وفاء وإخلاص ، وصور لنا هذا الإباء بالصورة المأثورة عن كيتس Keats :

إن الألفاظ التى تفوه بها المرأة للمحب الواله الجائع ،
يجب أن تنقش على صفحة الرياح السافية ،
وتحفر على مجارى الماء الدافقة(٣٧) .

ولما أصبح الشك اللاذع يقيناً لا مرية فيه ، استحال هيامه بها حقداً عليها ورغبة قوية فى الانتقام منها ، فاتهمها بأنها تسلم نفسها لرواد الحانات ، وأخذ يندد بمحبيها الجدد ولا يتورع عن سبهم بأفحش الأقوال وفكر فى الانتحار ، على حد قوله فى شعره .

وقد أظهر فى الوقت نفسه عواطف أشرف من هذه وأدل منها على نبله : فقد وجه إلى صديقه مانليوس فى يوم عرسه أغنية يقول فيها إنه يحسده على ما يتيحه له زواجه من صحبة طيبة صالحة ، وبيت آمن مستقر ، ومن متاعب سعيدة هى متاعب الأبوة . ثم انتزع نفسه من مكان مأساته بأن صحب ميمس Memmius

إلى بيثينيا Bithynia ، ولكنه لم يحقق ما كان يرجوه فيها من استعادة نشاطه وماله . ثم خرج عن طريقه يوماً من الأيام ليبحث عن قبر أخ له مات بجوار طروادة ، وأدى لهذا الأخ الميت فى خشوع مراسم الدفن التى يؤديها الأبناء لآبائهم ، ثم أنشد بعدئذ بقليل أبياتاً رقيقة من الشعر أضحت بعض ألفاظها من الأقوال الخالدة :

أيها الأخ العزيز لقد تنقلت فى كثير من الدول وجبت البحار .
وجئت لأقدم لك هذا القربان المحزن .
وأهدى إليك آخر ما يهدى إلى الأموات ،
فتقبل هذه الهدايا التى تبللها دموع الأخوة ؛
ووداعاً يا أخى إلى أبد الدهر ».

وبدل مقامه فى آسية حاله ، وهدأ من طبعه ، وأثرت أديان الشرق القديمة واحتفالاته فى هذا المتشكك الذى وصف الموت من قبل بأنه « سبات الليل الأبدى » ، فوصف فى « أتيس » Atys وهى أعظم قصائده كلها وأعذبها لفظاً وأوضحها تصويراً عبادة سيبيل Cybele وصفاً رائعاً قوياً ، وامتلأت نفسه حمية وحماسة وهو يقرأ عويل عبادها الذين يضحون من أجلها برجولتهم ، وحزنهم على متع الصبا وأصدقاء الشباب . وقد قص فى قصيدته « پليوس وثيتس Peelus and Thetis » قصة پليوس وأرديانى Ariadne فى شعر سداسى الأوتاد حلو النغم لا يكاد يجاريه شعر ڤرجيل نفسه . وابتاع بعدئذ فى بلده أمستريس Amastris يختاً صغيراً طاف به البحر الأسود وبحر الأرخبيل والبحر الأدرياوى وسار به صعداً فى نهر الپو Po حتى وصل إلى بحيرة جاردا Garda وإلى بيته فى سرميو Sirmio ؛ وهنا أخذ يسأل نفسه قائلا : « وهل ثمة سبيل للفرار من متاعب العالم أحسن من أن نعود إلى مواطننا الأولى ومعابدنا ، وأن نستريح فوق فرشنا المحبوبة ؟ »[٣٩] إن الناس يبدأون حياتهم بالبحث عن السعادة ثم يقنعون آخر الأمر بالسلام .

إن علمنا بكاتلس لأوفى من علمنا بمعظم شعراء الرومان لأنه يكاد فى جميع الأحوال يتخذ من نفسه موضوعاً لشعره ؛ وإن هذه الصرخات الغنائية ، صرخات الحب والكره ، لتكشف عن نفس رحيمة حساسة قادرة على أن تكون ذات عواطف كريمة حتى للأهل والأقارب ؛ ولكن الذى لا يسرنا منه أنه يجعل نفسه على الدوام موضوع شعره ، ويتعمد الفحش فى القول ، ويقسو على أعدائه فينشر على الناس أخص خصائصهم ، ويشنع على ميلهم للواط ، وعلى رائحة أجسامهم النتنة ، ويقول عن واحد منهم إنه يغسل أسنانه بالبول متبعاً فى ذلك عادة أسپانية قديمة[40] ، ويقول عن آخر إنه أبخر إذا فتح فاه مات كل من حوله [41] . فهو والحالة هذه يتذبذب فى غير عناء بين الحب والقذارة ، يقبل ويلوط ، وينافس مارتيال Martial فى قيادة الناس إلى أقذار رومة ومباذلها فى أركان شوارعها ؛ ويمثل ما يتصف به معاصروه وأبناء طبقته من مزيج بين خشونة البداوة ورقة الحضارة ، كأن الرومان المتعلمين مهما برعوا فى آداب اليونان لم يستطيعوا قط أن ينسوا الاصطبلات والمعسكرات . ويدافع كاتلس عن نفسه بمثل ما يدافع به مارتيال فيقول إنه لا بد له أن يمزج أبياته الشعرية بالأقذار لكى يسترعى بها انتباه مستمعيه .

على أنه قد كفّر عن هذه السيئات بما كان يبذل من العناية الفائقة فى الوصول بشعره إلى درجة الكمال . ففى أبياته الإحدى عشرية الأوتاد من الجمال الطبيعى غير المتكلف ما تعجز عنه صنعة هوراس وتكلفه ، وما يسمو فى بعض الأحيان فوق أناقة ڤرچيل نفسه ، وقد كلفه إخفاء فنه كثيراً من التفنن . وكثيراً ما يشير كاتلس إلى ما كان يعانيه من الجهد المؤلم والعناية الشديدة اللذين جعلا شعره سريع الفهم بين السهولة : وقد يسر له بلوغ هذه الغاية ما كان يعرفه من مفردات اللغة فقد كان يصوغ الألفاظ التى يتداولها الناس شعراً رقيقاً . وقد أغنى الآداب اللاتينية بألفاظ التصغير الرقيقة ، كما أغناها بلغة الحانات الدارجة .

وكان يتجنب قلب الألفاظ وتبديل مواضعها ، كما كان يتجنب الإبهام والغموض ؛ وكانت أبياته سلسلة سهلة ، خفيفة على السمع ، ترحب بها الآذان . وقد عكف على دراسة شعراء الإسكندرية الهلنستيين(*) ، وشعراء أيونيا الأقدمين ، وأتقن ما يمتاز به شعر كلمكس **Callimachus** من عبارات سهلة وأوزان متعددة ، وما فى شعر أركلوكس **Archelochus** من قوة واتجاه مباشر نحو الغرض ، وما فى شعر أنكريون **Anacreon** من خمريات قوية ، وما فى شعر سابفو من حب ونشوة : والحق أننا إذا أردنا أن نحذر كيف كان أولئك الشعراء يكتبون معظم أشعارهم ، فإن علينا أن ندرس كاتلس ، فقـــد درس هذا الشاعر أشعارهم ، وأجاد فهم دروسهم إجادة رفعته من مرتبة تلاميذهم حتى أصبح فى مرتبتهم ؛ وقد فعل فى الشعر اللاتينى ما فعله شيشرون فى النثر اللاتينى ، تسلمه قوة فجة فسما به حتى أصبح فنا لا يفوقه فيه أحد غير ڤرچيل .

(*) الذين لم يكونوا يونانيى الأصل ولكنهم اصطبغوا بالصبغة الهلينية (اليونانية) . (المترجم)

الفصل الرابع

العلماء

كيف كانت الكتب اللاتينية تكتب وتوضح بالرسوم ، وتجلّد وتنشر وتباع ؟ لقد كان الرومان من أقدم الأزمان يكتبون التمارين المدرسية ، والرسائل القصيرة ، والسجلات التجارية التى لا يقصد بها أن تبقى طويلا ؛ كانوا يكتبون هذه كلها بقلم معدنى ذى طرف رفيع على ألواح مطلية بطبقة لطيفة من الشمع ، ويمحون ما يكتبونه عليها بإبهامهم . وأقدم ما وصل إلينا من الأدب اللاتينى مكتوب بريش الطير والحبر على ورق مصنوع فى مصر من أوراق نبات البردى التى يضم بعضها إلى بعض ويضغط ويلصق بالغراء . ثم بدأ الرق المتخذ من جلود الحيوان المجففة ينافس نبات البردى فى القرن الأول الميلادى لكتابة الآداب والوثائق الهامة . وكانت **الدبلوما** (المزدوجة) تتكون من ورقة مطوية من الرق . وكان الكتاب الأدبى يصدر عادة فى صورة ملف (Volumen أى الملفوف) وتفك طياته فى أثنـاء قراءته . وكان النص يكتب عادة فى عمودين أو ثلاثة أعمدة فى كل صفحة ، خالياً فى كثير من الأحيان من علامات الترقيم والفواصل بين الجمل أو بين الكلمات نفسها . وكانت بعض المخطوطات توضحها رسوم بالحبر ، فقـد كان كتاب Imagines لڤارو Varro مثلا يتألف من سبعمائة صـورة لعظماء الرجال ، ومع كل صورة ترجمة لصاحبها . وكان فى وسع أى إنسان أن ينشر أى مخطوط يشاء باستئجار الأرقاء لنسخ صور منه ، وأن يبيع النسخ بعد كتابتها . وكان للأغنياء كتبة ينسخون لهم ما يشاءون من الكتب ، ويطعمونهم ، ولكنهم يؤجرونهم على عملهم ، ولذلك كانت الكتب رخيصة : وقد جرت العادة فى أول الأمر أن تكتب

ألف نسخة من كل مخطوط . وكان بائعو الكتب يشترون النسخ جملة من الناشرين أمثال أتكس Atticus ثم يبيعونها فرادى فى محال بيعها . ولم يكن الناشر أو البائع يعطى المؤلف شيئاً ، اللهم إلا كلمة طيبة أو هدية فى بعض الأحيان ، ذلك أن الرسوم التى تؤدى الآن إلى مالك الكتاب لم تكن معروفة فى ذلك الوقت . وكانت المكتبات العامة كثيرة العدد ، وقد جعل أسنيوس پليو Asinius Pollio فى عام ٤٠ ق . م مجموعته الخاصة أولى المكتبات العامة فى رومة . وفكر قيصر [illegible] انشاء مكتبة أخرى أكبر منها وجعل ڤارو مديراً لها ، ولكن هذه الفكرة لم تنفذ إلا فى عهد أغسطس ، شأنها شأن كثير من أفكار قيصر ومشروعاته .

وكان من أثر هذه الوسائل المشجعة التى خففت كثيراً من المتاعب عن طلاب العلم ، أن أخذ الأدباء والعلماء الرومان ينشطون نشاط علماء الإسكندرية وأدبائها ، فغمر البلاد سيل جارف من القصائد والنشرات ، وكتب التاريخ ، والكتب المدرسية ، لا يقل فى قوته عن فيضان نهر التيبر نفسه . فكان كل شريف يزين مغامراته بالشعر ، وكانت كل سيدة تكتب وتلحن ، وكل قائد يدون مذكرات ، وكان العصر عصر « الملخصات » ، تخرج فى كل موضوع من الموضوعات لتفى بحاجات ذلك العصر التجارى السريع . وقد اتسع وقت ماركس ترنتيوس ڤارو Marcus Terentius Varro ، رغم حملاته الحربية الكثيرة ، خلال حياته التى دامت تسعة وثمانين عاماً (١١٦ — ٢٦ ق . م) ، لتلخيص كل فرع من فروع العلم يعرفه أهل زمانه . وكانت ملفاته البالغ عددها ٦٢٠ ملفاً (نحو ٧٤ كتاباً) دائرة معارف عصره كتبها رجل بمفرده . وقد افتتن بالبحث فى أصول الكلمات فكتب مقالا « فى اللغة اللاتينية » لا يزال حتى الآن أكبر ما يهدينا إلى معرفة لغة الرومان الأولى . ولعله أراد أن يعاون أغسطس على تحقيق بعض أغراضه فحاول فى رسالته « عن الحياة الريفية » De Re Rustica

٣٦ ق . م) أن يشجع الناس على العودة إلى الأرض لتكون خير ملجأ يعصمهم من فوضى النزاع المدنى . وقد جاء فى مقدمة هذه الرسالة : « إن السنة الثمانين تنذرنى بأن على أن أحزم متاعى وأستعد للخروج من هذه الحياة »(٤٢) ، وهو يرى أن تكون آخر وصيته له مرشداً يهديه إلى الحياة الريفية الهادئة السعيدة ، ويعجب بالنساء القويات اللائى يلدن فى الحقول ثم يواصلن عملهن من فورهن (٤٣) . ثم يبدى حزنه وأسفه على نقص نسبة المواليد بين الوطنيين ، وهو النقص الذى أخذ يبدل سكان رومة ويقول : « لقد كانت نعمة الأطفال سبب فخر المرأة وإعجابها بنفسها ، أما الآن فإنها تفخر بما يفخر به إنيوس Ennius فتفضل أن تواجه الحرب ثلاث مرات على أن تلد طفلا واحداً » . ويقول فى « عاديات المقدسة » Divine Antiquities إن كثرة النسل والنظام والشجاعة فى أمة ما تتطلب مبادئ أخلاقية تؤيدها عقيدة دينية . ويأخذ بقول المشرع العظيم كونتس موسيوس أسكيفولا Q. Muciu Scaevola إن الدين نوعان — أحدهما للفلاسفة والثانى لعامة الشعب ، وينادى بأن ثانيهما يجب أن يقوى وتثبت دعائمه ، على الرغم مما فيه من عيوب ونقائص لا يرتضيها العقل ، ويشير إلى بذل الجهود لإرجاع عبادة آلهة رومة القديمة إلى عهدها الأول ، وإن كان هو نفسه يؤمن بنوع غامض من وحدة الوجود(*) . ولقد تأثر بكاتو وپولبيوس فألقى بنفسه فى تيار سياسة أغسطس الدينية وإن لم يكن من المؤمنين بمبادئها ، كما نهج منهج ڤرچيل فى تقواه الريفية .

وكأنما أراد ڤارو أن يتم أعمال كاتو الأكبر فى جميع الميادين فأكمل كتاب الرقيب المعروف باسم « الأصول Oirgines » فى كتابه هو المسمى « حياة الشعب الرومانى » — وهو كتاب فى تاريخ الحضارة الرومانية . ومما يؤسف له أن الدهر

(*) « روح العالم هو الله وأجزاؤه التى يكون منها أرباب حقه »(٤٥) .

لم يبق على هذا الكتاب بل أباده كما أباد كل مؤلفات ڤارو تقريباً ، على حين أنه أبقى التراجم التى كتبها كرنليوس نيپوس Cornelius Nepos ، والتى لا تزيد قيمها على ما يكتبه صبية المدارس . لقد كان التاريخ فى رومة فناً ، لم يضم إلى صفات الفن خصائص العلم ، ولم يرق حتى فى كتابات تاستس Tacitus إلى درجة البحث الانتقادى وإلى تلخيص المصادر . ولكن التاريخ بوصفه ميداناً من ميادين البلاغة قد وجد فى ذلك العصر من يمارسه على خير وجه ونعنى به كيوس سلستيوس كرسپس Caius Sallustius Crispus (٨٦ — ٣٥ ق . م) ، وقد قام كيوس بعمل هام فى السياسة والحرب إلى جانب قيصر ، وحكم نوميديا وبرع فى السرقة ، وأنفق كثيراً من المال على النساء ، ثم ركن إلى حياة الترف والآداب فى بيت له فى رومة اشتهر فيما بعد بحدائقه الغناء وأصبح مسكناً للأباطرة . وكانت كتبه كما كانت سياسته مواصلة للحرب بوسائل غير وسائلها . فقد كانت « *التواريخ وحرب جوجرثين ، وكتليو* » كلها دفاعاً مجيداً عن العامة وهجوماً عنيفاً على « الحرس القديم » . وقد أظهر فيها كلها ما كان فى رومة من انحلال خلقى(*) ، واتهم مجلس الشيوخ والمحاكم بأنها ترفع حقوق الملكية فوق الحقوق الإنسانية ، ويُنطق ماريوس Marius بخطبة يؤكد فيها ما لطبقات الناس جميعاً من حقوق متساوية ، ويطالب بأن تفتح السبيل لذوى المواهب أيا كان مولدهم[٤٦] . ويزيد فى تأثير قصصه بما يورده فيها من تعليقات فلسفية وتحاليل أخلاقية نفسية . وأوجد أسلوباً من الهجاء وجزءاً واضحاً سريعاً أصبح هو المثل الذى احتذاه تاستس Tacitus .

(*) يدعى ڤارو أن أنيوس ميلو Annius Milo قد ضبط سلست متلبساً بجريمة الزنى فانهال عليه ضرباً بالسياط ، ولم يطلقه إلا بعد أن أدى مبلغاً من المال ،[٤٦أ] . ولكن هذا أيضاً قد يكون سياسة لا تاريخاً .

وقد استمد هذا الأسلوب لونه ونغمته من الخطب التي كانت تلقى السوق العامة وفى الحكم ، شأنه فى هذا الشأن جميع النثر الرومانى فى القرن الذى كان يعيش فيه سلست وفى القرن الذى يليه . ذلك أن تقدم مهنة القضاء ونشأة الدمقراطية الكلامية قد زادا حاجة الناس إلى الخطابة العامة ، فأخذت مدارس الخطابة يتضاعف عديدها على الرغم من عداء الحكومة لها . وفى هذا يقول شيشرون إنك تجد « الخطابة فى كل مكان » ، وكان أول ظهور أساتذة هذا الفن فى النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ، ومن أشهرهم ماركس أنطونيوس (ابن أنطونيوس الشهير) ، ولوسيوس كراسس Lucius Crassus ، وسلپسيوس روفوس Sulpicius Rufus ، وكونتس هورتنسيوس Quintus Hortensius . وفى وسعنا أن نتصور ما كان لهؤلاء الخطباء من رثات قوية إذا علمنا أن الذين يستمعون لهم كانت لا تتسع لهم السوق العامة ، بل كانت تغص بهم الهياكل والشرفات المجاورة لها . وكانت بلاغة هورتنسيوس واستعداده لأن يبيع مواهبه وضميره بالمال مما جعله محبوب الأشراف كما جعله من أغنى أغنياء رومة . وقد ترك لورثته بعد وفاته عشرة آلاف دن من الخمر[٤٦] ، وكان إلقاؤه قويا حيا حتى كان روسيوس وإبسيوس وغيرهما من كبار الممثلين الذائعي الصيت يحضرون المحاكمات التي يترافع فيها ليتعلموا ما ينقصهم من فن التمثيل بدراسة حركاته وطريقة إلقائه ؛ وقد حذا حذو كاتو الأكبر فراجع خطبه ونشرها ، وهو الفن الذى وصل به منافسه شيشرون إلى ذروة الكمال ، والذى جعل للخطابة أبلغ الأثر فى النثر الرومانى كله : ولقد بلغت اللغة اللاتينية عن طريق الخطابة الدرجة القصوى فى البلاغة والرونق والقوة والجمال الذى يبلغ جمال اللغات الشرقية ؛ والحق أن الخطباء الشبان الذين جاءوا من بعد هورتنسيوس وشيشرون كانوا يعيبون على ما يسمونه الأسلوب « الأسيوى » إسرافه فى المحسنات اللفظية ، وفى إثارة عواطف السامعين ، حتى لقد أخذ قيصر وكلفس Calvus

وبروتس Brutus وبليو Polio على أنفسهم أن يلتزموا أسلوب الخطابة « الأتكى » الذى يمتاز بالهدوء والعفة والاعتدال . وهنا قام الخلاف من زمن بعيد بين النزعتين « الإبداعية » و « الاتباعية » أى بين النظرة العاطفية والنظرة العقلية إلى الحياة ، وما تستلزمه هذه النظرة الأخيرة من سيطرة على الأسلوب ، وكان الشباب أصحاب المذهب الاتباعى يجأرون بالشكوى من أن الشرق قد أخذ يغلب رومة على أمرها فى كل شىء حتى فى الخطابة نفسها .

الفصل الخامس

قلم شيشرون

كان شيشرون يفخر بخطبه ويدرك أن هذه الخطب تهيئ السبيل إلى الأدب الرومانى ، ولذلك أحس بوقع انتقادات المدرسة الأتيكية ، فلم يسعه إلا أن يدافع عن نفسه ، فكتب عدة رسائل طويلة فى فن الخطابة ، وقد لخص فى بعضها تاريخ البلاغة الرومانية فى حوار واضح بارع وضع فيه القواعد التى يجب اتباعها فى تأليف الخطب وفى الإيقاع والإلقاء . ولم يسلم فى هذه الرسائل بأن أسلوبه « أسيوى » ، وقال إنه قد حذا فيه حذو دمستين Demosthenes واتهم « الأتيكيين » بأن خطبهم الفاترة الخالية من العواطف تنيم السامعين أو تجعلهم يفرون منهم .

وتوضح السبع والخمسون التى وصلت إلينا من خطب شيشرون جميع الحيل التى يلجأ إليها الخطباء الناجحون ، فهى توفى على الغاية فى عرض ناحية واحدة من نواحى الموضوع الذى يتحدث عنه الخطيب عرضاً يفيض حرارة وحماسة ؛ وفى إدخال السرور على المستمعين بالفكاهات والنوادر ؛ وفى إثارة كبريائهم وأهوائهم ، وعواطفهم ، ووطنيتهم ، وتقواهم ؛ وفى عرض أخطاء المعارض له أو أخطاء مولاه سواء كانت صحيحه أو مما يرويها الناس عنه ، وسواء كانت تمس الشئون العامة أو تمسه هو نفسه ؛ وبحذقه فى تحويل انتباه السامعين من النقط التى فى غير صالحه ، وغمرهم بفيض من الأسئلة الخطابية يضعها بحيث تكون الإجابة عنها صعبة أو مؤذية ، ثم يكيل التهم فى جمل موزونة عباراتها قوية قوة السياط ، وتيارها الجارف يغمر المستمعين ؛ ولا تدعى هذه الخطب أنها عادلة منصفة بل إن فيها من التجريح أكثر مما فيها من التصريح ، وهى خلاصات يستغل من

يلقيها حرية القذف التي كانت محرمة فى المسارح ، ولكنها مباحة فى السوق العامة وفى ساحات القضاء . ولا يتردد شيشرون فى أن يصف ضحاياه بألفاظ مثل « الخنزير » و « الوباء » و « الجزار » و « القذارة » ؛ ويقول لبيزو Piso إن العذارى يقتلن أنفسهن ليتقين شر عُهره ، ويصب اللعنات على أنطونيوس لأنه يظهر حبه لزوجته على ملأ الناس ؛ وكانت هذه المثالب تسر المستمعين والحلفين ولم يكن أحد من الناس يأخذها مأخذ الجد ؛ ولم يأنف شيشرون نفسه من أن يكتب إلى بيزو رسائل تفيض ودا وصداقة بعد بضع سنين من هجومه الوحشي عليه فى In Pisonem . وجدير بنا فوق هذا أن نقر بأن فى خطب شيشرون من الأنانية والبلاغة الخطابية أكثر مما فيها من الإخلاص الخلقى أو الحكمة الفلسفية ، بل إن فيها من الأنانية والبلاغة أكثر مما فيها من الفطنة أو التعمق القانونى ، ولكنها بلاغة ليس كمثلها بلاغة قط . إن خطب ديموستين نفسه لم يكن فيها هذا التصوير الواضح ، الحيوى ، وهذه الفكاهة الغزيرة ، وهذا القذف اللاذع لبنى الإنسان ؛ ومما لا جدال فيه أنا لا نجد أحداً قبل شيشرون أو بعده قد أكسب اللغة اللاتينية ما أكسبها هو من سحر وسلاسة فاتنة ، وقوة عاطفية وجمال : لقد كانت خطبه أسمى ما وصل إليه النثر اللاتينى ؛ وقد كتب إليه قيصر الكريم وهو يهدى إليه كتابه « فى التشبيه » يقول : « لقد كشفت كل كنوز الخطابة ، وكنت أنت أول من استخدمها ، وبذلك كانت لك اليد الطولى على جميع الرومان ، وكنت مفخرة وطنك ؛ لقد نلت نصراً دونه نصر أعظم القواد ، لأن الذهن البشرى أنبل من توسيع رقعة الإمبراطورية الرومانية »(٤٧) .

وتكشف خطب شيشرون عن أخلاقه السياسية ، أما رسائله فتكشف عن إنسانيته ، وتجعل المرء يعفو عن جميع عيوبه السياسية . لقد أملى هذه الخطب كلها إلا قلة منها على أمين سره ، ولم يراجعها بنفسه ، ولم يكن يفكر وهو يكتب معظمها أنها ستنشر على الملأ ، ومن أجل هذا فإن الناس لم تعرض عليهم نفسية إنسان

وسريرته كاملتين ، كما عرضت عليهم نفسية شيشرون وسريرته ؛ وفى ذلك يقول نيپوس Nepos « لا حاجة لمن يقرأ هذه الرسائل بقراءة تاريخ تلك الأيام » ، ذلك أن فى وسع قارئها أن يطلع على أهم الفصول الحيوية من المسرحية الثورية من داخلها ، والستائر كلها مرفوعة عنها ؛ وأسلوبها فى الغالب صريح قديم ، خال من الفن والتكلف ، ملىء بالملح والفكاهات[٤٩] ، ولغتها مزيج جذاب من الرقة الأدبية ، وسلاسة اللغة الدارجة . وهى أكثر ما بقى من آثار شيشرون بل من النثر اللاتينى كله طرافة ومتعة ؛ ومن الطبيعى أن نجد فى هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل (وهى تشمل ٨٦٤ رسالة تسعون منها كتبت لشيشرون) بعض المتناقضات وغير قليل من الشواهد الدالة على عدم الإخلاص . وليس فيها كلها أثر واحد للتقى والإيمان اللذين يطالعاننا كثيرا فى مقالات شيشرون أو فى تلك الخطب التى يجعل الآلهة فيها ملجأه الأخير ، ويتبين لنا من هذه الرسائل أن رأيه الخاص فى كثير من الناس ، وخاصة فى قيصر ، لا يتفق على الدوام مع ما يصفهم به جهرة[٥٠] ، وفيها يظهر غروره الشديد الذى لا يكاد يصدقه العقل ألطف وأحب إلى النفس مما يظهر فى خطبه ، حيث يبدو لنا وكأنه يحمل معه تمثاله أينما ذهب . وهو يقر مبتسما بأن « تقديرى لنفسى وثنائى عليها أعظم الأشياء قدراً عندى »[٥١] ؛ ويؤكد لنا فى سذاجة ساحرة أنه « إذا كان فى الناس من لا يتصف بالغرور فهو أنا »[٥٢] ؛ ومما يلهو به القارئ ما يجده فيها من رسائل كثيرة عن المال ، ومن أقوال كثيرة عن بيوته المتعددة . فقد كان له فضلا عن بيوته ذات الحدائق فى أربينوم Arpinum وأستورى Asturae وپتيولى وپمپى Pompeii كان له فضلا عن هذه البيوت ضيعة فى فورميا Formiae تبلغ قيمتها ٢٥٠٫٠٠٠ سسترس ، وأخرى فى تسكولوم Tusculum تساوى ٥٠٠٫٠٠٠ ، وقصر على تل پلاتين

Palatine كلفه ۳٫۵۰۰٫۰۰۰(*) ألا إن هذه المتع وأسباب الترف لتبدو شنيعة مشينة إذا ما اتصف بها الفيلسوف .

ولكن هل فى الناس من بلغت فضائله درجة تبقى معها سمعته إذا ما نشرت رسائله الخاصة ؟ والحق أن الإنسان إذا أمعن فى قراءة هذه الرسائل يكاد يحب هذا الرجل . إنه فى واقع الأمر لم يكن له من الأغلاط ، ولعله لم يكن له من الغرور ، أكثر مما لنا ، ولكنه أخطأ إذ خلد هذه الأغلاط وهذا الغرور فى نثر أوفى على الكمال . وخير ما نستطيع أن نصفه به أنه كان عاملا مجداً ، وأبا رحيما ، وصديقا وفيا ؛ وفى وسعنا أن نراه بيته مولعا بكتبه وبأبنائه ، يحاول أن يحب زوجه ترنتيا Terentia الغضوب المصابة بالرثية والتى لم تكن تقل عنه ثروة أو فصاحة . ولقد أوتى هو وزوجه من الثروة ما يبعد عنهما السعادة ، وكانت متاعبهما ومنازعاتهما تنشأ على الدوام من حساباتهما الضخمة ، وظلت هذه المنازعات تزداد حتى طلقها بسبب تشاحن على المال نشأ بينهما . ولم يلبث بعد أن طلقها أن تزوج ببليا Publia ؛ وقد استلفت نظره إليها أنها ذات ثروة طائلة وليست كبيرة السن ، فلما أن أظهرت بغضها لابنته تليا Tullia طلقها هى الأخرى . وكان يحب تليا أشد الحب ، فلما ماتت حزن عليها حزنا كاد يذهب بعقله ، وأراد أن يشيد لها معبداً كمعابد الآلهة . ومن ألطف رسائل شيشرون رسائله التى كتبها إلى تيرو Tiro كبير أمناء سره والتى كتبها عنه . وكان تيرو يكتب ما يمليه عليه مختزلا ، ويشرف له على أمواله بقدرة وأمانة كافأه عليهما شيشرون بتحريره من الرق . وأكثر الخطابات عدداً هى التى كتبها إلى أتكس Atticus الذى كان

(*) وهذا المبلغ الأخير اقترضه شيشرون من أحد عملائه . ولسنا نعرف هل رده له أو لم يرده . وقد كان المحامون يقترضون المال من عملائهم لأن القانون يحرم عليهم أن يتقاضوا منهم أجوراً . وكان من الوسائل الأخرى التى يستحوذون بها على المال من عملائهم ألا ينساهم هؤلاء فى وصاياهم . وقد ورث شيشرون بهذه الوسائل وغيرها عشرين مليون سسترس فى ثلاثين عاما(٥٣) . إن أخلاق الناس وطبائعهم لتبدل دساتير الدول .

يستثمر لشيشرون أمواله المدخرة والذى أنجاه من عدة ورطات مالية ، ونشر له مؤلفاته ، وأسدى إليه من النصح السديد ما لم يعمل به . وقد كتب شيشرون إلى أتكس ، وكان غائبا فى بلاد اليونان عن حكمة وفطنة حين بلغت الثورة عنفوانها ، خطابا يعد مضرب المثل فى الوفاء وعذوبة اللفظ قال فيه :

لست أشعر بحاجة أشد من حاجتى إلى من أستطيع أن أفضى إليه بكل ما يتصل بى ، ومن يحبنى ، ومن أثق بحزمه وحصافة رأيه ، ومن أستطيع أن أتحدث إليه بلا ملق ولا رياء ولا تحفظ . إن أخى الذى يفيض صراحة وحناناً غائب عنى . . . وأنت يا من أنجيتنى من متاعبى وأسباب قلقى برأيك السديد ، ويا من كنت رفيقى فى الشئون العامة وموضع ثقتى فى جميع شئونى الخاصة . وشريكى فى جميع أقوالى وأفكارى — أين أنت؟[٥٤]

وبينا كانت بلاد الرومان تمر بتلك الأيام العصيبة حين عبر قيصر الروبكون وهزم پمپى ، ونصب نفسه حاكماً بأمره ، اعتزل شيشرون الحياة العامة إلى حين وأخذ ينشد الراحة من عنائها فى قراءة الفلســفة والكتابة فيها . وقد كتب إلى أتكس فى ذلك الوقت يقول له : « تذكر ما وعدتنى به فلا تعط كتبك لإنسان ما بل احتفظ بها لى . إنى أحبها أعظم الحب ، وتشمئز نفسى أشد الاشمئزاز من كل ما عداها »[٥٥] . وقد عمل وقتئذ بما كان ينصح به غيره ، وأصدر فى فترة لا تزيد إلا قليلا على سنتين ما يكاد يكون مكتبة فى الفلسفة[*] . ذلك أن ضعف العقيدة الدينية لدى الطبقات العليا قد خلف وراءه فراغاً أخلاقياً لاح معـــه

(*) De Republica, ٥٤ ق . م De Legibus ٥٢ Academiça De Consolatione and De Finibus ٤٥ De Narure Dcorum, De Divinatioen, De Fato, De Virtutibus, De Officüs De Amicitia, De Senectute, De Go oria, Disputationes Tuscnlanae

وكل هذه فى سنة ٤٤ ق . م وفى عامى ٤٥ — ٤٤ ألف شيشرون خمسة كتب فى فن الخطابة .

أن رومة تتردى فى مهاوى الانحلال الخلقى والاجتماعى . وكان شيشرون يأمل أن تحل الفلسفة محل الدين فتهدى هذه الطبقات إلى الحياة الطيبة ، وتحفزها لأن تحيا هذه الحياة ، ولم يكن يعتزم أن يضيف إلى النظم الفلسفية السابقة نظاما جديداً ، بل كان كل ما يهدف له هو تلخيص تعاليم حكماء اليونان وتقديمها للرومان لتكون آخر ما يهديه لهم فى حياته[٥٧] . وقد بلغ من أمانته العلمية أن أقر فى غير خفاء أنه يستمد فلسفته من رسائل بانتيوس Panaetiue وبوسيدونيوس Poseidonius وغيرهما من فلاسفة اليونان المحـدثين[٥٨] ، وأن عمله لا يزيد على تكييف رسائلهما تكييفاً جديداً ؛ بل إنه فى بعض الأحيان لا يفعل أكثر من ترجمة هذه الرسائل . ولكنه قد حول نثر هؤلاء الفلاسفة الجاف الممل إلى لغة لاتينية سهلة ، واضحة ، جذابة ، وجمل بحوثه بالحوار . وكان يتنقل فيها تنقلا سريعاً من بيداء المنطق وما وراء الطبيعة الجدباء ، إلى المشاكل الحية ، مشاكل السلوك وحكم البلاد . وقد اضطر كما اضطر لكريشيوس إلى ابتكار مصطلحات فلسفية جديدة ، ونجح فى هذا نجاحا جعله صاحب الفضل على اللغة والفلسفة كلتيهما . والحق أن الحكمة لم يزنها من أيام أفلاطون مثل الذى ازدانت به فى عهد شيشرون . وكان أفلاطون هو الذى استمد منه شيشرون معظم أفكاره ؛ ذلك بأنه لم يكن يحب تحكم الأبيقوريين الذين « يتحدثون عن الأمور الإلهية حديث الواثقين ، حتى ليخيل إليك أنهم قد جاءوا اساعتهم من مجتمع الآلهة » . وكذلك لم يكن يعجبه تحكم الرواقيين الذين يلوون الحجج عن قصد وتعمد حتى ليخيل إليك أن الآلهة أنفسها إنما وجدت لمنفعة الآدميين »[٥٩] وتلك نظرية لم ير شيشرون نفسه فى بعض أطواره أنها بعيدة عن حكم العقل . وكانت النقطة التى بدأ منها فلسفته هى بعينها بداية فلسفة الأقدمية الجديدة The New Academy — أى التشكك الهين الذى لا يعترف بأن شيئاً ما مؤكداً كل التأكيد ، والذى يرى فى الاحتمالات الراجحة ما يكفى مطالب الحياة البشرية ؛

وفى ذلك يقول فى بعض كتاباته : « إن فلسفتى فى معظم الحالات هى فلسفة الشك[٦٠] . . . . ولعلكم تأذنون لى ألا أعرف ما لا أعرفه »[٦١] . ويقول فى موضع آخر : « إن الذين يريدون أن يعرفوا رأيى الشخصى يظهرون قدراً من التشوف لا يقره العقل »[٦٢] . ولكن ما أوتى من قدرة فائقة على التعبير سرعان ما كان يتغلب على حياته ؛ فيهزأ بالتضحيات الدينية ، والهاتفين والعرافين . ويخصص رسالة بأكملها لإنكار القدرة على التنبؤ بالغيب ، ويتساءل فى معرض استنكار الاعتقاد بالتنجيم ، وهو الاعتقاد الذى كان واسع الانتشار فى تلك الأيام ، هل كل من قتلوا فى واقعة كانى قد ولدوا فى مطلع نجم واحد[٦٣] . بل إنه ليشك فى أن العلم بالمستقبل خير لمن يعلمه ، وذلك لأن المستقبل نفسه قد يكون كريها كغيره من الحقائق الكثيرة التى يدفعنا حمقنا إلى الجرى وراءها . ويظن شيشرون أن فى مقدوره أن يقضى على العقائد القديمة كلها قضاء مبرما بالسخرية منها والاستهزاء بها . فيقول مثلا : « إذا سميت الحب سيريز Ceres (*) وسميت الخمر باخوس Bachus كانت هذه التسمية استعارة من الاستعارات المألوفة ، ولكن هل تظن أن أحداً من الناس قد بلغ به الجنون إلى الحد الذى يعتقد معه أن ما يأكله إله بحق »[٦٣] . على أن شكه فى الإلحاد لم يكن يقل عن شكه فى أية عقيدة تحكمية أخرى . فهو يرفض العقيدة الذرية (**) التى كان يقول بها دمقريطس ولكريشيوس ، ويقول إن من أبعد الأشياء أن تنظم الذرات نفسها بلا هاد يهديها ولو ظلت تفعل كذلك أبد الدهر ، ثم ينشأ من هذا التنظيم عالمنا الذى نعيش فيه . وشأنها فى ذلك شأن الحروف الهجائية فإن من أبعد الأشياء كذلك أن تتجمع هذه الحروف من تلقاء نفسها فينشأ من تجمعها « حوليات إنيوس »[٦٤] . ويقول إن

(*) سيريز هو الاسم الرومانى لدمتر Demeter إلهة الحرث والحب عند اليونان .

(**) هى العقيدة القائلة بأن الذرات قد تجمعت ونظمت نفسها فنشأ الكون من ذينك التجمع والتنظيم . (المترجم)

جهلنا بالآلهة ليس بالدليل القاطع على عدم وجودها ، بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فيقول إن إجماع الناس على وجودها يكفى فى حد ذاته لترجيح وجود قوة مدبرة : ويستخلص من هذا أن الدين نظام لا بد منه للأخلاق الشخصية والنظام العام ، وأنه نظام لا يمكن أن يهاجمه إنسان عاقل(٦٥) ؛ ولذلك فإنه ظل يقوم بواجبات العراف الرسمى فى الوقت الذى كان يكتب فيه ضد التنبؤ والعرافة . ولم يكن يعد هذا نفاقاً بمعناه الصحيح ، ولعله كان يسميه سياسة وحسن تصرف . ذلك أن الأخلاق الرومانية ، والمجتمع الرومانى ، ونظام الحكم فيه ، كانت كلها وثيقة الارتباط بالدين القديم ، وأنه إذا أريد لها البقاء وجب ألا يترك هذا الدين كى يموت . (وكان الأباطرة يبررون اضطهاد المسيحيين بمثل هذه الحجج) . ولما توفيت تاليا التى كان يحبها أعظم الحب ، اشتدت به نزعة الأمل فى الخلود . وكان قبل ذلك بعدة سنين كثيرة قد استعار من فيثاغورس وأفلاطون وإيكسودس فى « حلم سپيو » الذى اختتم به « الجمهورية » أسطورة معقدة بليغة عن حياة بعد الموت ، ينعم فيها الموتى من العظماء الصالحين بالنعيم الأبدى . أما فى رسائله الخاصة — وحتى فى رسائله التى يواسى فيها الثاكلين من أصدقائه — فإنه لا يذكر قط شيئاً عن الحياة الآخرة .

وإذ كان على علم بما يسرى فى أيامه من نزعة التشكك فإن الأسس التى أقام عليها بحوثه فى الأخلاق والسياسة كانت أسساً دنيوية محضة ، لا تعتمد قط على تأييد غير تأييد القوى الطبيعية : فهو يبدأ (فى De Finbus) بالتساؤل عن الطريق الموصل إلى السعادة : ثم يوافق الرواقيين فى شىء من التردد على أن الفضيلة وحدها لا تكفى للوصول إليها . ومن أجل هذا تراه (فى De Effcüs) يبحث عن طريق الفضيلة . ويفلح بفضل جمال أسلوبه فى أن يجعل الواجب محبباً ممتعاً إلى حين ، وفى ذلك يقول : « الناس جميعاً إخوة ، وخليق بنا أن نعد العالم كله مدينة مشتركة للآلهة والبشر على السواء »(٦٦) . ثم يواصل حديثه قائلا إنه

اسمى المبادئ الخلقية هي الولاء لهذا الكل ، ولاء يكون الحافز له هو الضمير الحي . وأول ما يجب على الإنسان لنفسه وللمجتمع ، أن يقيم حياته على أساس اقتصادى سليم ، وعليه بعدئذ أن يؤدى واجباته بوصفه مواطناً فى بلده . والسياسة الحكيمة أعظم شرفاً من أعمق البحوث الفلسفية(٦٧) .

وهو يرى أن الملكية المطلقة خير أنواع الحكومات إذا كان الملك صالحا ، وأكثرها شراً وفساداً إذا كان الملك فاسداً — وتلك حقيقة سرعان ما تأيدت فى رومة نفسها . وعنده أن الحكومات الأرستقراطية تصلح إذا كان الحاكمون فيها هم أحسن الناس حقا ؛ ولكن شيشرون ، وهو من أفراد الطبقة الوسطى ، لا يسلم تسليما مطلقاً بأن الأسر القديمة المحافظة على أرستقراطيتها خير الأسر . والحكم الدمقراطى فى رأيه يصلح إذا كان الشعب فاضلا ، وهذا فى ظنه لا يكون أبداً . هذا إلى أن هذا الحكم يفسده الافتراض الكاذب بأن الناس متساوون . ولذلك كان خير الحكومات هى التى تقوم على دستور يجمع بين هذه الأنواع كلها كحكومة رومة قبل عهد ابنى جراكس ، فقد جمعت بين سلطة الجمعيات الدمقراطية ، وسلطة مجلس الشيوخ الأرستقراطية ، وسلطة القنصلين التى لا تكاد تقل عن سلطة الملوك فى السنة التى يتوليان فيها منصبهما . والملكية إذا لم تكن لها ضوابط وموازين تصبح حكومة استبدادية ، كما أن هذه الظروف نفسها تجعل الأرستقراطية ألجركية ، وتجعل الدمقراطية حكم الغوغاء وتستحيل إلى فوضى وطغيان ؛ وقد كتب بعد خمس سنين من تولى قيصر منصب القنصلية ، وكأنه فيما كتب كان يصوّب السهم إلى صدر قيصر :

يقول أفلاطون إن الحكام المستبدين ينبتون من مغالاة الناس فى التحلل من القيود تحللا يسميه الناس حرية ، كما ينبت النبات من الجذور . . . وإن هذه الحرية تهوى بالأمة آخر الأمر إلى درك الاستعباد . . . إن كل شىء يزيد على

حده ينقلب إلى ضده . . . وذلك لأن العامة التى ليس لها حاكم يسيطر عليها تختار من بينها فى العادة زعيما يقودها . . . وهو إنسان جرىء لا ضمير له . . . يسعى لنيل رضاء الناس بما يعطيهم من أموال غيرهم . ولما كان هذا الرجل يخشى أشد الخشية أن يظل فرداً كغيره من الأفراد فإنهم يخلعون عليه حماية المنصب العام ، ويجددون له هذه الحماية على الدوام ، فيحيط نفسه بحرس مسلح ، وينتهى به الأمر إلى أن يصبح طاغية يستبد بالشعب الذى حباه القوة والسلطان[٦٨] »

ولكن قيصراً رغم هذا نال بغيته ، ورأى شيشرون أن خير ما يفعله هو أن يكظم غيظه ويرفه عن نفسه بالقول المعاد فى القانون ، والصداقة ، والمجد ، والشيخوخة ، وبأن « القوانين تلتزم الصمت فى أيام الحرب » Silent lege enter arma على حد قوله هو نفسه . على أنه كان فى وسعه على الأقل أن يستسلم للتفكير فى فلسفة القانون ، وقد عرفه كما عرفه الرواقيون بأنه « التفكير الصحيح المتفق مع الطبيعة »[٦٩] أى أن القانون يعمل لجعل الصلات التى تنشأ من دوافع الناس الاجتماعية صلات منظمة مستقرة . وفى ذلك يقول إن « الطبيعة قد غرست فى نفوسنا الميل إلى حب الناس » (المجتمع) ، « وهذا هو أصل القانون »[٧٠] ويرى شيشرون أن الصداقة يجب ألا تقوم على المنافع المتبادلة بل على المصالح المشتركة التى تدعمها ، وتحدوها الفضيلة والعدالة ، وأن قانون الصداقة هو « ألا يطلب الإنسان إلى صديقه أن يعمل أشياء غير شريفة ، وألا يعملها هو إذا طلب إليه عملها[٧١] ، وعنده أن الحياة الشريفة هى خير ضمان للشيخوخة السارة ، وأن الاستهتار والإسراف فى أيام الصبا يتركان للشيخوخة جسما محطما منهوكا قبل الأوان . أما الحياة التى تقضى على خير وجه فقد يبقى الجسم والعقل فيها سليمين حتى يبلغ المرء مائة من السنين ، ولنضرب لذلك ماسينسا Masinassa ، والانكباب على الدرس قد يجعل الإنسان « يغفل عن اقتراب الشيخوخة منه خفية »[٧٢] . وللشيخوخة أمجادها كما للشباب أمجاده — ففيها الحكمة المتسامة ،

وفيها حب الأطفال آباءهم وإجلالهم إياهم ، وفيه تهدأ حمى الرغبات والمطامح . وقد تخشى الشيخوخة الموت ولكن ذلك لا يحدث إذا كان العقل قد كوّنته الفلسفة ، فأدرك أن وراء القبر ، فى أحسن الأحوال ، حياة جديدة أسعد من الحياة الدنيا وفى أسوئها راحة من عنائها(٧٣) .

وفى وسعنا أن نحكم على مقالات شيشرون فى الفلسفة بأنها كلها ضئيلة الأثر ، وأنها كآرائه فى الحكم والسياسة تستمسك فوق ما يجب بالسنن القديمة والتقاليد المرعية . وسبب ذلك أنه وإن أوتى تشوف العالم فقد أوتى معه حذر أبناء الطبقة الوسطى وضعف عزيمتهم ، ولذلك ظل فى فلسفته نفسها سياسيا يكره أن يسىء إلى شخص واحد من الناس ، خشية أن يفقد بذلك صوته يوم الانتخاب . وكان ديدنه أن يجمع آراء غيره ويجيد الموازنة بين ما لها وما عليها ، فإذا انتهى من هذه الموازنة خرج السامع بعدها من نفس الباب الذى دخل منه ، لا يدرى أى الكفتين ترجح على الأخرى . ولولا ما امتازت به هذه الكتب الصغيرة من أسلوب سهل جميل لعفى عليها الزمان ، ولما بقى لها ذكر الآن . فما أجمل لاتينية شيشرون وما أسهل قراءتها ، وما أسلس لغتها وأوضحها ! لقد كان إذا قص حادثة أسبغ عليها من الحيوية التى تسرى فى خطبه فتسترعى الأسماع وتسحر الألباب ، وإذا وصف شخصاً أظهر فى هذا الوصف من البراعة ما يجعل القارئ يأسف معه لأنه لم يجد متسعاً من الوقت يمكنه من أن يكون أعظم مؤرخى رومة(٧٤) ، وإذا انطلق فى الخطابة أفاض على السامع جُملا متزنة ، جميلة اللفظ ، قوية العبارة ، مما أخذه عن إزوقراطيس Isocrates ، وجعل السوق العامة تدوى بالتصفيق والاستحسان .

إن آراء شيشرون هى آراء الطبقات العليا ، أما أسلوبه فقد أراد به أن يصل إلى قلوب الشعب ، ومن أجل هذا تراه يبذل جهده لكى يكون

هذا الأسلوب واضحاً لا غموض فيه ، وأن تكون الحقائق التى يوردها مما يهز مشاعر السامعين هزاً ، وهو يمزج المعنويات بالنوادر والفكاهات .

وملاك القول أن شيشرون قد خلق اللغة اللاتينية خلقاً جديداً ، فوسع نطاق مفرداتها ، وصاغ منها أداة مرنة للتعبير عن الفلسفة ، وجعلها صالحة لاستيعاب الآداب والعلوم فى أوربا الغربية سبعة عشر قرناً من الزمان . وإن الأجيال التى جاءت بعده لتذكره على أنه مؤلف أكثر منه رجل سياسة . ولما أن نسى الناس ما قام به وهو قنصل من أعمال مجيدة ، أو كادوا ينسونها ، على الرغم مما فيها من ذكريات طيبة ، ظلوا يمجدون فتوحه فى عالم الأدب والفصاحة . وإذ كان من عادة الناس أن يمجدوا الصورة كما يمجدون المادة ، وأن يعظموا الفن كما يعظمون العلم والسلطان ، فقد نال شيشرون ، دون سائر الرومان ، من الشهرة ما لم ينل أكثر منه إلا قيصر وحده ، ولم يغفر هو لرومة هذا الاستثناء الوحيد .

الباب التاسع

قيصر

١٠٠ – ٤٤ ق . م

الفصل الأول

الرقيـــع

يقول يوليوس قصر إنه ينتمى إلى يولوس أسكانيوس Julus Ascanius ابن إينياس Aeneas ابن ڤينوس Venus الزهرة) ابنة چوپتر : أى أنه بدأ حياته إلها واختتمها إلها . وكان آل يوليوس من أقدم الأسر فى إيطاليا وأعلاها شرفاً ، وإن كان الدهر قد عدا عليها فذهب بمالها وأفقرها . فقد كان أحد أفراد هذه الأسرة يوليوس قنصلا فى عام ٤٨٩ ، وكان منها قنصل آخر فى عام ٤٨٢ ، وكان ڤوبسكس يوليوس Vopiscus Julius قنصلا فى عام ٤٧٣ ، وسكستس يوليوس Sextus Julius فى عام ١٥٧ ، وآخر فى عام ٩١[1] . وقد ورث عن عم لزوجته يدعى ماريوس – كما يرث الناس فى بعض الأحيان عن أعمامهم – ميلا إلى المبادئ السياسية المتطرفة . وكانت أمه أورليا سيدة وقورة حكيمة مقتصدة فى تدبير شئون بيتها الصغير ، وكان هذا البيت فى حى سابورة – وهو حى من الطراز القديم ، ومن الأحياء التى تكثر فيها الحوانيت والحانات والمواخير . فى هذا البيت

ولد قيصر فى عام ١٠٠ ق . م ، وكان مولده نتيجة لجراحة هى التى كانت سبباً فى تسميته باسمه الأول(*) .

ويقول سيوتونيوس Suetonius فيما نقله عنه هلند Holland إن قيصر هذا كان شخصاً مطيعاً سلس القياد إلى حد يدعو للعجب ، كما كان شديد الميل إلى التعلم » ، وكان المعلم الذى يتولى تعليمه اللغتين اللاتينية واليونانية وعلوم البلاغة رجلا من الغاليين . وشرع قيصر مع هذا المعلم يعد نفسه على غير علم منه للفوز بأعظم فتوحه كلها . ذلك أن الشاب أظهر استعداداً عظيما للخطابة ، وبدأ فى شبابه يكتب ويؤلف . ثم أنقذه من هذه النزعة تعيينه ياوراً حربيا لماركس ثرمس Marcus Thermus فى آسية . وأحبه نقوميدس Nicomedes والى بيثينيا Bithynia حباً دفع شيشرون وغيره من الثرثارين المغتابين إلى أن يعيروه بأنه « أسـلم عذرته للملك »(٢) . ولـما عاد إلى رومة فى عام ٨٤ تزوج كوساتيا Cossutia استجابة لرغبة أبيه . فلما أن توفى والده بعد زواجه منها بزمن قليل طلقها وتزوج كرونليا Cornelia ابنة سنا Cinna الذى تولى قيادة الثورة بعد ماريوس . ولما تولى صلا زمام السلطة أمر قيصر أن يطلق كورنليا ، فلما أبى أن يطيع هذا الأمر صادر صلا أملاكه التى ورثها عن أبيه كما صادر بائنة كورنليا وسجل اسمه فى المحكوم عليهم بالإعدام .

ولما علم قيصر بذلك هرب من إيطاليا وانضم إلى الجيش المحارب فى قليقية ، حتى إذا مات صلا عاد إلى رومة (٧٥) . ولما رأى أن أعداءه هم أصحاب الأمر والنهى فيها غادرها مرة أخرى إلى آسية . وأسره القراصنة فى الطريق واقتادوه إلى كمين لهم فى قليقية ، وعرضوا عليه أن يطلقوا سراحه نظير فدية قدرها عشرون

(*) وكانت الجراحات حتى فى ذاك الوقت البعيد وسيلة قديمة من وسائل الولادة . وقد ورد ذكرها فى القوانين المعزوة إلى نوما Numa . على أن اسم قيصر لم يكن مشتقاً من هذه الجراحة (Caesus ad utero matris) فقد سمى به من قبله كثيرون من أسرة اليوليوسيين

تالنتا (٧٢٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، فلما سمع ذلك لاسهم على أنهم لم يقدروه حق قدره ، وعرض عليهم هو نفسه أن يعطيهم خمسين تالنتا . وأرسل خدمه ليأتوه بالمال ، وأخذ فى هذه الأثناء يسلى نفسه بكتابة القصائد وقراءتها على آسريه ، فلما لم تعجبهم قصائده سماهم برابرة همجا ، وأوعدهم بأنه سيشنقهم فى أول فرصة تتاح له . ولما جاءه الفداء أسرع بالذهاب إلى ميليطس Miletus وأعد السفن والملاحين ، وطارد القراصنة وقبض عليهم ، واستعاد منهم الفداء ، وصلبهم ؛ ولكنه وهو الرجل الشفيق الرحيم قطع رقابهم أولا[٣] ، وذهب بعدئذ إلى جزيرة رودس ليدرس فيها البلاغة والفلسفة .

ولما عاد إلى رومة وزع جهوده بين السياسة والحب : وكان وسيم الوجه وإن كان سقوط شعر رأسه فى هذه السن المبكرة أخذ يشغل باله : ولما توفيت كرنليا فى عام ٦٨ تزوج پمپيا ابنة حفيدة صلا ، وإذ كان هذا الزواج زواجاً سياسياً محضاً فإنه لم يتورع عن العلاقات الجنسية غير المشروعة حسب عادة ذلك الوقت ؛ ولكن هذه العلاقات بلغت من الكثرة ومن التنوع الشاذ حداً جعل كوريا Curia (والد قائده الأخير) يصفه بقوله إنه « زوج كل امرأة وزوجة كل رجل ommium mulierum vir et ommium virorum mulier »[٤] . وظل يتبع هذه العادات نفسها فى حروبه فيعبث مع كليوبطرة فى مصر ، ومع الملكة إيونو Eunoe فى نوميديا ، ومع كثيرات من النساء فى غالة ، حتى كان جنوده يلقبونه فى مزاحهم بلقب « الزانى الأصلع » . ولما تم له النصر فى بلاد الغاليين أخذ جنوده ينشدون بيتين من الشعر المقفى يحذرون فيهما جميع الأزواج بقولهم إن عليهم أن يغلقوا الأبواب على زوجاتهم ما دام قيصر فى المدينة . وكان الأشراف يحقدون عليه لسببين أولهما أنه قضى على امتيازاتهم ، وثانيهما أنه أفسد زوجاتهم ؛ وطلق پمپى زوجته لاتصالها بقيصر ، ولم تكن كراهية كاتو الشديدة له منبعثة عن أسباب فلسفية خالصة بل كان من أسبابها أن أختا له غير شقيقة تدعى

سرڤليا Servilia كانت أحب عشيقات قيصر له ؛ ولما ارتاب كاتو فى صلات قيصر بكاتلين وظنه شريكا له فى مؤامرته طلب إليه فى مجلس الشيوخ أن يقرأ جهرة رسالة جيء بها إليه فى تلك اللحظة ، فما كان من قيصر إلا أن أوصلها إليه دون تعليق عليها ، فإذا هى رسالة حب بعثت بها إليه سرڤليا(٥) . وظلت تهيم بحبه طوال حياته ؛ وكانت ألسنة السوء القاسية تتهمها فى أخريات أيامها بأنها أسلمت ابنتها ترشيا Tertia إلى قيصر لتشبع شهواته . وحدث فى مزاد علنى أثناء الحرب الأهلية أن باع قيصر إلى سرڤليا ضياعاً صادرها من جماعة من الأشراف المعاندين بثمن اسمى زهيد . ولما أظهر بعضهم دهشته من ضآلة الثمن قال شيشرون فى سخرية لاذعة كانت خليقة بأن تطيح برأسه إنه tertia deducta ، وهى عبارة تحتمل معنيين فقد يكون معناها أن الثمن « ينقص ثلثه » وقد تكون إشارة منه إلى الإشاعة الرائجة وقتئذ وهي أن سرڤليا قد جاءت بابنتها ترشيا إلى قيصر . وأصبحت ترشيا فيما بعد زوجاً ليكيوس القاتل الأول لقيصر ، وهكذا يختلط عشق الخلائق بالفتن التى تندلع نيرانها فى الدول .

ولعل هذه الظروف قد ساعدت على رفع قيصر إلى أعلى الدرجات ، ولعلها أيضاً قد أعانت على سقوطه . فقد كانت كل امرأة فاز بحبها صديقة له عظيمة النفع ، وخاصة فى معسكرات الأعداء ؛ وقد حافظت معظمهن على وفائهن له حتى بعد أن هدأت عاطفة حبه لهن وأضحت لا تزيد على المجاملات المألوفة من الرجال إلى النساء ؛ من ذلك أن كراسس أقرض قيصر أموالا طائلة ليستخدمها فى الدعاية لنفسه وهو يطالب بالقنصلية فيرشو بها الشعب ، ويقيم له الألعاب ، وذلك على الرغم مما كان يشاع وقتئذ من أن زوجته ترتلا كانت تعشق قيصر .

وحسبك دليلا على مقدار هذه الأموال أن قيصر كان فى يوم ما مديناً له بثمانمائة تالنت (٢٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . ولم يكن الباعث على هذه القروض هو الكرم والصداقة ، بل كانت بمثابة اشتراك من أصحابها فى الحملات

تود إليهم فى صورة مساعدات سياسية أو غنائم حربية ؛ فقد كان كراسس — كما كان أتكس — فى حاجة إلى من يحمى ملايينه وتتيح له فرص استثمارها . وكان معظم الساسة الرومان فى ذلك الوقت ينوءون بمثل هــذه « الديون » . فقد كان ماركس أنطونيوس مثلا مديناً بنحو ٤٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سسترس ، وشيشرون بستين مليوناً ، وميلو Milo بسبعين مليوناً على أن من الجائز أن تكون هذه الأرقام افتراء على هؤلاء الساسة .

وجملة القول أنّ علينا أن نتمثل قيصر فى أول حياته فى صورة السياسى الذى لا ضمير له ، والرقيع المستهتر ، الذى بدلته السنون والتبعات شيئاً فشيئاً فجعلته من أقدر رجال الحكم وأرعاهم للحرمات فى تاريخ العالم . وينبغى لنا — ونحن نطرب من عيوبه ونقائصه — ألا ننسى أنه كان رجلا عظيما على الرغم من هذه العيوب والنقائص . وليس فى وسعنا أن نسوى بين أنفسنا وبين قيصر بقولنا إنه كان يضلل بالنساء ، ويرشو الزعماء ، ويؤلف الكتب .

لإحيائها وأهم من هذا كله أن الفساد السياسى الذى قاومه فى شبابه أخذ ينتشر ويعظم كلما زادت مخاطر المناصب الحكومية باتساع رقعة الإمبراطورية . وكان كل فتح حربى جديد يزيد فى ثراء رومة كما يزيد فى فسادها ووحشيتها ، وكانت قد كسبت كل حرب خاضت غمارها عدا حرب الطبقات ، وأزال تدمير قرطاجنة آخر عائق قائم فى سبيل الانقسام والفتن فى المدينة ، وجوزيت رومة على تملكها العالم بثورات طاحنة وفتن صماء دامت قرناً من الزمان .

الفصل الثانى

القنصل

بدأ قيصر حياته السياسية بأن تحالف مع كاتلين سراً واختتمها بأن أعاد الحياة إلى رومة . ذلك أنه لم يكد يمضى عام واحد على موت صلا حتى قدم للمحاكمة نيوس دلابلا Gnaeus Dolabella أحد العاملين فى حركة صلا الرجعية ، وكان قرار المحلفين على غير ما يشتهيه قيصر ، ولكن العامة هللت له حين هاجم ذلك القرار فى خطبة بليغة ردد فيها المبادئ الدمقراطية ، نعم إنه لم يكن يضارع شيشرون فى تحمسه وفكاهته ، أو فى جمله الموزونة القوية ، أو فى حدة لسانه . والحق أن قيصر كان يبغض أسلوب شيشرون « الأسيوى » لأنه اعتاد من أول الأمر ذلك الأسلوب الموجز القوى ذا البساطة الصارمة التى امتازت بها فيما بعد « تعليقاته » على الحربين الغالية والأهلية . على أنه رغم هذا كله لم يلبث أن صار أفصح الفصحاء فى رومة إذا استثنينا شيشرون نفسه[٦] .

واختير قيصر كوسترا فى عام ٦٨ ، وأرسل للعمل فى أسپانيا حيث تولى قيادة الحملات العسكرية التى سيرت لتأديب القبائل الوطنية ، فخرب مدنها ، ونهب من الأموال ما استطاع أن يوفى به بعض ما عليه من الديون . على أن هذه المدن قد حمدت له فى الوقت نفسه أن خفض فوائد قروضها من الماليين الرومان ، ولما قدم إلى مدينة جادز وشاهد فيها تمثالا للإسكندر الأكبر أخذ ياوم نفسه على أنه لم يعمل إلا القليل فى مثل السن التى فتح الفتى المقدونى حين بلغها نصف عالم البحر الأبيض المتوسط .

ثم عاد بعدئذ إلى رومة واندفع فى الصراع القائم وقتئذ فى سبيل المنصب والسلطان . فاختير إيديلا أو مشرفاً على المبانى العامة فى عام ٦٥ ، وأنفق أمواله

ـ أى أموال كراسس ـ فى تزيين السوق العامة بما أقامه فيها من المبانى والأعمدة الجديدة ؛ وأخذ يتودد إلى العامة بما كان ينفقه عن سعة على الألعاب . وكان صلا قد أزال من الكبتول ما جمعه فيـه ماريوس من شارات النصر كالأعلام والصور والمغانم التى تمثل صفات الرجل المتطرف القديم وانتصاراته ، فأعادها كلها قيصر إلى مواضعها واغتبط بعودتها جنود ماريوس القدامى أشد الاغتباط ، وأظهر بهذا العمل وحدة سياسته المناقضة لسياسة ماريوس ؟ واحتج المحافظون على هذه السياسة ، وعرفوا من ذلك الوقت أنه رجل يجب عليهم أن يعملوا للقضاء عليه .

وكان فى عام ٦٤ ق . م رئيساً لإحدى اللجان التى عينت للنظر فى بعض قضايا القتل ، فاستدعى للمثول أمام اللجنة من كان حياً من عمال صلا الذين عاونوه على وضع قوائم من حكم عليهم هذا القنصل ، وقضى على الكثيرين من هؤلاء العمال بالنفى أو الإعدام . وفى عام ٦٣ ق . م اقترع فى مجلس الشيوخ ضد إعدام من اشتركوا مع كاتلين ، وقال فى عرض خطابه إن الشخصية البشرية لا بقاء لها بعد الممات[٧] ؛ ويلوح أن قوله هذا كان الجزء الوحيد من خطابه الذى لم يسىء فيه إلى أحد . واختير فى تلك السنة نفسها رئيساً أعلى الدين الرومانى pontifex maximus ثم اختير فى عام ٦٢ بريتورا praetor وأمر فى ذلك العام بمحاكمة أحد زعماء المحافظين لاختلاسه بعض الأموال العامة . وفى عام ٦١ عين والياً على أسپانيا ولكن دائنيه حالوا بينه وبين السفر إليها ، وأقر فى ذلك الوقت أنه فى حاجة إلى ٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس إذا أراد ألا يمتلك شيئاً قط ، فتقدم كراسس لمعونته وضمنه فى جميع ديونه . وبذلك استطاع أن يسافر إلى أسپانيا ، ويشن حملات حربية مروعة على القبائل الثائرة ذات النزعة الاستقلالية . وعاد بعدها إلى رومة ومعه من الغنائم ما يكفى لأداء ديونه وملء خزائن الدولة بالمال ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن اقترح أن يقام له احتفال بنصره العظيم . ولعل

الأشراف قد أظهروا بعملهم هذا كثيراً من الدهاء وحصافة الرأى ، فقد كانوا يعرفون أن قيصر سيرشح نفسه لمنصب القنصلية ، وأن القانون ينص على ألا يرشح لها من كان غائباً عن البلاد ، وأن من يقام له احتفال بالنصر يجب أن يظل بحكم القانون بعيداً عنها إلى يوم الاحتفال — وحرص مجلس الشيوخ على أن يحدده بعد موعد الانتخاب . ولكن قيصر استبق يوم الاحتفال بنصره ، ودخل المدينة وأدار المعركة الانتخابية بجد ومهارة عجز معارضوه عن مقاومتهما .

وكان سبب نجاحه مهارته فى ضم بمبى إلى قضية الحرية . وكان بمبى قد عاد تواً من بلاد الشرق بعد أن قام فيها بسلسلة من الأعمال الحربية والسياسية المجيدة ، فقد طهر البحر من القراصنة ، وأمن بذلك سبل التجارة فى البحر الأبيض المتوسط ، وأعاد الرخاء إلى المدن التى كان رخاؤها يعتمد على هذه التجارة . وكان قد أرضى أصحاب المال فى رومة بفتح بيثينيا وبنتس وسوريا ، وكان قد خلع ماوكا وأجلس على العرش آخرين ، وأقرضهم الأموال من غنائمه الحربية بفوائد باهظة ، وقبل رشوة كبيرة من ملك مصر الذى دعاه إلى القدوم إليها لإخماد فتنة اندلع لهيبها فى تلك البلاد . ثم عاد فامتنع عن تنفيذ ما اتفق عليه بحجة أنه عمل غير مشروع [9] ؛ ونشر لواء السلام فى ربوع فلسطين وجعلها ولاية خاضعة لنفوذ رومة ، وأنشأ تسعا وثلاثين مدينة جديدة ، وأقر حكم القانون والنظام والسلام . وقصارى القول أنه كان قد سلك قبل ذلك الوقت مسلك السياسى الحكيم والحاكم القدير وأن مسلكه عاد على البلاد بالمال الوفير . فلما رجع إلى رومة حمل إليها ثروة عظيمة من الضرائب ، والخراج ، والبضائع التى غنمها فى حروبه ، ومن الأموال التى افتدى بها الأرقاء أو بيعوا بها ، فاستطاع بذلك أن يعمر خزانة الدولة بمائتى مليون سسترس ، وأن يضمن لها إيراداً سنوياً قدره ثلثمائة وخمسون مليوناً ، وأن يوزع على جنوده ثلثمائة وأربعة وثمانين مليوناً ، وأن يستبقى لنفسه رغم هذا كله من المال ما ينافس به كراسس فيكون أحد رجلين هما أغنى أغنياء رومة .

وكان خوف مجلس الشيوخ من هذه الأعمال أكثر من سروره منها ، فلما علم أن پمپي قد نزل فى برندزيوم(٦٢) ومعه جيش يدين له بالولاء والإخلاص ، ويستطيع بكلمة من قائده أن يجعله حاكما بأمره على البلاد ، لما علم مجلس الشيوخ ذلك تملكه الرعب . ولكن پمپي كان رجلا كريماً عظيما ، فسرح جنوده ودخل رومة وليس معه إلا أتباعه الأخصاء . ودام الاحتفال بنصره يومين كاملين ، ولكن هذه الفترة على طولها لم تكف لعرض الحفلات التى تصور انتصاراته وتظهر مغانمه .

وكان مجلس الشيوخ حقوداً ضنيناً ، فرفض طلبه القاضى بتوزيع الأرض على جنوده ، ولم يقر الاتفاقات التى عقدها مع الملوك المغلوبين ، وأعاد النظم التى أقامها من قبله لوكلس فى بلاد الشرق والتى أغفلها پمپي . وكانت نتيجة هذه الأعمال أن تمزق اتفاق شيشرون المعروف بحلف الطبقات Concordi ordinum ، وأن ألقى پمپي والرأسماليين فى أحضان الطبقات الدنيا واغتنم قيصر هذه الفرصة السانحة فألف منه ومن پمپي وكراسس الحكومة الثلاثية الأولى(٦٣) وتعهدوا جميعاً أن يقاوموا كل تشريع لا يرضى عنه أى واحد منهم . واتفق پمپي أن يساعد قيصر فى أن ينتخب قنصلا ، كما تعهد قيصر ، إذا ما اختير لهذا المنصب ، أن ينفذ الاقتراحات التى عرضها پمپي ورفضها مجلس الشيوخ .

وكانت الحملة الانتخابية شديدة مريرة استخدمت فيها الرشوة من كلا الجانبين . ولما سمع كاتو زعيم المحافظين أن حزبه يبتاع أصوات الناخبين تحلل من مبادئه الأولى ووافق على هذا العمل بحجة أنه وسيلة إلى غرض نبيل ، واختار العامة قيصر كما اختار الأشرف پبياوس Pibulus .

وما كاد قيصر يتسلم مقاليد منصبه (٥٩) حتى عرض على مجلس الشيوخ

المطالب التى تقدم بها بمبى : وهى توزيع الأرض على عشرين ألفاً من المواطنين الفقراء ومنهم جنود بمبى ، والتصديق على الاتفاقات التى عقدها بمبى فى بلاد الشرق ، وتخفيض المبالغ التى تعهد الملتزمون بجمعها من ولايات آسية بمقدار ثلثها .

ولما عارض المجلس كل مطلب من هذه المطالب بجميع ما لديه من وسائل فعل قيصر ما فعله ابنا جراكس ، فعرضها على الجمعية مباشرة . واستطاع المحافظون أن يقنعوا ببيلوس ، كما أقنعوا العرافين بأن يعلنوا أن الحظ غير موات لإجابتها . ولم يأبه قيصر لأقوال العرافين ، وحمل الجمعية على أن تتهم ببيلوس بالخيانة ، وقام رجل متحمس من العامة فأفرغ وعاء من البراز على رأس ببيلوس .

ثم وافقت الجمعية على مشروعات قيصر ، وكانت تجمع ، كما تجمع مشروعات ابنى جراكس ، بين السياسة الزراعية وخطة مالية ترضى رجال الأعمال . وأعجب بمبى بوفاء قيصر بعهده ، واتخذ يوليا ابنته زوجة رابعة له ، وأصبح الاتفاق بين العامة والطبقة الوسطى رابطة حب وصداقة . وتعهد أعضاء الحكومة الثلاثية للنجاح المتطرف من أتباعهم أن يؤيدوا ببليوس كلوديوس Publius Clodius فى أن ينتخب تربيونا فى خريف عام ٥٩ ، وأخذوا يعملون من ذلك الحين للمحافظة على رضاء الناخبين بما يقدمونه لهم من ضروب اللهو والألعاب الكثيرة .

وتقدم قيصر بمشروعه الثانى الخاص بتوزيع الأراضى فى شهر إبريل من ذلك العام نفسه . وكان هذا المشروع يقضى بتوزيع الأراضى التى تملكها الدولة فى كمبانيا على من كان له ثلاثة أبناء من المواطنين الفقراء ؛ وتجاهل قيصر مجلس الشيوخ مرة أخرى ، وأجازت الجمعية المشروع ، وبذلك تمت الموافقة على سياسة ابنى جراكس بعد جهود دامت مائة عام كاملة . ولزم ببيلوس Bibulus فى ذلك الوقت بيته واكتفى بأن أخذ يصـــدر من حين إلى حين تصريحات يقول فيها إن الطوالع غير مواتية للتشريعات الجديدة . أما قيصر فكان يصرف الشئون العامة

من غير ان يستشيره فيها ، وبلغ من إهماله إياه أن كان الفكهون من أهل المدينة يصفون هذا العام بأنه « قنصلية يوليوس وقيصر » . وأراد أن يفرض رقابة الشعب على مجلس الشيوخ ، فأنشأ أول صحيفة إخبارية ، بأن جعل الكتبة يسجلون أعمال الشيوخ وغيرهم ، مضافة إلى الأخبار اليومية ، ثم تعلق هذه « الأعمال اليومية » Acta Diurna على جدران السوق العامة ، وتكتب التقارير من هذه « الأعمال اليومية » ويحملها إلى جميع أجزاء الإمبراطورية رُسل يخصصون لهذا العمل .

وقبل أن تنتهي فترة هذه القنصلية التاريخية أفلح قيصر فى أن يعين والياً على بلاد الغالة الجنوبية وغالة ناربونة فى الخمس سنين التى تلى سنة القنصلية . وإذ كان القانون يحرم إقامة الجنود فى إيطاليا نفسها فإن قيادة الفيالق المقيمة فى شمال إيطاليا قد جعلت لصاحبها السيطرة العسكرية على شبه الجزيرة بأكملها . وأراد قيصر أن يستوثق من بقاء تشريعاته السابقة ، نعمل على أن ينتخب صديقاه جابنيوس Gabinius وبيزو Piso قنصلين فى عام ٥٨ ، وتزوج كاپرنيا Calpurnia ابنـــة بيزو ؛ ولكى يضمن استمرار العامة على تأييده بذل جهوده الموفقة لانتخاب كاوديوس تريبونا فى عام ٥٨ . ولم يجز لنفسه أن تتأثر مشروعاته بطلاقه الحديث لزوجته الثالثة پمپيا بسبب ارتيابه فى صلاتها غير المشروعة بكلوديوس .

الفصل الثالث

الأخلاق والسياسة

كان پبليوس كلوديوس پلشر Publiws Claudius Pulcher أى پبليوس كاديوس الجميل فرعاً من دوحة آل كلوديوس . وكان شابا أرستقراطيا باسلا لا يهاب الردى ولا يتورع من الناحية الخلقية عن اقتراف أية موبقة . وقد نزل من مرتبته السامية ، كما نزل منها كاتلين وقيصر ، ليقود العامة فى كفاحهم ضد الأغنياء ، وأراد أن يكون من حقه أن يختار تريبونا فأقنع إحدى الأسر الفقيرة فى أن تتبناه ، وأراد أن يعيد توزيع الثروة التى تجمعت فى أيدى بعض الطبقات فى رومة ، وأن يقضى على شيشرون — وكان قد استطال فى عرض أخته كلوديا وأخذ يدافع عن حرمة المِلْكية — فعمل جندياً عادياً تحت إمرة قيصر حتى يستطيع أن يستولى على زمام السلطة . وكان يعجب بخطط قيصر ويعشق زوجته ، واحتال للوصول إليها بأن تزيى بزىّ امرأة ودخل بيت قيصر ، ثم تزيى بزىّ كاهن واشترك فى المراسم الدينية التى يقيمها النساء وحدهن إلى الآلهة الطيبة Bona Dea . ثم افتضح سره ووجهت إليه تهمة الاعتداء على حرمة الإلهة وأسرارها ، وحوكم على هذه التهمة . ولمـــا نودى على قيصر ليشهد عليه قال إنه لا يوجه تهمة ما إلى كلوديوس . فلما سأله المدعى العمومى عن سبب طلاقه پمپيا قال إن سبب هذا الطلاق هو « أن زوجتى يجب أن تكون بعيدة عن الشبهات » .

وكانت هذه إجابة لبقة تسىء إلى ذلك العون السياسى القيم ، ولا تسىء إليه هو ؛ وشهد كثيرون من الشهود بأن كلوديوس كان على اتصال بكلوديا ، وأنه ضاجع أخته ترشيا بعد زواجها من لوكلس : واحتج كلوديوس بأنه كان غائباً عن رومة فى ذلك اليوم الذى يعزى إليه فيه ذلك الاتهام المزعوم الدنىء ، ولكن

شيشرون شهد بأن كلوديوس كان معه فى رومة فى ذلك اليوم نفسه . وظن الشعب أن المسألة كلها مؤامرة من مجلس الشيوخ للقضاء على زعيم من زعمائه ، وأخذ يطالب ببراءته من التهمة الموجهة إليه ؛ ورشا كراسس عدداً من القضاة — بتحريض قيصر كما يقول بعضهم — ليحكموا فى صالح كلوديوس ، واستطاع المتطرفون للمرة الأولى أن يقدموا من المال أكثر مما يقدمه المحافظون ، وبرئ كلوديوس ؛ ولم يدع قيصر هذه الفرصة السانحة تفلت من يده فاستبدل بزوجة من أبناء المحافظين ابنة أحد الشيوخ المناصرين لقضية الشعب .

ولم يكد قيصر يعتزل منصبه حتى اقترح بعض المحافظين إلغاء كل التشريعات التى أصدرها إلغاء تاما ؛ ولم يكتم كاتو رأيه فى هذه « القوانين اليوليوسية » وطالب بمحوها من سجلات القوانين الرومانية . وتردد مجلس الشيوخ فى الاستجابة إلى هذا التحدى الصريح لقيصر ومن ورائه الجحافل الرومانية ، ولكلوديوس المسيطر على التريبونية : وكان كاتو فى عام ٦٣ قد خطب ود الشعب وحاول ضمه إلى جانب المحافظين بإعادة النظام القاضى بتوزيع الغلال على الأهلين بثمن بخس . وأراد كلوديوس أن يكون أكثر منه استرضاء للعامة فأخذ يوزع الغلال من غير ثمن على كل من يطلبها ، وأقرت الجمعية بناء على طلبه مشروعات قوانين تحرم رفض الإجراءات التشريعية بالاستناد إلى الحجج الدينية وتجعل تأليف الهيئات النقابية من الحقوق المشروعة ، وكان مجلس الشيوخ قد حاول من قبل حلها . وقد أعاد هو تنظيم هذه الهيئات وجعل لها حق الاقتراع مجتمعة ، وكسب بذلك ولاءها وإخلاصها له ، فعينت له من أعضائها حرساً مسلحاً . وإذ كان يخشى أن يحاول كاتو وشيشرون ، بعد أن تنتهى فترة توليه منصبه ، إلغاء ما قام به قيصر من الأعمال فقـــد أقنع الجمعية بتعيين كاتو مندوباً رومانيا فى قبرص وإصدار قرار يقضى بنفى كل من يتسبب فى قتل أى مواطن رومانى دون أن يحصل على موافقة الجمعية ، كما تتطلب ذلك قوانين الدولة . ورأى شيشرون أنه هو المقصود بهذا القانون ، ففر إلى

بلاد اليونان حيث خدت المدن والشخصيات الكبيرة تتنافس فى تكريمه والاحتفاء بمقدمه . وكان رد الجمعية على هذا القرار أن قررت مصادرة أملاك شيشرون ، وهدم بيته القائم على تل الپلاتين Palatine .

وكان من حسن حظ شيشرون أن كلوديوس قد غره ما ناله من نصر ، فأخذ يهاجم پمپي وقيصر ، ويحاول الانفراد بزعامة الشعب . وكان جواب پمپي على خطط كلوديوس أن أيد الطلب الذى تقدم به كونتس Quintus أخو شيشرون بالسماح لخطيب رومة أن يعود إليها . ودعا مجلس الشيوخ جميع المواطنين الرومان إلى الاجتماع فى عاصمة الدولة ليبدوا رأيهم فى هذا الاقتراح . وجاء كلوديوس بعصابة مسلحة إلى ميدان المريخ لتشرف على عملية الاقتراع ، واستخدم پمپي رجلا فقيراً من الأشراف يدعى أنيوس ميلو Annius Milo لتنظيم عصابة أخرى لمناوأتها ، وكانت نتيجـــة ذلك حدوث شغب واضطراب سفكت فيه الدماء ، فقتل عدد كبير من الناس ولم ينج كونتس نفسه من القتل إلا بمعجزة من المعجزات . على أنه أفلح فيما كان يرمى إليه ، وعاد شيشرون ظافراً إلى رومة بعد نفى دام عدة شهور (٥٧) ، وحيته فى طريقه من برنديزيوم إلى رومة جماهير غفيرة بلغت من الكثرة حداً تظاهر معه شيشرون بالخوف من أن يتهم بأنه قد دبر أمر نفيه ليحظى بهذا التكريم العظيم عند عودته[١١] .

ويلوح أنه قد تعهد بمناصرة پمپي ، ولعله أيضاً قد تعهد بمناصرة قيصر ، نظير سماحهما بعودته . وشاهد ذلك أن قيصر أقرضه أموالا كثيرة لينظم بها شئونه المالية من جديد ، وأبى أن يتقاضى عليها فائدة[١٢] . وظل شيشرون بعد عودته عدة سنين المدافع عن أقطاب الحكومة الثلاثية والناطق بلسانهم مجلس الشيوخ .

ولما لاح فى أفق رومة خطر نقص الحبوب مرة أخرى (٥٧) استطاع أن

يحصل لپمپي على تفويض عجيب ، هو أن تكون له السلطة الكاملة مدى ست سنين على كل موارد الطعام في رومة ، وعلى جميع الدولة وتجارتها الخارجية . واستطاع پمپي مرة أخرى أن يفيد من هذه السلطة أعظم إفادة ، ولكن دستور الجمهورية أصيب مرة أخرى بطعنة نجلاء ، وظل حكم الأفراد يحل محل حكم القانون . وكذلك استطاع شيشرون أن يقنع مجلس الشيوخ بالموافقة على اقتراح عرض عليه بتقديم مبلغ كبير من المال لأداء مرتبات جنود قيصر في غالة . وفي عام ٥٤ أفلح في دفاعه عن حكم أولس جابنيوس Aulus Gabinius ، حاكم إحدى الولايات وصديق رجال الحكومة الثلاثية ، حتى برئ من تهمة ابتزاز أموال الولايات واستخدام العنف في الحصول عليها . وفي عام ٥٥ خسر كل ما كسبه من عطف قيصر ومعونته بهجومه العنيف على وال روماني آخر يدعى كاپرنيوس پزو Calpurnius Piso ؛ ذلك أنه لم ينس قط أن پزو هذا كان من الذين اقترعوا على نفيه ، ونسي أن ابنة پزو كانت زوجة قيصر .

ولما عاد كاتو من قبرص عام ٥٧ ق . م بعد أن أعاد تنظيم شئونها على خير وجه شرع المحافظون يلمون شعثهم ويعيدون تنظيم صفوفهم ، وكان كلوديوس قد أضحى وقتئذ عدو پمپي الألد فقبل ما عرضه عليه الأشراف من أن يعيرهم محبة الشعب وعصاباته السفاحة ؟ واتجه الأدب من ذلك الوقت وجهة معادية لقيصر وأخذت قصائد كلفس Calvus وكاتلس Catullus الهجائيـة تصوّب كالسهام المسمومة إلى معسكر الحكومة الثلاثية . وكلما توغل قيصر في بلاد الغاليين ، وتواترت أنباء ما كان يلاقيه فيها من الأخطار الكثيرة ، أخذ الأمل يدب من جديد في صدور الشخصيات النبيلة ، وقال شيشرون وقتئذ إن « من لم يمت بالسيف مات بغيره » .

وإذا جاز لنا أن نصدق ما قاله قيصر ، فإن عدداً من المحافظين قد أخذوا يأتمرون مع أريوفستس Ariovistus القائد الجرمانى على اغتيال قيصر[١٣] . وسارع دمتيوس Domitius يرشح نفسه للقنصلية ، ويعلن أنه إذا ما فاز بها فسيقترح من فوره على المجلس استدعاء قيصر — أى أن قيصر سيتهم ويحاكم . وتلوّن شيشرون بلون الزمان ، فاقترح أن ينظر مجلس الشيوخ فى يومى ٢٥ ، ٢٦ من شهر مايو فى إلغاء قوانين قيصر الخاصة بالأراضى الزراعية .

الفصـــل الرابع

فتح بلاد غالة

تسلم قيصر فى عام ٥٨ ق . م مهام منصبه ، منصب حاكم بلاد غالة الجنوبية والنربونية ، أى شمالى إيطاليا وجنوبى فرنسا . وكان أريوفستس قد سار فى عام ٧١ ق . م على رأس خمسة عشر ألفاً من الجرمان إلى بلاد الغالة حين استعانته إحدى قبائلها على قبيلة أخرى . وقدم لها القائد الألمانى المعونة التى طلبتها ولكنه لم يغادر البـــلاد ، بل بقى فيها ليبسط حكمه على جميع القبائل الضاربة فى شمالى غالة الشرر . واستنجدت قبيلة الإيدوى **Aedui** إحدى هذه القبائل برومة لتعينها على الألمان (٦١) . وخوّل مجلس الشيوخ الحاكم الرومانى على بلاد غالة النربونية حق إجابة هذا الطلب ، ولكنه فى الوقت نفسه تقريباً ضم أريوفستس إلى طائفة الحكام الموالين لرومة . وكان مائة وعشرون ألفاً من الألمان قد عبروا فى هــذه الأثناء نهر الرين ، واستقروا فى فلاندرز فشدوا بذلك أزر أريوفستس ، وأخذ يعامل أهل البلاد معاملة الشعوب المغلوبة ، وشرع يمنى نفسه بالاستيلاء على بلاد غالة بأجمعها[١٤] .

وبدأت فى الوقت عينه قبائل الهلفتى **Helvetii** الضاربة حول جنيفا تهاجر نحو الغرب ، وكانت عدتها نحو ٣٦٨٫٠٠٠ ، وأنذر قيصر بأن هذه القبائل تعتزم اختراق بلاد غالة النربونية فى طريقها إلى جنوبى فرنسا الغربى . ويصف ممسن **Mommsen** حركات هذه القبائل بقوله : « لقد كانت القبائل الألمانية الضاربة تتحرك فى جميع الأصقاع الممتدة من نهر الرين إلى المحيط الأطلنطى ، وكانت هذه اللحظة شبيهة باللحظة التى انقضت فيها قبائل الألمانى والفرنجة على إمبراطورية القياصرة المتداعية . . بعد خمسمائة عام من ذلك الوقت »[١٥] وأخذ قيصر يحتال لإنقاذ رومة بينا كانت رومة نفسها تدبر المؤامرات للقضاء عليه .

وجند قيصر من ماله الخاص . ومن غير أن يرجع فى ذلك إلى مجلس الشيوخ – وكان الدستور يحتم عليه الرجوع إليه – نقول جند ثلاث فرق جديدة كاملة العدة زيادة على الأربع الفرق التى كانت تحت إمرته . ثم أرسل يدعو أريوفستس أن يحضر إليه من فوره ليبحث الموقف معه . ورفض أريوفستس الدعوة كما كان قيصر يتوقع وأقبلت وقتئذ على قيصر وفود كثيرة من القبائل الغالية تتطلب إليه حمايتها ، فأعلن الحرب على أريوفستس وقبائل الهلفتى ، واتجه بجيوشه نحو الشمال ودارت بينه وبين جحافل الهلفتى معركة حامية عند ببركتى Bibracte عاصمة الإيدونى ، ومكانها الآن بالقرب من بلدة أوتون Autun الحالية . وانتصرت جيوش قيصر فى هذه المعركة انتصاراً غير حاسم ، أقرب ما يكون إلى الهزيمة ، كما يقول قيصر نفسه ، ونحن مضطرون أن نأخذ عنه هو معظم هذه الأنباء . وعرض الهلفتى أن يعودوا إلى موطنهم فى سويسرا ، ووافق قيصر على أن يؤمنهم فى عودتهم إليه ، ولكنه اشترط عليهم أن تخضع البلاد التى كانوا يحتلونها إلى حكم رومة . وبعثت بلاد الغالة جميعها وقتئذ تشكر له تخليصها من أعدائها ، وترجوه أن يساعدها على طرد أريوفستس . والتقى قيصر بالألمان عند أستيم Astheim(*) ، ودارت بينه وبينهم معركة انتهت بقتلهم أو أسرهم عن آخرهم تقريباً ، كما يقول هو نفسه (٥٨) . وفر أريوفستس من الميدان ولكنه مات بعد ذلك بقليل .

واعتقد قيصر أن تحرير غالة من أعدائها لا يفترق فى شيء عن فتحها ، فشرع من فوره يعيد تنظيمها على أساس خضوعها لسلطان رومة ، وحجته فى ذلك أن هذا التنظيم هو الوسيلة الوحيدة لحمايتها من الألمان . ولم تقنع هذه الحجة بعض الغاليين فثاروا ، واستعانوا عليه البلجى Belgae وهم قبيلة ألمانية كلتية

(*) على بعد عشرة أميال من شاطىء نهر الرين الغربى وعلى بعد ١٦٠ ميلا جنوبى كولونى .

قوية تسكن شمال غالة بين نهرى السين والرين : والتقى بهم قيصر على شواطئ نهر الآين Aisne وهزمهم ، ثم سار بسرعة خاطفة لم تمكن أعداءه من لم شعثهم ، والتقى بالسويسيون Suissiones ، والأمبيانى Ambiani ، والنرفياى Nervii ، والأدوتيشى Aduatici ، وهزم كلا منهم على انفراد ، ونهب بلادهم ، وباع أسراهم لتجار الرقيق الإيطاليين . وأعلن فى ذلك الوقت فتح بلاد الغالة ، وكان فى إعلانه هذا متعجلا بعض الشيء ، وجاراه مجلس الشيوخ فأعلن أن غالة ولاية رومانية ، ورفع العامة فى رومة — ولم يكونوا يقلون فى نزعتهم الاستعمارية عن أى قائد من القواد — عقيرتهم يمجدون بطلهم البعيد . وعاد قيصر فعبر الألب إلى بلاد غالة الجنوبية ، وأخذ يعمل على تنظيم شئونها الإدارية ، وسد ما حدث من النقص فى فيالقه ، ودعا پمپى وكراسس أن يقابلاه فى لوكا ليضع معهما خطة مشتركة للدفاع عن أنفسهم ضد الحركة الرجعية التى يقوم بها المحافظون.

وأرادوا أن يقطعوا الطريق على دميتوس Domitius فاتفقوا على أن يتقدم پمپى وكراسس للقنصلية فى عام ٥٥ ق . م منافسين له ؛ وعلى أن يعين پمپى والياً على أسپانيا وكراسس على سوريا لمدة خمس سنين (٥٤ — ٥٠) ؛ وأن يظل قيصر والياً على غالة خمس سنين أخرى (٥٣ — ٤٩) ، وعلى أن يسمح له بعد انتهاء هذه الفترة أن يتقدم مرة أخرى للقنصلية .

وأمد قيصر زميليه وصديقيه بما يلزمهما من الأموال التى غنمها من الغاليين لخوض المعركة الانتخابية ؛ وبعث أيضاً بمبالغ طائلة إلى رومة ليوجد ببعضها أعمالا للمتعطلين ، ويدفع منها مكافآت لمؤيديه ، وليرفع ببعضها مكانته فى أعين الشعب بالإقدام على تنفيذ منهاج واسع من المنشآت العامة . وحيا الشيوخ الذين جاءوا ليفحصوا عن غنائمه بالرشا السخية ، فأدى ذلك إلى إخفاق الحركة التى كانت ترمى إلى إلغاء ما أصدره من القوانين . واختير پمپى وكراسس قنصلين بعد أن قدما الرشا السخية المعتادة ، وعاد قيصر يعمل على إقناع الغاليين أن السلام أحلى من الحرية .

وأخذت الأحوال على نهر الرين شمالى كولونى تنذر بالشر المستطير ، عبرت النهر قبيلتان ألمانيتان إلى غالة البلچيكية ، وزحفتا فيها إلى أن وصلتا لييج Liege ، واستعانهما الحزب الوطنى فى غالة على الرومان ، والتقى قيصر بالغزاة عند أكسانتن Xanten (٥٥) ، وصدهم إلى نهر الرين ، وقتل منهم كل من لم يمت فى النهر غرقاً رجالا كانوا أو نساءاً أو أطفالا . ثم أقام مهندسوه فى عشرة أيام جسراً على النهر العظيم ، وكان عرضه وقتئذ ١٤٠٠ قدم ، وعبرت عليه فيالق قيصر ، وحاربت أعداءها فى الأراض الألمانية زمناً يكفى لجعل نهر الرين حداً آمناً للدولة الرومانية ، ثم عاد بعد أسبوعين إلى بلاد غالة .

ولسنا نعرف السبب الذى حدا به إلى غزو بريطانيا فى ذلك الوقت ، ولعله قد أغراه بهذا الغزو ما وصل إلى علمه من الشائعات عن كثرة الذهب واللؤلؤ فيها ، أو لعله كان يرغب فى الاستيلاء على ما فى بريطانيا من قصدير وحديد لتصدره رومة إلى البلاد الخارجية ، أو لعله قد أغضبه ما قدمته بريطانيا من عون إلى الغاليين ، وأنه رأى أن يجعل السلطة الرومانية فى غالة آمنة من جميع جهاتها . ومهما يكن السبب فقد سار على رأس قوة صغيرة عبر بها بحر المنش فى أضيق أجزائه ، وهزم البريطانيين الذين لم يكونوا مستعدين لحربه ، وأخذ عن البلاد بعض المعلومات القليلة ، ثم قفل راجعاً (٥٥) . لكنه عبر البحر إليها مرة أخرى فى العام الثانى وهزم البريطانيين بقيادة كسفلونس Cassivelaunus ، ووصل إلى نهر التاميز ، وانتزع من أهل البلاد وعداً بأن يعطوا الجزية ، ثم رجع إلى غالة .

ولعل سبب رجوعه أنه سمع أن الثورة يكاد يندلع لهيبها مرة أخرى بين القبائل الغالية ، فلما عاد أخضع أولا الإبورون Eburones . ثم زحف على ألمانيا (٥٣) . ولما عاد منها ترك الجزء الأكبر من جيشه فى غالة الشمالية ، ثم ذهب مع من بقى من هذا الجيش ليقضى الشتاء فى شمالى إيطاليا ، وكان يرجو أن يخصص بضعة شهور لإصلاح أسواره فى رومة ، ولكنه سمع فى أوائل عام ٥٢ أن

ڤرسنجتركس Vercingetorix أقدر الزعماء الغاليين قد حشد كل القبائل الغالية تقريباً فى حرب تبغى بها أن تستعيد استقلالها ؛ وبذلك أصبح مركز قيصر شديد الحرج لأن الجزء الأكبر من جيشه كان فى شمال إيطاليا ، والأقاليم الواقعة بينه وبين هذا الجيش فى أيدى الثوار . ولكنه سار على رأس قوة صغيرة فوق ثلوج جبال السفن Cevennes وهاجم مدينة أوڤرنى Auvergne . ولما جاء ڤرسنجتركس بقوته ليدافع عنها ولى قيصر دسمس بروتس Decimus Brutus قيادة جنوده الذين كانوا يهاجمونها ، وسار هو متخفياً ومعه عدد كبير من الفرسان مخترقاً بلاد غالة من الجنوب إلى الشمال ، وانضم إلى جيشه الرئيسى ، وقاده من فوره إلى القتال ، وحاصر أڤريكوم Avaricum (بورج Bourgas) وسنابوم Cenabum (أورليان Orleans) ، واستولى عليهما ، وأعمل فيهما السلب والنهب ، وقتل أهلهما ، وملأ بكنوزهما خزائنه الخاوية . ثم زحف بجيشه على چرچڤيا Gergovia حيث قاومه الغاليون مقاومة عنيفة اضطرته إلى الانسحاب وفى ذلك الوقت تخلى عنه الأدويون الذين أنجاهم قبل من الألمان ، والذين بقوا حتى ذلك الوقت أنصاراً له وحلفاء ؛ ثم استولوا على قواعده ومخازن ميرته فى سواسون Soissons ، وشرعوا يستعدون لرده إلى بلاد غالة النربونية .

وكان هذا هو الوقت الذى ساءت فيه أحوال قيصر كما لم تسؤ من قبل ولا من بعد ، ومرت به بعض الأيام فقد فيها كل أمل فى النجاة . وفى هذا الوقت العصيب ضرب الحصار على أليزيا Alesia (أليز سنت رين Alise Ste-Reine) ، وجازف بكل شىء فى هذا الحصار لأن ڤرسنجتركس جمع فيها ثلاثين ألفاً من جنوده . وما كاد قيصر يوزع مثل هذا العدد من الجند حول المدينة حتى وصلته الأنباء بأن ٢٥٠,٠٠٠ من الغاليين بدءوا يزحفون نحو المدينة من الشمال . فما كان منه إلا أن أمر جنوده بأن يقيموا حول المدينة سورين دائريين من التراب ، أحدهما من أمامهم والآخر من خلفهم ؛ وانقضت جيوش ڤرسنجتركس وحلفائه

على هذين السورين وعلى الجيوش الرومانية الباسلة وهاجمتها المرة بعد المرة ، ولكنها باءت فى كل هجماتها بالخسران . وواصل الجيش المنقذ هجماته على هذا النحو أسبوعاً كاملا ، ثم تبدد شمله لاختلال نظامه ونقص طعامه وعتاده ، واستحال هذا الجيش فلولاً لا حول لها ولا طول فى الساعة التى نفذت فيها موارد الرومان ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى بعثت المدينة الجائعة فرسنجتركس نفسه بناء على طلبه إلى قيصر أسير حرب ، ثم استسلمت للرومان ووضعت نفسها تحت رحمتهم (٥٢) . وعفا قيصر عن المدينة فلم يمسسها بسوء ، ولكنه أسلم جنودها لرجال جيشه ليكونوا رقيقاً لهم . وسيق فرسنجتركس مكبلا بالأغلال إلى رومة حيث سار فيما بعد يزين موكب نصر قيصر ، وجوزى بالقتل على حبه للحرية .

وقرر حصار إلزيا مصير بلاد غالة ، كما قرر خصائص الحضارة الفرنسية . ذلك أنه أضاف إلى الإمبراطورية الرومانية بلاداً تبلغ مساحتها ضعفى مساحة إيطاليا وفتح خزائن خمسة ملايين من الناس وأسواقهم إلى التجارة الرومانية . يضاف إلى هذا أن ذلك الحصار أنجى إيطاليا وعالم البحر الأبيض المتوسط مدة أربعة قرون من غارات البرابرة ، وانتشل قيصر مرة أخرى من حافة هاوية الخراب إلى ذروة المجد والثروة والسلطان . وظلت بلاد غالة عاماً آخر تثور ثورات متفرقة عقيمة ، أخمدها قيصر بقسوة لم تألفها منه ، ثم خضعت لرومة وأسلمت لها أمورها .
وما كاد يتم له النصر حتى عاد قيصر كما كان الفاتح الشهم الكريم ، فعامل القبائل المغلوبة معاملة لينة كان من آثارها أن هذه القبائل لم تتحرك قط لتخلع عن كاهلها نير رومة حين شبت فيها نار الحرب الأهلية ، ولم يكن فى مقدورها ولا فى مقدور قيصر أن يؤدبا هـذه القبائل . وظلت بلاد غالة بعـدئذ ثلثمائة عام ولاية رومانية يعمها الرخاء فى ظلال السلم الرومانية ، وتعلمت فى خلالها اللغة اللاتينية ، وأدخلت عليها كثيراً من التغيير حتى أصبحت الأداة التى نقلت بها ثقافة العهود الغابرة إلى

شمالى أوربا . ولا جدال فى أن قيصر ومعاصريه لم يكونوا يدركون ما سوف تتمخض عنه انتصاراته الدموية من نتائج بعيدة المدى ، فقد كان أقصى ما يظنه أنه أنقذ إيطاليا ، وضم لها ولاية جديدة ، وأنشأ لها جيشاً قوياً ، لكنه لم يدر بخلده أنه منشئ الحضارة الفرنسية .

ودهشت رومة إذ وجدت أن قيصر إدارى قادر لا يعتريه ملل ، وقائد محنك واسع الحيلة ، بعد أن لم تكن تعرف عنه أكثر من أنه رجل متلاف رقيع ، وسياسى ، ومصلح . ثم أدركت فى الوقت عينه أنه مؤرخ عظيم . ذلك أنه وهو فى ميادين القتال تقض مضجعه الهجمات المتوالية عليه من رومة ، كان يسجل فتوحه فى غالة ، ويدافع عن هذه الفتوح فى شروحه Commentaries ، وقد سما بها إيجازها العسكرى — إذا جاز أن نصفها بهذا الوصف — وبساطتها الفنية من منزلة النشرات الحزبية إلى أسمى مكان فى الأدب اللاتينى . وحتى شيشرون نفسه ، بعد أن تقلب مرة أخرى فى مبادئه السياسية ، أخذ يتغنى بمدح قيصر ويستعجل فى ذلك الوقت ما حكم به عليه التاريخ فيما بعد إذ قال :

ليست معاقل الألب المنيعة ، ولا مياه الرين الفياضة الصاخبة ، هى الدرع الحقيقى الذى صد عنا غارات الغاليين والقبائل الألمانية الهمجية ، بل الذى صدها فى اعتقادى هو قيادة قيصر وقوة ساعديه . ولو أن الجبال دكت وسويت بالسهول ، والأنهار جفت ، لاستطعنا أن نحتفظ ببلادنا حصينة منيعة بفضل ما نال قيصر من نصر مؤزر وما قام به من أعمال مجيدة . ألا ما أعظم فضله علينا[16] .

ويجب أن نضيف إلى هذا ما أثنى به عليه ألمانى عظيم إذ قال :

إذا كان ثمة جسر يربط ماضى هلاس ورومة المجيد بتاريخ أوربا

الحديث ، الذي هو أعظم منه مجداً وأسمى قدراً ، وإذا كان غرب أوربا رومانياً ، وإذا كانت أوربا الألمانية قد صبغت بالصبغة اليونانية والرومانية القديمة . . . فما ذلك كله إلا من عمل قيصر : وإذا كان ما أوجده سلفه العظيم(*) في بلاد الشرق قد كادت تمحو معالمه كلها زعازع العصور الوسطى ، فإن الصرح الذي شاده قيصر ظل قائماً آلاف السنين التي تبدلت فيها الأديان وتغيرت الدولة(١٧)

(*) يريد الإسكندر الأكبر . (المترجم)

الفصل الخامس

فساد الدمقراطية

انحطت السياسة الرومانية فى خلال الخمس السنين الثانية من ولاية قيصر على غالة إلى الدرك الأسفل من الفساد والعنف ، فقد كان القنصلان بمپى وكراسس يسيران فى حكمهما على خطة شراء أصوات الناخبين ، وإرهاب المحلفين ، والالتجاء إلى القتل فى بعض الأحيان(١٨) ، ولما انقضت مدة ولايتهما جند كراسس جيشاً كبيراً وأبحر به إلى سوريا ، ثم عبر نهر الفرات ، والتقى بالپارثيين عنـــد كرهية Carrhae ، ودارت الدائرة عليه لتفوق فرسان الپارثيين ، وقُتل ولده فى المعركة .

وبينا كان كراسس يرتد بقواته بنظام ، دعاه قائد الپارثيين إلى الاجتماع به ، فأجاب الدعوة ، ولكن القائد الپارثى غدر به وقتله ، وأرسل رأسه ليمثل به دور بنثيوس Bentheus فى احتفال فى بلاط ملك الپارثيين ، مثلث فيه مسرحية باخية Bacchae ليوريديز Euripidis . وأصبح جيشه بغير قيادة ، وكان قد مل القتال ، فانحلت عراه وتبدد شمله (٥٣) .

وكان بمپى فى هذه الأثناء قد جمع له جيشاً ، ولعله كان يبغى به إتمام فتح أسبانيا ، ولو أن قيصر نجح فى خططه لفتح بمپى أسبانيا القاصية ، ولأخضع كراسس أرمينية وپارثيا ، ولبسطت رومة سلطانها على هذه البلاد جميعها فى الوقت الذى كان فيه قيصر يمد حدود الإمبراطورية الرومانية إلى نهرى التاميز والرين . ولكن بمپى أبقى فيالقه فى إيطاليا بدل أن يقودها إلى أسبانيا ، إلا فيلقاً واحداً أعاره قيصر إبان الأزمة التى نجمت عن ثورة الغاليين . وحدث فى عام ٥٤ أن انفصمت العروة الوثقى التى كانت تربطه بقيصر على أثر وفاة زوجته يوليا فى أثناء

الوضع ، وعرض عليه قيصر أن يزوجه أكتافيا حفيدة أخيه وأقرب قريباته فى ذلك الوقت ، وطلب أن يتزوج هو بابنـــة بمپى ، ولكنه رفض كلا العرضين . وأخلت النكبة التى حلت بكراسس وجيشه فى العام التالى من الميدان قوة أخرى كانت تعمل على إيجاد التوازن فيه : ذلك أن نجاح كراسس كان من شأنه أن يحول دون طغيان قيصر أو بمپى . وعقد بمپى من ذلك الوقت حلفاً صريحاً مع المحافظين ، ولم يبق أمامه لنجاح خططه التى كان يبغى بها الحصول على السلطة العليا بالطرق المشروعة فى الظاهر إلا عقبة واحدة ، هى مطامع قيصر وجيشه . وكان يعرف أن قيادة قيصر للجيش تنتهى فى عام ٤٩ ، فاستصدر مراسيم تقضى بمد أجل قيادته هو إلى آخر عام ٤٦ ، وطلب إلى جميع الإيطاليين القادرين على حمل السلاح أن يحلفوا يمين الولاء العسكرى له هو شخصياً ، وكان يعتقد بعد هذا أن الزمن كفيل بأن يجعله سيد رومة[١٩] .

وبينا كان القائدان اللذان يبغى كلاهما أن يكون الحاكم بأمره فى رومة يضعان خططهما على هذا النحو كانت الديمقراطية تحتضر فى عاصمة البلاد ، فكانت الأحكام القضائية ، ومناصب الدولة ، وعروش الملوك الخاضعين لسلطانها ، تباع إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان . من ذلك أن القسم الأول من المقترعين فى الجمعية قد استولى فى عام ٥٣ على عشرة ملايين سسترس ثمناً لأصوات أفراده[٢٠] . ولما لم ينفع المال لم يتورع ذوو الشأن عن الالتجاء إلى الاغتيال[٢١] أو كشف الستار عن ماضى الناس ، والتهديد بالكشف عن فضائحهم ، فلم يروا أمامهم سبيلا غير الإذعان . وفشا الإجرام فى المدينة كما انتشرت السرقات فى الأقاليم ، ولم يكن فى هذه ولا فى تلك قوة من الشرطة تطمئن الناس على أنفسهم أو أموالهم ، فكان الأغنياء يستأجرون عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم فى الجمعية . واستهوت رائحة المال أو هبات الحبوب أحط الطبقات فى إيطاليا فهرعت إلى رومة ، وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ، فكان كل من يقبل

الاقتراع كما يطلب إليه يؤذن له بدخولها سواء كان من مواطنى رومة أو من غير مواطنيها ؛ وكان يحدث فى بعض الأحيان ألا يكون من بين من أعطوا أصواتهم إلا أقلية صغيرة هى التى لها حق الاقتراع . وكثيراً ما كان الخطباء يحصلون على حق الخطابة فى الجمعية بالهجوم على المنصة والاستيلاء عليها قوة واقتداراً . وأضحت العصابة التى ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هى التى تشرع للدولة ، كما كان الذين يقترعون على غير هواها يضربون حتى يكاد يقضى عليهم ، ثم تشعل النار بعد الضرب فى بيوتهم . وقد كتب شيشرون بعد جلسة من هذه الجلسات يقول :

« لقد امتلأ التيبر بجثث المواطنين كما سدّت بها البالوعات العامة ، واضطر الأرقاء إلى امتصاص الدم بالإسفنج من السوق العامة »(٢٢) .

وكان كلوديوس وميلو أعظم الخبراء الممتازين فى هذه المهزلة البرلمانية ؛ فقد كانا ينظمان عصابات من أحط الطبقات ليصلوا بها إلى أغراضهم السياسية ، وقلما كان يوم واحد يمر دون أن توضع قوة هذه العصابات موضع الاختبار . من ذلك أن كلوديوس هاجم شيشرون فى أحد شوارع المدينة فى يوم من الأيام ، وحرق أجراؤه بيت ميلو فى يوم ثان ، ثم قبضت عصابات ميلو على كلوديوس نفسه فى يوم آخر وقتلته (٥٢) ؛ غير أن صعاليك المدينة الذين لم يكونوا يجهلون ما يدبره من المؤامرات رفعوه إلى مقام الشهداء ، واحتفلوا بجنازته احتفالا عظيما ، وجاءوا بجثته إلى مجلس الشيوخ ، وحرقوا البناء فوقها كأنه كومة الحطب التى تحرق عليها جثث الموتى .

وجاء بمبى بجنوده ففرقوا الغوغاء ، ثم طلب إلى المجلس جزاء له على عمله هذا أن يعينه « قنصلا بغير زميل » ، وهى عبارة نصح بها كاتو وقال إنها أخف على السمع من لفظ دكتاتور ؛ ثم عرض بمبى على الجمعية ، بعد أن أرهبها بجنده ، عدة اقتراحات يبغى بها القضاء على الرشوة والفساد السياسيين المنتشرين فى البلاد ، كما عرض عليها

اقتراحاً بإلغاء حق المرشح لمنصب القنصل أن يفعل هذا وهو غائب عن رومة ، (وكانت الجمعية قد منحت قيصر هذا الحق بناء على مشروع قانون عرضه عليها بمپي نفسه فى عام ٥٥) : وأخذ يشرف بنفسه على قوة الدولة العسكرية ، وعلى أعمال المحاكم ؛ ولم يؤخذ عليه فى هذا الإشرا شيء من الهوى أو المحاباة . وحوكم ميلو على جريمة قتل كلوديوس وأدين على الرغم من دفاع شيشرون عنه(*) ثم هرب إلى مرسيليا : وغادر شيشرون رومة ليحكم قليقية (٥١) ، وحكمها بكفاية ونزاهة أدهشتا أصدقاءه وأغضبتهم عليه . ثم استسلمت عناصر الثروة والنظام كلها فى عاصمة البلاد إلى دكتاتورية بمپي ، أما الطبقات الفقيرة فظلت صابرة تتلهف على عودة قيصر

(*) وقد أدخل كثير من التعديل على نص الخطبة الذى وصل إلينا ، حتى بلغ الاختلاف بينه وبين النص الأصلى – وكانت عباراته قد اضطربت بسبب ما ساد من الهرج بفعل أعدائه حين إلقائها – مبلغاً حمل ميلو حين قرأها على أن يصيح قائلا : «أى شيشرون ! لو أنك نطقت بما كتبت لما كنت الآن أطعم السمك الجيد فى مرسيلية »(٢٣) .

الفصل السادس

الحرب الأهليـــة

دامت الفتن والثورات فى الدولة الرومانية مائة عام ، حطمت فى خلالها كيان الطبقة الأرستقراطية الأنانية القليلة العدد التى كانت تتولى شئون الحكم فى البلاد ، ولكنها لم تحل حكومة أخرى محلها . فأما الجمعية فقد أفسدها التعطل والرشوة والخبز ومجالدة الوحوش ، فأحالتها إلى جماعة من الغوغاء الجهلة تسيطر عليهم أهواؤهم وشهواتهم ، فكانت بذلك عاجزة أشد العجز عن حكم نفسها بله حكم إمبراطورية واسعة الرقعة . وانحطت الدمقراطية حتى أضحت وكأنها هى المعنية بقول أفلاطون : « صارت الحرية إباحية ، وأخذت الفوضى تتوسل أن يوضع حد للحرية »[٢٤] . ولم يختلف قيصر مع بمپى فى أن الجمهورية قد ماتت ، وأنها أصبحت على حد قوله : اسماً على غير مسمى لا جسم لها ولا صورة » .[٢٥] ولم يكن ثمة مفر من الدكتاتورية ، ولكنه كان يريد أن يضع أزمة الأمور فى أيدى قيادة تعمل لتقدمها ورقيها ، قيادة غير جامدة لا تبقى البـــلاد على حالها التى تردت فيها ، بل تبذل جهودها لتخفيف ما يتغلغل فيها من مفاسد ومظالم وفاقة أفسدت الدمقراطية وهوت بها إلى الحضيض . وكان قيصر وقتئذ فى الرابعة والخمسين من عمره ، وما من شك فى أنه قد أوهنته حروبه الطويلة فى غالة ، وأنه لم يكن يحب أن يتورط فى محاربة مواطنيه وأصدقائه السابقين ، ولكنه كان على علم بالمؤامرات التى تحاك له ، والفخاخ التى تنصب لاقتناصه ، وكان يؤلمه أشد الألم أن تكون هذه المؤامرات والفخاخ هى الجزاء الذى يجزى به من أنجى إيطاليا من الدمار والخراب . وكانت مدة حكمه فى غالة تنتهى فى اليوم الأول من شهر مارس سنة ٤٩ ق . م ، ولم يكن فى وسعه أن يتقدم للقنصلية إلا فى

خريف ذلك العام ، وفى الفترة الواقعة بين الزمنين يفقد الحصانة التى يسبغها عليه منصبه ، ولا يستطيع دخول رومة دون أن يعرض نفسه للاتهام بأنه خارج على القانون ، وهو السلاح المألوف الذى كانت تلجأ إليه الأحزاب المختلفة فى رومة فى نزاعها على السلطة . وكان ماركس مارسلس Marcus Marcellus قد عرض قبل ذلك الوقت على مجلس الشيوخ أن يعزل قيصر من الولاية قبل انتهاء مدتها ، ومعنى هذا العزل هو البقاء خارج البلاد أو المحاكمة ، وكان التربيونان قد أنجياه من هذه المكيدة باستخدام ما لهما من حق الاعتراض ، ولكن مجلس الشيوخ كان بلا ريب راضيا عن هذا الاقتراح ، وقال كاتو بصريح العبارة إنه يرجو أن توجه التهمة إلى قيصر ، وأن يحاكم وينفى من إيطاليا .

أما قيصر نفسه فلم يدخر جهداً فى العمل على إزالة أسباب النزاع بينه وبين خصومه . فلما أن طلب مجلس الشيوخ بإيعاز بمبى أن يتخلى له كلا القائدين عن فيلق يرسله لقتال پارثيا ، أجابابه قيصر من فوره إلى طلبه ، وإن لم تكن القوة التى لديه كبيرة . ولما طلب بمبى إلى قيصر أن يعـيد إليه الفيلق الذى أرسله له قبل عام من ذلك الوقت ، بادر أيضاً بإرساله إليه ، وإن كان أصدقاؤه قد أبلغوه أن الفيلقين لم يرسلا إلى پارثيا بل بقيا فى كاپوا . وطلب قيصر على لسان مؤيديه فى مجلس الشيوخ أن يعاد العمل بقرار الجمعية السابق الذى كان يجيز له أن يرشح نفسه لمنصب القنصلية وهو غائب عن رومة ، ولكن المجلس رفض الاقتراح وطلب إلى قيصر أن يسرح جنوده . وأحس هو أن ليس له سند يحميه إلا فيالقه ، ولعله لم يكن يعمل لكسب ولائهم له إلا ليقفوا إلى جانبه فى مثل هذه الأزمة . غير أنه فى ذلك الوقت عرض على مجلس الشيوخ أن يعتزل هو وبمبى منصبيهما — وبدا هذا العرض معقولا لا غبار عليه فى نظر الشعب ، حتى أنه كلل جبين رسوله بالأزهار ووافق المجلس على هذه الخطة بأغلبية ٣٧٠ ضد ٢٢ ، ولكن بمبى أبى أن يخضع لهذا القرار ، حتى إذا أشرف عام ٥٠ على الانتهاء ولم يبق منه إلا بضعة

أيام ، أعلن أن قيصر عدو الشعب إذ لم يتخل عن القيادة قبل اليوم الأول من شهر يولية . وفى أول عام ٤٩ قرأ كوريو Curio على المجلس رسالة من قيصر يعلن فيها استعداده لتسريح جيشه كله عدا فيلقين اثنين إذا سمح له بأن يظل والياً على غالة حتى عام ٤٨ ، ولكنه أفسد هذا العرض بأن أضاف إليه أنه يرى فى رفضه إعلاناً للحرب عليه . ودافع شيشرون عن هذا الاقتراح ، ووافق عليه بمبى ، ولكن القنصل لنتولس Lentulus تدخل فى الأمر وأخرج كوريو Curio وأنطونيوس نصيرى قيصر من المجلس[٢٦] ، وبعد نقاش طويل أصدر المجلس على كره منه وبإلحاح لنتولس وكاتو ومارسلس إلى بمبى أمراً وسلطة « يعمل بهما على ألا تصاب الدولة بسوء » : وتلك عبارة رومانية معناها الدكتاتورية والحكم العسكرى .

وتباطأ قيصر وتردد أكثر مما كانت عادته : فقد كان مجلس الشيوخ من الوجهة القانونية على حق فيما فعل ، ولم يكن من حقه هو أن يعرض الشروط التى يعتزل بمقتضاها منصبه وقيادته . وكان يعرف أن الحرب الأهلية قد تثير الفتنة فى غالة وتخرب إيطاليا بأجمعها ، ولكنه كان يعلم أيضاً أن استسلامه معناه إسلام الإمبراطورية للعجز وللرجعية ، وترامى إليه فى أثناء تفكيره أن صديقاً من أقرب الأصدقاء إليه ومن أقدر مؤيديه وهو تيتس لبيلس Titus Labienus قد انشق عليه وانضم إلى بمبى ، فما كان منه إلا أن استدعى الفيلق الثالث عشر ، أكثر فيالقه ولاء له وأحبها إلى قلبه ، وعرض الأمر كله على رجاله . وكانت أول كلمة نطق بها أمامهم وهى « زملائى الجنود : Commilitones » كافية لكسب قلوبهم ، ولم يكونوا ينكرون عليه حقه فى استعمال هذا اللفظ لأنهم رأوه من قبل يشترك معهم فى الصعاب ويتعرض معهم للأخطار ، وكثيراً ما شكوا هم أنفسهم من أنه يجازف بحياته ويعرضها للخطر فوق ما يجب . وكان هو على الدوام يخاطبهم بهذا اللفظ بدل اللفظ المقتضب الجاف الذى كان ينطق به من هم أقل منه مجاملة

من القواد . وكان معظم رجاله من بلاد الغالة الجنوبية ، وهى البلاد التى جعل لأهلها حق المواطنين الرومان ، وكانوا يعرفون أن مجلس الشيوخ قد أبى أن يعترف لهم بهذه المنحة ، وأن أحد أعضائه قد جلد رجلا من أهلها ليدل بذلك على احتقاره لعمل قيصر ، على الرغم من أن جلد المواطن الرومانى كان عملا لا يجيزه القانون . وكان قيصر قد علمهم فى أثناء حروبهم الطويلة أن يحترموه - بل أن يحبوه على طريقتهم الخشنة الصامتة فى الحب . وكان قاسياً على الجبناء ومن لا يرعون النظام ، ولكنه كان سمحاً ليناً لا يقسو عليهم جزاء لهم على أغلاطهم التى تدفعهم إليها طبيعتهم البشرية ، وكان يتغاضى عن أخطائهم الجنسية ويجنبهم ما لا ضرورة له من الأخطار ، وكثيراً ما أنجاهم من الهلاك بحنكته وحسن قيادته . هذا إلى أنه ضاعف أجورهم ، ووزع عليهم كثيراً من غنائمه الحربية ، ولما جاءوا إليه شرح لهم ما عرضه على مجلس الشيوخ ، وكيف قابل المجلس هذه العروض ، وذكر لهم أن الأرستقراطية المتعطلة الفاسدة لا تستطيع أن توفر لرومة النظام والعدالة والرخاء ، وسألهم هل يتبعوه ؟ فلم يعارض واحد منهم ، ولما قال لهم إنه ليس لديه مال يؤدى منه أجورهم جاءوا إلى خزائنه بكل ما كان مدخراً لديهم .

وفى اليوم العاشر من شهر يناير من عام ٤٩ ق . عبر بأحد فيالقه الروبيكون وهو مجرى صغير بالقرب من أريمينوم Ariminum كان هو الحد الجنوبى لغالة الجنوبية . ويقال إنه قد نطق فى ذلك الوقت بقوله المأثور : « لقد قضى الأمر » Iacta est alea[٢٧] ، وخيل إلى الناس أن هذا العمل هو الحمق بعينه لأن الفيالق الخمسة الباقية من جيشه كانت لا تزال بعيدة عنه فى بلاد غالة لا تستطيع اللحاق به إلا بعد عدة أسابيع ، على حين أن بمبى كان لديه عشرة فيالق ، أى ستون ألف جندى ، وكان من حقه أن يجند ما يشاء من الفيالق الأخرى ، ولديه من المال ما يكفى لتسليحهم وإطعامهم . وانضم بعدئذ إلى قيصر الفيلق الثانى عشر من فيالقه عند پسينوم Picenum ، والفيلق الثامن عند كورفنيوم Corfinium ، ثم

أنشأ ثلاثة فيالق جديدة من أسرى الحرب ومن المتطوعين ومن أهل البلاد ؛ ولم يكن يلقى صعوبة فى جمع الجنود لأن إيطاليا لم تكن قد نسيت بعد ما قاسته فى الحرب الاجتماعية (٨٨) ، كانت ترى فى قيصر البطل المدافع عن حقوق الإيطاليين ؛ فكانت مدائنها تفتح أبوابها لاستقباله واحدة بعد أخرى ، وكثيراً ما خرج سكان بعض هذه المدائن على بكرة أبيهم ليحيوه ويرحبوا به[٢٨] ، وقد كتب شيشرون فى ذلك يقول : « إن المدن تحييه كأنه إله معبود»[٢٩] ؛ وقاومت كورفنيوم مقاومة قصيرة الأجل ، ثم استسلمت له ولم يسمح لجنوده أن ينهبوها ، وأطلق سراح من قبض عليهم من الضباط ، وبعث إلى معسكر پمپی بكل ما تركه لبيينس Labienus من المال والعتاد . ولم يشأ أن يصادر ضياع من وقع فى يده من الأعداء وإن كان فى ذلك الوقت معدماً فقيراً لا يكاد يملك شيئاً من المال — وكانت هذه خطة حميدة يمتاز بها قيصر ، كان من أثرها أن وقفت كثرة الطبقة الوسطى من الأهلين على الحياد ؛ وأعلن فى ذلك الوقت أنه سيعد كل المحايدين أصدقاء له وأنصاراً . وكان فى كل خطوة يخطوها إلى الأمام يعرض عروضاً للصلح على أعدائه ؛ من ذلك أنه أرسل إلى لنتولس Lentulus رسالة يرجوه فيها أن يستخدم ما يخلعه عليه منصب القنصل من نفوذ ليعيد السلم إلى البلاد ، وعرض فى رسالة كتبها إلى شيشرون استعداده لاعتزال الحياة العامة وترك المجال إلى پمپی على شرط أن يسمح له بأن يعيش آمناً على حياته[٣٠] ، وبذل شيشرون جهده فى التوفيق بين القائدين ، ولكن منطقه لم يجده نفعاً أمام تعسف الثورة ودعاواها المتعارضة[٣١] .

ولما تقدم قيصر نحو العاصمة انسحب پمپی هو وجنوده منها وإن كانت جيوشه وقتئذ لا تزال أكثر من جيوش قيصر عدداً . وانسحب من ورائه فى غير نظام عدد كبير من الأشراف تاركين وراءهم زوجاتهم وأبناءهم تحت رحمة قيصر . ورفض پمپی عروض الصلح جميعها ، وأعلن أنه سيعد كل من

لم يغادر رومة وينضم إلى معسكره عدوًّا له . ولكن الكثرة العظمى من أعضاء مجلس الشيوخ بقيت فى رومة ، وتذبذب شيشرون بين الفريقين ، وكان يحتقر تردد پمپى وخور عزيمته ، فقسم وقته بين ضياعه فى الريف وسار پمپى إلى برنديزيوم وعبر بجنوده البحر الأدرياوى . وكان يعرف أن جيشه يعوزه النظام ، وأنه فى حاجة إلى كثير من التدريب قبل أن يستطيع الصمود فى وجه فيالق قيصر ، وكان يرجو أن يستطيع الأسطول الرومانى الذى يسيطر هو عليه أن يجوّع إيطاليا فى هذه الأثناء ويدفعها إلى إبادة عدوه .

ودخل قيصر رومة فى اليوم السادس عشر من مارس دون أن يلقى فى دخولها أية مقاومة ، دخلها وهو مجرد من السلاح لأنه ترك جنوده فى البلدان المجاورة لها ، وأعلن حين دخولها العفو العام عن جميع أهلها ، وأعاد إليها الإدارة البلدية والنظام الاجتماعى . ودعا التربيونان مجلس الشيوخ إلى الانعقاد وطلب إليه قيصر أن يعيِّنه حاكماً بأمره (دكتاتوراً) ، ولكن المجلس لم يجبه إلى طلبه ، ثم عرض على المجلس أن يبعث رسلا إلى پمپى ليفاوضوه فى عقد الصلح فرفض ذلك أيضاً . فطلب المال من الخزانة العامة فوقف فى سبيله التربيون لوسيوس متلس **Lucius Metellus** فلما قال قيصر إن النطق بعبارات التهديد أصعب عليه من تنفيذها خضع متلس ؛ واستطاع من ذلك الوقت أن يكون حر التصرف فى أموال الدولة ، ولكنه كان نزيهاً كل النزاهة ، فأودع فى الخزانة العامة كل ما غنمه من الأموال فى حروبه الأخيرة . ولما تم له ذلك عاد إلى جنوده واستعد لملاقاة الجيوش الثلاثة التى كان پمپى وأنصاره يعدونها فى بلاد اليونان وأفريقية وأسپانيا ، وأراد أن يضمن لإيطاليا كفايتها من الحبوب التى تعتمد عليها فى حياتها ، فأرسل كوريو **Curio** المتهور العنيف ومعه فيلقان من جيشه ليستولى على صقلية ، فلما نزل فى الجزيرة سلمها إليه كاتو وانسحب منها إلى أفريقية ، فاندفع وراءه كوريو اندفاع رجيولوس **Regulus** ، واشتبك معه فى معركة

لم يكن قد كمل استعداده هو لها ، فهزم وقتل فى ميدان القتال . ولم يندم عند وفاته على ما أصابه بل ندم أشد الندم على ما ألحقه من الأذى بقيصر.

وكان قيصر فى هذه الأثناء قد سار على رأس جيش إلى أسبانيا ، وكان غرضه من هذا الزحف أن يضمن عودتها إلى تصدير الحبوب إلى إيطاليا ، وأن يحول بينها وبين الهجوم على مؤخرته حين يزحف لملاقاة بمبي ، وارتكب فى إيطاليا كما ارتكب فى غالة عدة أغلاط عسكرية فنية[32] ، كانت عاقبتها أن تعرض جيشه - الذى كان أقل من جيش أعدائه عدداً - للهزيمة وللهلاك جوعاً ؛ ولكنه أنجاه وأنجى نفسه ، كمألوف عادته ، بسرعة خاطره وشجاعته[33] ، فقد حوّل مجرى أحد الأنهار واستحال الحصار الذى كان مضروباً عليه حصاراً على أعدائه ، وظل صابراً زمناً طويلا حتى يستسلم له الجيش المحاصر وإن كان جنوده قد ملوا الانتظار وأخذوا يطالبون بالهجوم على العدو . ثم استسلم أنصار بمبي آخر الأمر وخضعت أسبانيا كلها إلى قيصر (أغسطس سنة ٤٩) . وغاد بعدئذ إلى إيطاليا براً ، ولكنه وجد الطريق مغلقاً فى وجهه عند مرسيليا ، وقد وقف أمامه جيش يقوده لوسيوس دمتيوس **Lucius Domitius** وهو القائد الذى أسره فى كورفنيوم ثم أطلق سراحه . واستولى قيصر على المدينة بعد أن حاصرها حصاراً شديداً ، ثم أعاد تنظيم الإدارة فى غالة ، ولم يحلّ شهر ديسمبر حتى عاد ظافراً إلى رومة :

وقوت هذه الحملات مركزه السياسى ، كما طمأنت البطون المتخوفة فى العاصمة على كفايتها من الطعام ، فلم يمانع مجلس الشيوخ وقتئذ فى أن يعينه دكتاتوراً . ولكن قيصر تخلى عن هذا اللقب بعد أن اختير أحد القنصلين فى عام ٤٨ ق . م : ولما وجد أزمة النقد مستحكمة فى إيطاليا ، لأن اختزان النقود قد سبب انخفاض الأثمان ، وأبى المدينون أن يؤدوا بالنقود الغالية ما استدانوه بالنقود الرخيصة - لما وجد هذا أصدر قراراً

يبيح أداء الديون سلعاً يقدر أثمانها محكمون من قبل الحكومة كما كانت تقدر قبل الحرب . وكان يرى أن هذه « خير وسيلة للاحتفاظ بشرف المدينين ولتبديد أو تقليل الخوف الذى كان يساور البعض من أن تلغى هذه الديون إلغاء تاماً ، وهو الإلغاء الذى يحتمل حدوثه فى أعقاب الحروب »(٣٤) .

ومن الشواهد الدالة على بطء سير الإصلاح فى رومة قبل ذلك العهد أنه اضطر مرة أخرى أن يحرم استعباد المدين إذا لم يؤد دينه ، وأنه أباح خصم الفوائد التى دفعت قبل ذلك الوقت من أصل الدين ، وحدد سعر الفائدة بواحد فى المائة كل شهر . وأرضت هـــذه الإجراءات معظم الدائنين لأنهم كانوا يخشون أن تصادر أموالهم ، ولكنها أغضبت المتطرفين الذين كانوا يرجون أن يسير قيصر على خطة كاتلين فيلغى الديون كلها ويعيد توزيع الأراضى على السكان ، ووزع قيصر الحبوب على المعوزين وألغى جميع أحكام النفى ما عدا الحكم الصادر على ميلو ، وعفا عن كل من يعود إلى البلاد من الأشراف . ولكن أحداً لم يحمد له اعتداله ، ذلك أن المحافظين الذين عفا عنهم عادوا يأتمرون به ليقتلوه ، وبينا كان يواجه بمبى فى تساليا Thessaly تخلى عنه المتطرفون وانضموا إلى كثيليوس Caelius بعد أن وعدهم بإلغاء الديون إلغاء تاماً ، وبمصادرة الأملاك الواسعة ، وتوزيع الأراضى على الأهلين توزيعاً جديداً .

وفى أواخر عام ٤٩ انضم قيصر إلى الجنود وإلى الأسطول اللذين جمعهما أنصاره فى برنديزيوم . وكان عبور جيش من الجيوش البحر الأدرياوى شتاء فى تلك الأيام عملا لم يسمع به أحد قط . ولم يكن فى استطاعة الاثنتى عشرة سفينة التى تحت تصرفه أن تقل من جنوده إلا ستين ألفاً فى كل مرة ، وكانت أساطيل بمبى التى تفوقها عدة وعدداً تغدو وتروح بين ثغور الشاطئ المقابل له والجزائر المجاورة لهذا الشاطئ . ولكن قيصر رغم هذا أقلع بجنوده ، ونزل فى إبيروس ومعه عشرون ألفاً منهم . غير أن سفنه تحطمت وهى عائدة إلى إيطاليا . ولم يعرف

قيصر السبب الذى أخر بقية جيشه ، فحاول أن يعبر البحر مرة أخرى فى زورق صغير : وأخذ الملاحون يجدفون والموج يعاكسهم حتى كادوا يغرقون ، ولكن قيصر لم تهن عزيمته رغم ما كان يحيط به من أهوال جسام ، وأخذ يقوّى قلوبهم بهذه العبارة التى لا يبعد أن تكون من نسج خيال المؤلفين :

« لا تخافوا إنكم تحملون قيصر وحظه »[٣٥] ،

ولكن الريح والموج قذفا بالقارب إلى الشاطئ الذى بدأ منه ، واضطر هو أن يعود من حيث أتى .

وكان بمبى فى هذه الأثناء قد استولى بأربعين ألفاً من رجاله على درشيوم Dyrrhachium ومخازنها الغنية ، ولكنه عجز عن مهاجمة جيش قيصر الذى تناقص عدده وقلّت مؤونته ، وكان بمبى فى تلك الأيام قد سمن وابتلى بالتردد وخور العزيمة . وبينا كان هو فى تردده جمع ماركس أنطونيوس أسطولا جديداً حمل عليه ما كان باقياً من جيش قيصر فى إيطاليا .

وبذلك أصبح قيصر متأهباً للقتال ، ولكنه ما زال يكره أن يقاتل الرومانى رومانيا ، فأرسل رسولا إلى بمبى يعرض عليه أن يتخلى القائدان كلاهما عن قيادتيهما ، ولكن بمبى لم يرد عليه(*) ، فهاجمه وأخفق فى هجومه ، غير أن بمبى عجز أن يتبع النصر بمطاردة عدوه . ثم قتل ضباط بمبى جميع من وقع فى أسرهم من أعدائهم الضباط على الرغم من نصيحة قائدهم الأعلى ، أما قيصر فلم يقتل أحداً من أسراه[٣٧] ، وهو عمل رفع من قوة جنوده المعنوية بقدر ما أضعف من قوة جنود بمبى . وطلب رجال قيصر إلى قائدهم أن يعاقبهم على ما أظهروه من الجبن فى حربهم الأولى ضد الفيالق الرومانية ، فلو لم يجبهم إلى ما طلبوه توسلوا إليه

(*) وقيصر هو المرجع الوحيد الذى نعتمد عليه فى أخبار هذه البعثة .

أن يعود بهم إلى ساحة القتال ، ولكنه رأى من الحكمة أن يرتد إلى تساليا ليستريحوا فيها بعض الوقت .

واستقر رأى بمبي وقتئذ على القرار الذى قضى على حياته . فقد أشار عليه أفرانيوس Afranius أن يعود إلى إيطاليا الخالية من وسائل الدفاع ويستولى عليها ؛ ولكن معظم مستشاريه ألحوا عليه أن يطارد قيصر ويقضى عليه . وبالغ الأشراف الذين كانوا فى معسكر بمبي فيما أحرزه من النصر فى درهشيوم وظنوا أن القضية الكبرى قد فصل فيها فى ذلك المكان . وهال شيشرون — وكان قد انضم إليهم آخر الأمر — أن يسمعهم يتنازعون فيما سيعود على كل منهم بعد أن يعودوا إلى ما كانوا فيه ، وأن يرى ما يتقلبون فيه من الترف وهم فى ميدان القتال ، فقد كان الطعام يقدم لهم فى صحاف من الفضة ، وكانت خيامهم مفروشة بالطنافس الوثيرة تزينها الصور الرائعة وطاقات الزهر الجميلة .

وكتب شيشرون فى ذلك يقول :

« وكان البمپيون ، ما عدا بمبي نفسه ، يحاربون بوحشية شديدة ، وينطقون فى أحاديثهم بمبادئ القسوة ، حتى كان الرعب يستولى علىّ إذا ما فكرت فى نصرهم . . . إنهم قوم ليس فيهم ما هو خير إلا قضيتهم . . ؟ لقد كانوا يفترضون أن يعدم أعداؤهم جملة لا أفراداً متفرقين . . . وقدر لنتلس نفسه أن يستولى على بيت هورتنسيوس وعلى حدائق قيصر وپاياني »(٣٨) .

وكان بمبي نفسه أميل إلى التريث وعدم الاشتباك فى معركة فاصلة ، ولكنه اضطر إلى العمل برأى مستشاريه لما أن عيروه بالجبن والخور ، فأصدر أمره بالزحف .

ودارت رحى المعركة الفاصلة فى فارسالس فى اليوم التاسع من شهر أغسطس عام ٤٨ ق.م ، وكانت معركة طاحنة دام فيها القتال حتى نهايتها المريرة ، وكان

جيش پمپي يتألف من ثمانية وأربعين ألفاً من المشاة ، وسبعة آلاف من الفرسان ؛ أما جيش قيصر فلم يكن يزيد على اثنين وعشرين ألفاً من المشاة ، وألف من الفرسان . ويقول أفلوطرخس تعليقاً على هذا الموقف .

« وكان عدد قليل من أنبل رجال رومة يشاهدون المعركة عن كثب ... ويفكرون فيما صارت إليه الإمبراطورية بسبب المطامع الشخصية ... لقد التقت فى هذا المكان زهرة شباب المدينة الواحدة وعماد قوتها فى صراع عنيف ، وحسبنا هذا برهاناً قاطعاً على ما فى الطبيعة البشرية من عمى وجنون إذا ما أثيرت شهواتها »[40] .

لقد كان أقرب الأقارب ، بل كان الإخوة أنفسهم ، يقاتل بعضهم بعضاً فى الجيشين المتعاديين . وقد أمر قيصر رجاله أن يبقوا على حياة كل من يستسلم من الرومان ، أما الشباب الأرستقراطي ماركس بروتس فقد أمرهم قيصر أن يقبضوا عليه دون أن يصيبوه بأذى ، فإذا لم يجدوا سبيلا إلى هذا فليسمحوا له بالفرار[41] . وروع البمپيون لتفوق أعدائهم القيادة ، والتدريب ، والقوة المعنوية . وقُتل منهم وجُرح خمسة عشر ألفاً ، واستسلم عشرون ألفاً ، وولى الباقون الأدبار . ونزع پمپي شارة القيادة عن ملابسه ، وفر مع من فروا من رجاله . ويخبرنا قيصر أنه لم يفقد من رجاله إلا مائتين[42] — وهو قول يحملنا على الشك فى كتبه كلها . وأخذ رجاله يتندرون بما فى خيام أعدائهم من وسائل الزينة ، وبما وجدوه فيها من الموائد المثقلة بالطعام الشهى الذى أعد لساعة الاحتفال بالنصر . وأكل قيصر عشاء پمپي فى خيمة پمپي نفسه .

وسار پمپي على ظهر جواده الليل كله حتى وصل إلى لارسا Larissa ، وركب منها سفينة أقلته إلى الإسكندرية ، وعرج فى طريقه على متلينى Mytilene حيث انضمت إليه زوجته ، وطلب إليه سكانها أن يقيم معهم ، ولكنه رفض طلبهم فى أدب ومجاملة ، ونصحهم أن يستسلموا للفاتح فى غير

خوف لأن « قيصر » على حد قوله « رجل عامر القلب بالصلاح والرحمة »(٤٣) ، وفر بروتس أيضاً إلى لارسا ، ولكنه أطال المكث فيها ووجه منها رسالة إلى قيصر . وأبدى القائد المنتصر أشد الاغتباط حين سمع أن بروتس ، حي يرزق ، وعفا عنه من فوره ، كما عفا عن كاسيوس استجابة لرغبة بروتس . وكان كذلك ليناً فى معاملة أمم الشرق التى أيدت بمبي مدفوعة إلى ذلك بمشيئة الطبقات العليا المسيطرة عليها . ووزع ما جمعه بمبي من الحبوب على سكان بلاد اليونان الجياع ، ولما جاءه الأثينيون يطلبون إليه أن يعفو عنهم ، أجابهم وعلى شفتيه ابتسامة اللوم بقوله : « إلى متى ينجيكم مجد آبائكم الأولين من موارد الهلاك التى توردونها أنفسكم ؟ »(٤٤) .

وأكبر الظن أن بعضهم قد حذر قيصر من أن بمبي يفكر فى معاودة القتال معتمداً على جيش مصر ومواردها ، وعلى القوة التى كان كاتو ولبينس Labienus ومتلس سپيو يعدونها فى يتكا Utica . ولكن حدث بعد أن وصل بمبي إلى الإسكندرية أن أمر پوثينس Pothinus خصى الشاب بطليموس الثانى عشر ووزيره خدمه أن يقتلوه ، ولعله فعل ما فعل رجاء أن يكافئه عليه قيصر . فقد طعن القائد طعنة نجلاء حين وطئت قدماه شاطئ مصر ، بينا كانت زوجته تنظر إليه فى هلع وهى على ظهر السفينة التى أقلتهما إلى تلك البلاد . فلما جاء قيصر أهدى إليه رجال پوثينس رأس القائد الذى فصل عن جسده ، فولى وجهه عنهم فى هلع ، وأخذ يبكى من فرط تأثره بهذا الشاهد الجديد على أن الناس كلهم يلقون مصيراً واحداً ، وإن اختلفت الوسائل المؤدية إلى هذا المصير . ونزل قيصر فى قصر البطالمة الملكى وشرع ينظم شئون تلك المملكة القديمة .

الفصل السابع

قيصر وكليوبطرة

وأخذت مصر بعد وفاة بطليموس السادس (١٤٥) تسير مسرعة فى طريق الاضمحلال وعجز ملوكها عن الاحتفاظ بنظامها الاجتماعى أو حريتها القومية ؛ وأخذ مجلس الشيوخ الرومانى يقوى فيها سلطانه ويملى عليها إرادته ، بل إنه أقام حامية رومانية فى الإسكندرية . وكانت مقاليد الحكم قد آلت بعد وفاة بطليموس الحادى عشر الذى أجلسه پمپى وجابليوس على العرش إلى ابنه بطليموس الثانى عشر وابنته كليوبطرة ، وذلك لأن والدهما قد أوصى قبل وفاته أن يرثا الملك من بعده ، وأن يتزوج الأخ أخته ويشتركا فى حكم البلاد معاً .

وكانت كليوبطرة من أصل يونانى مقدونى ، وأكبر الظن أنها كانت أقرب إلى الشقرة منها إلى السمرة[٤٥] ، ولم تكن بارعة الجمال ولكن قوامها الرشيق المعتدل ؛ وخفة روحها ، وتنوع ثقافتها ، ودماثة خلقها ، وحسن صوتها ، مضافة إلى مقامها الملكى قد جعلتها فتنة لكل من رآها تسلبه لبه وإن كان قائداً رومانياً . وكانت على علم بتاريخ اليونان وآدابهم وفلسفتهم ، تجيد الحديث باللغات اليونانية والمصرية والسورية ، ويقال إنها كانت تتقن لغات أخرى غير هذه . وقد جمعت إلى فتنة أسپازيا الذهنية فتنة المرأة المتحللة إلى أقصى حد من القيود الخلقية . ويقال إنها ألفت رسالة فى مستحضرات التجميل ، وأخرى فى المقاييس والموازين والنقود المصرية ، وموضوع الرسالة الثانية موضوع مغر جذاب[٤٦] . وكانت إلى هذا حاكمة قديرة وإدارية ماهرة ، نجحت فى نشر التجارة المصرية ، وارتقت على يديها الصناعة ؛ وكانت تجيد تدبير الشئون المالية حتى فى الوقت الذى كانت تنصب فيه شراك الحب . وقد جمعت إلى هذه الصفات شهوة جسدية قوية ، ووحشية

عنيفة تصب على أعدائها العذاب والموت صباً ، ومطامع سياسية بعيدة ، تحلم ببناء إمبراطورية واسعة ، ولا تحترم فى سبيل الوصول إلى غايتها قانوناً إلا قانون النجاح . ولو أنها لم يجر فى عروقها دم البطالمة المتأخرين الداعرين لكان من الجائز أن تحقق غرضها وتصبح ملكة تحكم دولة واسعة الرقعة تضم بلاد البحر الأبيض المتوسط . وكانت تدرك أن مصر لم تعد قادرة على البقاء مستقلة عن الدولة الرومانية ، ولم تر ما يمنعها أن تكون هى المسيطرة على الدولة المتحدة .

وقد استاء قيصر حين عرف أن پوثينس نفى كليوبطرة ، ونصب نفسه نائباً عن بطليموس الشاب يحكم البلاد باسمه ، ولذلك أرسل إليها سراً ، وجاءته سرا وقد احتالت على الوصول إليه بأن أخفت نفسها فى فراش حمله تابعها أپولودورس Apollodorus إلى مسكن قيصر . وذهل القائد الرومانى حين رآها ، وأسرته بشجاعتها وسرعة بديهتها ، وهو الذى لم يدع انتصاراته فى ميدان القتال تربى على انتصاراته فى ميادين الحب . ووفق بينها وبين بطليموس وأجلسها هى وأخاها على عرش مصر كما كانا من قبل . وعرف قيصر من أخيه أن پوثينس هو والقائد المصرى أخلاس Achillas كانا يأتمران به ليقتلاه ويبيدا القوة العسكرية الصغيرة التى جاءت معه إلى مصر ، فدبر فى الخفاء اغتيال پوثينس ، وفر أخلاس ، واتصل بالجيش المصرى ، وحرضه على الثورة . وسرعان ما امتلأت الإسكندرية بالجنود ينادون بالويل والثبور لقيصر ، ويحرض ضباط الحامية الرومانية التى وضعها مجلس الشيوخ فى تلك المدينة على الانضمام إلى الجيش الثائر ضد هذا الدخيل الخائن الذى سولت له نفسه أن يقرر وراثة عرش البطالمة ، وأن يعمل على أن يولد من صلبه من يرث هذا العرش فى المستقبل .

وعمل قيصر فى هذا الظرف الحرج ما كانت تسعفه به سعة حيلته ، فأحال القصر الملكى والملهى المجاور له إلى قلعتين تحصن فيهما هو ورجاله . ثم أرسل يطلب المدد من آسية الصغرى وسوريا ورودس . ولما أدرك أن أسطوله الضعيف

الذى لم يكن فيه من يحميه لن يلبث أن يقع فى يد أعدائه ، أمر به فحرق والتهمت النار جزءاً من مكتبة الإسكندرية لا نعرفه على وجه التحديد ورأى أن لا بد له من الاستيلاء على جزيرة فاروس لأنها هى المدخل الذى يمكن أن يصل إليه منه المدد المنتظر ، فهاجمها هجوم اليائس ، واستولى عليها ، ثم جلا عنها ، ثم عاد فاستولى عليها ؛ وحدث فى إحدى هذه المعارك أن اضطر إلى السباحة فى البحر لينجو من الموت بعد أن صوبت إليه عاصفة من السهام ، وذلك حين قذف المصريون به وبأربعمائة من رجاله إلى البحر بعيداً عن الحاجز الذى كان يصل الجزيرة بأرض المدينة . وظن بطليموس الثانى عشر أن الثوار قد حالفهم النصر ، فخرج من القصر وانضم إليهم واختفى من التاريخ ؛ ولما جاء المدد إلى قيصر هزم به المصريين وحامية مجلس الشيوخ فى معركة النيل ، وكافأ كليوبطرة على إخلاصها له فى هذه الأزمة بأن عين أخاها الأصغر بطليموس الثالث عشر ملكاً معها على مصر ، فجعلها بذلك حاكمة البلاد الحقيقية .

ويصعب علينا أن ندرك السر فى بقاء قيصر تسعة أشهر فى الإسكندرية ، والجيوش تجيش لقتاله فى يتكا Utica ، وروما فى أشد الحاجة إلى يده الصناع ، لأن كثيليوس Caelius وميلو ينفخان فيها نار الثورة عليه . فلعله كان يحس بأنه جدير ببعض الراحة واللهو بعد حروب دامت عشر سنين ؛ وفى هذا يقول سيوتونيوس Suetonius إنه كثيراً ما كان يقضى الليل كله حتى مطلع الفجر يلهو مع كليوبطرة ، وكان بوده أن يسير معها فى قاربها من أقصى مصر إلى أقصاها حتى يصلا إلى بلاد الحبشة لولا أن هددة جنوده بالخروج عليه »(٤٧) ، لأن كل واحد منهم لم يجد له فتاة لعوباً ؛ أو لعل شهامته قد أجبرته على أن ينتظر حتى تفيق كليوبطرة من آلام الوضع ، فقد وضعت طفلا فى عام ٤٧ ق . م سمى قيصريون Caesarion ، ويقول ماركس أنطونيوس إن قيصر اعترف بأنه ولده(٤٨) . ولا يبعد أن تكون قد أسرت إليه تلك الفكرة الجميلة فكرة أن يكون ملكاً

ويتزوجها فيجتمع بذلك عالم البحر الأبيض المتوسط تحت فراش واحد ؟

ذلك كله ظن وهو إلى ذلك إثم ؛ فليس ثمة ما يؤده إلا ما نستخلصه من الشواهد والقرائن المفصلة . وما من شك فى أنه عاد إلى نشاطه حين عرف أن فرناسس Pharnaces بن مثرداتس قد استولى مرة أخرى على بنتس Pontus وأرمينية الصغرى ، وأنه أخذ يدعو بلاد الشرق إلى الثورة من جديد على رومة المنقسمة على نفسها . ووضحت فى ذلك الوقت حكمته فى « تهدئة » أسبانيا وغالة قبل لقائه بمبى ؛ فلو أن الغرب ثار عليه وقت أن ثار الشرق لكان من المرجح أن تتصدع أركان الدولة وأن يزحف « البرابرة » نحو الجنوب ، وألا تشهد رومة قط عصر أغسطس . لكن قيصر حال دون ذلك كله ؛ فقد بدأ بإصلاح أمر فيالقه الثلاثة ، ثم غادر مصر فى شهر يونية من عام ٤٧ ق . م ، وسار بسرعته المعتادة على طول شواطئ مصر وسوريا وآسية الصغرى إلى بلاد بنتس وهزم فرناسس فى واقعة زيلا Ziela (٢ أغسطس) ، وبعث من ميدان القتال إلى صديق له بهذا الخبر القصير البليغ : « جئت ، ورأيت ، وهزمت » veni, vidi, vici [٤٩]

وقابله شيشرون عند تارنتم (٢٦ سبتمبر) ، وطلب إليه أن يعفو عنه وعن غيره من المحافظين ، فأجابه إلى ما طلب وأظهر له الرضا والود ؛ وهاله بعد أن عاد إلى رومة أن الحرب الأهلية قد استحالت فى العشرين شهراً التى قضاها بعيداً عنها إلى ثورة اجتماعية ، وأن دلابلا Dolabella زوج ابنـــة شيشرون انضم بقوته إلى كثيليوس وعرض على الجمعية مشروع قانون بإلغاء جميع الديون ، وأن أنطونيوس أطلق جنوده على صعاليك دلابلا المسلحين ، وأن ثمانمائة من الرومان قتلوا فى السوق العامة . وكان كثيليوس قد استخدم سلطته وهو بريتور Praetor فأعاد ميلو إلى رومة ، ونظما معاً جيشاً فى جنوبى إيطاليا ، وطلبا إلى الأرقاء أن ينضموا إليهما فى ثورة جائحة على النظام القائم . ولم يلقيا فى هذه الثورة إلا قليلا من النجاح ، ولكن روح الثورة كانت قد أشربت بها جميع النفوس ، فكان المتطرفون فى رومة

يحتفلون بذكرى كاتلين وينثرون الأزهار مرة أخرى على قبره : وكان جيش پمپي في أفريقية قد ازداد عدده حتى أضحى في قوة الجيش الذي هزم في فرسالس . وكان سكستس Sextus بن پمپي قد أنشأ في أسبانيا جيشاً جديداً ، وتعرضت إيطاليا مرة أخرى لخطر انقطاع الحبوب عنها : تلك هي الأحوال التي كانت قائمة في شهر أكتوبر من عام ٤٧ حين عاد قيصر إلى رومة وإلى زوجته كلپيرنيا Calpurnia ومعه كليوبطرة وأخوها – زوجها الغلام وقيصريون .

وشرع في الأشهر القليلة التي أتيحت له بين الحروب يعيد النظام إلى رومة . ولما عين حاكما بأمره من جديد استرضى المتطرفين إلى حين بإلغاء القانون الأخير من قوانين صلا ، وألغى في رومة كل ما قل عن ألفي سسترس من أجر الأراضي . وحاول في الوقت نفسه أن يهدئ مخاوف المحافظين فعين ماركس بروتس حاكما على بلاد غالة الجنوبية . وأكد لشيشرون وأتكس أنه لن يثير حرباً على نظام الملكية ، وأمر بإعادة تماثيل صلا التي حطمها الرعاع . ولما وجه أفكاره نحو پمپي وأنصاره ساءه وثبط من همته أن يسمع أن أكثر جنوده ولاء له قد ثاروا عليه ، لأنهم لم يتسلموا مرتباتهم من زمن بعيد وأنهم يرفضون الإبحار إلى أفريقية . وكانت خزائن الدولة وقتئذ خاوية أو شبه خاوية ، فجمع ما يحتاجه من المال بمصادرة أموال الأشراف الذين خرجوا عليه وبيعها . ولما سئل في ذلك قال إنه قد تعلم أن الجند يعتمدون على المال ، وأن المال يعتمد على القوة ، والقوة تعتمد على الجند . ثم ظهر فجاءة بين الجنود المتمردين ، وجمعهم حوله وقال لهم في هدوء إنه قد سرحهم ، وإن في مقدورهم أن يعودوا إلى منازلهم ، وإنه سيؤدى إليهم كل ما تأخر من رواتبهم بعد أن يتم له النصر في أفريقية على يد « غيرهم من الجنود » .

ويقول أپيان إنهم « لما سمعوا هذا القول استولى عليهم الخجل جميعاً لأنهم تخلوا عن قائدهم في الساعة التي يحيط به العدو من كل جانب . . . فصاحوا بأنهم نادمون على خروجهم عليه ، وتوسلوا إليه أن يحتفظ بهم في خدمته »(٥١) فأجابهم إلى ما طلبوا في إباء ساحر ، وأبحر بهم إلى أفريقية .

والتقى فى اليوم السادس من شهر إبريل سنة ٤٦ ق . م بقوى متلس سپيو Metellus Scipio فى ثبسوس وكاتو ولبيلس Labienus وجوبا الأول Juba I ملك نوميديا مجتمعة . وخسر المعركة الأولى فى هذه المرة أيضاً ، ولكنه فعل ما فعله من قبل ، فأعاد تنظيم صفوفه وهجم بها على عدوه وانتصر عليه . ولامه جنوده المتعطشون للدماء على ما أظهره من رأفة بأعدائه فى فرسالس ، واعتقدوا أنه لولا هذه الرحمة لما اضطروا إلى قتال هؤلاء الأعداء مرة أخرى ، ولذلك قتلوا من جنود سپيو الثمانين ألفاً نحو عشرة آلاف ولم تأخذهم بهم رأفة ، لأنهم لم يريدوا أن يلتقوا بهؤلاء الجنود مرة أخرى فى ميدان القتال . وانتحر جوبا وفر سپيو ومات فى مناوشة بحرية ، وهرب كاتو ومعه سرية من جنوده إلى يُتِيكا .

ولما اقتفى قيصر أثره وأراد الضباط أن يصدوه عن المدينة ، أقنعهم كاتو بأنه لا جدوى من عملهم هذا ، وأعد المال لمن أرادوا القتال ، ولكنه أشار على ابنه بالاستسلام لقيصر . أما هو نفسه فقد رفض كلتا الخطتين ، وقضى السهرة فى بحوث فلسفية ، ثم آوى إلى حجرة نومه ، وقضى شطراً من الليل يقرأ فيدون Phaedo لأفلاطون . وأيقن أصدقاؤه أنه سيقتل نفسه فأخذوا سيفه من جانبه . فلما غفلت عنه أعينهم أمر خادمه أن يأتيه بالسيف ، وتظاهر بالنوم ساعة من الليل ، ثم قام فجاءة وأمسك بسيفه وبقر به بطنه ؛ وهرول إليه أصدقاؤه ، وأعاد الطبيب أحشاءه إلى بطنه ، وخاط الجرح ، وضمده ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون من الحجرة حتى رفع كاتو الضمادات عن الجرح وأعاد فتحه وأخرج منه أحشاءه ، وقضى نحبه .

ولما جاء قيصر كان أشد ما أحزنه أنه لم تتح له الفرصة للعفو عن كاتو ، وأن كل ما يستطيع أن يفعله أن يعفو عن ولده .

وشيع أهل يُتِيكا الرواقى المنتحر فى مشهد حافل كأنهم يعرفون أنهم يدفنون معه جمهورية كادت تبلغ من العمر خمسة قرون .

الفصل الثامن

قيصر الحاكم

عاد قيصر إلى رومة فى خريف عام ٤٦ بعد أن نصب سلست والياً على نوميديا ، وأعاد تنظيم ولايات أفريقية ، وأوجس مجلس الشيوخ خيفة من هذه العودة ، وأدرك أن البلاد مقبلة على الحكم الملكى المطلق ، فاختاره حاكما بأمره مدة عشر سنوات . واحتفلت رومة بعودته احتفالا لم تشهد له مثيلا من قبل ، وكافأ قيصر كل جندى من جنوده بخمسة آلاف درخمة أتيكية (حوالى ثلاثة آلاف ريال أمريكى) ، أي أكثر كثيراً مما كان قد وعدهم به ، وأولم وليمة كبرى للمواطنين الرومان احتوت على اثنين وعشرين ألف مائدة . وأعد لتسليتهم معركة بحرية صورية ، اشترك فيها عشرة آلاف رجل . ثم غادر رومة إلى أسپانيا فى أوائل عام ٤٥ وهزم آخر جيش من جيوش پمپى عند مندا Munda .

ولما عاد إلى رومة فى شهر أكتوبر وجد إيطاليا كلها تسودها الفوضى . ذلك أن الحكم الألجركى الفاسد ، والثورات التى دامت مائة عام كاملة ، قد أشاعا الاضطراب والفوضى فى الأعمال الزراعية والصناعية والمالية والتجارية . أضف إلى هذا أن استنزاف موارد الولايات ، وحبس رؤوس الأموال ، وزعزعة أركان الاستثمار ، أدت كلها إلى اضطراب سوق المال . هذا إلى أن آلاف الضياع قد حل بها الخراب ، لأن مائة ألف من الرجال سيقوا من الأعمال المنتجة إلى ميادين القتال ، وأن آلافاً مؤلفة من الزراع أرغمتهم منافسة الحبوب المستوردة من خارج البلاد أو التى تنتجها الضياع الكبرى التى يعمل فيها العبيد على الانضمام إلى صعاليك المدن والاستماع وبطونهم خاوية إلى الوعود التى يمنيهم بها الزعماء المهرجون . وأخذ من أبقت عليهم رحمة قيصر من الأشراف

يأتمرون به فى قصورهم ونواديهم ، ولما أن طلب إليهم فى مجلس الشيوخ أن يعترفوا بضرورة الدكتاتورية ويعاونوه على أن يعيد النظام إلى البلاد ويأسو جراحها ، سخروا مما يعرضه عليهم هذا المغتصب .وبسطوا ألسنتهم فى استضافته لكليوبطرة فى رومة ، وأخذوا يشيعون سراً أنه يعيد العدة ليكون ملكا ، ولينقل عاصمة الدولة إلى الإسكندرية أو إلى اليوم Ilium .

ومن أجل ذلك شرع قيصر ، وقد أدركته الشيخوخة ولما يتجاوز بعد الخامسة والخمسين من عمره ، يعمل بهمة الرومان الأصيل ليحيي موات الدولة الرومانية . وكان يعلم أن انتصاراته لن تكون لها قيمة إن لم يكن فى مقدوره أن يشيد فى مكان الحطام التى أزالها صرحا أحسن منها وأثبت دعامة . ولما أن مد أجل دكتاتوريته فى عام ٤٤ من عشر سنين إلى دكتاتورية تدوم مدى الحياة لم ير فرقا كبيراً بين الحالين ، وإن لم يكن قد أدرك فى ذلك الوقت أن أجله لن يطول أكثر من خمسة شهور .

وأخذ مجلس الشيوخ يتملقه وحباه بكل ما يستطيع من ألقاب التعظيم ، ولعله كان يهدف بذلك إلى أن يشيع كراهيته فى قلوب الشعب الذى كان يبغض الملكية ولا يطيق حتى اسم الملك . وأجاز له المجلس أن يلبس إكليل الغار الذى كان يوارى به صلعته ، وأن يحمل حتى فى وقت السلم رمز سلطات الإمبراطور imperator . وبفضل هذه السلطات كان يسيطر على خزائن المال ، كما كان منصب الحبر الأكبر Pontifex Maximus يمكن من السيطرة على الشئون الدينية فى البلاد ، وكان له ، بوصفه قنصلا ، أن يقترح القوانين وينفذها ، وبوصفه تريبونا كانت ذاته مصونة لا تمس ، وبوصفه رقيبا كان له أن يعيّن أعضاء مجلس الشيوخ ويسقطهم . واحتفظت الجمعيات بحقها فى الاقتراع على القوانين المعروضة عليها ، ولكن دلابلا وأنطونيوس رجلى قيصر كانا يسيطران عليهـا ، وكانت توافق عادة على سياسته . وكان هو من ناحيته يجتهد فى أن يقيم

دكتاتوريته على محبة الشعب له ورضائهم عنه. شأنه فى هذا شأن غيره من الطغاة الحاكمين

وأنزل مجلس الشيوخ حتى صار أشبه شىء بمجلس استشارى له ، ورفع عدد أعضائه من ستمائة عضو إلى تسعمائة ، وكان يجدده على الدوام باستبدال أربعمائة عضو جديد بمثل عددهم من أعضائه السابقين : وكان كثيرون من هؤلاء الأعضاء الجـــدد من رجال الأعمال ، وكثيرون منهم من المواطنين البارزين فى المدن الإيطالية أو مدن الولايات الرومانية ، ومنهم من كانوا من أعضاء المئين أو الجنود أو أبناء العبيـــد : وارتاع الأشراف حين رأوا زعماء غالة المغلوبة يدخلون مجلس الشيوخ وينضمون إلى حكام الإمبراطورية ، بل إن الماجنين من أهل العاصمة قد ساءهم هذا التصرف ونشروا فى طول المدينة وعرضها مقطوعة شعرية يقولون فيها « إن قيصر يقود الغاليين فى موكب نصره ، ثم يدخلهم مجلس الشيوخ ؛ لقد خلع الغاليون سراويلهم القصيرة ولبسوا المئزر العريض الأطراف » الذى يلبسه الشيوخ(٥٢) :

ولعل قيصر قد تعمد أن يجعل المجلس الجديد هيئة ضخمة عاجزة عن المداولة الجدية المنتجة أو المقاومة الموحدة : ولذلك اختار طائفة من طائفة من أصدقائه هم بلبس Balbus ، وأپيوس Oppius ، وماتيوس Matius وغيرهم ، ليتخذ منهم وزراء له غير رسميين ينفذون سياسته ؛ وأدخل النظام البيروقراطى فى الدولة بأن وضع الشئون الكتابية فى دولاب الحكومة ودقائق الأعمال الإدارية فى أيدى من كان فى بيته من المحرَّرين والرقيق . وسمح للجمعية أن تختار نصف كبار الحكام فى المدينة ، واختار هو النصف الباقى بطريق التوصية ، وكانت الجمعية تأخذ بهذه التوصيات على الدوام . وكان من حقه ، بوصفه تربيونا ، أن يعترض على قرارات غيره من التربيونين والقناصل ويبطلها ، ورفع عدد البريتوريين Praetors إلى ستة عشر ، والكوسترين Quaestors إلى أربعـــين لينجز بهذا

أعمال البلدية والأعمال القضائية ، وراقب بنفسه شئون المدينة كلها على اختلاف أنواعها ، وقضى على كل ما كان فيها من عجز وفساد وإتلاف ، ونص فى جميع العهود التى منحها للمدينة على الأوامر الصريحة والعقوبات الشديدة التى يتعرض لها كل من يحاول إفساد الانتخابات أو الوظائف العامة . وأراد أن يقضى على السُّنة القديمة سُنّة السيطرة على الشئون السياسية بابتياع أصوات الناخبين جملة . ولعله أراد أيضاً أن يحصن نفسه من ثورة الرعاع ، فألغى الاتحادات والنقابات ولم يبق منها إلا ما كان ذا أصل قديم ، وإلا الجماعات اليهودية ذات الأغراض الدينية الخالصة ؛ وقصر وظائف المحلفين على الطبقتين العليين واحتفظ لنفسه بحق النظر فى أهم القضايا وأخطرها شأناً ، وكثيراً ما كان يجلس للقضاء بنفسه ، وليس ثمة من ينكر ما تتصف به أحكامه من حكمة ونزاهة . وقد اقترح على المشترعين فى أيامه أن يجمعوا القوانين الرومانية المعمول بها وقتئذ فى كتاب واحد منظم ، ولكن موته العاجل حال دون إتمام هذا المشروع .

ثم سار على خطة ابنى جراكس ، فوزع الأرض على جنوده القدامى وعلى الفقراء ، وسار أغسطس نفسه على هذه السياسة ، فهدأت الاضطرابات بين الزراع كثيراً من السنين . وأراد أن يمنع عودة الملكية الزراعية إلى التركز فحرّم بيع الأراضى الجديدة قبل مضىّ عشرين عاما ، كما أمر أن يكون ثلث العمال فى المزارع من الأحرار ، وذلك لكى يحول دون استغلال الأراضى كلها على أيدى الأرقاء . وكان من قبل قد أنقص عدد الرعاع المتعطلين فى المدينة بمن جنده منهم فى الجيش ، وبإقطاعهم الأرض الزراعية بعد تسريحهم . ثم أنقص عددهم مرة أخرى بأن أرسل ثمانين ألفا من المواطنين ليستعمروا قرطاجنة وكورنثة وأشبيلية وأرليس وغيرها من المراكز . ولم يكتف بهذا بل أراد أن يضمن العمل للباقين من المتعطلين فوضع برنامجاً ضخماً للبناء رصد له ١٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس . من ذلك أنه أمر بإنشاء بناء جديد فى ميدان المريخ لاجتماع الجمعيات ، وإضافة مبنى

جديد للسوق العامة يدعى سوق أبوليوم لتخفيف الزحام عن السوق القديمة ؛ ثم جمل كثيراً من المدن فى إيطاليا وأسبانيا وغالة وبلاد اليونان ؛

وبعد أن خفف أعباء الفقر بهذه الوسائل أراد أن يعرف أثرها فى الناس ، فطلب إلى من شاء من الفقراء أن يتقدم إلى الدولة بالحصول على إعانات من الحبوب ، فوجد أن عدد الطالبين قد نقص على الفور من ٣٢٠,٠٠٠ إلى ١٥٠,٠٠٠ .

وقد ظل حتى ذلك الوقت نصيراً للعامة ، يهدف إلى إسعادهم فى جميع ما وضعه من المشروعات . ولكنه كان يعلم أن الثورة الرومانية ثروة زراعية أكثر منها صناعية ، وأنها موجهة فى الغالب إلى طبقة الأشراف التى تسخر لخدمتها الأرقاء ، ثم إلى المرابين ، وأنها لم يوجه إلا القليل منها لرجال الأعمال . فواصل خطة ابنى جراكس الزراعية ، ودعا رجال الأعمال إلى تأييد الثورة الزراعية والمالية .

وكان شيشرون قد حاول أن يعقد حلفاً بين الطبقات الوسطى والأشراف ، أما قيصر فحاول أن يؤلف بين أولئك وبين العامة ، وأمده بالمال كثيرون من المموِّلين على اختلاف درجاتهم من كراسس إلى بلبس ، كما أمد الكثيرون من أمثالهم بالمال الثورتين الأمريكية والفرنسية . ولكن قيصر رغم هذه المعونة قضى على مصدر من أكبر مصادر الاستغلال المالى والربح غير المشرع — وهو جباية الضرائب فى الولايات على أيدى جماعات الملتزمين . ثم خفض الديون بدرجات متفاوتة ، وسن قوانين صارمة لتحريم الربا الفاحش . وأسعف العاجزين عجزاً شديداً عن الوفاء بديونهم بوضع قانون للإفلاس لا يختلف فى جوهره عن القانون المعمول به فى هذه الأيام ؛ وأعاد إلى العملة استقرارها بجعل الذهب أساساً لها ، وبصك قطعة ذهبية تدعى أوريوس Aureus كانت تساوى فى قوتها الشرائية الجنيه الاسترلينى فى القرن التاسع عشر ، وكانت صورته تطبع على النقود

الحكومة وتزيّن برسوم لم تعرفها رومة من قبل :

وقد نظمت الإدارة المشرفة على مالية الدولة تنظيما جديداً ، وطعمت بكفايات جديدة كانت نتيجتها أن وجد فى خزائنها حين قتل قيصر ٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠٠ سسترس ، وفى خزينته الخاصة ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠٠

وأراد أن يقيم نظام الضرائب والإدارة على أساس علمى سليم ، فأجرى إحصاء عاما فى إيطاليا وأعد العدة لإحصاء عام مثله فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، ثم أراد أن يعوّض النقص الكبير الذى أحدثته الحروب فى عدد المواطنين الرومان ، فتوسع إلى أقصى حد فى منح حق المواطنية الرومانية — وكان ممن شملهم هذا الحق الأطباق والمعلمون فى رومة . وكان النقص المطرد فى المواليد قد أقضّ من قبل مضجعه ، فقرر فى عام ٥٩ ق . م أن تكون الأولوية فى امتلاك الأراضى التى توزعها الحكومة لآباء الثلاثة الأبناء . والآن قرر منح مكافآت للأسر الكبيرة ، وحرم على من ليست لهن أبناء من النساء أن يركبن المحفات أو يتحلين بالجواهر — وكان هذا التشريع أضعف تشريعاته كلها وأقلّها نفعاً .

وظل قيصر كما كان رجلا لا أدريا وإن لم يكن عقله بعيداً كل البعد عن الخرافات(٥٣) . ولكنه بقى الرئيس الأعلى لدين الدولة ولم يبخل على هذا الدين بما يحتاجه من الأموال ، فأعاد بناء الهياكل القديمة وأنشأ هياكل أخرى جديدة . وكانت فينوس أمه الحنون تلقى منه أعظم ضروب التكريم ، لكنه مع هذا كان يطلق للناس كامل الحرية فى الفكر والعبادة ، وألغى ما كان قد صدر من الأوامر بتحريم عبادة إيزيس ، ومنع التعرض لليهود فى ممارسة شعائر دينهم . ولما رأى أن تقويم الكهنة لم يعد يتفق مطلقاً مع فصول السنة أمر سوسجينس Sosigenes العالم اليونانى الإسكندرى السنة من ذلك الحين تشتمل على ٣٦٥ يوماً ، يضاف إليها يوم فى آخر شهر فبراير كل أربع سنين . وأخذ شيشرون يشكو من هذا

التغيير ويقول إن قيصر لم يقنع بحكم الأرض فتطاول إن تنظيم النجوم والتحكم فى شئونها ، ولكن مجلس الشيوخ قبل هذا الإصلاح أحسن قبول ، وأطلق اسم يوليوس وهو اسم أسرة قيصر على شهر كونكتيلس Quinctilis (الشهر الخامس) وكان هذا الشهر هو الشهر الخامس حين كان شهر مارس بداية العام :

ولم تكن الأعمال التى شرع فيها قيصر أو فكر فيها ووقفت بسبب قتله أقل شأناً من الأعمال التى تمت فعلا . ومن هذه الأعمال الأولى أنه وضع أساس ملهى عظيم ، ومعبد للمريخ يتفق وما عرف عن هذا الإله من شره ونهم ، وعين ثارو على رأس هيئة تعمل لإنشاء دور كتب عامة . وعمل على إنقاذ رومة من وطأة الملاريا بتجفيف بحيرة فوسينس Fucinus ومنافع پنتين Pontine ، واستصلاح الأراضى المجففة وزرعها . وأشار ببناء جسور حول التيبر ليمنع طغيان مياهه على الأرض المجاورة له ، واقترح تحويل مجرى هذا النهر لإصلاح ميناء أستيا Ostia الذى كان غرين النهر يسده من آن إلى آن . وأمر مهندسيه بأن يعدوا مشروعاً يرمى إلى إنشاء طريق يخترق وسط إيطاليا من الشرق إلى الغرب وإلى حفر قناة فى برزخ كورنثة Corinth .

وكان أشد ما أغضب أهل رومة من أعماله أن منح أحرار الإيطاليين كلهم ما لأهل رومة نفسها من حقوق ، وأن سوى بين الولايات وبين إيطاليا . ذلك أنه منح حق الانتخاب لأهل غالة الجنوبية فى عام ٤٩ ، ثم وضع فى عام ٤٤ ميثاقاً يدل ظاهره على أنه لجميع مدن إيطاليا وأنه يسوى بين هذه المدن وبين رومة ، ولكن أكبر الظن أنه كان يفكر فى إقامة حكومة نيابية من نوع ما تجعل لهذه المدن نصيباً دمقراطياً فى حكومته الملكية(٥٥) . ثم انتزع حق تعيين الولاة من مجلس الشيوخ المرتشى الفاسد ، ورشح هو لهذه المناصب رجالا عرفوا بالمقدرة والكفاية ، وجعلهم فى كل آن عرضة للعزل بأمر منه وحده . وخفض الضرائب فى الولايات إلى ثلثى ما كانت

عليه ، وعهد جبايتها إلى موظفين مسئولين أمامه . ولم يأبه باللعنات القديمة التي كانت تصب على من يعيد بناء كبوا وقرطاجنة وكورنثة ؛ وأتم في هذه الناحية أيضاً ما شرع فيه ولدا چراكس ، وأعطى حقوق الرومان أو اللاتين للمستعمرين الذين أرسلهم لإنشاء عشرات المدن الممتدة من جبل طارق إلى البحر الأسود ، أو لتعمير ما كان قائماً منها من قبل . ولا جدال في أنه كان يريد أن يمنح حق المواطنية الرومانية لجميع الذكور الراشدين في الإمبراطورية كلها ، وبذلك لا يكون مجلس الشيوخ ممثلا لطبقة واحدة في رومة بل يكون ممثلا لعقلية الولايات جميعها وإرادتها . وهذه الفكرة التي سيطرت على عقل قيصر فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم ، مضافة إلى تنظيمه الجديد لرومة وإيطاليا ، تكمل في رأينا تلك المعجزة المنقطعة النظير — المعجزة التي جعلت من الشاب المتلاف العربيد رجلا من أقدر رجال السياسة المشئومة في جميع العصور وأعظمهم شجاعة وعدلا واستنارة .

وكان قيصر كالإسكندر لا يعرف أين تقف جهوده وإصلاحاته ؛ فلما أن رسم في ذهنه صورة لدولته في نظامها الجديد ساءه أن يجدها معرضة للغزو عند أنهار الفرات والدانوب والرين ، فأخذ يفكر في إرسال حملة عظيمة لإخضاع پارثيا والأخذ بثأر كراسس الذي أمده بالمال في أزماته ، وفي الزحف حول البحر الأسود لتهدئة سكوذيا **Scythia** ، وفي ارتياد نهر الدانوب وفتح ألمانيا[١٦] . حتى إذا ما أمن الإمبراطورية على هذا النحو عاد إلى رومة مثقلا بالمجد والمغانم ، ومعه من المال ما يستطيع به أن يقضي على الكساد الاقتصادي في البلاد ، وله من القوة والجاه ما يستطيع به أن يغض الطرف عن كل معارضة ؛ ومن الحرية ما يمكنه من أن يعين من يخلفه ، وأن يموت بعد أن يورث العالم « السلم الرومانية » **Pax Romana** ، وهي أعظم تراث يستطيع أن يورثه إياه

الفصل التاسع

بروتس

ولما تسربت أنباء هذه الخطة إلى رومة رحب بها العامة الذين يحبون المجد ، وتلمظ لها رجال الأعمال إذ شموا فيها رائحة الحرب ، وتصوروا المطالب تنهال عليهم لصنع العتاد ، وتصوروا الولايات تنهب وتتكدس فى فى خزائنهم الأموال ؛ أما الأشراف فرأوا الفناء يحل بهم عند عودة قيصر ، ولذلك عقدوا النية على قتله قبل أن يغادر البلاد .

وكان قيصر قد عامل هؤلاء الأشراف معاملة كريمة أطلقت لسان شيشرون بالثناء عليه . وكان قد عفا عن كل من استسلم له من أعدائه ، ولم يحكم بالإعدام إلا على عدد قليل من الضباط الذين خانوا عهده فحاربوه بعد أن هزمهم وعفا عنهم ؛ وكان قد أحرق كل الرسائل التى عثر عليها فى خيمة بمبى وسپيو من غير أن يقرأها ، وأرسل ابنة بمبى وأحفاده الأسرى إلى سكتس ابن بمبى ، وكان لا يزال فى حرب معه ، وأصلح تمثال بمبى وأقامه فى موضعه بعد أن طرحه أتباعه على الأرض ؛ وعين بروتس وكاسيوس واليين على اثنتين من الولايات ، كما عين غيرهما من الأشراف فى بعض المناصب العليا ، وصبر على كثير من الأذى والمثالب دون أن يشكو أو يتذمر ، ولم يتخذ شيئاً من الإجراءات ضد من كان يظن أنهم يأتمرون به ليقتلوه . أما شيشرون الذى طالما لبس لكل حالة لبوسها ، وأدار شراعه لكل ريح ، فإن قيصر لم يكتف بالعفو عنه بل كرمه ولم يبخل عليه بشىء مما طلبه الخطيب العظيم لنفسه أو لأصدقائه البمبيين ، بل إنه انصاع لإلحاف شيشرون ، فعفا عن ماركس مرسلس وهو الرجل الذى خرج على قيصر ولم يندم على فعله ؛ وقد امتدح شيشرون فى خطبة له رنانة عنوانها « إلى مرسلس »[٥٦]

« كرم قيصر الذى لا يصدقه العقل » ، وقال عن بمبي إنه لو انتصر لكان أشد منه انتقاما من أعدائه . ثم أضاف إلى ذلك قوله : « لقد سمعت مع الأسف الشديد عباراتك الفلسفية المشهورة Iam satis vivi لقد نلت كفايتي من طول الحياة ومن الشهرة . . . ورجائى إليك أن تطرح حكمة الحكماء . . . ولا تكن حكيما إذا عرضتك هذه الحكمة للأخطار . . . إنك لا تزال بعيداً كل البعد عن إنجاز أعمالك العظيمة ، بل إنك لم تضع بعد أسسها » ثم وعد قيصر وعداً صادقاً باسم مجلس الشيوخ كله بأنهم سيسهرون على سلامته ويصدون بأجسامهم كل اعتداء عليه[٥٧] . وأثرى شيشرون فى ذلك الوقت ثراء جعله يفكر فى شراء قصر آخر له ولم يكن هذا القصر غير قصر صلا نفسه . وكان يستمتع بالمآدب التى يدعوه إليها أنطونيوس ويلبس وغيرهما من أعوان قيصر ، ولم تكن رسائله فى أى وقت مضى أكثر بهجة مما كانت فى ذلك الوقت[٥٨] . غير أن قيصر لم ينخدع بهذا كله ، فقد كتب إلى ماريوس يقول : « إذا كان فى الناس من هو ظريف فذاك شيشرون ولكنه يبغضنى أشد البغض »[٥٩] . وكان قيصر صادقا فى قوله ، فلما أن عاد البمبيون إلى مناوأة قيصر بعد أن أمنوا جانبه ارتمى هذا الأديب التلرانى(*) فى أحضانهم وكتب يثنى على كاتو الأصغر ثناء ما كان أجدره بأن ينبه قيصر إلى ما يحيط به من الأخطار . غير أن قيصر لم يفعل أكثر من أن يرد على شيشرون بكتابة ضد كاتو Anti-Cato لا تدل على حصافة عقله . ذلك أنه بعمله هذا أمكن خصمه من أن يختار السلاح الذى ينازله به ، وكانت نتيجة هذا أن انتصر الخطيب عليه ، وأثنى الرأى العام على أسلوب شيشرون كما أثنى على الحاكم الذى اختار أن يكتب رسالة وهو قادر على أن يوقع أمراً بالإعدام .

وبعد فإن الذين حرموا ما كان لهم من سلطان لا يمكن أن تستل سخائمهم

(*) الشبيه فى أخلاقه بتلران السياسى الفرنسى الشهير (١٧٥٤ - ١٨٣٨) .

بالعفو عن مقاومتهم لمن حرمهم هذا السلطان ، وليس عفوك عمن عفا عنك بأقل صعوبة من عفوك عمن آذيته . ومصداق هذا أن الأشراف فى مجلس الشيوخ الذى لم يكن يجرؤ على رفض المقترحات التى عرضها عليه قيصر حسب الأصول الدستورية أخذوا يتبرمون ويندوون تنديد الوطنيين الصادقين بالقضاء على الحرية التى أتخمت بالمال خزائنهم ، وعز عليهم أن يقروا بأن عودة النظام تتطلب التضحية ببعض حريتهم . وقد روعهم وجود كليوبطرة وقيصريون فى رومة . نعم إن قيصر كان يعيش مع زوجته كلبيرنيا وإنهما كانا يتبادلان المحبة فى الظاهر ، ولكن منذا الذى يعرف — ومنذ الذى تطاوعه نفسه على ألا يذيع — ما كان يحدث فى أثناء زياراته الكثيرة للملكة العظيمة الجميلة ؟ وأكدت الشائعات أنه يريد أن ينصب نفسه ملكا ، وأن يتزوج كليوبطرة ، وأن ينقل عاصمة دولتهما المتحدة إلى بلاد الشرق . ألم يأمر بأن يقام له تمثال على الكپتول بجوار تماثيل ملوك رومة الأقدمين ؟ — ألم تطبع صورته على النقود الرومانية ؟ وهى وقاحة لم يسبق يسبق لها نظير . ألم يلبس جلابيب أرجوانية من اللون الذى كان يحتفظ به عادة للملوك ؟ لقد جاءه القنصل أنطونيوس يوم عيد لبركاليا فى الخامس عشر من فبراير عام ٤٤ عارى الجسد إلا من جلود الماعز التى كان يلبسها الكهنة فى ذلك العيد(*) ثملا من كثرة ما احتسى من الخمر ، وحاول ثلاث مرات أن يضع التاج الملكى على رأس قيصر ؛ ورفضه قيصر فى المرات الثلاث ؛ ولكن ألم يكن سبب هذا الرفض أن الجماهير قد أبدت غضبها من هذا العمل وإن أبدته همساً ؟ ألم يقص التربيونين عن منصبيهما لأنهما رفعا عن تمثاله الإكليل الملكى الذى وضعه عليه أصدقاؤه ولما أقبل عليه الشيوخ وهو جالس فى هيكل ڤينوس لم يقم واقفاً لاستقبالهم . وقال بعضهم إنه قد أقعدته وقتئذ نوبة صرع ، وقال غيرهم إنه كان يشكو إسهالا شديداً ، وإنه ظل جالساً حتى لا تتحرك أمعاؤه فى هذه اللحظة غير

(*) انظر ما قلناه عن الأعياد فى الفصل الثانى من الباب الرابع .

المواتية[٦٠] ، ولكن كثيرين من الأشراف كانوا يخشون أن ينادى به ملكا فى أى يوم .

وأقبل كيوس كاسيوس ، وهو رجل مريض الجسم — « أصفر نحيل » كما يصفه أفلوطرخس[٦١] ، على ماركس بروتس واقترح عليه اغتيال قيصر . وكان قبل ذلك قد عرض خطته على جماعة من الشيوخ وعلى بعض الممولين الذين قل ما ينهبونه من الولايات مذ وضع قيصر القيود الشديدة على الملتزمين ، بل عرضها أيضاً على بعض القواد فى جيش قيصر الذين أحسوا بأن ما حباهم به من المناصب والغنائم كان أقل مما يستحقون ، وكان هؤلاء كلهم قد وافقوه عليها . وكان المتآمرون فى حاجة إلى بروتس ليكون هو رافع لواء المؤامرة ، لأنه اشتهر بين الناس كافة بأنه أعظم الناس استمساكا بالفضيلة ، وكان الناس يقولون إنه من سلالة بروتس الذى طرد الملوك قبل ذلك الوقت بأربعمائة وستة وأربعين عاماً . وكانت أمه سرڤليا أختا غير شقيقة لكاتو ، وزوجته پورشيا ابنة كاتو وأرملة بيبولس عدو قيصر ؛ ويقول أپيان « إن الناس كانوا يظنون أن بروتس نفسه ابن قيصر لأن قيصر كان عشيق سرڤليا فى الوقت الذى ولد فيه بروتس »[٦٢] . ويضيف أفلوطرخس إلى ذلك أن قيصر كان يعتقد أن بروتس ولده[٦٣] . ولا يبعد أن يكون بروتس نفسه ممن يعتقدون هذا الاعتقاد ، وأنه كان يحقد أشد الحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضغة فى أفواه الرومان ، يقولون عنه إنه ابن زانية بدل أن يكون من نسل آل بروتس . وكان هو على الدوام مكتئباً يميل إلى الصمت كأن ظلماً حل به يجثم على صدره ويشغل باله ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه فخوراً معجباً بنفسه ، لأنه أيا كان مولده يجرى فى عروقه دم الأشراف . وكان يجيد اللغة اليونانية ويحب الفلسفة ، وكان فى علم ما وراء الطبيعة من القائلين برأى أفلاطون ، وفى الأخلاق من أتباع زينون . وكان مما انطبع فى ذهنه أن الرواقية تتفق مع المبادئ اليونانية والرومانية فى الحث على قتل الطغاة الظالمين ، وقد كتب

فى هذا إلى صديق له يقول : « إن آباءنا كانوا يعتقدون أنه لا ينبغى لنا أن نخضع للمستبد ولو كان هذا المستبد أبانا نفسه »[٦٤] . وقد ألف رسالة فى الفضيلة وخلط الناس فى المستقبل بينه وبين هذا الوصف ، وإن كان بعيداً عنه . فقد أقرض أهل سلاميس Salamis فى قبرص عن طريق بعض الوسطاء أموالا بسعر ثمانية وأربعين فى المائة ، ولما تذمروا من أداء ما تراكم عليهم من الفوائد ألح على شيشرون ، وكان وقتئذ قنصلا فى قليقية ، أن يستعين بالجيوش الرومانية على جمع المال[٦٥] ؛ وقد حكم غالة الجنوبية حكماً صالحاً يمتاز بحسن الإدارة والكفاية ، ولما عاد إلى رومة عينه قيصر بريتوراً Praetor على الحواضر .

وقد ثار كل عنصر طيب فيه على مقترحات قيصر ، وأخذ كاسيوس يذكره بآبائه الذين ثاروا على الظلم ، ولعل بروتس قد شعر بأنه يتحداه بأن يثبت أنه من نسلهم وبأن يحذو حذوهم . وكان هذا الشاب الحسّاس يحمرّ وجهه خجلا حين يرى تمثال بروتس الأكبر أمثال هذه العبارة :

« أى بروتس ! هل مت ؟ وإلا فإن آباءك برآء منك »[٦٦] .

وقد أهدى إليه شيشرون عدة من رسائله كتبها فى تلك السنين ، وسرت فى ذلك الوقت بين الأشراف شائعة فحواها أن لوسيوس كتا Lucius Cotta سيعرض على مجلس الشيوخ فى اجتماعه المقبل الذى سيكون فى الخامس عشر من شهر مارس اقتراحا بتنصيب قيصر ملكا ، لأن عرّافة سيبيل قالت إن البارثيين لن يهزموا إلا على يد ملك[٦٧] . وقال كاسيوس إن المجلس ، وقد أصبح نصف أعضائه ممن عينهم قيصر ، سوف يوافق على هذا الاقتراح ، وإنه لن يبقى بعد ذلك أمل فى عودة الحكم الجمهورى . وتأثر بروتس بهذا كله ، واستسلم ، وأخذ المتآمرون بعد ذلك يحكمون أمرهم ويضعون خططهم ؛ واستخلصت پورشيا

السر من زوجها ، بأن طعنت نفسها بخنجر فى فخذها لتبرهن بذلك على أنه ما من أذى يصيبها فى جسمها يحملها على أن تنطق بشيء رغم إرادتها . وأصر بروتس فى لحظة غير مواتية له على ألا يمسّ أنطونيوس بأذى .

وحدث فى مساء اليوم الرابع عشر من شهر مارس أن عرض قيصر على من كانوا مجتمعين فى منزله أن يكون موضوع حديثهم «ما هى خير طريقة للموت ؟» وأجاب هو عن ذلك السؤال بقوله : «إنها الميتة المفاجئة» . وتوسلت إليه زوجه فى صباح اليوم الثانى ألا يذهب إلى مجلس الشيوخ ، وقالت إنها رأته فى نومها ملطخاً بالدماء ؛ وحاول خادم آخر ، كان يرى مثل رأيها ، أن يفتعل نذيراً يمنع قيصر من الذهاب ، فتسبب فى سقوط صورة لأحد أسلافه معلقة على جدار ، ولكن دسمس بروتس **Decimus Brutus** ، وهو صديق حميم لقيصر وأحد المتآمرين ، ألح عليه أن يحضر الاجتماع وإن لم يفعل فيه أكثر من أن يطلب بنفسه فى رقة ومجاملة تأجيل الجلسة إلى وقت آخر . وأقبل صديق لقيصر عرف نبأ المؤامرة ليحذره فوجده قد غادر داره فى طريقه إلى المجلس . وقابل فى طريقه عرّافا كان قد أسرّ إليه من قبل أن «يحذر اليوم الخامس عشر من شهر مارس» وقال له قيصر وهو يبتسم ، إن الخامس عشر من مارس قد جاء ولم يصب فيه بسوء ، فأجابه اسبورنا **Sburinna** «نعم ولكنه لم يمض بعد» .

وبينا كان قيصر يقرّب القربان الذى كان من المألوف تقريبه قبل الجلسة أمام ملهى بمبى حيث يعقد المجلس اجتماعه إذ وضع أحدهم فى يده لوحة صغيرة يحذره فيها من المؤامرة ولكنه لم يعبأ بها . وتقول الرواية المأثورة إن هذه اللوحة وجدت فى يده بعد مقتله(*) .

(*) وردت هذه القصص الخاصة باليوم الخامس عشر من مارس فى مؤلفات سيوتونيوس وأفلوطرخس وأپيان (٦٨) ، ولكنها رغم ورودها فى هذه المؤلفات كلها قد لا تكون إلا خرافة من الخرافات .

وشَغَل تربونيوس Trebonius – وهو أحد المتآمرين ، وكان من قبل، أحد قواد قيصر المقرّبين – أنطوليوس بالحديث فعطله عن حضور الاجتماع ؛ ولما دخل قيصر الملهى واتخذ فيه مجلسه هجم « دعاة الحرية » من فورهم عليه ؛ ويقول سيوتونيوس : « لقد كتب بعضهم يقولون إنه حين هجم عليه ماركس بروتس قال باللغة اليونانية Kai su teknon – « وأنت أيضاً يا ولدى »[٦٩] ؛ ويقول أپيان إن قيصر حين طعنه بروتس امتنع عن كل مقاومة ، وغطى وجهه ورأسه بثوبه ، واستسلم للضربات ، وسقط عند قدمى تمثال بمپى[٧٠]. وهكذا تحققت رغبة واحدة من رغبات أكمل إنسان أنجبته الأيام الخالية(*).

(*) يقصد بهذه الرغبة ميتته المفاجئة . وقد روى شيكسپير فى مسرحيته الذائعة الصيت هذه الحوادث كلها ووصفها أروع وصف . (المترجم)

الباب العاشر

انطونيوس

٤٤ – ٣٠ ق . م

الفصل الأول

أنطونيوس وبروتس

لقد كان مقتل قيصر مأساة من مآسى التاريخ الكبرى ، وليس السبب فى عظم هذه المأساة مقصوراً على أنها حالت بينه وبين إتمامه عملا من أجل الأعمال السياسية والإدارية ، وأدت إلى امتداد عهد الفوضى والحروب خمسة عشر عاما أخرى . ولو كانت نتائجها مقصورة على هذا وذاك لهان الخطب ، فقد عاشت الحضارة بعده ، وأتم أغسطس ما بدأه قيصر ، بل إنه مأساة من نوع آخر وهو أن الحزبين المتعارضين فى مجلس الشيوخ كان كلاهما فى أغلب الظن على حق : فالمتآمرون محقون فى اعتقادهم أن قيصر كان يعتزم أن ينصب نفسه ملكاً ، كما أن قيصر نفسه كان محقاً فى ظنه أن الفوضى والنظام الإمبراطورى قد جعلا الملكية أمراً محتوما . وقد انقسم الناس بين الرأيين ولا يزالون منقسمين منذ اللحظة الرهيبة التى مرت بمجلس الشيوخ ، وقد استولى عليه الهلع من وقع الحادث ، ثم فر أعضاؤه مذعورين مضطربين من قاعة الاجتماع . وأقبل أنطونيوس على مكان الحادث بعد وقوعه ، ورأى أن الحكمة هى عين الشجاعة ، فاحتمى فى بيته ؛ وخانت شيشرون فصاحته حتى

فى الوقت الذى حياه بروتس وخنجره يقطر دماً فى يده قائلا له مرحباً «بأبى بلده».

ولما خرج المتآمرون وجدوا الشعب هائجاً فى الميدان العام، وأرادوا أن يضموه إلى جانبهم بألفاظ الحرية والجمهورية، ولكن العامة الذين جن جنونهم من هول الحادث لم يعبؤوا بهذه الألفاظ التى طالما استخدمت لستر المطامع والشره. ولجأ القتلة إلى البناء القائم على الكپتول ليعتصموا به خوفاً على حياتهم، وأحاطوا أنفسهم بحراسهم من المصارعين. وانضم إليهم شيشرون فى آخر النهار، وأرسلوا رسلهم إلى أنطونيوس يستطلعون طلعه فأجابهم جواباً ودياً.

واحتشد فى اليوم الثانى جمع غفير فى السوق العامة وأرسل المتآمرون صنائعهم ليبتاعوا تأييدهم وينظموا من هذا الحشد جمعية شرعية. ثم استجمعوا شجاعتهم، ونزلوا من فوق الكپتول، وألقى بروتس على المجتمعين خطبة كان قد أعدها من قبل ليلقيها فى مجلس الشيوخ. غير أن هذه الخطبة لم يكن لها أثر فى السامعين، وحاول كاسيوس أن يؤثر هو فيهم ولكنهم قابلوه بصمت وفتور، فعاد المحررون إلى الكپتول، حتى إذا ما نقص عدد العامة المحتشدين تسللوا إلى بيوتهم. واعتقد أنطونيوس أنه وارث قيصر، فحصل من كلپرنيا — وقد أذهلتها الفاجعة وكادت تذهب بعقلها — على كل ما تركه قيصر فى القصر من أوراق وأموال، ثم دعا فى الوقت نفسه جنود قيصر القدامى المضرسين للحضور إلى رومة. وفى اليوم السابع عشر دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع مستخدماً فى ذلك حقه بوصفه تريبوناً، وأدهش الأحزاب جميعها بلطفه وهدوئه، فقبل ما عرضه عليه شيشرون وأصدر عفواً عاماً، ووافق على أن يعين بروتس وكاسيوس واليين لاثنتين من الولايات، (أى أن يفرا وينجوا ويستمتعا بالسلطان)، على شرط أن يقر مجلس الشيوخ جميع الأوامر والقوانين والتعيينات التى أصدرها قيصر. وإذ كانت كثرة الشيوخ مدينة بمناصبها وأموالها إلى هذه القرارات نفسها فقد وافقت على هذا الشرط، لما فض الاجتماع أثنى الجميع على أنطونيوس وقالوا إنه هو السياسى

الذى انتزع السلم من بين أنياب الحرب . وفى مساء ذلك اليوم نفسه أولم وليمة عشاء لكاسيوس ؛ وعاد مجلس الشيوخ إلى الانعقاد فى اليوم الثامن عشر وأقر وصية قيصر ، ووافق على أن يحتفل بجنازته احتفالا عاما ، واختار أنطونيوس ليؤبنه التأبين المألوف .

وفى اليوم التاسع عشر حصل أنطونيوس من العذارى الفستية على وصية قيصر ، وكان قد أودعها عندهن ، وقرأها لجماعة صغيرة فى بادئ الأمر ثم لجماعة أخرى أكبر من الأولى عدداً . وقد جاء فيها أنه يوصى بجميع أملاكه الخاصة لثلاثة من أحفاد إخوته (وكان ذلك مثار دهشة أنطونيوس وغضبه) وسمى واحداً منهم بالذات وهو كيوس أكتافيوس متبناه ووريثه ؛ وجعل الدكتاتور حدائقه متنزهاً عاماً للشعب ، وأوصى لكل مواطن فى رومة بثلثمائة سسترس . وسرعان ما انتشر نبأ هذا الإحسان فى جميع أنحاء المدينة ، ولما جىء فى اليوم العشرين من الشهر بجثة قيصر إلى السوق العامة ، بعد أن حنطت فى بيته ، لإجراء المراسم النهائية احتشد حولها جمع غفير من الناس ومن بينهم جنود قيصر القدامى ليكرموه . ويظهر أن أنطونيوس قد تحدث إلى هذا الجمع فى بادئ الأمر بحيطة فلم يطلق للسانه العنان ، ولكن عواطفه المكبوتة لم تلبث أن تغلبت عليه فأطلقت لسانه وأكسبت ألفاظه فصاحة أيما فصاحة . ولما رفع من النعش العاجى الثوب الممزق الملطخ بالدماء والذى مزقته الطعنات التى وجهت إلى قيصر ، ثارت عواطف المجتمعين ثوراناً لم يكن فى وسع أحد أن يكبح جماحه ، وعلا النحيب والعويل ، وأخذ كل واحد يجمع الأحطاب اللازمة لإشعال النار التى ستحرق بها الجثة . وألقى الجنود القدامى أسلحتهم فوق كومة الأحطاب لتكون قرباناً يقـــربونها إلى قيصر ، كما ألقى الممثلون ملابسهم والموسيقيون آلات عزفهم ، كما ألقت النساء أغلى ما يمتلكن من الحلى . وانتزع بعض المتحمسين مشاعل من النار وذهبوا بها ليحرقوا بيوت المتآمرين ، ولكنهم وجدوا الحراسة شديدة على

هذه المبانى ، ووجدوا أن أصحابها قد فروا من رومة وظلت طائفة كبيرة من الشعب بجوار الأحطاب المحترقة طوال الليل ، كما لازمها اليهود ثلاثة أيام كاملة اعترافاً منهم بفضل قيصر وعطفه عليهم فيما أصدره من قوانين . ولم ينقطعوا طوال هذه الأيام الثلاثة عن ترديد أناشيدهم الجنازية ؛ وظلت العاصمة فى هذه الأيام الثلاثة تجتاحها الفتن والقلاقل حتى أمر أنطونيوس جنوده فى آخر الأمر أن يعيدوا إليها النظام ، وأن يلقوا بكل من لا يرتدع عن السلب والنهب من فوق صخرة تربيا Tarpeia .

وكان أنطونيوس نصف ما كان قيصر كما سيكون أغسطس نصفه الثانى ؛ فقد كان أنطونيوس قائداً عظيما كما كان أغسطس حاكما فذًّا ممتازاً ، ولكن الصفتين لم تجتمعا فى واحد منهما . وقد ولد أنطونيوس فى غالة ٨٢ ق . م ، وقضى الشطر الأكبر من حياته فى المعسكرات كما قضى أكثرها فى معاقرة الخمر ، ومجالس النساء ، والاستمتاع بالمرح وشهى الطعام .

وكان رغم كرم محتده وبهاء طلعته يتصف بفضائل عامة الناس . كان قوىّ الجسم ، حيوانى الروح ، طيب القلب ، كريماً ، شجاعاً ، وفيًّا . وقد أساء إلى سمعته وسمعة قيصر نفسه إذ احتفظ فى داره برومة بطائفة كبيرة من النساء والغلمان ، وبعشيقة يونانية فى محمله كلما غادر رومة[1] . وكان قد ابتاع منزل بمبى فى المزاد العام وأقام فيه ، ثم أبى أن يؤدى ثمنه[2] ؛ وها هو ذا يجد فى أوراق قيصر — أو يسجل فيها على ما يقول بعضهم — كل ما يستفيد من وجوده — مناصب لأصدقائه ، ومراسيم يصل بها إلى أغراضه ، وخيراً كثيراً لنفسه ، فلم يمض على مقتل قيصر أسبوعان حتى وفّى بديون كانت عليه يبلغ مقدارها نحو ١٫٥٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى ، وأصبح بعد عشية وضحاها رجلا ثريا . واستولى على الخمسة والعشرين مليون ريال التى كان قيصر قد أودعها فى هيكل أبس Aps وعلى خمسة ملايين أخرى من أموال قيصر الخاصة . ولما رأى أن دسمس بروتس ،

الذى عينه قيصر قبل مقتله والياً على غالة الإيطالية ، قد تولى هذا المنصب المربح رغم اشتراكه فى اغتيال قيصر ، استصدر قراراً من الجمعية بتعيينه هو والياً على هذه الولاية ذات الموقع العسكرى الخطير ، يعوّض دممس عنها بولاية مقدونية . ثم استصدر قراراً آخر بأن يتخلى ماركس بروتس وكاسيوس عن مقدونية لدممس ، وعن سورية لدلابلا ، وأن يقنعا بقورينة وكريت .

وارتاع مجلس الشيوخ من قوة أنطونيوس المتزايدة ، فدعا إلى رومة كيوس أكتاڤيوس متبنى قيصر لكى يقضى على هذه القوة ، وقد صار كيوس فى مستقبل الأيام أعظم الساسة الحاكمين فى التاريخ الرومانى ، أما فى عام ٤٤ فلم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر ، وقد تسمى باسم الرجل الذى تبناه كما جرت بذلك العادة المألوفة وعدله بإضافة اسمه هو فصار اسمه الكامل كيوس يوليوس قيصر أكتاڤيانوس ، وظل ذلك اسمه حتى ضم إليه بعد سبعة عشر عاما من ذلك الوقت اسم أغسطس ، وهو اللقب العظيم التى تعرفه به القرون التالية . وكانت جدته هى يوليا Julia أخت قيصر ، أما جده فكان صرفيا من أصل عامى فى ڤلترا Velitrae من أعمال لاتيوم . وكان أبوه قد عمل إيديلا شعبيا ثم بريتوراً ثم عين فيما بعد والياً على مقدونية .

وقد نُشِّئ الغلام على البساطة الاسبارطية ، وتعلم الآداب والفلسفة اليونانيتين والرومانيتين ، وقضى معظم الثلاث السنين الأخيرة فى قصر قيصر . ولقد كان من أسباب حزن قيصر أنه لم يكن له أبناء شرعيون ، كما كان من أكبر الشواهد على حصافة رأيه أن تبنى أكتاڤيوس ، فأخذه وهو غلام معه إلى أسبانيا فى عام ٤٥ ، وسرّه أن رأى الشاب المريض ، العصبى ، الضعيف الجسم ، قد تحمَّل أخطار الحرب وشدائدها بشجاعة عظيمة . وعمل قيصر على أن يدرب الشاب على فنون الحرب والحكم[٣] . وإنا لنعرف ملامحه من التماثيل الكثيرة التى أقيمت له : فهو رقيق ، نحيل ، جاد ، حيىّ وحازم معاً ، مستسلم وعنيد ، مثالى اضطرته الظروف

لأن يكون واقعيا ، ومفكر علّمته صروف الدهر أن يكون من رجال العمل . وكان أصفر الوجه ، هزيل الجسم ، ممعوداً يشكو سوء الهضم ؛ ولذلك لم يكن يأكل إلا قليـــلا ، ولا يشرب إلا أقل ؛ وعاش أطول مما عاش من حوله من الأقوياء بالحِمية وتنظيم الحياة .

وجاء فى أواخر مارس عام ٤٤ عبد محرّر إلى أپولونيا Appolonia من أعمال اليريا Illyria حيث كان اكتافيان مع جيشه يحمل إليه نبأ مقتل قيصر ووصيته .

وارتاع الشاب المرهف الحس لجحود الناس وكفرهم بنعم المنعم عليهم ، وثار فى نفسه كل ما كان كامناً فيها من حبه لأخى جدته الذى كان يعزه أعظم إعزاز ، والذى كان يعمل جاهداً لإقامة صرح الدولة المحطمة ، وعقد النية فى صمت على أن يواصل جهود قيصر وأن ينتقم من قاتليه . ثم ركب من فوره إلى شاطئ البحر وعبره إلى برنديزيوم وأسرع إلى رومة ، وأشار عليه أقاربه فيها أن يظل مختفياً عن الأنظار لئلا يهلكه أنطونيوس ، ونصحته والدته ألا يقوم بعمل من الأعمال ولكنها ابتهجت حين سخر من هذه النصيحة . وكان كل ما أشارت به عليه أن يصبر كلما كان الصبر فى مقدوره ، وأن يلجأ إلى الختل بدل الحرب السافرة . وقد عمل بهذه النصيحة الحكيمة إلى آخر أيامه

وتوجّه لزيارة أنطونيوس وسأله عما هو فاعل بقتلة قيصر . وهاله أن يرى أنطونيوس مشغولا بإعداد جيش يزحف به على دسمس بروتس ، لأنه أبى أن يتخلى عن بلاد غالة الجنوبية ؛ وطلب إلى أنطونيوس أن يوزع ما تركه قيصر حسب وصيته ، وخاصـــة ذلك الجزء الذى يوصى بإعطاء كل مواطن خمسة وأربعين ريالا . غير أن أنطونيوس وجد أسبابا كثيرة تدعو إلى تأخير تنفيذ الوصية ، فما كان من أكتافيان إلا أن وزع على جنود قيصر القدامى أموالا استدانها من أصدقاء قيصر وأعدّ بنفسه جيشه

واغتاظ أنطونيوس من وقاحة هذا « الولد » على حد قوله : وأعلن أن بعضهم قد حاول قتـله ، وأن الذى كان يريد اغتياله قد قال إن أكتاڤيان هو المحرض له . وأنكر أكتاڤيان هذه التهمة ، وقال إنه برىء منها ؛ وانتهز شيشرون فرصة هذا النزاع وأدخل فى روع أكتاڤيان أن أنطونيوس فظ غير مهذب يجب أن يهزم . ووافق أكتاڤيان على هـذا الرأى ، وضم فيلقيه إلى فيالق القنصلين هرتيوس **Hirtius** وپنسا **Pansa** ، وزحف بها كلها شمالا لقتال أنطونيوس . وأمد شيشرون هذه الحرب الأهلية الجديدة بطائفة من الاتهامات المقذعة ضمنها أربع عشرة « فلپة(*) قوبة » فى الطعن على سياسة أنطونيوس العامة وحياته الخاصة ، ألقى بعضها فى مجلس الشيوخ أو فى الجمعية ، ونشر بقيتها للدعاوة ضد أنطونيوس على أحسن الصور التى صارت الدعاوة الحربيـة تنشر بها فى مستقبل الأيام . ولما التقى الجيشـان فى موتينا **Mutina** (مودينا **Modena**) هزم أنطونيوس وفر من الميدان (٤٤) ؛ ولكن هرتيوس وپنسا قتلا فى المعركة . وعاد أكتاڤيان إلى رومة وأصبح القائد الأوحد سيالق مجلس الشيوخ وفيالقه هو ، وأرغم المجلس وهو مؤيد بهذه القوة على أن يعينه قنصلا ، وأن يلغى العفو الذى أصدره عن المتآمرين وأن يحكم عليهم جميعاً بالإعدام . ولما تبين له أن شيشرون ومجلس الشيوخ من ألد أعدائه ، وأن كل ما فى الأمر أنهما يتخذانه أداة مؤقتة للقضاء على أنطونيوس لما تبين له هذا سوى النزاع القائم بينه وبين أنطونيوس ، وكون منه ومن أنطونيوس ولپدس الحكومة الثلاثية الثانية . (٤٣ — ٣٣ ق . م) ، ثم زحفت جيوشهم المتحالفة عـلى رومة واستولت عليها دون أن تلق مقاومة ، وفر كثيرون من الشيوخ ومن المحافظين إلى جنوبى إيطاليا وإلى الولايات الخارجية ، واعترفت الجمعية بهذه الحكومة الثلاثية ، وخولتها سلطات كاملة مدى خمسة أعوام .

(*) كان هذا اللفظ يطلق أولا على كل خطبة من خطب ثلاث لديموستين ضد فليب المقدونى ، ثم صار علماً على كل خطبة فيها طعن — واتهام كخطب شيشرون ضد أنطونيوس . (المترجم)

ولكى يستطيع الحكام الثلاثة أداء رواتب جنودهم ، وملء خزائنهم ، والانتقام من قتلة قيصر ، بسطوا على رومة حكماً لا يماثله فى تاريخ الرومان كله حكم آخر فى الإرهاب وسفك الدماء : فقد أعدوا قوائم تحتوى على أسماء من لا بد من إعدامهم ، وكانوا ثلثمائة من الشيوخ ، وألفين من رجال الأعمال ، وعرضوا على كل حر يأتيهم برأس واحد من هؤلاء ٢٥،٠٠٠ درخمة (١٥،٠٠٠ ريال أمريكى) ، وعلى كل عبد ١٠،٠٠٠[4] ؛ وأضحى امتلاك المال جريمة يعاقب عليها بالإعدام فكانوا يحكمون بقتل الأطفال الذين يرثون مالاً ، وينفذون فيهم الحكم ، وكان ينتزع من الأرامل ما يرثنه من الأموال ، وقد أرغمت ١٤،٠٠٠ امرأة على أن ينزلن للحكام الثلاثة عن الجزء الأكبر من أملاكهن ، ثم استولوا آخر الأمر على الأموال المدخرة المودعة عند « العذارى الفستية » . وقد عفوا عن أتكس لأنه ساعد من قبل فلڤيا Fulvia زوجة أنطونيوس ، ولكنه رغم اعترافه بهذا الفضل أرسل مبالغ طائلة من المال إلى بروتس وكاسيوس . وأقام الحكام الثلاثة جنودهم حراساً على كل مخارج المدينة ، واختبأ المحكوم بإعدامهم فى الآبار والبالوعات والحجر العليا فى الدور والمداخن . ومنهم من ماتوا وهم يدافعون عن أنفسهم ، ومنهم من استسلموا لقاتليهم وهم هادئون ، ومنهم من أماتوا أنفسهم جوعاً أو شنقاً أو غرقاً ، ومنهم من قفزوا من فوق الأسطح أو ألقوا بأنفسهم فى النار . ومن الناس من قتل خطأ ، ومن غير المحكوم عليهم من انتحروا فوق أجسام من قتلوا من أقاربهم : وكان التربيون سالڤيوس Salvius يعلم أنه من المقتضى بإعدامهم ، فأقام وليمة وداع لأصدقائه ، ودخل عليه رسل الحكام الثلاثة فى أثناء الوليمة ، وقطعوا رأسه وتركوا جسمه أمام المائدة ، وأمروا المدعوين أن يستمروا فى طعامهم وشرابهم . وانتهز العبيد هذه الفرصة للتخلص من سادتهم ، ولكن كثيرين منهم قضوا نحبهم وهم يدافعون عن ملاكهم ، وقد تخفى واحد منهم فى زى سيدة وقتل بدلاً منه . ومات

بعض الأبناء دفاعاً عن آبائهم ، ونم بعضهم على آبائهم ليرثوا نصيباً من أموالهم . ومن الزوجات الزانيات أو اللاتى خانهن أزواجهن من نمت عليهم ، وأنقذت زوجة كوبونيوس Coponius بعلها بالنوم مع أنطونيوس . وكانت ڤڤيا زوجة أنطونيوس قد حاولت أن تشترى منزل جارها رفوس Rufus ، فأبى ذلك عليها ثم حاول فى ذلك الوقت أن يقدمه لها هبة من غير ثمن ، ولكنها استطاعت أن تضع اسمه بين أسماء المحكوم بإعدامهم ، فلما قطع رأسه أمرت به فدق بالمسامير على باب بيته الأمامى(٥)

ووضع أنطونيوس اسم شيشرون بين الأسماء الأولى من المحكوم عليهم . وذلك لأن أنطونيوس كان زوج أرملة كلوديوس ، وابن زوجة لنتولس الكتاليناري Lentulus the Catalinarian الذى قتله شيشرون فى السجن ، وقد ساءه بحق ما احتوته « فاپات » شيشرون من تجريح وطعن شديد . وعارض أكتافيان فى هذا ولكنه لم يستمر طويلا فى معارضته ، ذلك أنه لم يكن فى وسعه أن ينسى تمجيده لقتلة قيصر ، كما لم ينس العبارة التى قالها للمحافظين يبرر بها مغازلته لوريث قيصر(*) وما فيها من تورية . وحاول شيشرون الفرار ، ولكنه لم يتحمل دوار البحر فغادر المركب وقضى الليل فى بيته الريفى فى فورميا Formiae ؛ وأراد أن يقض فيه اليوم الثانى فى انتظار مقتله لأن ذلك فى نظره خير من البحر الهائج المضطرب ، ولكن عبيده دفعوه إلى داخل هودج ، وساروا به نحو السفينة ، وبيناهم فى طريقهم إذ أقبل عليهم جنود أنطونيوس . وأراد العبيد أن يقاوموهم ولكن شيشرون أمرهم أن يضعوا الهودج على الأرض ويستسلموا . ثم مد الرجل رأسه « وجسمه يعلوه العثير ، وشعر رأسه ولحيته منفوش ، ووجهه قد أضناه القلق والتعب »(٧) ، حتى يسهل على الجنود قطعه (٤٢) . وكانت أوامر أنطونيوس تقضى بأن تقطع أيضاً يده اليمنى

(*) كان شيشرون قد قال عن أكتافيان : « إن الغلام جدير بالثناء والتزيين والسمو » laudandum adolescentem, ornandum, tollendum ، ولكن تعنى tollendum أيضاً القتل .

فقطعت وجىء بها مع رأسه إليه . وضحك أنطونيوس ضحكة الفوز ، ووهب القتلة ٧٥٠،٠٠٠ درخمة ، وأمر بتعليق الرأس واليد فى السوق[٨] .

وفى أوائل عام ٤٢ عبر الحكام بقواتهم البحر الأدرياوى واخترقوا مقدونية إلى تراقيا حيث جمع بروتس وكاسيوس آخر الجيوش الجمهورية ، واستعانا على تموينه بالمال ينتزعونه بطرق لا تماثلها فى قسوتها حتى السوابق الرومانية . فقد طلبا من الولايات الشرقية للإمبراطورية ضرائب عشر سنين مقدما ، وحصلا بالفعل على تلك الضرائب ؛ ولما أظهر أهل رودس شيئا من المعارضة فى هذه المطالب هاجم كاسيوس ثغرهم العظيم ، وأمر الأهلين جميعهم بتسليم ثروتهم ، وقتل كل من تردد منهم ، وحمل معه عشرة ملايين ريال أمريكى . وفى قليقية أنزل جنوده فى بيوت طرسوس **Tarsus** ، ولم يبارحوها حتى أدت إليه تسعة ملايين ريال ، ولم يستطع السكان أداء هذا المال حتى باعوا بالمزاد جميع أراضى البلدية ، وصهروا جميع آنية الهياكل وحليها ، وباعوا كل الأحرار عبيداً — فباعوا أولا الأولاد والبنات ، ثم النساء والشيوخ ، وباعوا آخر الأمر الشبان ؛ وانتحر الكثيرون من الأهلين حين علموا أنهم بيعوا ؛ وجمع كاسيوس من بلاد اليهود أربعة ملايين ريال ، وباع سكان أربع من المدن عبيداً ؛ ولم يتحرج بروتس أيضاً عن جمع المال بالقوة ، من ذلك أنه لما رفض سكان أكسانثوس **Xanthus** من أعمال ليثيا مطالبه حاصرهم حتى نفدت مؤونتهم ولم ينفد عنادهم فانتحروا جميعاً[٩] .
وأطال بروتس المكث فى أثينة لحبه الفلسفة ؛ ولكن المدينة كانت غاصة بالشبان الرومان النبلاء الذين كانوا ينادون بالحرب التى تعيدهم إلى أوطانهم . ولما أن جمع بروتس كفايته من المال طوى كتبه وانضم بجيوشه إلى كاسيوس ونزل إلى الميدان .

والتقت جيوش الطرفين المتقاتلين فى فلپاى فى شهر سبتمبر من عام ٤٢ ؛

وزحف جناح بروتس على جناح أكتافيان وزحزحه عن موضعه واستولى على معسكره ، ولكن جيوش ألطونيوس هزمت جيوش كاسيوس هزيمة منكرة ؛ وأمر كاسيوس حامل درعه أن يقتله ففعل : ولم يستطع أنطونيوس أن يواصل انتصاره على الفور ؛ لأن المرض أقعد أكتافيان فلزم خيمته واختل نظام جيشه ، فاضطر أنطونيوس إلى إعادة تنظيم الجيش كله : وبعد أن استراح بضعة أيام قاده لقتال بروتس ، وأوقع بمن بقى من الجيوش الجمهورية هزيمة ولوّا على أثرها الأدبار : ورأى بروتس رجاله يستسلمون فأدرك – ولعله قد سرّه أن يدرك – أنه خسر كل شيء ، فألقى بنفسه على سيف صديق له ومات ؛

ولما أقبل ألطونيوس على جثته غطاها بثوبه الأرجوانى ؛ فلقد كان هو وبروتس صديقين فى يوم من الأيام .

الفصل الثانى

أنطونيوس وكليوبطرة

لقد كانت معركة فلپاى آخر معركة برية للأشراف القدامى ، وقد حذا الكثيرون منهم — ابن كاتو ، وابن هورتنسيوس ، وكونتليوس ڤارس ، Quintilius Varue ، وكونتس لبيو Quintus Labeo — حذو بروتس وكاسيوس فانتحروا . وقسم المنتصرون الإمبراطورية فيما بينهم : فأعطى ليدس أفريقية وأخذ أكتاڤيان الغرب ، واختار أنطونيوس مصر وبلاد اليونان والشرق . وكان أنطونيوس دائم الحاجة إلى المال ، فعرض على مدائن الشرق ألا يؤاخذها على ما أمدت به أعداءه من المال إذا هى أمدته بمثله — أى بعشرة أمثال الضريبة السنوية فى مدى عام : وعاد قديم مرحه وبشاشته إليه حين ظن أن النصر قد أعاد إليه أمنه وطمأنينته ، فأنقص مطالبه من الإفزين حين أقبلت عليه نساؤهم فى ثياب كاهنات باخوس يحيِّينه ويسمِّينه الإله ديونيسس ؛ ولكنه وهب طاهيه بيت موظف مجنيزى Magnesian كبير مكافأة له على عشاء شهى أعده له . وعقد مجلساً من أهل المدن الأيونية فى إفسوس وأقرّ فيه حدود تلك الولايات ، وحسم ما بينها من خلاف بحكمة لم ير معها أغسطس بعد عشرة أعوام من ذلك الوقت ما يدعو إلى تعديل ما اتخذ فى هذا المجلس من قرارات . وعفا عن كل من حاربه إلا الذين اشتركوا فى مقتل قيصر . ومد يد المعونة للمدن التى لاقت العذاب على يد كاسيوس وبروتس ، ورفع عنها جميع الضرائب الرومانية ، وحرر كثيرين ممن باعهم المتآمرون أرقاء ، كما حرر مدن سوريا من الطغاة الذين قضوا على حكوماتها الدمقراطية(١٠) .

وبينا كان أنطونيوس يظهر هذه الكياسة منبعثة من طيبة قلبه وبساطة

خلقه ؛ استسلم للشهوات الجنسية استسلاما أفقده احترام رعاياه لسلطته . فقد أحاط نفسه بالراقصات والموسيقيات والعشيقات ، والمهرجين والصخابين ، واتخذ له زوجات ومحظيات كلما لاحت له امرأة وأعجبته . وكان قد أرسل الرسل إلى كليوبطرة يدعوها للمثول بين يديه فى طرسوس لتجيب عما اتهمت به من مساعدتها كاسيوس على جمع المال والجنود . وجاءت كليوبطرة ، ولكنها جاءت فى الوقت الذى اختارته وعلى الطريقة التى اختارتها . فبينا كان أنطونيوس جالسا على عرش فى السوق العامة ، ينتظر منها أن تحضر وتدفع عن نفسها ما اتهمت به ، ثم يقضى لها أو عليها – ركبت هى نهر سندس Cyndus فى قارب ذى أشرعة أرجوانية ، وسُكان مذهب ، ومجاديف من فضة ، تضرب الماء على أنغام الناى والمزمار والقيثار . وكانت وصيفاتها هن بحارة القارب ، ولكن فى زى حور البحار وربات الجمال . أما هى فقد تزينت بزى الزهرة (فينوس) ورقدت تحت سرادق من قماش موشى بالذهب .

ولما انتشر بين أهل طرسوس نبأ هذا المنظر الفتان أقبلوا على شاطئ النهر زرافات ووحداناً ، وتركوا أنطونيوس وحده جالسا على عرشه . ودعته كليوبطرة إلى العشاء معها فى قاربها ، فأقبل عليها ومعه حاشيته الرهيبة ، فأولمت وليمة فاخرة ، وقدمت لهم فيها أشهى الطعام والشراب ، وأفسدت الفؤاد بما قدمت لهم من الهدايا والابتسامات . وكان أنطونيوس قد أوشك أن يقع فى حبها وهى لا تزال فتاة حين شاهدها فى الإسكندرية ، فلما أبصرها فى تلك اللحظة وهى فى التاسعة والعشرين من عمرها رآها قد اكتملت مفاتنها ؛ وبدأ حديثه معها يلومها على ما فعلت ؛ واختتمه بأن أهدى إليها فينيقية ، وسوريا الوسطى ، وقبرص ، وأجزاء من قليقية وبلاد العرب واليهود[11] . وكافأته هى بما يشتهى ، ودعته إلى الإسكندرية ، فأجاب الدعوة ، وقضى فى تلك المدينة شتاء بعيداً عن الهموم والأكدار (٤١ – ٤٠) يعب حب الملكة عبا ، ويستمع إلى المحاضرات فى

متحف ، ناسيا أن له إمبراطورية فى حاجة إلى من يحكمها . أما هى فلم تكن أسيرة حبه . بل كانت تعرف أن مصر الغنية الضعيفة لن تلبث أن تجتذب إليها روما الشرهة القوية ، وأن السبيل الوحيدة لنجاة بلادها وعرشها هي أن تتزوج بسيد روما . ولقد حاولت من قبل أن تفعل هذا بقيصر ، وهى تحاول الآن أن تفعله بأنطونيوس ، ولم يكن له هو سياسة غير سياسة قيصر . فمال إلى تحقيق الحلم القديم ، وهو توحيد روما ومصر ، ونقل عاصمته إلى بلاد الشرق الفتان الجميل :

وبينا كان أنطونيوس يلهو ويلعب فى الإسكندرية ، كانت زوجته فلڤيا وأخوها لوسيوس يأتمران بأكتاڤيان ليسقطاه وينتزعا سلطانه على روما . والحق أن أكتاڤيان كان أبعد ما يكون عن السعادة فى ذلك البلد : فقد أضحى مجلس الشيوخ بؤرة للمغامرين والقواد ، ودب التذمر بين العمال المتعطلين ، واختل نظام الشعب كل الاختـــلال . وكان سكستس بمبى يحول بين المدينة وبين استيراد ما يلزمها من الطعام ، ووقف دولاب الأعمال التجارية لما ساد البلاد من خوف ، وقضى النهب والضرائب الفادحة على الثروات فلم يكد يبقى منها شيء ، وأخذ الكثيرون من الناس يعيشون عيشة الاستهتار والفساد الجنسى الطليق ، محتجين بأن الغد قد يأتى بإلغاء العملة ، أو بانتهاب جديد ، أو بالموت .

وكان أكتاڤيان نفسه من أبعد الناس طهارة الذيل فى ذلك الوقت ، وكأنما أرادت فلڤيا وأراد لوسيوس أن يبلغا بالفوضى غايتها القصوى فجيشا جيشاً ودعوا إيطاليا إلى القضاء على أكتاڤيان ، فحاصر ماركس أجرپا Marcus Agrippa قائد جيوش أكتاڤيان لوسيوس فى پروزيا Perusis حتى اضطره إلى الخروج منها بعد نفاد مؤونته (مارس عام ٤٠) . وماتت فلڤيا من شدة مرضها . وعدم تحقيق مطامعها ، وحزنها على إهمال أنطونيوس لها . وعفا أكتاڤيان عن لوسيوس لعله بذلك يحتفظ بالسلام بينه وبين أنطونيوس ، ولكن أنطونيوس عبر البحر وحاصر جيوش أكتاڤيان فى برنديزيوم . وكان الجيشان أكثر حكمة من قائديهما

فامتنع كل منهما عن قتال الآخر ، واضطراهما إلى أن يسويا ما بينهما من نزاع تسوية سلمية (٤٠) . وتعهد أنطونيوس أن يكون حسن السلوك ، فزوجه أكتافيان أخته أكتافيا اللطيفة الطاهرة ، وسر كل إنسان بهذه النتيجة إلى حين ، وتنبأ فرچيل — وكان وقتئذ يكتب لشيده الرابع — بعودة حكم « زحل » العادل المثالى .

وفى عام ٣٨ وقع أكتافيان فى حب ليفيا Livia زوجة تيبيريوس كلوديوس نيرون Tiberius Cladius Nero وكانت وقتئذ حاملا ، فطلق من أجلها زوجته الأولى اسكريبونيا Scriponie . وأقنع نيرون بالتخلص من ليفيا ، وتزوج بها ، واستطاع بفضل إصغائه إلى نصائحها المقنعة ، وصلاتها بأشراف البلاد — لأنها من سلالة أسرة كلوديوس النبيلة — استطاع بذلك أن يحسن صلاته بطبقة الملاك ، فخفض الضرائب ، وأعاد ثلاثين ألفاً من العبيد الآبقين إلى سادتهم . وشرع يعمل فى صبر وأناة لإعادة النظام إلى إيطاليا . وأمكنه بمعونة أجريا وبمائة وعشرين سفينة أمده بها أنطونيوس أن يحطم أسطول سكتس پمپى ، ويستورد الطعام إلى رومة ، ويقضى على مقاومة الپمپيين (٣٦) . وحمد له مجلس الشيوخ عمله واختاره تربيونا طول حياته .

وذهب أنطونيوس إلى أثينة مع أكتافيا بعد أن زُفَّت إليه باحتفال رسمى فى رومة . وفى ذلك البلد استمتع أنطونيوس إلى حين بتلك المتعة الجديدة متعة الحياة مع امرأة صالحة ، وتخلى عن مشاغل السياسة والحرب ، وأخذ يستمع إلى محاضرات الفلسفة وأكتافيا إلى جانبه على أنه كان فى هذه الأثناء يدرس الخطط التى وضعها قيصر لفتح پارثيا . وكان لبينس Labienus ابن قائد من قواد قيصر قد دخل فى خدمة ملك پارثيا ، وقاد جيوشه من نصر إلى نصر فى قليقية وسوريا — وهما ولايتان من أغنى ولايات الدولة الرومانية وأعودها عليها بالمال (٤٠) . وألفى أنطونيوس نفسه فى حاجة إلى الجند لمواجهة هذا التهديد الخطير ، كما وجد فى حاجة إلى المال لأداء مرتبات الجنود ، والمال عند كليوبطرة

موفور ، ومل فجأة حياة الفضيلة والسلم ، فأعاد أكتافيا إلى رومة وطلب إلى كليوبطرة أن تقابله فى أنطاكية ، وجاءت إليه كليوبطرة بمدد قليل من الجنود ، ولكنها عارضت فى مشروعاته الضخمة الواسعة ، ويبدو أنها لم تعطه من مالها الكثير إلا النزر اليسير. وزحف أنطونيوس على پارثيا بمائة ألف جندى (٣٦) ، وحاول عبثاً أن يستولى على قلاعها ، وفقد نحو نصف رجاله فى تقهقر يدل على منتهى الجرأة والبطولة مدى ثلثمائة ميل فى بلاد معادية له . وضم أرمينية إلى الإمبراطورية الرومانية فى أثناء تقهقره ، وأقام لنفسه موكب نصر ، وصدم مشاعر الإيطاليين صدمة عنيفة بإقامة هذا الموكب فى الإسكندرية ثم أرسل رسالة طلاق إلى أكتافيا (٣٢) ، وتزوج كليوبطرة ، وثبتها هى وقيصريون حاكمين معاً على مصر وقبرص ، وخلع الولايات الشرقية من الإمبراطورية على ابنه وابنته من كليوبطرة ، وإذ كان يعرف أنه لابد أن يسوى الأمور بينه وبين أكتافيا فى القريب العاجل أطلق لنفسه العنان فى اللهو والترف . وشجعته كليوبطرة على أن يغامر آخر مغامرة فى سبيل السلطة العليا ، وساعدته على حشد جيش وأسطول ، وأقسمت له بقسمها المحبب إليها أنها واثقة من النصر وثوقها بأنها ستتولى الحكم فى الكپتول يوماً من الأيام[١٣] .

الفصل الثالث

أنطونيوس وأكتاڤيان

صبرت أكتاڤيا على هجرها صبر الكرام ، وعاشت ساكنة هادئة فى بيت أنطونيوس فى رومة ، تربى أطفاله الذين رزقهم من فلڤيا وابنتيها منه . وكان منظرها المحزن أمام أكتاڤيان فى كل يوم ، وصمتها الفصيح ، يثيران كوامن غضبه ، ويؤكدان له أنه هو وإيطاليا جميعاً مقضى عليهما إذا نجح أنطونيوس فى خططه ، فأخذ يعمل على أن تدرك إيطاليا حقيقة الموقف ، تدرك أن ألطونيوس قد تزوج ملكة مصر ،وأنه وهبها هى وأطفالها غير الشرعيين أكثر ولايات الإمبراطورية خراجاً ، وأنه سيضع رومة وإيطاليا بأجمعها فى المقام الثانى بعد مصر .

ولما بعث أنطونيوس برسالة إلى مجلس الشيوخ — وكان قد تجاهله سنين طوالا — يقترح فيها أن يعتزل هو وأكتافيان الحياة العامة ، وأن تعود جميع النظم الجمهورية إلى سابق عهدها ، تخلص أكتافيان من هذا الموقف الحرج بأن قرأ على المجلس ما ادعى أنه وصية لأنطونيوس انتزعها هو قسراً من العذارى الفستية ، وفيها يوصى أنطونيوس بأن يكون ولداه من كليوبطرة وريثيه دون غيرهما ، ويأمر بأن يدفن إلى جانب الملكة فى الإسكندرية(١٤) . وكانت الفقرة الأخيرة من هذه الوصية حاسمة فى نظر المجلس بقدر ما كان يجب أن تكون مثيرة للارتياب فى صحتها . ذلك أنها لم تثر فى نظر المجلس الشك فى أن وصية تودَع فى رومة تشترط هذه الشروط ، بل أقنعته وأقنعت إيطاليا أن كليوبطرة تستخدم أنطونيوس فى خططها التى تبغى بها الاستيلاء على الإمبراطورية . ولجأ أكتافيان إلى الأساليب الخداعة التى هى من أخص خصائصه ، فأعلن الحرب (٣٢) على كليوبطرة لا على أنطونيوس ، ليجعلها بذلك كفاحاً مقدساً فى سبيل استقلال إيطاليا .

وأبحر أسطول أنطونيوس وكليوبطرة فى شهر سبتمبر من عام ٣٢ إلى البحر الأيونى ؛ وكان مؤلفاً من خمسمائة سفينة حربية ، ولم يكن أسطول بهذه القرة قد ظهر على متن البحر من قبل . وكان يؤيده جيش مؤلف من ثلثمائة ألف من المشاة ، واثنى عشر ألفاً من الفرسان ، أمدهما بمعظمه أمراء الشرق وملوكه يرجون من وراء ذلك أن تكون هذه الحرب وسيلة للتحرر من نير رومة . وعبر أكتاڤيان البحر الأدرياوى بأربعمائة سفينة وثمانين ألف جندي من المشاة واثنى عشر ألفاً من الفرسان . وظلت القوات المتعادية عاماً أو نحو عام تستعد للمعركة الفاصلة وتضع خططها ؛ فلما كان اليوم الثانى من شهر سبتمبر عام ٣١ التحم الجيشان والأسطولان عند أكتيوم فى الخليج الأمبراسى فى معركة من المعارك الحاسمة فى التاريخ ؛ وبرهن أجرپا على أنه أبرع من أعدائه فى وضع الخطط ، وكانت سفنه الخفيفة أسهل وأخف حركة من سفائن أنطونيوس الضخمة ذات الأبراج العالية . وقد أحرقت النار هذه السفن إذ ألقى عليها بحارة أكتافيان مشاعل متقدة . ويصف ديوكاسيوس Dio Cassius ما حدث وقتئذ بقوله :

« وأهلك الدخان بعض البحارة قبل أن تصلهم النيران ، ومنهم من نضج لحمهم فى دروعهم التى احمرت من شدة اللهب ، ومنهم من شوتهم النار شياً فى سفنهم كما تشوى اللحوم فى الأفران . وألقى الكثيرون منهم أنفسهم فى البحر ، ومن هؤلاء من التهمتهم الحيتان ، ومنهم من قتلوا رمياً بالسهام ، ومنهم من قضوا نحبهم غرقاً . ولم يمت من هذا الجيش كله ميتة يستطيعون تحملها إلا من قتل بعضهم بعضاً[١٥] .

ورأى أنطونيوس أن الدائرة قد دارت عليه ، وأشار إلى كليوبطرة أن تنفذ خطة الانسحاب التى اتفقا عليها من قبل . فوجهت ما بقى من أسطولها نحو الجنوب ، وانتظرت قدوم أنطونيوس . ولما عجز من إنقاذ السفينة المعقود لواؤها له ، غادرها وركب قارباً أقله إلى كليوبطرة ، وجلس هو وحده فى مقدم السفينة

أثناء عودتهما إلى الإسكندرية ورأسه بين يديه ، فقد أدرك أنه خسر كل شيء حتى الشرف .

وسار أكتافيان من أكتيوم إلى أثينة ومنها إلى إيطاليا ليخمد فتنة ثارت بين جنوده الذين أخذوا يطالبون بأن يباح لهم نهب مصر ، ثم رجع إلى آسية ليعاقب بعض من انضموا من أهلها إلى أنطونيوس ، وليجمع أموالا جديدة يسعف بها المدن التي طال عليها عهد الشقاء والحرمان . ثم اتجه بعدئذ نحو الإسكندرية (٣٠) . وكان أنطونيوس قد ترك كليوبطرة وأقام في جزيرة قرب فاروس ، وأرسل منها رسلا يطلب الصلح ، ولكن أكتافيان لم يعبأ بهم ، وأرسلت كليوبطرة إلى أكتافيان على غير علم من أنطونيوس ، صولجانا وتاجاً وعرشاً من الذهب دليلا على خضوعها له . وكان جوابه لها — على حد قول ديو — أنه يتركها ويترك مصر دون أن يمسها بأذى إذا قتلت أنطونيوس[16]

وكتب الحاكم المهزوم إلى أكتافيان مرة أخرى يذكره بصداقتهما الماضية وبكل المرح الطائش الذي اشتركا فيه أيام الصبا ، وقال إنه يرضى بأن يقتل نفسه إذا عفا هو عن كليوبطرة ، ولم يرد عليه أكتافيان في هذه المرة أيضاً . وجمعت كليوبطرة كل ما استطاعت جمعه من أموال مصر في أحد أبراج القصر ثم أبلغت أكتافيان أنها ستتلف هذه الأموال كلها وتقتل نفسها إذا لم يعقد معها صلحاً شريفاً . وسار أنطونيوس على رأس القوة الصغيرة التي كانت باقية لديه ليحارب عدوه في المعركة الأخيرة ، واستطاع بشجاعة اليائس أن يكسب نصراً موقتاً ، ولكنه أبصر في اليوم الثاني جنود كليوبطره المرتزقة تستسلم للعدو ، وترامى إليه أن كليوبطرة قد ماتت ، فطعن نفسه طعنة قضت على حياته . ولما علم أن الخبر مكذوب طلب إلى أتباعه أن ينقلوه إلى البرج الذي آوت الملكة ووصيفاتها إلى حجرته العليا وأغلقت عليهن الأبواب ، فأدخل إليها من النافذة ومات بين ذراعيها وسمح لها أكتافيان أن تخرج من البرج وتدفن حبيبها ، ثم أجاز لها

المثول بين يديه ، ولم يتأثر بما كان باقياً من المفاتن فى امرأة محطمة مهزومة فى التاسعة والثلاثين من عمرها ، وعرض عليها شروطاً للصلح بدت معها الحياة عديمة القيمة لمن كانت من قبل ملكة ، ولم يخالجها شك فى أنه يعتزم أخذها أسيرة إلى رومة لتزين موكب نصره ، فما كان منها إلا أن لبست ثيابها الملكية ، ووضعت صلا على صدرها ، وماتت . وحذت حذوها وصيفتاها شارميون Charmion وإريس Iris فانتحرتا[١٧] .

وسمح أكتافيان أن تدفن إلى جوار أنطونيوس ، وقتل هو قيصريون وأكبر أبناء أنطونيوس من فلقيا أما ابنا أنطونيوس والملكة فقد أبقى على حياتهما وأرسلهما إلى إيطاليا حيث ربتهما أكتافيا وعنيت بهما كما لو كانا ابنيها . ووجد الظافر الخزانة المصرية سليمة وفيها من المال الموفور ما كان يحلم به . ونجت مصر من المذلة التى كادت تلحق بها لو أنها سميت ولاية رومانية . ذلك أن كل ما فعله أكتافيان أن جلس على عرش البطالمة وورث أملاكهم ، وترك فى مصر حاكما يدير شئون البلاد باسمه .

وهكذا غلب وريث قيصر وريثة الإسكندر ، وضم مُلك الإسكندر إلى مُلكه ، وانتصر الغرب على الشرق مرة أخرى ، كما انتصر من قبل فى مراثون وبجنيزيا ، وانتهى صراع الجبابرة ، وكان الفوز فيه لرجل عليل ؛

وقُضى على الثورة فى أكتيوم ، كما قضى على الجمهورية فى فرسالس وأتمت رومة الدورة المشئومة التى يعرفها أفلاطون ونعرفها نحن : ملكية ، فأرستقراطية ، فاستغلال أجركى ، فدمقراطية ، ففوضى ثورية ، فدكتاتورية ؛ وانتهى مرة أخرى ، فى جزر التاريخ ومده ، عهد من عهود الحرية ، وبدأ عهد من عهود النظام

(انتهى الجزء الأول)

المراجع مجملة

يوصى المؤلف بقراءة الكتب التى أمامها هذه العلامة (*) لمن أراد التوسع فى دراسة موضوع هذا الكتاب .

ABBOTT, F., The Common People of Ancient Rome, N.Y., 1911.

ACTON, LVRD, The History of Freedom, London, 1907.

ALCIPHRON, Letters, London, n.d.

ANDERSON, W., and Spiers, R., The Architecture of Greece and Rome, London, 1902.

APOCRVPHA AND PSEUDEPIGRAPHA OF THE OLD TESTAMENT. Oxford, 191. 32v.

APPIAN, Roman History, Loeb Classical Library. 4v.

APULEIUS, The Golden Ass, rr. W. Adlington, N.Y. 1907.

STOTLE, Physics, Loed Library 2v.

politics, Everyman Library.

ARNOLD, W., Roman System of Provincial Adminisration, Oxford, 1914.

ARRIAN, Anabasis of Alexander, London, 1893.

ATHENAUS, The Deipnosophists, London, 1854, 3v,

AUGUSTINE, St., The City of God, London, 1934.

Select Letters, Loeb Library.

AUCUSTUS, *Res gestae*, Loeb Library.

BAILEY, C., The Legacy of Rome, Oxford, n.d.

BALL, W.W., Short History of Mathematics, Londod, 188.

BALSDON, J., The Emperor Gaius, Oxford. 1934.

BARNES, H. E., History of Western Civilization, N.Y., 1935 2v.

BARON, S, Social and Religious History of the Jews, N.Y.. 1937. 3v.

BATTIFOL L., The Century of the Renaissance, N.Y., 1935.

BDARD, M., History of the Business Man, N.Y., 1938.

BEVAN, E., The House of Seleucus, London, 1602, 2v,

The Legacy of Israel, Oxford, 1927.

*BIBLE, Revised Version of the King James Translation.

BIEBER, M., History of the Greek and Roman Theater, princeton, 1939.

BIGG, C., Neo - Platonism, London, 1935.

BOISSIER, G., L,Afrique romaine, Paris 1935.

Cicero and His Friends, N.Y., n.d.

La fin du paganisme, Paris, 1894.

L'opposition sous les Césars, Paris, 1875.

La religion romaine, Paris, 1909. 2v.

Rome and Pompeii, London, 1896.

Tacitus and Other Roman Studies, London, 1906.

BOOKS OF ENOCH AND WISDOM, cf. Apocrypha.

BOUCHIER, E., Life and Letters in Roman Africa, Oxford, 1913.

BREASTED, J., Ancient Times, Boston 1916.

Oriental Forerunners of Byzantine Painting, Chicago, 1924.

BRECCIA, E., Alexandiea ad Aegytum. Bergamo, 1922.

BRITTAIN, A., Roman Women, Philadelphia, 1907.

BUCHAN, J., Augustus, N.Y., 1937.

BUCKLAND, W, Textbok of Roman Law, Cambridge U.P., 1921.

BURCKHARDT, J., Die Zeit Constantins des Grossen, Phaidon Verlag, Wien, n.d.

AURY, J., History of the Roman Empire, N.Y. n.d.

History of Freedom of Thought, N.Y., n.d.

CAESAR, J., De bello civili. Loeb Library.

De bello Gallico, Loeb Library.

CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY, N.Y., 1924f. 12v.

CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY, N.Y., 1924f. 8v.

CAPES, W., University Life in Ancient Athens. N.Y., 1922.

CARPENTER, EDW., Pagan and Christian Creeds. N.Y., 1920.

CARTER, T., The invention of Printing in China, N.Y., 1925.

*CASTIGLIONE A., History of Medicine, N.Y., 1941.

CATHOLIC ENCYCLOPEDIA, N.Y., 1913. 16v.

CATO, M., De agri cultura, Loeb Library.

CATULUS, Poems, tr. Horace Gregory, N.Y., 1931.

*CATULLUS, Tibullus, and Pervigilium Veneris, Loeb Library.

CHARLESWORTH, M., Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge U.P., 1926.

CICERO, Academica, Loeb Library.

De divinatione, Lobe Library.

De finibus, Loeb Library.

De legibus, Library.

De natura Deorum, Loeb Library.

De officiis, Everyman Library.

De re publica, Loeb Library.

De Senectute and De amicitia, Loeb Librory.

Disputationes Tusculanae, Loeb Library.

Letters, tr. Melmotb ; cf. Middleton.

Pro Milone and Other Speeches, Loeb Library

CLEMNT OF ALEXANDRIA, Writings and Opinions'ed. Kaye, London, n.d.

COLLINGWOOD, R., and MYRES, N., Roman Britian, Oxford. 1687.

COLUMELLA, De re rustica, Loeb Library.

CONYBEARE, W. J., and HOWSON, J. S. Life. Times, and Travels of St. Paul, N. Y., 1869. 2v.

COULANGES, F. DE. The Ancient City, Boston, 1901.

CUMONT. F., Oriental Religions in Roman Paganism, Chicaho 1911.

CUNNINGHAM. W. C., Western Civilization in its Economic Aspects, Cambridge U. P. 1900. 2v.

DAVIS, W. S, Influence of Wealth in imperial Rome, N. Y., 1913.

DAVIS, W.S. and WEST. W.M. Readings in Ancient History, Boston,1912.

DECLAREUIL, J., Rome the Law. Giver. N.Y. 1976.

DENNIS. G., Cities and Cemeteries of Etryman Everyman Library. 2v.

DILL, SIR S., Roman Society from Nero to Marcus Aurelius, London 1911.

DIO CASSIUS, History of Rome. Troy, N. Y., 1905. 8v

DIO CHRUSOSTOM, Orations. Loeb Library. 3v

DIODORUS SICULUS, Library of History, Leob Library 10v

DIONYSIUS OF HALICARNASSUS, Roman Antiquities, London, 1758. 4v.

DOUGHTY. C., Travels in Arabia Deserta, N.Y., 1923. 2v

DUCHESNE. MON. L., Early History of the Christian Church London 1933. 3v

DUFF, J., Literary History of Rome. London, 1909.

Literary History of Rome in the Silver Age, N. V., 1930.

DURUY. V., History of the Raman People, Boston, 1883. 8v.

EDERSHEIM, A., Life ond Times of Jesus the Mesiah, N.Y., n.d. 2v.

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, 14th ed. 24v.

EPICTETUS, Works, Loeb Library. 2v.

Encheiridion, Girard, Kan., n.d.

EUSEBIUS PAMPHILUS, Ecclesiastical History, N.Y., 1868.

Historical View of the Council of Nice, in preceding.

Life of Constantine, in Ancient Ecclesiastical Histories. London, 1650.

Praeparatio evangelica, Oxford, 1843.

FATTORUSSO, J., Wonders of Italy, Florence, 1930.

FERRERO, G., Ancient Rome and Módern America, N.Y., 1914.

Greatness and Decline of Rome, N.Y., 1909. 5v.

The Ruin of Ancient Civilization, N.A., 1921.

The Women of the Caesars, N.Y., n.d.

FINKELSTEIN, L., Akiba, N.Y., 1963.

FLAUBERT, G., Salammbo, Modern Library.

FLICK, A. C., Rise of the Medieval Church, N.Y., 1909.

FOAKES-JACKSON, F., and LAKE, K., Beginnings of Christianity. London 1920. 5v.

FOWLER, W.W., Religious Experience of the Roman People, London, 1933.

Roman Festivals of the Period of the Republic, N.Y., 1899.

Social Life at Rome, N.Y., 1927.

FRANK, T., Economic History of Rome, Baltimore, 1927.

Roman Imperialism, N.Y., 1914.

Economic Survey of Ancient Rome, Baltimore, 1933 5v

FRAZER, SIR J., Adonis, Attis, and Osiris, London, 1907.

The Magic Art, N.Y., 1935. 2v.

The Scapegoat, N.Y., 1935.

Sprits of the Corn and Wild, N.Y., 1935 2v.

FRIDLANDER, L., Roman Life and Manners under the Roman Empire, London, 1928. 4v.

FRONTINUS, Stratagems and Aqueducts, Loeb Library.

FRONTO, M., Correspondence, Loeb Library.

GAIUS, Elements of Roman Law, ed. Poste, Oxford, 1875.

GALEN, On the Natural Faculties, Loeb Library.

GARDINER, E., Athletics of the Ancient World, Oxford, 1930.

GELLIUS, AULUS, Attic Nights, Loeb Licary. 3v.

GARRISON, F., History of Medicine, Phila., 1929.

GATTESCHI, G , Restavri della Roma Imperiale, Rome, 1924.

GEST, A , Roman Engineering, N.Y., 1930.

GIBBON, E., Decline and Fall of the Roman Empire, Everyman Library 6v.
Ed. Bury, J.B., London 1900. 7v. Only when so specified.

GLOVER, T.R , The Conflict of Religions in the Early Roman Empire, London, 1932.

GOGUEL, M., Lifeof Jesus, N.Y , 1933.

GOODSPEED, E.J., The New Testament: An American Translation, Univ. of Chicago, 1937.

GRAETZ, H., History of the Jews, Phila., 1891. 6v.

GREEK ANTHOLOGY, Loeb Library.

GUHL, E., and KONER. W , Life of the Greeks and the Romans, N Y., 1876.

GUIGNEBERT, C., Christianity Past and Present, N Y , 1927.
Jesus, N.Y., 1935.

GUMMERE, Seneca the Philosopher, Boston, 1922.

HADZSITS G., Lucretius and His Influence, London, 1935.

HAGGARD. H., Devils, Drugs. and Doctors N.Y., 1929.

HALLIDAY, W R ,The Pagan Background of Early Christianity, London, 1925.

HAMMERTON, J, Universal History of the World, London, n d. 8v.

HARRISON, JANE, Prolegomena to the Study of Greek Religion, Cambridge U.P., 1922.

HASKELL. H., The New Deal in Old Rome, N.Y., 1939.

HASTINGS, J., Encyclopedia of Religion and Ethics, N.Y., 1928. 12v.

HATCH, E., Influence of Greek Ideas and Usagee upon the Christian Church, London, 1890.

HAVERFIELD. F., The Romanization ot Roman Britain, Oxford, 1923.
The Roman Occupation, of Britain, Oxford, 1924.

HEATH, SIR T., History of Greek Mathematics, Oxford, 1921. 2v.

HEINE H , Memoirs, London, 1910. 2v.

HEITLAND, W , Agricola, Cambridge U.P , 1921.

HELODORUS, Longus, etc , Greek Romances, London, 1901.

HENDERSON, B , Life and Principate of the Emperor Hadrian. N.Y, n.d.
Life and Principate of the Emperor Nero, Phila; 1903.

HERODIAN, History of Twenty Caesars, London, 1629.

*HERODOTUS, History, ed. Rawlinson, 1862. 4v.

HIMES, N , Medical History of Contraception, Baltimore, 1936.

HISTORIAE AUOUSTAE, Loeb Library, 2v.

HOLMES, T.R., The Architect of the Roman Empire, Oxford, 1928. 2v.

HOMO, L. Primitive Italy, London, 1927.

Romam Political Institutions, N.Y. 1930.

*HORACE, Odes and Epodes, Loeb Library.

Satires and Epistles, Loeb Library.

HOWARD, C., Sex Worship, Chicago, 1909.

INGE, DEAN W.R., The Philosophy of Plotinus, London, 1929. 2v.

IRENAEUS, Adversus haereses, Oxford, 1872.

JEROME, Select Letters, Loeb Library.

JONES, A., Cities of the Eastern Roman Provinces, Oxford, 1937.

JONES, H , Companion to Roman History, Oxford 1912.

JONES, W , Malaria and Roman History, Manchester U.P., 1909.

JOSEPHUS Works, tr. Whiston, Boston, 181 , 2v.

JULLIAN, C, Histoire de la Gaule, Paris, 1908. 6v.

JUSTINIAN, Digest ; cf Scott, S P.

JUVENAL AND PERSIUS, Satires, Loeb Library.

JUVENAL, PERSIUS, SULPICIA, AND LUCILIUS, Satires, tr. Gifford London, 1852.

KALTHOFF, A., Rise of Christianity, London, 1907.

KAUTSKY, K., Ursprung des Christentums, Vienna, 1908.

KLAUSNER, J , From Jesus to Paul, N.Y., 1943.

Jesus of, N Y., 1929.

KOHLER, C., History of Costume, N. Y., 1928.

LACTANTIUS, Works. in Ante-Nicene Christian Library, vols. XXI-II, London 1881.

LAKE, K., ed., The Apostolic Fathers, Loeb Library, 2v.

LANCIANI, R., Ancient Rome, Boston, 1899.

LANG, P., Music in Western Civilization, N Y., 1941.

LEA, H.C., Historical Sketch of Sacerdotal Celibacy, Boston, 1884.

LECKY, W., History of European Morals, N.Y., 1926 2v.

LESLIE SHANE, The Greek Anthology, N.Y., 1929.

LIVINGSTONE, R. W., The Legacy of Greece, Oxford, 1924.

LIVY, T., History of Rome, Everyman Library. 6v

LONGINUS ON THE SUBLIME, Loeb Library.

LOT, FERDINAND, End of the Ancient World, N. Y., 1931.

LUCAN, Pharsalia, Loeb Library.

*LUCIAN, Works, tr. Fowler, Oxford, 1905. 4v.

*LUCRETIUS, De rerum natura, Loeb Library.

MAC GREGOR, R., The Greek Anthology London, n.d.

MACKENNA, STEPHEN, The Essence of Plotinus, N.Y., 1934.

MACROBIUS, Works, French tr., Paris, 1827.

Opera, London, 1694

MAHAFFY, J., The Silver Age of the Greek World, Chicago, 1906.

MAINE, SIR H., Ancient Law, Everyman Library.

MAIURI, A., Les fresques de meit, Paris, n.d.

Pompeii, Rome, Rome, n.d.

MANTZIUS, K., History of Theatrical Art. N.Y., 1937. 6v.

*MARCUS AURELIUS, Meditations, tr. Long, Boston, 187[illegible]

MARTIAL, Epigrams, Loeb Library 2v.

MATTHEWS, B., Development of the Drama, N.Y., 1921.

MAU, A., Pompeii, N Y,. 1902.

MERIVALE, C., History of the Romans under the Empire, London, 1866, 8v.

MIDDLETON, C., Life of Marcus Tullius Cicero, London, 1877.

MINUCIUS, FELIX, Octavius, in Tertullian, Apologeticus, Loeb Library.

MOMIGLIANO, A. Claudius, Oxford, 1934.

*MOMMSEN, T. History of Rome London, 1901 5v.

The Provinces of the Roman Empire, N.Y., 1887. 2v.

MONROE, P., Source Book of the History of Education for the Greek and Roman Period, N Y. 1932.

MONTESQUIEU, CHARLES DE, Grandeur et Décadence des Romains. Paris, 1924.

MOORE, G.F., Judaism in the Fist Centuries of the Christian Era, Cambridge, Mass., 1932. 2v.

MULLER-LYER, F., Evolution of Modern Marriage, N.Y., 1930.

MURRAY, G., Five Stages of Greek Religion, Oxford, 1930.

NEPOS, CORNELIUS, Lives N.Y., 1895.

OVID, Ars amatoria, Loeb Library.

Fasti, Loeb Library.

Heroides and Amores, Loeb Library.

Love Books of, tr. May, N.Y., 1930.

Metamorphoses, Loeb Library. 2v.

Tristia and x Ponto, Loeb Library

OWEN. JOHN, Evenings with the Sceptics, London, 1881. 2v.

PATER, WALTER, Marius the Epicurean, n.d.

PAUL-LOUIS, Ancient Rome at Work, N.Y., 1927

PFUHL, E., Masterpieces of Greek Drawing and Painting, London, 1926.

PHIDO, Works, Loeb Library. 9v.

PHILOSTRATUS, Life of Apollonius of Tyana, Loeb Library. 2v

PHILOSTRATUS AND EUNAPIUS, Lives of the Sophists, Loeb Library,

PLAUTS, Comedies, London, 1889.

PLINY THE ELDER, Natural History, London, 1855. 6v

PLINY THE YOUNGER, Letters, Loeb Library,

PLOTINUS, Select Works, London, 1912.

PLUTARCH, De Iside et Osiride, French tr., Paris, 1924.

De tranquillitate animi, tr. Harvard U.P., 1931.

Lives, Everyman Library. 3v.

Moralia, Loeb Library.

Quaestiones Romanae, tr. Holland, London, 1892

POLYBIUS, Histories, Loeb Library. 6v.

POPE, A.U., Survey of Persian Art, London 1938. 6v.

PORPHYRY, Life of Plotinus, in MacKenna, S., The Essence of Plotinus, N.Y., 1934.

PROPERTIUS. Poems, Loeb Library.

QUINTILIAN, Institutes of Oratory, Loeb Library. 4v.

RAMSAY, W.M., The Church in the Roman Empire, N.Y., 1893.

RANDALL-MAC IVER, D., The Etruscans, Oxford, 1927.

RAWLINSON, G., The Sixth Great Oriental Monarch, N.Y., n.d.

REID, J., Municipalities of the Roman Empire, Cambridge U.P., 1913.

REINACH, S., Apollo, a History of Art, N.Y., 1917.

A Short History of Christianity, d.Y., 19 2.

RENAN, E., Antichrist, London, n.d.

The Apostles, London, n.d.
The Christian Church, London, n.d.
Lectures on the Influence of Rome on Christianity, London, 1884
Life of Jesus, N.Y., n.d.
Marc Auréle, Paris, n.d.
St. Paul, Paris, n d.
ROBERTSON, J.M., Short History of Freethought, London, 1914 2v.
RODENWALDT, O, Die Kunst der Antike: Hellas und Rom, Berlin, 1927.
ROSTOVTZEFF, M, History of the Ancient World, Oxford, 1928. 2v.
Mystic Italy, N.Y., 1927.
Social and Economic History of the Hellenistic World
N Y, 1924. 2v.
Social and Economic History of Roman Empire,
Oxford, 1926.
SACHAR. A, History of the Jews, N.Y., 1932.
SALLUST, Works, Loeb Library.
SANDYS, SIR J., Companion to Latin Studies, Cambridge U.P., 1925.
SARTON, G., Introduction to the History of Science, Baltimore, 1930 Vol I.
SCHÜRER, E., History of the Jewish People in the Times of Jesus, N.Y.,
1890. 9v.
SCHWEITZER, A., The Quest of the Historical Jesus, London, 1962.
SOCTT, E. F., First Age of Christianity, N.Y 1935.
SCOTT, S.P., The Civil Law of Rome, Cincinnati, 1932. 17v.
SENECA, Epistulae Morales, Loeb Library. 2v
Moral Essays, Loeb Library. 3v.
Quaestiones naturales, tr. in Clarke, Physical Science in the Time
of Nero, London, 1910.
Tragedies, Loeb Library. 2v.
SETTUS EMPIRICUS, Works. Loeb Library 3v
Opera, Leipzig, 1840. 2v.
SHOTWELL, J., Introduction to the History of N.Y., 1936.
SHOTWELL, J, and LOOMIL, L., The See of Peter, Columbia U P., 1927
SIDONIUS APOLLINARIS, Poems, Loeb Library.
SIMPSON, F., History of Architectural Development, London, 1921. Vol I.
SMITH, R.B., Carttage and the Carthaginians, N.Y., 1908.

SMITH, WM., Dictionary of Greek and Roman Antiquities, Boston 1859
ELLAR., W., Horace and the Elegiac Poets, Oxford, 1937.
Roman Poets of the Augustan Age : Virgil, Oxford, 1877.
Roman Poets of the Republic, Oxford, 1881.
SOCRATES, Ecclesiastical History. London, 1892.
STATIUS, Poems, Loeb Library. 2v.
STRABO, Geography, Loeb Library. 8v.
STRONG, E, Art in Ancient Rome, N. Y., 1928. 2v.
SUETONIUS, Works. Loeb Library 2v.
SUMNER, W G. Folkways, Boston, 1906.
War and Other Essays Yale, U P., 1911,
SYME, R., The Roman Revolution, Oxford. 1939.
SYMONDS, J. A., Studies of the Greek Poets, London, 1920.
TACITUS, Annals, Loeb Library.
Histories, Loeb Library.
Works tr. Murphy, London 1830.
TAINE, H., Essai sur Tite Live, Paris, 1874.
Modern Regime, N.Y., 1890 2v.
TALMUD, Babylonian tr., London, 1935f. 24v.
TARN, W.W., Hellenistic Civilization, London, 1927.
TAYLOR, H., Cicero, Chicago, 1916.
TERENCE, Comedies, London, 1898.
TERTULLIAN, Apologeticus, etc, Loeb Library.
THIERRY, A., Histoire de la Gaule sous l'adminstration romaine Paris, 1840 3v.
TAOMPSON, SIR E., Introduction to Greek and Latin Paleography, Oxford, 1912
THORNDIKE, L., History of Magic and Experimentel Science N.Y., 1929 2v.
THUCYDIDES, History of the peloponnesian War, Everyman Library.
TIBULLUS, Poems, cr Catullus.
TOUTAIN, J., Economic Life of the Ancient World, N.Y., 1930.
TONNBEE, A J, A Study of History, Oxford, 1935. 3v.
TRENCH, R., Plutarch, London, 1874.
UEBERWEG, F., History of Philosophy, N.Y., 1871. 2v
USHER, A, History of Mechanical Inventions, N.Y., 1929.
VALERIUS MAXIMUS, Factorum et dictorum, Berlin, 1854.
VARRO, M, Rerum rusticarum, Loeb Library, 2v.

VIRGIL, Poems, Loeb Library. 2v.
VITRUVIUS, De architectura, Loeb Library
VOGELSTEIN, H. Rome, Phila. 1940.
VOLTAIRE, Philosophical Dictionary, N.Y , 1901.
WARD, C.O., The Ancient Lowly, Chicago, 1907. 2v.
WATSON P.B. Marcus Aurelins Autoninus, N.U, 1884.
WEIGALL, A., The Paganism in Our Chrsstianity, N. Y , 1928,
WEISE, O , Language and Character of the Roman Peoble, London 1909
WESTERMARCK, E., Origin and Development of the Moral Ideas, London 1917. 2v.
WHITE, E.L, Why Rome Fell, N.Y. 1927
WICKHOFF, F., Roman Art, London, 1900.
WILLIAMS, H , History of Science, N.Y., 1909 5v.
WINCKELMANN, J., History of Ancient Art, Boston, 1880. 2v
WRIGHT, F History of Later Greek Literature, N. Y , 1932.
ZEITLIN, S., The Jews, Phila , 1939.
The Pharisees and the Gospels, N. Y., 1938.

المراجع مفصلة

الأرقام الرومانية الكبيرة تدل على رقم المجلد تتلوها أرقام الصفحات ، أما الأرقام الرومانية الصغرى فتدل على رقم الكتاب أو المقال فى الكتاب القديم يتلوها رقم الباب أو الآية وأحيانا رقم الفقرة .

CHAPTER

1. Pliny, *Natural History*, xxxvii,77
2. Virgil, *Georgics*, ii, 149.
3. Ibid., ii, 198.
4. Strabo, *Geograpby* v, 4, 8.
5. Polybius, *History*, i, 2. 15.
6. In Taine, Modern Regime 17.
7. Aristotle, *Physics* 1329b.
8. Thucydides, *Peloponnesian War*, vi, 18, 2.
9. Homo, *Primitive Italy*,32 Toutain, *Economic Life of the Ancient World*, 207.
10. Dennis, *Cities aud Cemeteries of Etruria, I, 36*.
11. Herodotus, *Histories*, v, 94 ; Strabo, v. I. 2 ; Tacitus. *Annals* iv, Appain,. *Roman History viti*, 9. 66 ; etc. Dionysius of Halicarnassus, i, 30, regarded the Etruscans asindigeneus to Italy ; so did Mommsen, *History of Rome* I, 155. Dennis, I, 17, Frank *Economic History of Rome*, 16, Randall - Maclver, *Etruscans*, 23, and Rostovtzeff, *History of the Ancisnt World*, II, 180, accept the tradition.
12. Dennis, I, 39.
13. Paul - Louis, *Ancient Rome at Work*, 66 ; Toutain 211.
14. Dennis I, 329.
15. Athenaeus, *Dcipnosophists* xii,3.
16. Garrison, *History of Medicine* 119
17. Castiglione, *History of Medicine*. 192.
18. Aristotle in Athenaeus, i, 19 ; Cennis, I, 321.
19. Ibid., 21.
20. *Cambridge Ancient History* ; IV, 415.
21. Frazer; Sir J. *Magic Art*, II, 287,
22. Schollast on Juvenal, vi, 565.
82. Frazer, l.c.
24. CAH, IV, 420-1 ; Mommesn, I, 282.3 ; Dennis, II, 168.
25. *Enc. Brit.*, VIII, 787.
26. Anderson and Spiers, *Architecture of Greece and Rome*, 121; Strong, E., *hrt in Anceent Rome*, 21 ; CAH, VII, 386.
27. Pliny, xxxv, 6.
28. Rodenwaldt, G., *Die Kunst der Antike* : *Pellas* 509.
29. Ovid, *Fast*. iii. 15.
30. Livy, *History of Reme*, i, 9-13.
31. Frazer. II , 891.
32. Livy, i, 19.
33. Tacitus, *An* , iii, 26.
34. Cicero, *De re publica*, ii, 14.
53. Livy, I, 22.
36. Ibid., 27.
37. Dio Cassius, *History of Rome* fragment vii.
38. Strabo, v, 2.

39. Livy, i, 35.
40. Pais, E., *Ancient Legends of Roman History*, 38.
41. Cicero, *Republica*, ii, 21.
42. Livy, i, 46.
43. Pais, 137-8.
44. Dio, iii, 7, and frag x, 2.
45. Livy, i. 56-7.
46. Syme, R., *The Roman Revolution*, 85n.
47. Cicero, *Repnblica* i,39; Coulanges, F., *The Ancient City* 384.
48. Tacitus *Histories*, iii, 72.
49. Mommsen. I, 414.
50. Dennis, I, 26.
51. Duff, J. W., *Literary History of Rome*, 6 ; CAH, IV, 407.
52. Livy, i, 8; Strabo, v, 2. 2 ; Dennis II, 166.
53. CAH, VII, 384.
54. Livy, i, 8.
55. CAH, VIII 387 ; Hammerton. J., *Universal History of the World*, II, 1158.
56. Strabo, v, 2. 2.

CHAPTER II

1. Livy, i, 8.
2. Aulus Gelius, *Attic Nights* vi, 13.
3. Livy, ii, 56 ; CAH, VII, 456.
4. Aulus Gellius, xx, 1. 45-51 ; Dio, frag. xvi, 4.
5. Livy, ii, 2330 : Dio, iv. 7 and frag. xvi, 6 ; Dionysius, vi, 45 ; Plutarch, "Coriolanus."
6. Livy, iv, 13 ; Dio, vi, 7.
7. Livy iii, 52.
8. Dio, v, 7.
9. Ibid.
10. Livy, i, 43.
11. Frank, *Economic History*, 20 Smith, W., *Dictionary of Greek and Roman Antiquities*, s. v. *exercitus*.
12. Mommsen, III, 60,
13. Plutarch, "Pyrrhus."
14. Coulanges, 244.
15. Dio. iv, 7.
16. Twelve Tables, iv, 1-3 in Nonroe, P., *Source Book*, 337.
17. Twelve Tables, iii, 1.6.
18. Ibid., viii, 3.
19. Ibid., 21-26.
20. Cicero, *Pro Roscio Amerino*, 25-6.
21. Polybius, iii, 6.
22. Livy, vii, 24.
23. Vitruvius, *De Arehitectura* ii, 19.
24. Polybius, vi, 37
25. Frontinus. *Stratagems and Aqueducts*, iv, I.
26. Frank, *Economic History*, 338 ; Id., *Economic Survey of Ancient Rome*, V, 160 ; Fowler, W. W. *Social Life at Rome*, 32 ; Edwards, H. J, Appendix A to Caesar, *Gallic War*.
27. Dio vi, 96.
28. Livy, ii, 34 ; Dionysius, vii, 60; Dio, v, 7 and frag. xvii, 2 ; Appian, *Roman History*, ii, 5 ; Plutarch, "Coriolanus."
29. Polybius, ii, 15-20.
30. Livy, v, 42.
31. Dio vii, 7.
32. Coulanges, 494.
33. Plutarch, "Saytings of Great Commanders" in *Moralia* 184C.

CHAPTER III

1. Mommsen, II, 138.
2. Smith, R,B., *Carthage*, 29.
3. Appian, vii 95.
4. Polybius, vi, 56.

5. Plutarch, *De republica ger.*, iii, 6.
6. Frazer, *Adonis, Attis, Osiris,* I, 114.
7. Diodorus Siculus, *Library of History*, xx, 14.
8. St. Augustine. *Letters*, xvii. 2.
9. Appian, viii, 127.
10. Aristotle. *Politics*, 1272b.
11. Ibid., 1273a.
12. Polybius, iii, 22.
13. Strabo, xvii, 1. 19.
14. Polybius, i, 20-1.
15. Cicero, *De Officiis*, iii, 26 ; *In Pisonem*. 43.
16. Gellius, vii, 4.
17. Polybius, i, 80.
18. Smith. R.B., *Carthage*. 151.
19. Polybius, .i, 37. Flaubert has told the story with perfect art in *Salanmbo*.
20. Mommsen, ii, 223.
21. Dio, frag iii, 2.
22. Livy, xxi, 4.
23. Mommsen, II, 243.
24. Livy, xxii, 57.
25. Plutarch, *Moralia*, 195.D.
26. Livy, xxii, 57.
27. Polybius, ii, 75 118.
28. Livy, xxii, 50.
29. Livy, xxiii, 12.
30. Diodorus, xxvii, 9; Appian, vii, 59
31. Ibid., viii, 134.
32. Livy, xxxix, 51.

CHAPTER IV

1. Twelve Tables, iv, 1,
2. St. Augustine, *City of God*, vi, 9.
3. Horace, *Satires*, i, 8, 35 ; Müller-Lyer, F., *Evolution of Modern Marriage*, 55 ; Castiglione, 195; Howard, C., *Sex Worship*, 65, 79; *Enc.. Brit.*, 11th ed., XVII, 467 ; XXI, 345.
4. Pliny, xxviii, 19.
5. Livy, xxiii, 31.
6. Virgil, *Georgics*. ii, 419; Horace, *Odes*, i, 1.25.
7. Frazer, *Magic Art*, II, 190 ; the derivation is questioned by Fowler W. W, *Roman Fesitvals of the Republic*, 99.
8. Virgil, *Aeneid*, vii, 761 ; Ovid, *Fasti* vi, 753 ; *Metamorphoses*, xv, 497 ; Strabo, v,3. 12 ; Pliny, xxx, 12—13 ; Frazer, *Magic Art*, I, 11.
9. Boissier G. *La réligion romaniue*, I, 27.
10. Livy, v, 21-2 ; vi, 29 ; Coulanges 199.
11. Ovid metam, xv, 626.
12. Livy viii, 15 : Lanciani, R., *Ancient Rome*, 143.
13. Fowler, W. W , *Religious Experience of the Roman People*, 837,
14. Mommsen, III, 11.
15. Cicero, *Pro, Archia* 4; Fowler, op. cit., 30. The derivation is not certain : Cicero gives another in *De natura deorum*, ii, 28.
16. Reinach. S. *Apollo*, 109.
17. Livy, vii, 5.
18 Pliny. xxviii, 10.
19. Harrion, J., *Prolegomana to the study of Greek Religion*, 35.
20. Plautus, *Curculio*, 3?-8.
21. Ovid, *Fasti*, iii, 523.
23. Howard, 66.
24. Athenaeus, xiv, 44.
25. Westermarck, E., *Origin and Development of the Moral Ideas* I. 430 ; Cicero *Pro Caelio*. 20.
26. Brittain, A, *Roman Women*, 135-6
27. Coulanges, 63
28. Plutarch, "Numa and Lycurgus."

29. Gellius, x, 23.
30. Abbott, F., *Common People of Ancient Rome*. 87.
31. Catullus, *Poems*, xxv.
32. Pliny xxxiii, 16.
33. Fowler, W. W. *Social Life of Rome*, 60—1, 270.
34. Polybius, xxxi 26.
35. Ibid., vi, 56.
36. Cf. Appian, vi, *passim*.
37. Polybius, vi. 58.
38. Plutarch, *Quaestiones Romanae* 59.
39. Livy, iii, 38.
40. Heine, H., *Memoirs*, 1, 12.
41. Thompson, Sir E., *Greek and, Latin Palcoyraphy*. 5.
42. Schlegel, A. W., *Lectures on Dramatic Art and Literature*, 202.
43. Livy, viii 2 ; Bieber, N., *History of the Greek and Roman Theater* 307.
44. In Duff., J. *Literary History of Rome* 130.
45. Castiglion, 196.
46. Lanciani, R., *Ancient Rome;* 53.
47. Glover, T.R., *Conflict of Religions in the early Roman Empire*, 13 : Friedländer, L., *Roman Life, and Manners under the early Empire* III, 141.
48. Twelve Tables, x, 9.
49 Pliny xxx. 6.
50. Frank, *Economic Survey*, 1, 12: CAH. VII., 417 ; for the contrary cf. Mommsen, *History*, I, 192, 238
51. Pliny. xviii, 3.
52. Virgil, *Georgics*. i 299.
53. Guhl. E, and Koner, W., *Life of the Greeks and Romaos*, 503.
54. Cato, *de agricultura*. viii ; Varro *Rerum rusticarum libri tres*, pref
55. Cicero, *Letters*, vii, 1.
56. Pliny, xxxiii, 13.
57. CAH, VIII. 345.
58. Mommsen, *History*, III, 75.
59. CAH, X, 395 ; Frank, *Economic History of Rome*, 340, Forother Comporative prices cf. ibid., 66.
60. Twelve Tables viii, 18 ; Tacitus, *Annals*, vi, 16.
61. Livy, viii, 19-21, 42.
62. Paul-Louis, 118.
63. Frank, a *Economic History*, 119 ; for contrary view cf. Ward. C. O., *The Ancient Lowly*, 208-9.
64. Livy, viii, 12 ; Dionysius of Halicarnassus, ix, 43.
65. Mommsen, *History*, I, 248—9 ; Paul-Louis, 47.
66. 77 % between 200 and 160 B.C. Frank, *Economic Survey*, I, 146.
67. Ibid, 41 ; CAH, VIII, 344 : Paul-Louis, 102 ; Mommsen *History*, II, 55.
68. Pliny, xxxvi, 24.
69. *Enc. History*, XIX, 466.
70. Rickard. T, *Man and Metals*, I, 280.
71. Twelve Tables. x, 4.
72. E. g. in Plautus, *Captives* 998.
73. Lucian, *Dialogues of the dead*, xxv.

CHAPTER V

1. Livy. iv, 302.
2. Plutarch, "Flamininus
3. Livy, xliv, 22.
4. Appian vi, 9-10 : Mommsen, *History*, III, 220
5. Livy, xxxix, 7 ; Mommsen, 20 [illegible]
6. Polybius, vi, 17.
7. Davis, W, S., *Influence of Wealth*

in Imperial Rome, 74,77 ; Mommsen, III, 88.

8. Polybius, xxxi, 25: Mommsen, III, 127 ; Sellar, W. Y., *Roman Poets of the Republic*, 234.

9. Mommsen, III, 40.

10 Polyblus, xxxi, 25.

11. Guhl, 490.

12. Plutarch, "Cato the Elder."

13. Livy, xxxiv, 1.

14. Brittain, 95.

15. Polybius, xxx, 14.

16. Mommsen III, 21, 127.

17. Ibid., 44, 294, 301-2.

18. CAH. VIII, 359.

19. Plutarch, "Marcellus."

20. Anderson, 137

21. Cicero, *De divinatione*, ii, 24.52.

22. Polybius, vi, 56,

23. Livy, xxxix, 8.

24. Cicero, *De re publica*, ii 19.

24a. Horace, *Epistles* ii, 1.156.

25. Cicero, *De senectute*, viii, 26.

26. Cf, Bk. II of the *Republic*.

27. Appian, vi, 9.53.

28. Ennius, *Telamo*, frag. in Duff, 141

29. Cicero, *De div*, ii. 50.

30. Ennius, frag, in Gellius, xii, 4.

31. Ennius in Cicero, *Disp. Tusc.*, ii, 1.1.

32. Collins, W. L., *Plautus and Terence*, 33-4 ; Matthews. B., *Development of the Drama*, 98

33. Cicero, *De re publica*, iv. 10.

34. Collins 45.

35. Plautus, *Amphitryon*, iii, 2, 4.

36, Batiffol, L., *Century of the Renaissance*, 164.

37. Suetonius, *On Poets*, "Terence" ii

38. Terence *Heauton Timoroumenos*, prologue

39. Terence, *Adelphi*, prologue.

40. Suetonius, l.c.

41. Plutarch, *Moralia*, 198 E, 199 C.

42. Pliny, vii, 28.

43. Livy, xxxix, 42; Plutarch, "Cato the Elder."

44. Fowler. *Social Life*, 191.

45. Pliny, viii, 11.

46. Plutarch. l. c.

47. Ibid., Pliny, xxix, 7.

48. Appian, viii, 14.

49. Strabo, xvii, 3.15.

CHAPTER VI

1. Mommsen, *History*, III, 306.
2. Livy xli, 28; xlv, 34.
3. Ibid., xxxiv, 29.
4. Heitland, W., *Agricola*, 161 ; Ward, I, 121.
5. Dio Cassius, xxxiv, frag. ii, 23 ; Livy. Epitome of Book xc.
6. Plutarch. "Tiberius Gracchus.",
7. Ibid.
8. Appian, *Civil Wars* i,
9. Pliny, xxxiii, 14.
10. Appian, *Civil Wars*, i, 3.
11. Julius Philippus in Cicero, *De off.* ii, 21.
12. Appian, *Civil Wars* i, 4.
13. Plutarch, "Marius."
14. Sallust, *Jugurthine War.* xiii, xx-xxviii.
15. Plutarch, l. c.
16. Ibid.
17. Plutarch, "Sylla"
18. Sallust, xcv.
19. Ibid, xcvi,
20. Mommsen, IV, 142.
21. Appian. *Civil Wars*, i, 8.
22. Plutarch, l.c.
23. Ibid.
24. Ibid.

CHAPTER VII

1. Plutarch, "Caesar".
2. Davis, 13-14.
3. Cicero, *Ad Atticum*, iv, 15.
4. Plutarch, "Pompey."
5. Cicero, *Ad Quintum*, iii, 5.
6. Cicero, *Letters*, iii, 29.
7. Cicero, *Ad Quintam*, iii 2.
8. Mommsen, V, 349.
9. Plutarch, "Cicero."
10. Cicero, *I In Verrem*, 18.
11. Frank, *Economic History*, 295.
12. Mommsen, IV. 173.
13. Frank, 289.
14. Cicero, *De off.*, I, 8.
15. Plutarch, l. c.
of History, 238.
16. Nepos. "Atticus."
17. Plutarch, "Lucullls."
18. Frank *Economic Survey*. I, 254.
19. Macrobius, *Saturnalia*, iii, 13.
20. Varrō, iii, 16 ; Cicero, *Letters*, ix, 18 ; Mommsen, V, 387.
22. Cicero, *Letters*, vii. 26.
23. Pliny, xxxvi, 24.
24. L. c.
25. *Historiae. Augustae*, "Alex. Severus," 33 ; Livy, xxxix, 8f; Mommsen, V, 384; Ward, I, 406
26. In Boissier, G., *Cicero and His Friends*, 164.
27. Cicero, *Pro Caelio*.
28. Plutarch, "Cato the Younger."
29. Cicero, *Ad Atticum*,ii,I; Plutarch l. c., and "Phocien."
30. Appian, *Roman History*, vi, 16.
31. Plutarch, "Crassus."
32. Ibid.
33. Plutarch, "Sertorins."
34. Plutarch, "Pompey."
35. Cicero, *De lege Manilia*, vii 181-9
36. Cicero, *Pro Caelio*, 16.
37. Cicero, *Pro Sexto Roscio*.
38. Sallust, *The Wvr of Catiline*, xv.
39. Ibid., Plutarch, "Cicero."
40. Haskell, H., *The New Deal in Old Rome*, 125.
41. Sallust, *C atline* xx, 7-13.
42. Cicero *III In Catilinan*, vii.
43. Haskell, 167.
44. Sallust, xxxiii, I.
45. Cicero, op. cit., viii.
46. Ibid., i ,
47. Cicero, *In Pisonem*, vii-vii.

CHAPTER VIII

1. Lucretius, *De rerum natura*, iii, 1053f ; tr. W. D. Rouse.
2. Ibid., iv, 1045-71.
3. Mommsen, IV, 207.
4. Fowler, *Religious Experience of The Romvn People* 301.
5. Lucretius, I, 1-40.
6. Ibid., i, 101.
7. V. 1202.
8. I, 73.
9. II, 646.
10. II, 1090.
11. VI. 35.
12. I. 330.
13. II, 312.
14. Iv, 834.
15. V, 419.
16. V, 837.
17. II. 8.
18. V, 1116.
19. II, 29.
20. IV, 1052.
21. V, 625f.
22. II. 79.
23. II, 1148.
24. II, 676.
25. Shotwell, *Introduction*, 221.

25.a Appian, ii, 2.
26. Lucretius, v, 564.
27. VI, 1093.
28. In Eusebius, *Chronicles* in Hadzsits, G., *Lucretius and His Influence*, 5.
29. Sellar, *Poets of the Republic* 277.
30. Voltaire, *Letters de Memmius à Ciceron*, in Hadzsits, 327.
31. Apuleius, *Apology*, in Sellar, 411.
32. Catullus, *Poems*, ii.
33. Id., ii.
34. V.
35. XI.
36. LXXXV.
37. LXX.
38. CI.
39. XXXI.
40. XXX VIII.
41. XCVIII.
42. Varro, pref.
43. Ibid., ii, 10.
44. St. Augustine, *City of God*, iv 27.
45. Ibid., vii, 5.
46. Sallust, *Jug. War*, lxxxv.
46a. Gellius, xvii, 18.1.
46b. Pliny, xiv, 17.
47. In Weise, O., *Language and Character of the Roman People*, 86.
48. Nepos, "Atticus," vii.
49. Cf. the letter to Trebatius, in Cicero, vii, 10.
50. Cf. the letter to Lentulus in Cicero, i, 7 with the speech *Pro Balbo*, 27.
51. *Ad Atticum*, vii, I.
52. *Letters*, xv, 4, to Cato.
53. Boissier, *Cicero*, 84; Frank, *Economic Survey*, I, 395.
54. *Ad Atticum*, i, 18.
55. Ibid., i, 7.
56. *Pro Archia*, vii.
57. *De div.*, i, 2.1; 2.4.5.
58. *De off.*, ii, 17.
59. *De natura deorum*, i, 2, 8.
60. *De div.*, ii, 12.28.
61. *Academica*, ii, 41.
62. *De natura deorum*, i, 5.
63. *De div.*, ii, 47.97.
63a. *De natura deorum*, iii, 16.
64. Ibid., ii, 37.
65. Ibid., i, I; *De legibus* ii, 7; *De off.*, ii, 72. 148.
66. *De leibus*, i, 7.
67. *De re publica*, i, 2.
68. Ibid , i, 44.
69. Iii, 22.
70. *De legibus*, 15.
71. *De amicitia*, xii, 40.
27. *De senectute*, xi, 38.
73. *Disp. Tusc.*, i.
74. *De legibus*, i, 2.

CHAPTER IX

1. Suetonius, Supplement, i, 3.
2. Suetonius, "Julius," 49.
3. Ibid., 4; Plutarch, "Caesar."
4. Suetonius, "Julius," 52.
5. Plutarch, "Cato the Younger."
6. Quintilian, *Institutes*, v, 1.114.
7. Sallust, *Cataline*, ii.
8. Appian, *Civil Wars*, ii, 2.
9. Ferrero, G., *Greatness and Decline of Rome*, I, 261.
10. Boissier, *Tacitus*, 216f.
12. Mommsen, V, 132.
13. Caesar, *Galli War*, i, 44.
14. Mommsen, V, 34.
15. Ibid., 38.
16. Cicero, l.c., 81.
17. Mommsen, V, 100.
18. Plutarch, "Pompey", "Crassus," "Cato the Younger."
19. Homo. L., *Roman Political Institutious* 184; Mommsen, V, 165.
20. Ibid., 385.

21. Appian, *Civil Wars*, ii, 3.

22. Cicero, *Pro Sextio* 85; Mommsen V, 108f, 370; Ferrero, I, 313; Boissier, *Cicero*, 213; Fowler, *Social Life*, 58.

23. Dio Cassius xl, 57.

24. Plato, *Republic*, 562i.

25. Suetonius. "Julius," 77,

26. Appian, *Civil Wars*, ii, 5; Ferrero, II, 187.

27. Suetonius, "Julius," 32; Appian l.c.

28. Syme, 89.

29. Cicero *ad Attiam*, viii, 16.

30. Ferrero, II, 212.

31. Cicero' *Letters*, xvi, 12, to Tiro 49 B.C.

32. Cf., e.g., *De bellocivile*, I, 43-52.

33. Ibid, i, 53; Appian, iii, 15.

34. Caesar, *Bello civil*, iii, I.

35. Plutarch, "Caeser"; Appian, ii, 8.

36. Caeasar, iii, 10.

37. Ibid., iii, 53.

38. Cicero, *Letters*, vii, 3 to Marcus Marius, 46 B.C.; *ad Atticum*, xi 6.

39. Appian, ii, 10.

40. Plutarch, "Pompey"

41. Plutarch, "Marcus Brutus,"

24. Caesar, iii, 88.

43. Plutarch, "Pompey."

44. Appian, ii, 13.

45. Mahaffy, J., *Silver Age of the Greek World*, 199.

46. CAH, X, 37; Buchan, *Augustus*, 117.

47. Suetonius, "Julius," 52.

48. Ibid,

49. Plutarch, "Caesar."

50. Dio Cassius, xlii, 46.

51. Appian, ii, 13.

52. Suetonius, "Julius," 80.

53. Pliny, xxvii, 2.

55. Frank, *Economic History*, 351.

56. Plutarch, "Caesar."

57. Cicero *Pro Marcello*, 6-10.

58. Cf. *ad Familiares*, viii, 14, 22-5; ix, 11.

59. In Cicero, *ad Atticum*, xiv, 1.

60. Dio Cassius, ii, 44.

61. Plutarch, "Brutus."

62. Appian, ii, 16.

63. Plutarch, l.c.

64. From a doubtful letter of Brutus in Boissier, *Cicero and His Friends*, 334.

65. Cicero. *ad Atticum*, v, 21; 1-9

66. Appian ii, 16.

67. Suetonius, "Julius," 79.

68. Ibid 81-87; Plutarch, "Caesar"; Appian, ii, 16-21.

69. Suetonius, 82.

70. Appian, l.c.

CHAPTER X

1. Ferrero, II, 226.

2. Boissier, *Cicero*, 192.

3. Appian, *Civil Wars*, ii, 2; Dio, xiv, 2.

4. Appian, iv, 11.

5. Ibid., 2-6: Plutarch, "Antony."

6. Brutus to Cicero, *ad Familiares*,

7. Plutarch, "Cicero."

8. Appian, iv, 4; Plutarch, "Antony."

9. Philo, *Quod omnis probus*, 118-20; Appian, iv, 8-10.

10. Plutarch, "Antony;" Appian, v, 1.

11. Ibid; Athenaeus, iv, 29.

13. CAH, X, 79.

14. Suetonius, 17. Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, 29, thinks the will a forgery; CAH, X, 97, accepts it as genuine.

15. Dio, li 35.

16. Ibid., 6.

17 Ibid.

18. Ibid, Suetonius, 17.

فهرس الأعلام والأماكن

(ا)

(ز)

(س)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

الفهرس

الموضوع الصفحة

الباب السادس : الثورة الزراعية ٢٣٢

الباب السابع : الحركة الرجعية الأرستقراطية ٢٦٣

الباب الثامن : الأدب في عهد الثورة ٣٠٥

الباب التاسع : قيصر ٣٤١

فهرس الأشكال والصور

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على جزيل عطائه والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والرسل . وبعد فهذا هو الجزء الأول من المجلد الثالث ؛ من مجلدات قصة الحضارة ، وقد سماه المؤلف **قيصر والمسيح** لأن هذا المجلد يبحث فى حضارة رومة وبداية الحضارة المسيحية حتى عام ٣٢٥ بعد الميلاد . وسيكون هذا الجزء الذى بين يدى القارئ واحداً من أربعة أجزاء يكمل بها المجلد الثالث من هذه الموسوعة ، ويشمل أولها قصة الحضارة الرومانية من أقدم العهود إلى مقتل يوليوس قيصر والحرب الأهلية التى أعقبت موته ، ويقص الثانى قصة الحضارة الرومانية من ٣٠ ق ٠ م إلى منتصف القرن الثانى بعده ، ويشمل الثالث عهد الإمبراطورية إلى نهاية القرن الثانى ، وينتهى هذا المجلد بالجزء الرابع ، ويروى قصة الصراع بين المسيحية والوثنية من بدايتها إلى انتصار المسيحية فى عهد قسطنطين ، وقد كانت خطة المؤلف الأولى تهدف إلى أن تتم السلسلة فى خمسة مجلدات كبرى لكنه حين أصدر هذا المجلد الثالث جعلها ستة ثم عاد فى أواخر العام الماضى حين أصدر المجلد الخامس فى عصر النهضة فزادها إلى سبعة لأنه خص النهضة بمجلد والإصلاح الدينى بمجلد آخر . والحق أن عصر النهضة خليق بأن يفرد له مجلد خاص لأنه بداية العصر الحديث ، وفيه استيقظ العقل البشرى من سباته الطويل ونبتت بذور الحضارة التى ازدهرت فى هذه الأيام .

ولسنا فى حاجة إلى التنويه بقيمة هذا المجلد فهو كالمجلدين السابقين تراث الشرق القديم وتراث اليونان فى غزارة المادة ودقة البحث ، وحسب القارئ أن يطلع على ثبت المراجع مجملة ومفصلة ليعرف الجهد الذى بذله المؤلف فى جمع مادته وتحقيقها .

ولا يسعنا هنا إلا أن ننوه مرة أخرى بفضل الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية التى اختارت الكتاب وعهدت إلينا ترجمته ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر التى تولت طبعه ونشره ، والقراء فى مصر وسائر البلاد العربية الذين أقبلوا على اقتنائه إقبالا كان له أكبر الأثر فى تشجيعنا على مواصلة العمل فى ترجمة هذه الموسوعة التى نسأل الله أن يوفقنا لإتمامها ؟

مارس سنة ١٩٥٥ — محمد بدران